الدكتور أحمد منور

أزمة الهويّة في الرّواية الجزائرية باللّغة الفرنسية

دراسة أدبية











الدكتور أحمد منور

أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة بالفرنسية

***

* صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة بمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال

*العنوان: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية

- المؤلف: د. أحمد منور
- الاخراج التقني والفني: دار الساحل
- تنفيذ تصميم الغلاف: خالد زوام
- الايداع القانوني 2020 - 2013
- ردمك: I. S. P. N. 978-9947-973-25-7
- حقوق النشر: محفوظة للناشر
- دار الساحل للكتاب: تعاونية 17 أكتوبر 61 عيسى مصطفى الرغاية الجزائر.
- الهاتف والفاكس: **021.85.93.66**
- **Email / editionsahel@hotmail**



المقدمة

كانت بداية اهتمامي بالأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، منذ أن وعيت، ومنذ أن أصبح في إمكاني قراءة هذا الأدب، سواء في بعض آثاره التي ترجمت إلى اللغة العربية على يد الإخوة المشارقة أو في أصله باللغة الفرنسية، وقد قرأته دائما من موضع الإعجاب به، متأثرا بتقريظ المترجمين له وإشادة الدارسين العرب به، أو بما كنت أجده من متعة في قراءته، ثم بما كنت أجد من ألفة فيما كان يصوره من شخصيات ومن بيئة أعرفها حق المعرفة.

ومع الوقت ازداد اطلاعي عليه، وتعمقت معرفتي به، وعرفت بعض كتابه معرفة شخصية، أمثال مالك حداد، ورشيد بوجدرة، ومولود عاشور، والطاهر جاوت، بل وحاولت أن أسهم في ترجمة بعض نصوصه إلى العربية. وبدأت القراءة الناقدة والمتأملة تحل محل قراءة المتعة والإعجاب، وبدأت أعي بعض الإشكاليات التي يطرحها هذا الأدب، سواء على المستوى الفكري أو الفني، وأتلمسها في أقوال الكتاب أنفسهم وتصريحاتهم، وفيما يكتبه الدارسون لأدبهم. ومن هذه اللحظة رحت أتحول بالتدريج من قارئ متذوق إلى قارئ ناقد، وأحاول أن أتأكد بنفسي من بعض القضايا فيه، وأكوِّن لي رأيا شخصيا فيها. ومن هنا جاء التفكير في القيام بهذا البحث، الذي شغلني وقتا طويلا.

وهناك سبب موضوعي جعلني أهتم بهذا الأدب، وأنتقل من مجرد قراءته قراءة استهلاكية إلى مترجم ودارس له بعد ذلك، ألا وهو ما لاحظته من

قلة اهتمام الجزائريين بترجمته أو دراسته أو الكتابة عنه، فمعظم ما ترجم منه ونشر باللغة العربية تم على يد الأشقاء السوريين والمصريين، ومعظم ما وضع من الدراسات عنه كان على يد اللبنانيين باللغة العربية، والفرنسيين باللغة الفرنسية. أما في مجال البحوث الجامعية، فقد لاحظت أن أقسام الأدب عندنا باللغة العربية لا تولي أية أهمية لهذا الأدب، تماما مثل أقسام اللغة الفرنسية التي لا تولي بدورها أية أهمية للأدب الجزائري المكتوب بالعربية، وهو ما كرس القطيعة والتجاهل المتبادل القائم منذ أمد بعيد بين المثقفين بهذه اللغة وبتلك.

... من هذه الاعتبارات الذاتية والموضوعية اخترت بحثي هذا، الذي أعطيته عنوان"**أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية**"، هذا العنوان الذي يطرح في حد ذاته إشكالية لم ينته النقاش فيها بعد إلى شيء، ولاسيما في جزئه الأخير، إذ هناك من ينكر على هذا الأدب جزائريته ويعده بسبب لغته أدبا فرنسيا، وهناك في المقابل من يعده، بسبب"الروح" التي كتب بها أدبا جزائريا خالصا لا مجال للطعن فيه، ولكل فريق حججه وأسانيده التي سنتعرض إليها في ثنايا البحث.

والوقع أنني لم أهتم كثيرا، وأنا أعد هذا البحث، أن أثبت أو أنفي عنه هذه الصفة أو تلك، و إنما كان همي تتبع تاريخه، والإحاطة بمختلف مراحله، والتعمق في مضامينه، ومساءلة نصوصه بشكل مباشر، دون وسيط، ولا شارح، ولا مؤول. إلا أن هذا لا يعني أنني استغنيت عن جهود الباحثين فيه،

أو أهملت آراء الدارسين له، مهما كانت متواضعة، ويكفي إلقاء نظرة على هوامش البحث، ثم على قائمة المراجع الكثيرة التي أثبت أهمها في الأخير، للتأكد من ذلك، وإنما يعني أنني أعطيت الأولوية للنصوص الأصلية، أقرأها وأعيد قراءتها المرة بعد المرة، وأجتهد في فهمها، وفي استخلاص النتائج منها. و ربما يجدني القارئ مبالغا أحيانا في حرصي على نقل فكر أصحاب تلك النصوص، وفي الاستشهاد بها.

وقد ثبت لي بالدليل القاطع أنني كنت محقا في إعطاء الأولوية لمساءلة النصوص الأصلية بدون وسيط، ولا أحكام مسبقة، وخاصة عندما عدت إلى النصوص الروائية التي صدرت في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وهي النصوص التي تعوَّد معظم الدارسين إصدار الأحكام الجاهزة بشأنها، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الاطلاع عليها، متأثرين في ذلك بأحكام الباحث الفرنسي الأب"جان ديجو"، الذي وإن كان لا يبارى في كثرة مؤلفاته، وفي سعة اطلاعه على ما كتبه الجزائريون والمغاربة عامة باللغة الفرنسية، إلا أنه لم يكن منصفا لأولئك الكتاب، فقد جردهم من أية مزية فكرية أو فنية، وجعلهم مجرد"تلاميذ" يتعلمون الإنشاء، ويحاولون من خلال ذلك أن يبرهنوا لأساتذتهم الفرنسيين أنهم يستطيعون الكتابة بلا أخطاء لغوية. والحقيقة أنهم كانوا في أغلبهم أصحاب ثقافة فرنسية وعربية عالية، وكان منهم من يمتلك موهبة روائية غير عادية، ولم يكونوا أبدا على هذه الصورة السيئة التي وصفهم بها الأب"ديجو". وما يؤسف له، أن بعض الباحثين الجزائريين اعتمدوا آراءه،

فيما يخص الفترة المذكورة، اعتمادا كاملا، ونقلوها بكل"أمانة"، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من صحتها بالرجوع إلى النصوص ذاتها.

والحق أن كتاب هذه الفترة مظلومون أشد الظلم، ولا أبالغ في شيء ، إن قلت إنهم، بالرغم من"اندماجيتهم" التي لم يتعلقوا بها في حقيقة الأمر إلا حرصا على فكرة المساواة بين المستوطنين والجزائريين، قد دافعوا أحسن دفاع، وعبروا أصدق تعبير عن هوية الشعب الجزائري، وعن كيانه ووجوده، وعن حقه في تعلم لغته وصيانة دينه، والحفاظ على مقوماته الأساسية. ولا أعتقد أن غيرهم من كتاب الفترات اللاحقة قد عبروا عن الهوية الجزائرية بشكل أفضل منهم.

وانطلاقا من عنايتي بهؤلاء الكتاب، وتحليلي للعديد من رواياتهم، أزعم أنني قد أتيت بجديد لم يسبقني إليه أحد من الباحثين، وينطبق هذا حتى على نصوص الخمسينيات أيضا، التي لم تنل هي الأخرى حظها من التحليل المعمق، رغم كثرة ما كتب عنها، حيث ظل النقاش منصبا في الغالب على الظروف التاريخية التي أحاطت بها وبكتابها.

وقد قسمت بحثي إلى مدخل، وبابين، مع المقدمة والخاتمة، وأعطيت المدخل عنوان"في الهوية والهوية الجزائرية"، شرحت فيه مسألة الهوية، وبينت اشتقاقها اللغوي العربي واللاتيني، وعرفّتها في معناها الاصطلاحي، وأتيت على ذكر مرادفاتها، وعلى عناصرها المكونة لها، وناقشت، بناء على كل ذلك، مسألة الهوية الجزائرية، وادعاءات المحتلين، الذين أنكروها،

واتخذوا من إنكارها مبررا للاحتلال، ومن هنا قدمت الأسس النظرية والمنهجية التي تقوم عليها خطة البحث.

أعطيت الباب الأول عنوان: **"من الهوية المغصوبة إلى الهوية المفروضة"**، ويضم ثلاثة فصول ذات طابع تاريخي نظري، تحمل العناوين التالية:

- **"الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية"**.
- **"أدب الجزائريين بالفرنسية: النشأة والتطور"**.
- **"أدب الجزائريين بالفرنسية: إشكالية الهوية والانتماء"**.

في الفصل الأول أعطيت نظرة تاريخية وافية عن احتلال الفرنسيين للجزائر وعن الظروف التي تم فيها، وبينت المراحل المختلفة لحرب الإبادة التي شنوها على الشعب الجزائري، المادية والروحية، من العمل على إفناء العنصر البشري، إلى الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي، إلى الاستيلاء على أملاك الوقف وتعطيل العمل بالتشريع الإسلامي، إلى تغيير نظام التعليم ولغته، إلى الحملات التبشيرية الواسعة التي كانت تملك إمكانيات مادية ضخمة، إلى تشويه تاريخ الجزائر ومحاولة إحياء تاريخ الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، من خلال العناية بالآثار الرومانية، وفي المقابل طمس المعالم الإسلامية، إلى غير ذلك مما يصعب حصره في هذه العجالة. وتوصلت إلى حقيقة هي أن عملية التشكيك في الهوية الجزائرية هي نفسها داخلة ضمن تلك الخطة. وقد أثرت هذه الحرب التي استمرت ما يزيد عن مئة وثلاثين عاما في الهوية الجزائرية أيما تأثير، وأنهكتها، وشوهتها، ولكنها لم تتمكن مع ذلك

من القضاء عليها، بفضل التضحيات الجسام التي قدمها أبناء هذا الشعب في الذود عن كيان الوطن وعن هويته.

أما الفصل الثاني فتتبعت فيه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية منذ بداياته الأولى، وبينت الظروف والعوامل السياسية التي ساعدت على ظهوره، ومختلف مراحله التي مر بها من العشرينيات إلى بداية التسعينيات من القرن العشرين، وأهم المواضيع التي شغلت الكتاب في كل مرحلة، والخصائص الفنية التي تميزت بها أعمالهم الأدبية، وتعرضت لأهم القضايا التي طرحت بشأنه، والمناقشات التي أثارها في السنوات الأولى من الاستقلال على الخصوص.

الفصل الثالث خصصته لموضوع هوية هذا الأدب، وناقشت المسألة من الجانب النظري، على ضوء مدرستي الأدب المقارن الفرنسية من جهة، والأمريكية من جهة أخرى، حيث يعتبر من وجهة نظر المدرسة الأولى أدبا فرنسيا، ومن وجهة نظر الثانية جزائريا، ووسعت النقاش ليشمل الآداب الأخرى في إفريقيا وآسيا التي كتبت باللغات الأوروبية، ورجعت من الناحية التاريخية إلى محاولات احتواء المستوطنين حتى لاسم الجزائر نفسه، حيث كان الكتاب الأوائل منهم يطلقون على أنفسهم اسم " (Les algérienistes). كما كانت"مدرسة الجزائر" بزعامة ألبير كامو تدعي لنفسها هذا الشرف، كما يدل اسمها، وتعرضت للاستفتاء الذي أجرته مجلة"الأخبار الأدبية الفرنسية" في مطلع الستينيات حول موضوع: من هو الكاتب الجزائري؟ وشارك فيه العديد من الكتاب المستوطنين والجزائريين، وتميز على الخصوص بتدخل مالك حداد

في النقاش بمقاله المطول الشهير"الأصفار تدور في فراغ". كما تعرضت أيضا لبعض المناقشات التي جرت بين الكتّاب الجزائريين بعد الاستقلال، وشاركت فيها أبرز الأقلام. وتناولتُ ظاهرة صمت العديد من الكتاب الكبار بعد الاستقلال، لأسباب اكتشفت أنها تناقض تصريحاتهم، فحاولت أن أجد لها تفسيرا معقولا يتجاوز الأفراد إلى الظاهرة بشكل عام.

أما الباب الثاني من البحث وعنوانه: **"من الهوية المفروضة إلى الهوية المأمولة"**، فيضم أربعة فصول تحمل العناوين التالية:

- **"الخمرة طريقٌ لضياع الدنيا والدين".**
- **"الهوية الهجينة والاندماج المستحيل".**
- **"من وعي الذات إلى التمرد".**
- **"من التمرد إلى الثورة ".**

واعتمدت في هذا الباب طريقة مساءلة النصوص الروائية نفسها، وقمت بتحليل مجموعة معتبرة من الروايات المشهورة، والمعبرة عن المرحلة التي تمثلها، بلغ عددها الإجمالي سبعة عشر نصا روائيا، تغطي الفترة الممتدة من سنة 1925 إلى سنة 1962، وهي موزعة على النحو التالي: ثلاث روايات في الفصل الأول هي: **"زهراء امرأة المنجمي"** لعبد القادر حاج حمو، **"مامون أو مشروع مثل أعلى"** لشكري خوجة، **"لبيك"** لمالك بن نبي، وأربع في الفصل الثاني هي: **"العلج، أسير البرابر"** لشكري خوجة، **"بولنوار الفتى الجزائري"** لرابح زناتي، **"مريم بين النخيل"** لمحمد ولد الشيخ، **"ليلى، فتاة من الجزائر"**

لجميلة دباش، وسبع في الفصل الثالث هي: "**الربوة المنسية**" و"**نوم العادل**" لمولود معمري، "**الدار الكبيرة**" و"**الحريق**" و"**النول**" لمحمد ديب، "**نجمة**" و"**المضلع النجمي**" لكاتب ياسين، وثلاث في الفصل الأخير، هي: "**الانطباع الأخير**" لمالك حداد، "**صيف إفريقي**" لمحمد ديب"، "**أطفال العالم الجديد**" لآسيا جبار.

وبالطبع، فإنه بالنظر إلى عدد الروايات، الكبير نسبيا، التي ظهرت في الفترة المحددة، فقد كنت مضطرا إلى نوع من الانتقاء لأشهر الروايات وأكثرها تمثيلا للمرحلة التي ظهرت فيها، وإلى مراعاة مدى ما تتوفر عليه من مظاهر معبرة عن موضوع الهوية، ومدى استجابتها للتحليل، الذي يركز أساسا على تلك المظاهر، ولا يلتفت إلى بقية الجوانب الأخرى إلا بما يخدم الموضوع الرئيسي.

وقد تمكنت، عبر هذا التحليل المتدرج في الزمان، من تتبع التطورات المتعلقة بالموضوع، التي تعكس في المقام الأول تطور الوعي السياسي لدى النخبة الجزائرية المثقفة، ولكنها تعكس في المقام الثاني تطور الوعي السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية ككل، فليس مصادفة أن يكون معظم كتاب المرحلة الأولى يدعون إلى الاندماج في مجتمع المستوطنين، وليس مصادفة أيضا أن يكون معظم الكتاب في الخمسينيات ينتمون إلى اليسار، ويكتبون في مرحلة أولى أدبا احتجاجيا ثم يحاولون في وقت لاحق أن يكتبوا أدبا ثوريا.

أما الخاتمة، فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، ولخصتها في أربع نقاط يمكن القول عنها إنها بقدر ما حاولت أن تجيب عن الأسئلة التي شكلت صلب البحث، بقدر ما أثارت من التساؤلات التي تعيد صياغة الإشكالية المطروحة بكيفيات أخرى، ولذلك فأنا لا أعدُّ نفسي بهذا العمل قد أنهيت البحث في هذا الموضوع الشائك، ولكنني أعتبر نفسي قد فتحت باب النقاش فيه.

المؤلف

* * *

تمهيد

في مفهوم الهوية والهوية الجزائرية

بـادئ ذي بـدء، نـرى مـن الضـروري أن نقـف أولا مـع مفهوم"الهويـة" لنحدد مختلف مدلولاتها اللغوية، وأبعادهـا الفلسـفية والاجتماعيـة والنفسـية، لنخلص بعـد ذلـك إلى موضـوع الهويـة الجزائريـة وحـرب الإبـادة الـتي شـنها الاستعمار الفرنسي عليها وعلى الشعب الجزائري طيلة ما يزيد عن قـرن وربـع قرن، وإلى موضوع الأدب الذي كتبه الجزائريون باللُّغَـةِ الفرنْسـية لنحـدد علـى ضوء تلك المدلولات ملامح الهوية الجزائرية ومميزاتها، ونبيِّن بعد ذلـك ملامـح أزمة الهوية في كتابات أولئك الجزائـريين، وكيـف تمظهـرت في أدبهـم بوجـه عام، وفي رواياتهم على وجه الخصوص، وهو ما سوف يسمح لنا بتناول موضوع بحثنا في وضـوح، ويسـهِّل لنـا مهمـة تحديـد إشـكالاته، والإحاطـة بمختلـف قضاياه، لاسيما أن مسألة الهوية تعد من المسائل التي كثر الخوض فيها عنـدنا في السـنوات الأخـيرة، حيـث دخلـت بقـوة سـاحة البحـث الأدبـي والجـدل السياسي، وأصبحت من العبارات الكثيرة التـداول علـى الألسـن، غـير أن مـا يلاحظ بشأن ذلك الجدل، أنه لا يحدد معنى الهوية، ولا تتفق أطرافه بشأنها، ولذلك فهي تتنـوع وتتعـدد في معناهـا بـاختلاف الانتمـاء السياسـي، والمنحـى الأيديولوجي للمتحدث، وإذا كان المقام لا يسمح لنا باستعراض نماذج من ذلـك الجدل، لأنه ليس هو المقصود في بحثنا، فإن ذلك الجدل نفسه هو الذي يحـتم علينا، من جهة أخرى، أن نحدد عباراتنا بدقة.

إن الهوية كما يعرِّفها قاموس"المنجد" باللغـة العربيّـة، معناهـا ((حقيقـة الشيء أو الشخص، المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية))[1]، وهي في اللغة

1 لويس معلوف "المنجد في اللغة والأدب والعلوم" ، الطبعة الثامنة، بيروت (د . ت) ، مادة هوية .ص 564، 565

العربية مشتقة، كما هو واضح في مبناها، من الضمير المنفصل "هو"، الذي يدل على ذات الشيء أو الشخص، المستقلة عن ذوات الأشياء أو الأشخاص الآخرين. أما في اللغة الفرنسية، فإن لفظ الهوية (L'identité) مشتق من الكلمة اللاتينية (Edèm) ((التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما، مع الاحتفاظ في ذات الوقت بتمايز بعضها عن بعض))[2] والهوية كما شرحها قاموس" لاروس" تعني: ((مجموع الظروف، أوالحيثيات التي تجعل من الشخص شخصا مميزا، أو محددا))[3] ولا يختلف قاموس "روبير" في تعريفه للهوية كثيرا عما جاء في القاموس السابق، فهي حسب تعريفه: ((ما يسمح بالتعرف على شخص بين جميع الأشخاص الآخرين)) لكنه يضيف بين قوسين بأنها: ((الحالة المدنية والصفات المميزة للشخص))[4].

أما"الموسوعة الكونية"، فتنطلق من الأصل اللاتيني للكلمة، المشار إليه آنفا لتنقد فكرة التشابه أو التماثل التام بين الأشياء، وتستشهد بقول للفيلسوف والرياضي الألماني"لايبنيتز" (1646ـ1716م) الذي ((ينفي أن يتشابه شيئان في العالم في كل خصائصهما)) ليخلص إلى نتيجة ((أننا لو قلنا بذلك لكانا شيئا واحدا))[5]. ومن هنا يستنتج مفهوم"الهوية" بمعناها المتداول، الذي يعني وجود كيان مستقل لكل شيء أو كل كائن، عن الأشياء أو الكائنات الأخرى، مهما تشابهت خصائصها معه.

ولا يعدو ما جاء في"الموسوعة الفلسفية"، في تعريفها للهوية أن يكون مجرد تلخيص لمختلف المعاني التي ورد ذكرها سابقا، فالهوية ((مقولة تعبر عن تساوي وتماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذاتها (...) ويتطلب تعيين هوية الأشياء

---

2 Cf: Identité in "Petit Larousse en couleur" . Edition 1984 .

3 Ibid. Terme : Identité

4 Cf :"Identifier" in "Petit Robert 1". Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française . Ed. 1984

5 "Encyclopédia Universalis", Volume 19 (Terme : Identité) France 1975 .

أن يكون قد تم تمييزها مسبقا، ومن ناحية أخرى، فإن الموضوعات المختلفة غالبا ما تحتاج إلى تحديد هويتها بهدف تصنيفها، وهذا يعني أن الهوية ترتبط ارتباطا لا يمكن فصمه بالتمييز (بين الأشياء)..إلخ))[6].

واستنادا إلى التعريفات السابقة، لا سيما إذا أخذنا من معاني الهوية ما تعلق بشخص الإنسان، لأن هذا الذي يعنينا أساسا في موضوعنا، نخلص إلى القول: إنها تلك المعلومات المسجلة في"بطاقة التعريف" أو "بطاقة الهوية"، التي تشمل الاسم واللقب وتاريخ الميلاد ومكانه، والنسب العائلي(أي اسم الأب والأم) وعنوان الإقامة، بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة، كالطول ولون الشعر ولون العينين. وقد يضاف إلى هذا كله ديانة الشخص أو الطائفة التي ينتمي إليها، ولون بشرته، كما هو الحال في بعض البلدان[7].

غير أن قصور هذا التعريف، وكذا التعريفات السابقة، بيِّنٌ للعيان، لأنها تُبقي هوية الشخص جدُّ ناقصة، وبعيدة عن الدقة المطلوبة، حيث تضيع وسط التعميمات الفلسفية أو تقف عند حدود التعريف اللغوي المبهم أو عند هذا التقييد القانوني المنْصَبِّ على الناحية الشكلية الظاهرة للشخص التي نجدها في بطاقة الهوية، ويبقى هناك عالم الإنسان الداخلي وما ينطوي عليه من مشاعر وأفكار وعواطف وتجارب في علاقته بعالمه الخارجي، وما يزخر به من تفاعلات مع بيئته الطبيعية، وما يحكمه من علاقات متشابكة مع محيطه البشري، وكذا عوامل الوراثة المنتقلة إليه عبر الأجيال، التي يكون لها بدورها تأثيرها البالغ الأهمية في تكوين شخصية الفرد من الناحية الجسمية والنفسية والاجتماعية.

---

6 "الموسوعة الفلسفية، بإشراف م.روزنتال، و ب.يادين. ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ببروت. ط 4، 1981.

7 مثل ما هو معمول به في لبنان (بالنسبة للديانة أو الطائفة)، أو كما كان في جنوب إفريقيا في نظام التمييز العنصري السابق.

ولعل أقدم من أضاف إلى معاني "الهوية" البعد النفسي لدى الإنسان في العصر الحديث، الفيلسوف الإنكليزي "جون لوك" (1632 ـ 1704م) في معرض نقده لـ"الكوجيتو" الديكارتي، حين قال: ((إن "الذات" أو الـ"هو" (Le soi أو Self) هو ذلك "الشيء" (La chose) المفكر، الواعي (كائنا ما كانت الصورة التي يتجلى فيها: روحية أو مادية بسيطة أو مركبة، لايهم) الحَسَّاس نحو المُتع والألم أو الواعي بها، الخليق بالسعادة أو الشقاء الذي يَكُون اهتمامه فيه، والحال هذه، منصبا على ذاته.. وهو ما يجعل من وعي ذلك "الشيء الواعي" يلتقي مع ذاته، وليس مع غير ذاته، ليشكل شخصا واحدا، وذاتا واحدة. وعلى هذا النحو تسند كل أفعال ذلك الشيء لذاته وتصير ملكه، باعتبارها أفعاله، بالقدر الذي يمتد ذلك الوعي، لا أبعد منه))[8]

وهكذا، ومع الوقت يتسع مفهوم هوية الإنسان ويتعقد ويتشعب، ويسمى بمسميات أخرى لها نفس المعنى أو تقترب منه اقترابا شديدا، مثل: الشخصية والإنية والكينونة والذَّات، ليكوِّن مجالا واسعا وحقلا خصبا للدراسات النفسية والاجتماعية والأنتروبولوجية والوراثية وغيرها من مجالات البحث العلمي.

ويستعمل مصطلح "الشخصية" على الأخص، في كثير من الأحيان بمعنى "الهوية"، لاسيما في مجال علم النفس وعلم الاجتماع، غير أن الاختلاف بين الباحثين يظل قائما بشأنه، إنْ في معناه أو في عناصره المكونة له أو في أهمية كل عنصر وأسبقيته أو تأخره عن العناصر الأخرى. وقد أحصى أحد الباحثين أكثر من خمسين تعريفا لمصطلح "الشخصية"[9]. مما يشير إلى الخلاف الكبير الواقع بشأنها، وأورد الدكتور أحمد بن نعمان لمعنى مصطلح "الشخصية" في كتابه "سمات الشخصية الجزائرية" خمسة عشر تعريفا لعلماء نفسانيين واجتماعيين، ومختصين في علم الإناسة، وخلص إلى القول بـ ((أن آراء العلماء

8Cf:"Identité " , in "Encyclopédia Universalis" Supplément 1980 . P 763 .

9 د. أحمد بن نعمان "السمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنترو بولوجيا النفسية". المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988،ص155.

لم تستقر بعد حول مفهوم محدد لمعنى "الشخصية"، مما حال دون الوصول إلى وضع تعريف جامع مانع له يكون مستوعبا لكل الأجزاء المكونة للشخصية))[10]

ويرجع الاختلاف الرئيسي إلى تركيز علماء النفس في دراستهم للشخصية على الجانب النفسي والمزاج الشخصي للفرد، في حين يركز علماء الاجتماع والإناسة على الجانب الاجتماعي، انطلاقا من أن الشخص في نظرهم إنما هو نتاج اجتماعي بالدرجة الأولى. ويحاول أحمد بن نعمان أن يصوغ في الأخير تعريفا للشخصية يوفق فيه بين آراء الفريقين، وهو أن ((الشخصية هي ذلك الطابع العام المميز والثابت نسبيا، المكَوَّن من مجموع صفات الفرد الجسمية والنفسية المتكاملة، في انتظام وديناميـة، والمتكيِّفة مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الفرد ويتبادل التأثير))[11].

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن التعريفات الشائعة للهوية أو الألفا ظ المرادفة لها مثل "الشخصية"، تقتصر في الغالب الأعم على بعد واحد أو اثنين في أحسن الأحوال، هو ذلك البعد الذي يشكل اهتمام الباحث، أو اختصاصه، وتهمل أبعاد الشخصية الأخرى، في حين أن الهوية تتشكل من كل تلك الأبعاد مجتمعة، منظورا إليها في حالة تفاعل وحركية.

فإذا انتقلنا من هوية الفرد إلى هوية الجماعة، وجدنا أن معظم العناصر التي تشكل الهوية الفردية تنطبق على مفهوم الهوية الجماعية أو ما اصطلح على تسميته بالهوية الوطنية أو الهوية القومية[12]، إذ يتعلق الأمر بمجموعة معينة من البشر يحملون اسما يعرفون به، ويقطنون رقعة جغرافية معينة،

10السمات الشخصية الجزائرية، الصفحات 155 . 158.

11. المرجع نفسه، ص 165 .

12 هناك خلط وتداخل في استعمال لفظتي "وطني" و"قومي"، في معظم الأقطار العربية، بحيث تستعملان في معظم الأحيان بمعنى واحد، وفي الجزائر شاع استعمال اللفظة الأولى، بمعنى: "الجزائري"،أو الخاص بالوطن الجزائري"، والثانية بمعنى "العربي" ، أو أي شيء يحمل البعد العربي المشترك مع الأقطار العربية الأخرى"، ونقصد نحن هنا المعنى الأول ، أي الجزائري.

وينتمون إلى عرق غالب أو أعراق متعددة انصهرت مع مر الزمن في بوتقة واحدة، وكوّنت هوية مشتركة[13].

غير أن الأمر في هذه الحال يصبح أكثر تعقيدا، والخلاف يصير أقوى وأشد بين الباحثين حول أهمية وأولوية كل عنصر من العناصر المكونة للشخصية، باستثناء عنصر الأصول العرقية المشتركة، التي أثبتت الوقائع التاريخية بشأنه أن فكرة العرق النقي ليس إلا خرافة لا أساس علمي لها، ولم يدعُ إليها سوى أصحاب الفلسفات العنصرية كالنازية والفاشية والصهيونية[14].

وتبقى العناصر الأخرى محل أخذ ورد واختلاف شديد، حيث يرى بعضهم مثلا أن لا أهمية للاختلافات اللغوية والدينية لتكوين أمة، إذ يكفي أن تكون هناك رغبة مشتركة لدى تلك المجموعات البشرية المختلفة لغة ودينا في التجاور والعيش معا، في ظل دولة وطنية واحدة، ويضربون لذلك مثلا بسويسرا والصين والهند، ويرد المعارضون لوجهة النظر هذه بأن ذلك الاختلاف قد لا يمنع قيام دولة، ولكنه لا يوفر الشروط لتكوين هوية قومية لأمة واحدة[15]. ولذلك يمكن الحديث عن الدولة الهندية أو الصينية، ولكن لا يمكن الحديث عن شيء اسمه الأمة الهندية أو الصينية، أو السوفياتية (سابقا)، لأنها دول تتكون أصلا من خليط من الأمم والشعوب المختلفة القوميات والأعراق واللغات.

ونميل من جهتنا إلى وجهة النظر الأخيرة هذه، ونرى أن اختلاف اللغات والأديان لا تساعد على تكوين هوية الأمم، ولا تحفظ هويتها القائمة من التمزق والتلاشي، وإذا كنا لا نستطيع أن نفصل في عدد العناصر المكونة لهوية الأمم، ولا أن نرتبها تنازليا، على حسب أهميتها، لأن حصرها وترتيبها ما

---

13 بناء على تعريف "إرنيست باركر" الوارد في كتاب ساطع الحصري "حول الوحدة الثقافية العربية". نشر مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة "التراث القومي" الطبعة الثانية ، بيروت 1985، ص ص 13. 14.

14 د. سامي مصطفى: "الشخصية القومية، دراسة نقدية حول مجموعة من الدراسات"، مجلة "قضايا عربية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. العدد الثاني (عدد خاص بالوحدة العربية) حزيران. يونيو 1979. ص 245.

15 ساطع الحصري ، "حول الوحدة الثقافية العربية"، ص 16.

يزال موضع خلاف كبير بين المختصين، ومازال يتم في الغالب حسب وجهات نظر ذاتية، وأيديولوجية، وسياسية، غير أننا نستطيع من جهة أخرى، اعتمادا على الأمثلة العديدة في التاريخ الحديث، أن نؤكد بأن عاملي اللغة والدين يشكلان عنصرين أساسيين في تكوين وحدة الأمم والشعوب، في حين أنه كلما اختلفت الألسن وتعددت المعتقدات الدينية كلما كان ذلك عاملا مساعدا على تفرقها وتمزق وحدتها وانقسامها إلى قوميات ودول أصغر، وأقرب الأمثلة إلينا ما جرى من انقسامات وصراعات وحروب في إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وفي الهند، وفي دول شرق أوروبا ومنطقة البلقان، وفي أيرلندا الشمالية، وداخل الاتحاد السوفياتي السابق، الذي ضُمت فيه في وقت من الأوقات أممٌ وشعوب إلى بعضها بعضا بالقوة، لتعيش في ظل دولة واحدة، إلا أنها سرعان ما انقسمت على نفسها بمجرد أن وجدت فرصة سانحة لذلك. ويعود سبب الانقسام والصراع والحرب فيها أساسا إلى تلك الاختلافات اللغوية والدينية التي تجوهلت أو قمعت أو عدت، ببساطة، أمورا غير ذات شأن أثناء قيام تلك الدول.

فإذا أتينا إلى موضوع الهوية الجزائرية فإننا ـ ولأسباب منطقية صِرف، ولكي لا نوغل، بلا جدوى، في البحث في الحقب القديمة للتاريخ الجزائري، ولا ندخل في تفاصيل تاريخية نراها معروفة حتى بالنسبة لأطفال المدارس ـ سننطلق في مناقشة هذا الموضوع بدء من الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، وذلك للأسباب التالية:

أولا: لأن تاريخ الجزائر، بالرغم من التشويه والتحريف الذي ألحقه الاستعمار الفرنسي به ـ كما سنبين فيما بعد ـ فقد ظل تاريخا معروفا للخاص والعام، لا مجال للاختلاف فيه بين الباحثين النزهاء وأصحاب الرأي الموضوعي والنظرة العلمية المتجردة من الأغراض.

ثانيا: لأن الاستعمار الفرنسي هو الطرف الوحيد الذي أنكر هوية الشعب الجزائري، وجعل من ضمن مبررات غزوه للبلد أن الجزائريين لا يشكلون أمة واحدة ولا شعبا متجانسا، وإنما هم - كما حاول أن يصورهم - عبارة عن أعراق مختلفة وقبائل متفرقة ومتناحرة[16].

ثالثا: لأننا سنتخذ من فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر منطلقا لمعالجة موضوع بحثنا الأساسي، ألا وهو الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، ومن ثمة نبحث في الكيفية التي انعكست بها مسألة الهوية فيه، انطلاقا من أن ذلك الأدب في حد ذاته هو أحد نتائج تفاعلات الاحتلال على الصعيدين الثقافي واللغوي، ومن ثمة، وحتى تكون دراستنا مؤسسة على وقائع ملموسة، نرى من الضروري أن نقف مع أهم المحطات التاريخية للاحتلال، ونعرض لأبرز الممارسات التي قام بها بمختلف أجهزته العسكرية وشبه العسكرية وأنظمته المدنية من أجل القضاء على الهوية الجزائرية.

* * *

---

16 راجع مصطفى الأشرف "محاولات لتبرير الغزو الفرنسي" في كتابه "الجزائر الأمة والمجتمع"، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص ص 261 - 264. وكذا Mohamed Cherif Sahli « Décoloniser l'histoire : Introduction à l'histoire du Maghreb » , Ed. F.Maspéro , Paris 1965. لاسيما الفصل الذي أعطاه عنوان: « Le coup d'éventail », pp 87-98 وقد ظل الفرنسيون يرددون هذه المقولة حتى وقت قريب، ومنهم بعض رؤسائهم ووزرائهم، فقد جاء على لسان الجنرال ديغول عن الجزائر قوله: "إنها لم تكن ذات يوم دولة، ولا أمة، وإنما هي مجرد خليط مزركش من عشائر متطاحنة"، وكتب ألان جوبير وهو أحد وزراء الخارجية في عهد رئاسة جيسكار ديستان "إن الجزائر قد بدأت تاريخها سنة 1962"، وعبر عن هذا المعنى جيسكار ديستان نفسه بلغة دبلوماسية، في زيارته للجزائر سنة 1975 حين قال: "إن فرنسا التاريخية تحيي الجزائر المستقلة". راجع : مولود قاسم، نايت بلقاسم " أصالية أم انفصالية "، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ج 2، ص30.

الفصل الأول

من الحقائق التي لا يستطيع أحد نكرانها، أنه حين دخلت القوات الفرنسية الغازية مدينة الجزائر في الخامس من جويلية سنة 1830، لم تجد الأرض الجزائرية خرابا يبابا، فقد كانت هناك دولة جزائرية قائمة، لا تقل عراقة عن مملكة أسرة"آل بوربون" التي كانت تحكم فرنسا آنذاك، حيث كان قد مضى على تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة على يد الأخوين عروج وخير الدين بربروس أكثر من ثلاثة قرون[17]، كان يرأسها السلطان ثم الباشا في فترة لاحقة، وأخيرا الداي على التوالي[18]. ويسيِّر شؤونها وزراء، لهم مهمات لا تختلف في جوهرها عن مهمات نظرائهم الوزراء في المملكة الفرنسية، وكان لهذه الدولة سياسة داخلية، وسياسة خارجية، وسلك دبلوماسي أجنبي في الداخل، ومفوضون رسميون في الخارج يبرمون الاتفاقيات، ويوقعون المعاهدات باسم الدولة الجزائرية، بدليل أن الغزو المباشر جاء نتيجة خلاف دبلوماسي افتعله القنصل الفرنسي المقيم في الجزائر آنذاك، السيد"دوفال"، بأمر من حكومته[19]، لتبرير الغزو، وضربة المروحة المزعومة هي من الشهرة بحيث لا تحتاج إلى أن نعيد روايتها في هذا المقام.

ولن نقف طويلا هنا مع القائلين بأن الحكام الأتراك في الجزائر كانوا بدورهم محتلين أجانب كغيرهم من المحتلين، فهذا القول بدوره من الحجج

---

17 بايع أهل مدينة الجزائر خير الدين بربروس كحاكم على الجزائر سنة 915 هـ الموافق لسنة 1509م، وأعلن نفسه سلطانا على الجزائر سنة 1533م. انظر على التوالي: د. جمال قنان"نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر"، منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر 1987، ص43.
Mahfoud Kaddache "L'Agérie durant la période Ottomane". O.P.U , Alger 1992, p13.

18 أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" نشر دار الكتاب، البليدة (الجزائر) 1963، ص37، وانظر أيضا بشأن هذه التسميات وتواريخ استعمالها : د. أبو القاسم سعد الله "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986ص321.

19 هنري قارو"تاريخ الجزائر العام" نقلا عن أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" ص45.

التي روَّج لها الاستعمار كثيرا، وجعلها من مبررات الغزو، ولكنها، على أية حال، حجة ضعيفة، لأنه لم يقع في أي يوم من الأيام غزو تركي للجزائر، وإنما يحدثنا التاريخ عن استنجاد سكان مدينة الجزائر في سنة 915 هـ 1509م بالقائدين البحريين الأخوين عروج وخير الدين بربروس التركيين، لحمايتهم من خطر الغزو الإسباني، وكان ذلك عن رضى وقناعة من السكان، على أساس أنهم كانوا يستنجدون بقوة إسلامية لمساعدتهم في مواجهة قوة أجنبية مسيحية، وتمت مبايعة خير الدين بربروس كحاكم على الجزائر بعد مشاورات جرت بين أعيان البلد، وبإلحاح منهم على خير الدين حتى يقبل بذلك[20]. فإذا كان القائلون بهذا الزعم يشيرون إلى الأصل التركي للأخوين عروج وخير الدين، فلماذا لا يقولون عن حكم ملوك آل"بوربون" لفرنسا نفسها، وهم من أصل جرماني، بأنه كان احتلالا أجنبيا لفرنسا؟ ولماذا لا يقولون ذلك عن حكم نابليون الذي كان كورسيكيا ينحدر من أصول إيطالية؟ أو عن حكم"برنادوت"ملك السويد" الذي كان فرنسي الأصل ولم يكن سويديا؟[21].

وقد كان للدولة الجزائرية على عهد الدايات رقعة جغرافية معروفة، وتقسيم إداري محدَّد ومعروف أيضا، ويشمل رقعة الجزائر الحالية، بما في ذلك مناطق الجنوب، التي انتقل إليها صالح رايس سنة 1555م، بصفته ممثلا للسلطة المركزية، وزار مناطق تامنغست، وعين صالح التي سميت باسمه منذ ذلك التاريخ، وحصل على ولاء أهلها للدولة المركزية في الجزائر العاصمة[22].

وكان للجزائريين غداة الاحتلال لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية، التي كانت منتشرة ومتغلغلة في أوساط السكان بدرجة كبيرة، شهد بها المحتلون أنفسهم وكتبها في تقارير رسمية ضباط عسكريون، وموظفون رسميون، وقد وجد بعضهم في نفسه من الشجاعة والموضوعية ما جعله

---

20 Cf :Mahfoud Kaddache "L'Algérie durant l'époque Ottomane ", p13.

21 مولود قاسم"أصالية أم انفصالية"ج 2 ص313.

22 "أصالية أم انفصالية" ج 2، ص270.

يصرح "بأن القراءة والكتابة كانت عند دخول الفرنسيين أكثر انتشارا بين العرب (الجزائريين) منها بين الفرنسيين[23]، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد لغة تواصل، أو لغة علم فحسب، ولكنها كانت فوق ذلك لغة القرآن، أي لغة الدين الذي يدينون به، وهذا ما نص عليه بالحرف تقريبا أحد التقارير التي وضعت عن حالة التعليم في الجزائر بعد وقوع الغزو.

وكانت الأغلبية الساحقة من الجزائريين، ومازالت، تدين بالدين الإسلامي، الذي كان قد مر على دخوله إلى شمال إفريقيا حين وقع الغزو، حوالي اثني عشر قرنا، وكان الجزائريون قد اعتنقوه عن قناعة، ودون قهر أو إجبار، بعد أن قاوموه في الأول، ظنا منهم أن الفاتحين العرب قد جاؤوا غزاة محتلين، طامعين في خيرات البلاد، كغيرهم من المحتلين السابقين، فلما تبين لهم سمو الرسالة السماوية التي يحملونها، ونبل مقاصدها، أقبلوا على الدين الجديد من تلقاء أنفسهم، يدخلون فيه جماعات، وينشرونه بأنفسهم في أعالي الجبال وأقاصي الصحراء، بين أهلهم وذويهم، فكان الإسلام منذ ذلك الحين عامل جمع وتوحيد بالنسبة للجزائريين، تجاوز في ذلك كل عوامل التوحيد الأخرى.

وإلى جانب هذا، كان هناك تاريخ مشترك يجمع كل الجزائريين، تكوَّن عبر العصور المختلفة، وتقاطع في كثير من فتراته مع تاريخ جيرانهم وإخوانهم في بلاد المغرب والمشرق، واختلف عنه في بعضها، وانطوى على صفحات كثيرة مشرقة، كما ضم صفحات أخرى مؤلمة ودامية، وتميز عموما بتعلق الجزائريين الشديد بالحرية، وبرفضهم للهيمنة الأجنبية، وبكفاحهم الطويل ضد كل الغزاة والمحتلين الذين نزلوا بأرضهم، ولأجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم الأمازيغ، أي الأحرار، وقد أنشأوا أثناء هذا التاريخ الطويل العديد من الممالك والدول، يعود أقدمها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حين أنشأ "ماصيبصا"

23 Christiane Achour "Abécédaires en devenir, idéologie coloniale et langue française en Algérie". Ed. Enap. Alger 1985 , p 145 .

مملكة"نوميديا" وعاصمتها"سيرتا"، وهي قسنطينة الحالية، وكانت تمتد من الشرق إلى الغرب على مساحة الجزائر الحالية تقريبا، وبالضبط: من منطقة"الكاف" بتونس إلى نهر"ملوية" بالمغرب الأقصى[24]. وأنشئت بعدها ممالك عديدة أخرى في فترات تاريخية مختلفة لا يسمح لنا المقام بذكرها، وذلك قبل الفتح الإسلامي وبعده، ودام حكمها أزمانا متباينة، كانت تقوى فيها الدولة تارة وتضعف أخرى، وتتغير عاصمتها حينا، لتنتقل إلى غرب البلاد مثل تلمسان أو وسطها كبجاية والجزائر أو إلى مناطق أخرى مثل تيهرت والأشير جنوبا، وتتسع تبعا لذلك رقعة الدولة أو تضيق، حسب الظروف والملابسات، لكن كانت هناك دائما دولة ونظام وشعب وحضارة، باستثناء فترات الاحتلال الأجنبي التي كانت تتلاشى فيها الدولة ولكن يظل فيها الشعب صامدا متماسكا، محافظا على شخصيته وقيمه وتقاليده، إلى أن تأتي الفرصة المواتية للتحرر من ربقة الأجنبي.

وقد اتسمت كل الممالك والدول التي تأسست بعد الفتح الإسلامي على الأرض الجزائرية، أي طيلة أربعة عشر قرنا، باستثناء دولة الاحتلال الفرنسي، بالطابع الإسلامي المميز، وعرفت بانتمائها للحضارة العربية الإسلامية، وكانت تشكل دائما جزء من الأمة العربية والعالم الإسلامي. لذا، فإن الغزو الاستعماري الفرنسي حينما وقع على الجزائر، ومهما كانت المبررات التي حاول الاستعمار أن يتذرع بها، إنما كان في حقيقته يندرج ـ كما سنوضح في الصفحات اللاحقة ـ في إطار الصراع الحضاري الذي كان قائما بين العالم العربي الإسلامي من جهة، والعالم الأوروبي المسيحي من الجهة الأخرى.

وبناء على كل ما سبق أن بَيَّناه، فقد كان للجزائريين، حين نزلت القوات الغازية الفرنسية على الشواطئ الجزائرية سنة 1830 كل مقومات الأمة،

---

24 راجع محمد الصغير غانم"شخصيات نوميدية". بمجلة"التراث"باتنة/الجزائر، ع5، 1992ص8.

حتى وإن لم تكن تسمى بهذا الاسم[25]، من رقعة جغرافية محددة ومعروفة، وحكم مركزي ذي سيادة، ولغة وطنية، وثقافة عريقة، وحضارة متجذرة في التاريخ، ودين يجتمع عليه كل أهل البلد، وتاريخ معروف يمتد على مدى عشرين قرنا على الأقل.

وإذا أنكر المحتلون كل هذه الحجج الدامغة، وبرروا غزوهم واستيطانهم للبلد بنفي كل هذه المقومات، فإن إنكارهم لم يكن إلا مكابرة وبحثا عن مبررات للغزو، وإن التصريحات التي صدرت عن قادتهم السياسيين والعسكريين، قبل الغزو وأثناءه وبعده، تكذب ادعاءاتهم، وتكشف نواياهم الحقيقية، فقد كانت تُحرِّكُهم في الواقع نوازع دينية، وترسبات تاريخية، وأحقاد قديمة، تعود إلى عهد الحروب الصليبية في الشرق العربي وفي الأندلس، يتجلى ذلك في التصريحات الأولى التي صاحبت الإعداد للغزو أو التي صدرت بعد الشروع في تنفيذه، ومن تلك التصريحات أن الغرض من الحملة على الجزائر إنما هو ((إنقاذ المسيحية والمسيحيين من أيدي القراصنة الجزائريين))[26]. ويذكر المؤرخون أن الأسقف"فريسنوس" وزير الشؤون الكنسية في حكومة الملك"شارل العاشر"، قد لعب دورا بارزا في تعبئة النفوس لإنجاح الحملة على الجزائر[27]. وكذلك باركت روما"البابوية" الغزو واعتبرته عملا مقدسا لفائدة المسيحية[28]. ولم ير البابا"بيوس الثامن" أي مانع من استخدام موانئه لفائدة الحملة[29].

وكان الملك شارل العاشر نفسه، وهو يعد العدة لغزو الجزائر، قد عبّر عن نوازعه الصليبية حين قال في خطاب له بمناسبة ذكرى اعتلائه العرش: ((إن

---

25 محمد حربي "الثورة الجزائرية، سنوات المخاض" ترجمة نجيب عياد وصالح المثلوثي "موفم"، الجزائر 1994 ص75.

26 خديجة بقطاش "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830.1871". مطبوعات دحلب. الجزائر 1992. ص17.

27 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر"، 17.

28 نفسه، ص 18.

29 نفسه، ص 37، هامش رقم 17.

العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي[30]، سيكون، بإعانة العلي القدير، لفائدة المسيحية كلها))[31].

وأبدت العديد من الدول الأوروبية ارتياحها للغزو[32]. رغم المنافسة التي كانت قائمة بينها على اقتسام مناطق النفوذ في إفريقيا وآسيا والأمريكتين، ولكن يبدو أن الروح الصليبية في نفوس قادتها كانت أقوى من روح المنافسة على المنافع المادية، أضف إلى ذلك روح التشفي والانتقام بعد أن حاول معظمهم غزو الجزائر أكثر من مرة، مثل الإسبان والإنكليز، فضلا عن الفرنسيين أنفسهم[33]. ولكنهم منوا في كل مرة بالفشل الذريع.

وانطلاقا من هذه الروح الصليبية، فإن الغزاة الفرنسيين كانت تداعب أحلامهم، كما يبدو واضحا من تلك التصريحات، فكرة أن يخوضوا "حربا مقدسة" ضد الجزائر، باعتبارها جزء من أرض الإسلام، ليجعلوا منها أرضا مسيحية، على غرار ما حدث في إسبانيا ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، من حرب ضد المسلمين، فيما أصبحوا يسمونه "حرب الاسترداد"[34]. ويتخذوا منها منطلقا للاستيلاء على الأقطار المغربية الأخرى؛ وقد استولوا الأولى[35]، وإنما كانت نية مبيتة ومخططات مدروسة، ولم فعلا، ولو بعد حين،

---

30 إشارة إلى حادث المروحة المشهور، الذي اتخذته فرنسا مبررا للغزو.

31 أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر". ص46.

32 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر"، ص17.

32 المرجع نفسه، ص17.

33 كان ذلك في سنة 1664، على عهد لويس الرابع عشر، حين هاجم الدوق "دي بوفور" مدينة جيجل وانهزم فيها. راجع : مولود قاسم "أصالية أم انفصالية" ج 2، ص267.

34 يذهب فرحات عباس إلى هذا الرأي حين يقول: "لقد كان غزو الجزائر منذ البداية مرتبطا أشد الارتباط بخلاف الديانات والحضارة، فبنزول قواتها على شاطئ سيدي فرج تكون فرنسا شارل العاشر قد خلفت إسبانيا المسيحية، بلد إيزابل الكاثوليكية وشارل كان، اللذين عقدا العزم بعد أن أجهزا على مملكة غرناطة، آخر المعاقل العربية الإسلامية في الأندلس، على انتزاع شمال إفريقيا من الحضارة الإسلامية، ومن هذا المنظور تم غزو الجزائر سنة 1830، من قبل أمة أخرى مسيحية، ثم تأتي بعد ذلك الأطماع الاقتصادية والبحرية والتوسعية". راجع تصدير فرحات عباس للطبعة الجديدة من كتابه المعنون بـ :
" De la Colonie vers la Provence : Le jeun algérien" Ed. Garnier Frères, Paris 1981, P11.

35C.f: Charles Robert Ageron "Histoire de l'Algérie contemporaine" Coll. Que-sais-je n°400, P.U.F 1964. P20.

على تونس وعلى المغرب الأقصى، وفرضوا عليهما الحماية سنة1881 و1912 على التوالي، وهو ما يدل على أن الفكرة لم تكن وليدة المصادفة أو مجرد أحلام أو أوهام أملتها عليهم نشوة الانتصار، كما يذهب إلى ذلك العديد من المؤرخين، استنادا إلى التردد والارتباك الذي عرفته سياسة الاحتلال في سنواتها يكن ينقصها إلا التطبيق الفعلي في الميدان.

أما سبب التردد والارتباك المشار إليه، فلا يعود في رأينا إلا إلى تلك القلاقل والاضطرابات الداخلية التي عرفتها فرنسا في تلك الفترة، وكان التعجيل بغزو الجزائر في حد ذاته، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، نوعا من تصريف العاصفة، وإلهاء للرأي العام الفرنسي بحرب خارجية تنسيه أوضاعه الداخلية المتردية، غير أن ذلك لم يمنع في نهاية الأمر من قيام الثورة ضد الملك شارل العاشر، التي أطاحت به وأتت بلويس فليب مكانه، لكن ذلك لم يغير شيئا بالنسبة لغزو الجزائر، كما لم يغير من الأمر شيئا انتقال طبيعة الحكم في فرنسا من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري أو العكس، في سنوات 1848 و1852 و1871، وهو ما يؤيد ما ذهبنا إليه في وجود نية مبيتة تتجاوز الحكام وطبيعة الحكم إلى ما هو أبعد من ذلك، أي إلى الصراع الحضاري الذي ظل قائما مدة قرون، وما يزال إلى يومنا هذا، بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

وبالرغم من طول فترة الاحتلال وتغير القادة والحكام في فرنسا والجزائر على السواء، ووقوع ثورات في فرنسا، وخوض غمار حربين عالميتين، وسقوط وصعود خمس جمهوريات إلى سدة الحكم، فإن السياسة الاستعمارية في الجزائر ظلت تحافظ على ثوابت معينة يمكن لنا وصفها باستراتيجية الاستعمار العامة، فقد عمل الغزاة منذ أن وطئت أقدامهم هذه الأرض على محاربة الشعب الجزائري بكل ما أوتوا من قوة مادية، وعلى ضرب مقوماته الروحية التي تفقد كل وسائل المقاومة الأخرى بدونها أية أهمية أو فاعلية.

وقد قامت استراتيجية الاستعمار أساسا على حرب إبادة مادية ومعنوية (روحية)، تقوم في جانبها المادي على:

أولا: إفناء العنصر البشري للشعب الجزائري، عن طريق حرب مباشرة شاملة لا هوادة فيها، بجيوش جرارة، منظمة ومدربة أحسن تدريب، ومسلحة أفضل تسليح، يقودها ضباط محترفون، ويضرم نيرانها جنود مرتزقة مهنتهم القتل، ضد الأهالي العزل في القرى والبوادي والأرياف، وفي أسوإ الأحوال، بالنسبة للغزاة، في مواجهة مقاومة شعبية قليلة العدد والعدة، لا سلاح لها في الواقع إلا الصبر والإيمان.

ثانيا: الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر البشري الأوروبي، على حساب أهلها الأصليين، في محاولة لتحويل طابعها البشري من الطابع العربي الإسلامي إلى الطابع الأوروبي المسيحي.

وتقوم في جانبها المعنوي الروحي على شقين أيضا: الأول، يتمثل في هدم البنيات الثقافية والروحية والأنظمة والتقاليد الاجتماعية التي كانت قائمة قبل الغزو، والثاني، يتمثل في إحلال بنيات أخرى محلها، تستمد مقوماتها من البنيات الثقافية والروحية والتقاليد الاجتماعية الأوروبية المسيحية، وتحتاج هذه الاستراتيجية لكي نوضحها إلى شيء من التفصيل نقدمه في الصفحات التالية.

الإبادة المادية :

1 - إفناء العنصر البشري للشعب الجزائري.

كانت الإجراءات العملية الأولى في مخطط حرب الإبادة الشاملة ضد الشعب الجزائري تتمثل في مواصلة الغزو، وتوسيع رقعة الحرب من أجل الاستيلاء على كل المناطق الجزائرية غربا في اتجاه وهران ومعسكر وتلمسان، والجنوب الغربي عموما، وشرقا نحو بجاية وقسنطينة وعنابة وجنوبا نحو بسكرة وبوسعادة والأغواط. وبالرغم من أن الملك"لويس فيليب" كان كما يقول المؤرخون على خلاف سابقه "شارل العاشر"، رجلا "مسالما"، ومحبذا لفكرة"الاحتلال المحدود"[36]، إلا أنه لم يتجرأ على معارضة الجنرال"كلوزيل"بشكل علني في توسيع رقعة الاحتلال، لأن هذا الأخير، كما قيل، يعرف عنه"أسرارا" شخصية، يخشى أن يستعملها قائده العسكري كسلاح ضده، إن هو عارض علنا طموحاته[37]. وكان كلوزال يطمح إلى تحقيق أمجاد شخصية لنفسه، لا سيما بعد أن حقق بعض الانتصارات السهلة في حملته على مدينة المديَّة.

ولتحقيق غرض التوسع، واستجابة لرغبة كلوزال، وتصميمه على احتلال قسنطينة بالخصوص، تضاعفت القوات العسكرية الفرنسية ثلاث مرات عما كلنت عليه عند نزولها على شاطئ سيدي فرج[38]، وظل عددها يتضخم مع الوقت باستمرار، وخصوصا بعد الفشل الذريع الذي مني به الجنرال"كلوزيل"[39] في الناحية الغربية في حربه مع الأمير عبد القادر، وفي الناحية الشرقية مع أحمد باي على السواء[40]. وهو الأمر الذي دفع وزارة الحربية إلى عزله. ليحل

---

36 Francis et Colette Jeanson " L'Algérie hors la loi " E.NAG. Alger1993. 23 .

37 "L'Algérie hors la loi". p 27 .

38 L'Algérie hors la loi. P 24

39 الذي تولى القيادة العامة مرتين من أوت1830 إلى فبراير 1831، ومن جويلية 1835 إلى فبراير1837.

40 " Histoire de l'Algérie contemporaine", p17 .

محله الجنرال "داميرمون" الذي قاد بنفسه الحملة الثانية على قسنطينة في أكتوبر 1837، وقتل تحت أسوارها. وعندما تولى الجنرال"بيجو" القيادة العامة للجيش سنة1841، وكان أكثر غلوا في الدعوة إلى الحرب من كل سابقيه من العسكريين. كان عدد القوات الفرنسية في الجزائر ثلاثة وثمانين ألف رجل، لكنه رأى أن هذا العدد غير كاف للقضاء على المقاومة الشعبية، ولاسيما مقاومة الأمير عبد القادر. فراح يطالب حكومته باستمرار بزيادة عدد أفراد الجيش، إلى أن بلغ سنة 1846، مئة وثمانية آلاف رجل[41]، بالإضافة إلى حوالي عشرة آلاف من رجال "القوم"*.

وقد استعملت في هذه الحرب كل وسائل الدمار والتقتيل الجماعي للأهالي العزل معظمهم من السلاح، وتجردت الحملات العسكرية من كل الأخلاق والقيم الإنسانية. وتفنن ضباط الجيش الفرنسي في وضع مخططات الموت، واختراع وسائل الإبادة، وتنافسوا في نشر الخراب والدمار، لا سيما حين أصبح الجنرال بيجو قائدا للجيش وحاكما عاما على الجزائر في الفترة ما بين1841و1847 - كما سبقت الإشارة - فهو صاحب الشعار المشهور" السيف والمحراث"، وهو الذي ابتدع ما أصبح يعرف بـ"سياسة الأرض المحروقة"، أي تدمير القرى، وحرق المحاصيل الزراعية، وقطع الأشجار المثمرة، وإتلاف المراعي، ومصادرة قطعان الماشية. ولخص كل ذلك في أمر عسكري لقادة جيشه هو: "منع العرب من الزرع، والحصاد، والرعي"[42].

لكن، هذا لا يعني أن الذين سبقوه كانوا أقل قسوة وفظاظة، فمنذ السنوات الأولى للاحتلال، راح الجيش الفرنسي يشن حرب إبادة ضد المدنيين العزل، ويرتكب في حقهم مجازر بشعة، وكان الضباط أنفسهم يكتبون عنها بكثير من التفاصيل، وفي شيء من الزهو والتلذذ، وبفضل كتاباتهم تلك، صار

41 " Histoire de l'Algérie contemporaine", p17 .

* رجال القوم، هم الجزائريون الذين انضموا إلى القوات الفرنسية، وحاربوا في صفوفها.

42 Histoire de l'Algérie contemporaine P 20.

بين أيدي الباحثين اليوم شهادات تاريخية على قدر كبير من الدقة. وكانت أخبار تلك المجازر تتسرب إلى الصحافة في فرنسا، فتثير بعضا من ردود الفعل في أوساط الرأي العام، ومن أولايات المجازر التي ارتكبتها القوات الفرنسية بعد الغزو، تلك التي وقعت في حق قبيلة العوفية في ضاحية الحراش ليلة السادس أبريل 1832، فقد فاجأهم الجنود وهم نيام، وأبادوا أفراد القبيلة عن آخرهم دون تمييز في الجنس أو العمر[43]، ولم يتمكن رجال القبيلة القادرون على استعمال السلاح حتى من الدفاع عن أنفسهم، وعند عودة الجنود من هذه المهمة "المخزية" - حسب تعبير أحد الكتّاب - ((كان فرساننا يحملون الرؤوس الآدمية على أسنة حرابهم))[44].

وتتكرر مثل هذه المجزرة في السنوات التالية، لتصبح بالنسبة للجنود الفرنسيين نوعا من أنواع النزهة - كما يصفها الجنرال" شان كارنيي" - وتجارة رائجة بما يسلبونه من ضحاياهم. يقول"كارنيي": ((كان جنودي يجدون في تلك الغزوات المتكررة على القبائل المناهضة لنا من الحراش إلى بورقيقة نوعا من النزهة))[45]. أما السلب والنهب فقد صار عملة رائجة بين الجنود، وقد ابتدع الجنرال"لاموريسيار" طريقة جديدة تشجع على ذلك، وهو إرسال الجنود في مهمات حربية بدون مؤونة ((اعتمادا على أن نهب مطمورات الحبوب والسطو على المواشي كفيلان بتوفير القوت للجندي الحامل لمشعل الحضارة))[46]. وعقب كل غزوة كان الجنود يحملون بضاعتهم إلى سوق"باب عزون" ((ليعرضوا للبيع أساور نساء ما تزال تطوّق بعد معاصمهن المقطوعة، وأقراطا معلقة في قطع من لحم آذانهن))[47].

---

43 Ibid, p17.

44 L'Algérie hors la loi, p 25 .

ويقدر بعض المؤرخين عدد الضحايا بحوالي اثني عشر ألف ضحية. راجع: Abdelghani Megherbi « La Paysannerie algérienne face à la colonisation » E.N.A.P. Alger 1973, p28

45 "L'Agérie hors la loi", p 25 .

46 مصطفى الأشرف"الجزائر الأمة والمجتمع" ترجمة د. حنفي بن عيسى، م.و.ك، الجزائر 1983ص283.

47 L'Agérie hors la loi, p 25 .

وبالرغم من عدم وجود فارق بين قادة جيوش الاحتلال في القسوة والفظاظة، كما تشهد بذلك أفعالهم، إلا ما ندر[48]. إلا أن الفارق بينهم هو أن عمليات التقتيل والإبادة الجماعية في سنوات العشرية الأولى للاحتلال كانت تتم في الغالب بدون ترتيب دقيق، ولا نظام محكم، ولكنها في العشرية الثانية، حين تولى الجنرال"بيجو" القيادة العامة، صار ذلك يشكل استراتيجية مدروسة، لها مخططاتها الواضحة، وأهدافها المحددة سلفا، كما تطورت فيها أدوات القتل، وتعددت وسائل الإبادة، واستعملت فيها كل أنواع الأسلحة، مثل القتل المباشر بالرصاص أو السيف، أو بسلاح النار، أو الخنق بالدخان، أو بغيره من وسائل القتل، وتدمير القرى، وحرق المحاصيل، ومصادرة المواشي، وباختصار: القضاء على كل ما يحفظ حياة الإنسان ويبقيه على قيد الحياة.

وقام بوضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ضباط ومساعدون للجنرال اشتهروا بالقسوة وارتكاب الجرائم الفظيعة، حتى ضج من أعمالهم الرأي العام الفرنسي نفسه، واشتهر منهم خاصة"سانت آرنو" و"شان كارنيي" و"ديريسون" و"لاموريسيار" و"بيليسيي" و"مونتنياك". ومن اختراعات هؤلاء الضباط في القتل الجماعي: الخنق بالدخان، هذا الاختراع الرهيب الذي تسرب خبره إلى الصحافة الفرنسية، وأثار جدلا في البرلمان الفرنسي نفسه، وكان أول من ابتدعه ووضعه موضع التطبيق العقيد"كافنياك" سنة 1844، حين أمر بإشعال نار عظيمة أمام إحدى المغارات على الضفة اليسرى لنهر الشلف، كان سكان تلك المنطقة قد لجؤوا إليها بأطفالهم ونسائهم، ودوابهم، فرارا من بطش الجنود الفرنسيين، فمات الكثير منهم خنقا بالدخان واستسلم بعضهم كرها. وتكرر هذا الفعل الشنيع في شهر جوان من السنة الموالية (1845) على يد العقيد "بيليسي" بمنطقة الظهرة مع أولاد رياح، الذين التجئوا بدورهم إلى مغارة، فأمر جنوده

---

48 مثل الجنرال"بيرتوزان" الذي تولى القيادة لمدة أحد عشر شهرا سنة 1831، وكذلك الجنرال"فوارول" الذي تولى القيادة سنتي 1833و1834 وحاول أن يكسب ود العرب ويمحو آثار سابقيه. راجع: "L'Algérie hors la loi"p 26 .

بإشعال النار عند مدخلها، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة من إضرام النار، اقتحم الجنود المغارة ليروا ما حل بضحاياهم. ووصف أحدهم المشهد بقوله ((حين تمكنا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم، بعد أن خمدت فيه النيران، عددنا أكثر من خمسمائة ضحية، ما بين رجال ونساء وأطفال، وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة))[49].

ونظرا للصدى الذي أحدثته المجزرة في فرنسا نفسها، فقد طلب نواب البرلمان"توضيحات" بهذا الشأن من الحكومة، ووجد السيد "سول" وزير الحربية آنذاك نفسه محرجا أمام النواب، فأدان هو نفسه الجريمة، وانتقد سلوك العقيد بيليسي. إلا أن هذا لا يعني أن الحكومة الفرنسيةلم تكن على علم بما كان يجري في الجزائر، أولم تكن متواطئة مع العسكريين الذين كانوا في ميدان العمليات، وإنما كان دورها أن تقدم لمجلسي النواب والشيوخ ما كان يجري في الجزائر في شكل مُلطَّف ومقبول، وتقنع أعضاء المجلسين بمشروعيته، وتجعلهم يوافقون على رصد الموازنات الضخمة للآلة الحربية، وهو ما حققته فعلا، فكان النواب يوافقون في النهاية على نفقات الحرب، تحت عبارة ((القيام بأشغال كبيرة استعدادا للحرب)) والمساعدات الموجهة لتوطين المعمرين تحت عبارة ((وضع عائلات فلاحين فرنسيين إلى جانب عائلات الأهالي))[50]

وقد أثار موقف وزير الحربية في مجلس النواب حفيظة الجنرال بيجو، فبعث برسالة إلى الوزير يحتج فيها على"تحامله بدون تحفظ" على سلوك العقيد بيليسي، ويعتبر الكلمات الصادرة من النواب "غير لائقة"، لأنها ستحدث، حسب تعبيره، أثرا سيئا في الجيش. وختم رسالته الاحتجاجية

---

49 الجزائر الأمة والمجتمع، ص113.

50 L'Algérie hors la loi, p29 .

بقوله ((وأنا أرى بأن مراعـاة القواعد الإنسانية تجعل الحرب في إفريقيـا تمتـد إلى ما لانهاية، كما أن الثورة فيها لن تخمد أبدا..)) [51].

وواضح من هذه العبارة التي تلخص رأي القائد العام لجيش الاحـتلال في الكيفية التي يتصور بها إنهاء حالة الحرب في الجزائر، أو بتعبير أدق: القضاء علـى المقاومـة الشـعبية، أنهـا تترجـم بشـكل عملـي مبـدأ "ميكيـافيللي" الشهير"الغاية تبرر الوسيلة".

ولا عجب أن يتولى الجنرال بيجو بنفسه الدفاع عن جرائم ضباطه، فقد كانت تلك الجرائم ترتكب في الواقع بتشجيع منه، وأحيانا بـأمر مباشر منـه، وهذا ما حدث بالنسبة للمجزرة التي قام بها العقيد "بيليسي"، الذي تلقى منه قبل ذلـك رسـالة تقـول بـالحرف ((في حالـة مـا إذا لجـأ أولئك"الأنـذال" إلى مغـاراتهم، فافعـل بهـم مـا فعلـه"كافينياك" بــ"الصبايح"، أبـدْهم بالـدخان كالثعالب. إمضاء: الدوق ديزلي*)) [52].

ويبدو أن"لعبة الموت" هذه بالنار والدخان، قد استهوت ضباطا آخرين، فراحوا يتنافسون في استعمالها، غير آبهين - مادام قائدهم يشجعهم عليهـا - بالضجيج الذي كانت تحدثه في فرنسا، وقد بـرز مـن بيـنهم علـى الخصـوص الجنرال"سـانت آرنـو"، الـذي كـرر في الجهـة الشـرقية مـن الـبلاد مـا فعله"كافينياك" و"بيليسي" في الجهة الغربية، ففي شهر أوت من سنة 1845، أي بعد شـهرين فقط مـن جريمة"بيليسـي"، أقـدم هـذا الجنـرال، وبالطريقـة نفسـها، علـى ((تحويـل بعـض المغـارات إلى مقـابر واسـعة)) [53]. وتشـهد على"منجزاته" تلك، تقاريره إلى رؤسائه، ورسائله إلى أصدقائه، التي كانت

---

51 الجزائر الأمة والمجتمع، ص113.

* الدوق ديزلي، أو "ديسلي" هو لقب الجنرال"بيجو" الذي حصل عليه وعلى رتبة "ماريشال" بعد انتصار جيشه على جيش سلطان المغرب في موقعة"إيسلي" بتاريخ 14 أوت 1844. راجع: Histoire de l'Algérie, p 18.

52 L'Algérie hors la loi, p 33 .

53 L'Algérie hors la loi, p33

تحفل بالتفاصيل الكثيرة عنها، وهو الأمر الذي أزعج وزارة الحربية، ودفعها إلى إصدار تعليمات تمنع الصحف من نشر ((تفاصيل شديدة الدقة"يسهل تبريرها" ولكنها غير مجدية في أن يعرفها الرأي العام الأوروبي))[54].

ويروى عن هذا العسكري المحترف للجريمة أنه كان يردد قوله: ((لن أترك شجرة واحدة واقفة في بساتينهم، ولا رأسا واحدة على كتفي هؤلاء العرب الأشقياء))[55] وقد صعب عليه ذات مرة أن يفهم نبل مبادرة الأمير عبد القادر الذي أطلق سراح مجموعة من الجنود الفرنسيين كانوا أسرى لديه دون أية شروط أو مبادلة من أي نوع، فكتب في إحدى رسائله: ((لقد أعاد إلينا عبد القادر كل أسرانا، بدون شروط، وبدون مبادلة، وقال لهم: لم يعد لدي ما أطعمكم به، ولا أريد أن أقتلكم، ولهذا أطلق سراحكم)). وعلق على هذا بقوله: ((إنها لفتة حسنة من همجي))[56]

وعلى هذا المنوال سار الدوق"دومال" الذي خلف الجنرال"بيجو" سنة 1847. حين أحيل هذا الأخير على التقاعد، ومنه تلقى التوجيهات والنصائح[57]. وسياسة الحرق والإبادة الجماعية نفسها اتبعها خليفته الماريشال"راندون" ونفذها في منطقة الوسط على الخصوص، ويمكن أن نذكر هنا من سجلات هؤلاء العسكريين، على سبيل المثال لا الحصر، ما فعلوه بسكان واحة الزعاطشة، الذين أبادوهم عن آخرهم في نوفمبر 1849، وما فعلوه بسكان مدينة الأغواط أثناء احتلالهم لها سنة 1852. حيث قتل معظم قاطنيها، وخرب عمرانها، وأتلف زرعها[58]. وكذا ما فعلوه بسكان تُقُرت سنة 1854[59]. وما ارتكبه

54Ibid, P33.
55 La Paysannerie algérienne, p 33 .
56 Cité par Ferhat Abbas in "Le Jeun Algérien " p 118.
57 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص302.
58 أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر" ص58.
59 Histoire de l'Algérie contemporaine, p19 .

الماريشال"راندون" من فظائع سنة 1857 في بلاد القبائل[60]. رغبة منه في الإجهاز بسرعة على المقاومة الشعبية التي قادتها لالا فاطمة نسومر.

وإذا كان العسكريون لا يأبهون كثيرا بتقديم المبررات عما كانوا يقومون به في الميدان، ولا يلجؤون إلا نادرا إلى الطرق الملتوية في الاستجابة لنزعتهم السادية، وفي إشباع تعطشهم للدماء، فإن هناك دائما فئة من أصحاب"الياقات البيضاء" ممن يتطوعون للدفاع عن أشد الطروحات تطرفا وعنصرية، ولكنهم يحرصون في الوقت نفسه على الظهور بمظهر المتحضرين، المتمسكين بالقيم الأخلاقية والإنسانية، وقد وجدت حرب الإبادة في الجزائر أتباعا ومناصرين ومبررين لها من هذا النوع في الصالونات الباريسية، ويلخص لنا "فلسفتهم" المدعو دكتور"بوديشون" بقوله: ((لا يهم أن تخرج فرنسا في مسلكها السياسي أحيانا عن حدود الأخلاقيات السوقية، فالمهم هو أن تنشئ مستعمرة قارة، وأن تقود البلاد الهمجية نحو الحضارة الأوروبية، وحين يكون هناك عمل يعود بالفائدة على الإنسانية، فإن أقصر الطرق هي أفضلها، والحال هنا أن أقصر الطرق هو استعمال العنف))[61]. وحيث أنه لابد من المحافظة على المظهر المتحضر فإن الأمر لا يحتاج إلا إلى شيء من الرياء ((فدون أن نخرق مبادئ الأخلاق والقوانين الدولية، نستطيع أن نحارب أعداءنا الأفارقة بسلاح البارود والحديد، مقرونا بسلاح الجوع، وإشاعة الفرقة بينهم بالحرب بين العرب والقبائل، وبين عشائر التل وعشائر الصحراء، وبالخمور، والرشوة، ونشر الفوضى في صفوفهم، وكل هذا من أسهل الأمور وأيسرها))[62].

وقد أدت هذه السياسة الميكيافيلية إلى دمار شامل، فأهلكت الحرث والنسل، وقضت على الزرع والضرع، وتسببت في مجاعات أودت بحياة مئات الآلاف من أرواح الجزائريين، نذكر منها تلك المجاعة التي حدثت في سنوات

---

60 L'Algérie hors la loi, p 31 .
61 L'Algérie hors la loi, P33.
62 Ibid, p33.

1867-1869 وراح ضحيتها ما بين خمسمائة وستمائة ألف نسمة[63]. ولم تكن هذه المجاعة هي الأولى ولا الأخيرة، فقد حدث مثلها في السنوات 1845-1850 التي سميت بسنوات البؤس[64]، وتكررت في السنوات 1893و1897و1920. وكانت في كل مرة تحصد آلاف الأرواح، وتتضافر في معظم الأحيان المجاعة والجفاف مع وباء الكوليرا والتيفوس[65]. وهو ما كان يزيد من معاناة الناس ويضاعف من عدد الضحايا. ونسوق فيما يلي شهادتين على ما آلت إليه وضعية الكثير من الجزائريين، واحدة لأحد العسكريين الذين أسهموا بشكل مباشر في صنع ذلك الواقع المزري الذي يتحدث عنه، وهو الجنرال"دوكاستيلان"، والثاني للكاردينال"لافيجري" الذي يروى عنه أنه كان يحمل الخبز والدواء في يد، والصليب في اليد الأخرى، ليقدم للمنكوبين الإسعافات مقابل الدخول في المسيحية[66]. يقول الأول واصفا مشهدا أثار مشاعره: ((كانوا رجالا ينتحرون، تأكلهم الحمى.. يلبسون أطمارا، يغطيهم القمل، ويغوصون في الوحل، يتصارعون مع الموت. كانوا بلا زاد، يتنازعون فيما بينهم على أحشاء الحيوانات الميتة))[67]. ويصف الكاردينال حال العرب في مجاعة سنوات 1867،1869 فيقول: ((منذ شهور عديدة كان هناك عدد كبير من العرب لا يعيشون إلا على حشائش الحقول، أو ورق الشجر، التي كانوا يقضمونها كالبهائم. إنهم يموتون جوعا. تراهم عرايا إلا من أطمار، يتنقلون جماعات في الطرقات بجوار المدن، فيُعمد إلى طردهم، تجنبا لأي نوع من خرق النظام، وتشاهدهم ينتظرون عربات القمامة ليتنازعوا على ما بداخلها ويلتهموه..))[68]

63Cf: «La Paysannerie algérienne face à la colonisation » , p58.
64 Histoire de l'Algérie contemporaine , p37.
65 La Paysannerie algérienne.. , p83.
66 د. يحي بوعزيز"ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" منشورات"المتحف الوطني للمجاهد"، الجزائر، ط2، 1996، ج1، ص230.
67 L'Algérie hors la loi, pp 33-34.
68 La Paysannerie algérienne.. , p53.

وفي إمكاننا ـ لو نحن حاولنا أن نتتبع تفاصيل حرب الإبادة التي شنها الفرنسيون ضد الشعب الجزائري طوال فترة احتلالهم للبلد، أن نسوق عشرات الأمثلة على ذلك ـ ولكن نخشى أن نخرج بذلك عن الحدود التي رسمناها لأنفسنا في هذا البحث، غير أنه من الضروري أن نشير هنا إلى المجازر الرهيبة التي ارتكبوها في حق الجزائريين في تاريخين قريبين إلينا زمنيا، وتعد تلك المجازر أكبر دليل على وحشية الاستعمار في الجزائر، وعلى ما كان عليه من استعداد دائم لممارسة سياسة الإبادة ضد الجزائريين، دونما تردد كلما رأى ذلك ضروريا، ونعني بهما ما حدث في مظاهرات الثامن من مايو 1945، وما حدث في ثورة التحرير الكبرى بين سنتي 1954و1962، ففي الأولى سقط برصاص الجنود الفرنسيين والمعمرين الأوروبيين في أيام معدودة ما لا يقل عن خمسة وأربعين ألف قتيل ـ حسب أشهر الروايات ـ زيادة على آلاف الجرحى والمعطوبين[69]. الذين كانوا قد خرجوا، كغيرهم من أمم الأرض وشعوبها، التي خرجت في ذلك اليوم للاحتفال بنهاية الحرب العالمية الثانية وانتصار ما سمي بالعالم الحر والديمقراطي على النازية والفاشية وعودة السلم لربوع العالم، وكان ذنبهم الوحيد الذي جعل الاستعمار يحكم عليهم من أجله بالقتل الجماعي هو أنهم حملوا العلم الجزائري، وأنشدوا الأناشيد الوطنية، وعبروا في شعاراتهم عن تطلعهم إلى العدالة والحرية. أما في الثانية فقد دفع الجزائريون على يد القوات الاستعمارية ثمنا باهظا فاق المليون ونصف المليون من الأرواح، ناهيك عما خلفته تلك الحرب الإبادية من آلام وجروح نفسية وجسمية لملايين الجزائريين، وما أحدثته من خراب ودمار ما تزال آثاره ماثلة للعيان حتى اليوم. ولم يخرج الاستعمار في نهاية الأمر من هذه البلاد إلا مرغما، وبلغة السلاح التي لا يفهم لغة غيرها.

---

69 "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" ج2، ص87.

2 ـ الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي.

سبق لنا أن بينا النوايا المبيتة من احتلال الفرنسيين للجزائر ، وأشرنا إلى الطابع الصليبي الذي اصطبغت به تلك النوايا، بحيث يشكل احتلال الجزائر، في حقيقته ، حلقة من حلقات ذلك الصراع الديني الحضاري الذي ظل طوال قرون عديدة يطبع علاقة أوروبا المسيحية ببلاد المسلمين ،فكان الغرض هو احتلال الجزائر في مرحلة أولى، وجعلها أرضا مسيحية تابعة لأوروبا، ثم إلحاق كل شمال إفريقيا بها في مرحلة تالية، بالطريقة نفسها التي تمت في الأندلس، غير أنه كان هناك فروق جوهرية بين الأندلس والجزائر تتمثل في أن الجزائر ليست جزء من القارة الأوروبية، وأن أهلها ليسوا أوروبيين، ولا يعيشون مختلطين بالمسيحيين على أرض واحدة مثل ما كان الحال في الأندلس، وأمام وضع كهذا كان هناك خيارات عديدة أمام المحتلين لإلحاق الجزائر بأوروبا، وجعلها أرضا مسيحية ـ كما كانوا يرغبون ـ وذلك إما بتنصير أهلها بالقوة كما حدث بالنسبة لمسلمي الأندلس في القرن السادس عشر الميلادي، وإما باضطهادهم وإبادتهم كما فعلت محاكم التفتيش هناك بمن رفضوا الدخول في المسيحية منهم، أو كما فعل الأمريكان بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية، أوما فعله الأسبان أنفسهم، قبل الأمريكان، بهنود أمريكا اللاتينية وبحضارتهم في المكسيك والأورغواي وفنزويلا والأرجنتين وغيرها، وإما بطردهم إلى الصحراء أو تهجيرهم إلى "أوقيانوسيا" كما اقترح بعض العسكريين وبعض المبشرين المتعصبين[70]. وجلب الأوروبيين إلى البلد وتوطينهم فيها.

والواقع أن المحتلين الفرنسيين قد جربوا كل هذه الخيارات مجتمعة، وقد قدمنا في الصفحات السابقة أمثلة من حرب الإبادة التي شنوها بلا هوادة ضد الشعب الجزائري طوال فترة احتلالهم للبلد، وبكل الأسلحة المكنة : القتل

70 قال بذلك العقيد "دي مونتينياك" والكاردينال "لافيجري"، ولم يكونا الوحيدين اللذين قالا بهذا. راجع على التوالي: "الجزائر الأمة والمجتمع" ص290، و"الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" ص116.

والحرق والتجويع والتشريد والنفي، وترك الناس نهبا للأوبئة والأمراض الفتاكة، مما جعل عدد الجزائريين يتناقص بشكل خطير، وكاد هذا الوضع أن يؤدي بهم، كما تدل الإحصائيات، إلى الانقراض الفعلي. فقد قدَّر الجنرال بيجو سكان الجزائر سنة 1844 بحوالي أربعة أو خمسة ملايين نسمة[71]. ولكن عددهم تناقص في سنة 1872 إلى أقل من نصف هذا العدد، أي إلى مليونين ومائة وخمسة وعشرين ألف نسمة[72]. ولا يرتفع العدد فيبلغ من جديد الأربعة ملايين إلا بعد أكثر من نصف قرن، أي مع مطلع القرن العشرين[73].

أما الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي فقد كان يشكل أولى الأولويات في عملية الغزو، ويأتي في مقدمة كل الأهداف والخيارات الأخرى، وكانت القوة العسكرية مسخرة أساسا لخدمة هذا الهدف. عبَّر عن ذلك منذ السنوات الأولى للاحتلال العديد من القادة العسكريين، وفي مقدمتهم الجنرال"كلوزيل" الذي ترجم هذا المعنى بكل وضوح وهو يخاطب جمعا من المعمرين الأوائل، حين قال: ((إن هذه القوة العسكرية التي تحت إمرتي، ماهي إلا وسيلة ثانوية، وذلك لأنه لا يمكن أن نغرس العروق هنا إلا بواسطة الهجرة الأوروبية فقط))[74]. وكان كلوزيل معجبا بالنموذج الأمريكي في تعمير الأرض، وبتسخير المُلوَّنين الذين يمكن إحلال العرب محلهم في خدمة الأرض[75]. وكان كلوزيل نفسه يملك ثلاثة أحواش (مزارع) استولى عليها من أملاك الوقف والبايلك[76]. تقدر مساحتها بآلاف الهكتارات[77].

وكان الجنرال"بيجو" أكثر العسكريين حماسا لتعمير الأرض بالمستوطنين الأوروبيين وكان يستخدم الجيش في بناء المستوطنات، وشق الطرق، واستصلاح

71 "الجزائر الأمة والمجتمع"، ص287.
72 Histoire de l'Algérie contemporaine , p37, marge .
73 Mohamed Cherif Sahli « Décoloniser l'histoire », p 14 .
74 صالح عباد"المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1984ص7،6.
75 الجزائر الأمة والمجتمع، ص285.
76 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص8.
77 الجزائر الأمة والمجتمع، ص289.

الأراضي، وغرس الأشجار، في انتظار وصول المعمرين، كما كان يشجع الجنود المسرحين من الخدمة على البقاء في الجزائر، وأنشأ لهم المستوطنات ليعملوا فيها جماعيا[78]. ولم يقتصر تشجيعه على فئة الجنود وحدهم أو المهاجرين القادمين حديثا من أوروربا، بل كان يشجع المبشرين المسيحيين أيضا على الاستقرار في الجزائر، ومن ذلك أنه منح في سنة 1843 لطائفة من الرهبان الكاثوليك تدعى "الإخوة لاطراب" أرضا في "سطاوالي" بضواحي مدينة الجزائر، تفوق مساحتها على ألف هكتار[79]. ونوّه في رسالة وجهها إلى رئيس الطائفة بالعلاقات المتينة الموجودة بين الراهب والجندي، وهو ما يشير بوضوح إلى وحدة الهدف بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية، والتقاء المصالح المشتركة بينهما.

ولأن سياسة تعمير الأرض بالجنود المسرحين والمهاجرين الفقراء قد منيت بالفشل في معظم الأحيان، وذلك لضعف خبرة هؤلاء بخدمة الأرض وقلة المال ونقص العتاد بين أيديهم، فقد وجه بيجو عنايته لأصحاب الأموال، ليقدم لهم كل التسهيلات، بل كل الإغراءات. وأصدر قرارا يمنح بموجبه كل أوروبي يملك بين ألف ومائتي فرنك وخمسة عشر ألف فرنك مسكنا وقطعة أرض من أملاك الدولة، تتراوح مساحتها بين أربعة وثمانية عشر هكتارا[80]. وهو القرار الذي كان فاتحة لمرحلة جديدة في استعمار الأرض الجزائرية، بفتح المجال أمام أصحاب رؤوس الأموال لاستثمار أموالهم في الزراعة واستصلاح الأراضي. وقد ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في فترة حكم "بيجو" ليبلغ مائة ألف مستوطن، بزيادة نسبية قدرها 423٪ عما كانت عليه في سنة 1839. وحين نفدت الأراضي التي كانت في حوزة سلطات الاحتلال، أصدر الجنرال قرارين في سنة 1844 و 1846 على التوالي بمصادرة أراضي الجزائريين غير المزروعة،

---

78 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص11.
79 الجزائر الأمة والمجتمع، ص275.
80 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص11.

وأراضي كل من ليس له أوراق رسمية منهم تثبت ملكيته للأرض. وقد شملت المصادرة حتى أراضي "البور" التي كانت تزرع كل عامين، متجاهلا نظام "التبوير" الذي كان تقليدا شائعا بين الفلاحين الجزائريين.

ويلتقي بيجو مع كلوزيل في تصوره أن القوة العسكرية لا معنى لها بدون استيطان الأرض، ولذلك صرف كل جهده طوال فترة بقائه كحاكم عام وكقائد أعلى للجيش، ليجعل من قوة الجيش درعا للاستيطان تشجعه وتحميه وتعمل دوما على توسيع رقعته. وقد أنشأ في ظرف سبع سنوات من حكمه خمسة عشر ألف مستوطنة ريفية، وبلغ عدد المستوطنين الأوروبيين في نهاية فترة حكمه مائة وتسعة آلاف وأربعمائة[81]. وفي وصية له بعث بها سنة 1848 لـ"كافنياك" الذي خلفه في الحكم، يؤكد "بيجو" على ضرورة جعل القوة العسكرية في خدمة الاستيطان، وزيادة عدد أفراد الجيش كلما ارتفع عدد المستوطنين، يقول: ((أرى أن يزداد عدد أفراد الجيش تبعا لازدياد عدد المعمرين))[82]، وهي الوصية التي عمل بها خليفته الأمين، وقدم مشروعا خاصا به لتوطين ما بين مئة وعشرين ومئة وثلاثين ألف معمر[83].

وفي سبيل تحقيق هذا الغرض، ومن أجل أن تكون الجزائر مستوطنة أوروبية خالصة لا يزاحم فيها أبناء البلد الأصليون المستوطنين الجدد، قدم "كافنياك" تصورات يعد بعضها أغرب من الخيال، كأن يُرحَّل الشعب الجزائري بأكمله إلى "أوقيانوسيا"، أما الرجال الذين تزيد أعمارهم على الخامسة عشر فيقتلون عن آخرهم ((ولم يكن مونتينياك يمزح حينما تحدث عن مشروعه بترحيل الأهالي إلى جزر "ماركيز"))[84]، ولم يكن "مونتينياك" الوحيد الذي أتى بمثل هذه التصورات الغريبة، فقد كانت ترد على لسان المعمرين في

---

81 Histoire de l'Algérie contemporaine , p24.

82 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص302.

83 نفسه، ص294.

84 نفسه، ص297.

المناسبات المختلفة، وطبقت جزئيا على الثائرين سنة1871 في بلاد القبائل، حين نفي عدد هام منهم إلى"كاليدونيا الجديدة"[85] واقترح المونسينيور "لافيجري" من جهته، بعد أن فشلت جهوده المضنية في تنصير الجزائريين، أن ينفى"الأهالي" إلى الصحارى ((بعيدا عن العالم المتمدن))[86]. ويذكر المفكر"ألبير ميمي" في هذا الصدد ((أن الأوروبيين وإلى وقت غير بعيد، لم يتخلوا عن فكرة إمكانية الإفناء الكامل لبعض التجمعات السكانية المستعمرة، وقد شاعت مزحة ثقيلة بخصوص الجزائر، نصفها جد ونصفها هزل، تقول: ((لايوجد مقابل كل فرنسي في الجزائر سوى تسعة جزائريين، وعليه، يكفي أن تعطى لكل فرنسي بندقية وتسع رصاصات))[87].

ولتوفير مزيد من الأراضي للمستوطنين، ولأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، ابتكر الحاكم العام الماريشال"راندون" في الفترة ما بين سنتي 1852 و 1858. نظاما جديدا أسماه نظام "المَضارِب" (Les Cantonnements) وبموجبه يتخلى الجزائري عن حقه فيما"يزيد عن حاجته" أو"لا يستطيع استغلاله" من أراضي الملكية المشتركة أو أراضي "العرش"، مقابل اعتراف الدولة له بالملكية الفردية على الجزء الذي يستغله[88].

وقد اعتمد"راندون" في هذا الشكل الابتزازي للأهالي على قانون 1851. الذي صادقت عليه الجمعية الوطنية الفرنسية، ويُسمح بناء عليه للإدارة بتأميم أراضي"العرش"[89]، وبمثل هذه السياسة الابتزازية، والاستيلاء على الأراضي بطرق صريحة ومقنّعة، تمكن المستعمرون من الاستيلاء في الفترة ما بين 1851

---

85 راجع بهذا الخصوص: Seddik Taouti « Les déportés algériens en Nouvelles Calédonie » Dar El-Oumma, 2ème édition, Alger 1997 notamment le chapitre V intitulé: Les conséquences de l'insurrection pp75-79.

86 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص116.

87 Albert Memmi « Portrait du colonisé » Ed. Jean Jacques Pauvert, Utrecht, 1966, p181.

88 Histoire de l'Algérie contemporaine, p27.

89 المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر ص14.

و1861 على ما يقارب ثلاثمائة وخمسين ألف هكتار[90]. وزعت على القادمين من فرنسا وإسبانيا ومالطا وسويسرا[91]. وحصل أصحاب الامتيازات وحدهم من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة على أكثر من خمسين ألف هكتار[92].

وبالرغم من ضخامة المردود المادي الذي حققته سياسة الابتزاز التي اتبعها الماريشال"راندون" لفائدة المستعمرين، فضلا عن تكسيره لنظام اجتماعي قبلي تضامني كان سائدا منذ قرون هو نظام" ملكية العرش"، فقد تبين فيما بعد أنه كان يخدع الجزائريين حين واعدهم بالحصول على اعتراف رسمي من الدولة بملكية أراضيهم مقابل تخليهم عن جزء منها في أرض العرش، حيث كانت عمليات"الاعتراف" بالملكية تتم بناء على مجرد تعليمات على المستوى المحلي، لا يبقى لها في الغالب أي أثر مع مرور الوقت في الأوراق الرسمية[93].

وعقب ثورة المقراني والحداد سنة1871 وجدت السلطات الاستعمارية فرصة سانحة لتسلط على منطقة القبائل عقوبات قاسية، من بينها مصادرة الأراضي، لتضيف للاحتياطي العقاري الذي استولت عليه من قبل مساحة قدرت بخمس مائة ألف هكتار[94].

وقد عرفت حركة الاستيطان فترات نشطة ارتفعت فيها وتيرة الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، لاسيما في الفترات التي كانت تعقب الاضطرابات السياسية أو الثورات أو الحروب التي كانت تحدث في فرنسا، نذكر منها بالخصوص: الهجرة القسرية التي وقعت بعد فشل ثورة 1848 وصعود الأمبراطورية الثانية، فقد أبعد آلاف المناهضين للنظام الأمبراطوري إلى الجزائر، ووزعوا على مناطق الوسط والشرق والغرب، وأعطي كل واحد منهم ما بين

90 Histoire de l'Algérie contemporaine, p28.
91 La Paysannerie algérienne.. , p51.
92 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص15.
93 Histoire de l'Algérie contemporaine, p28.
94 La Paysannerie algérienne.. , p59.

ثمانية وعشرة هكتارات من الأرض، ومسكنا وما يلزمه من حاجيات لمدة ثلاث سنوات[95]. وتكرر الإجراء نفسه مع المبعدين في ثورة"لاكومين" سنة 1871. وكان المهاجرون عقب حرب 1870 مع الألمان من منطقتي الألزاس واللورين أوفر حظا من الثوار المبعدين، فقد واعدتهم الحكومة قبل مغادرتهم الأراضي الفرنسية بمائة ألف هكتار من أجود الأراضي الجزائرية[96]. كما خصت كل عائلة منهم بمبلغ ستة آلاف وخمسمائة فرنك كمساعدة لها على الاستقرار في الجزائر[97]. وهو مبلغ ضخم في ذلك الزمان، في الوقت الذي كانت المجاعة والأوبئة تفتك بآلاف الجزائريين كما أسلفنا، ولا يجدون من الدولة المحتلة أي مساعدة. وهكذا تحولت الجزائر إلى متنفس للأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تحدث في فرنسا. وقد ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في سنة 1871 إلى مائتين وخمسة وستين ألف نسمة[98].

ومع ارتفاع عددهم ونمو ثرواتهم توسعت مصالحهم وتعاظم شأنهم، وأصبحوا يشكلون قوة ضاغطة، ولهم نفوذ في فرنسا نفسها، وأصبح لهم ممثلون في البرلمان الفرنسي، فكان في إمكانهم إملاء القوانين، وتعيين الحاكم العام وعزله[99]. وهذا ما حدث على سبيل المثال عند عودة الجمهوريين وسقوط نظام نابليون الثالث سنة 1870 حين فرض المستوطنون على"حكومة الدفاع الوطني" إصدار سلسلة من القوانين لإقامة نظام مدني في الجزائر بدلا من النظام العسكري الذي كان قائما، حتى يتسنى لهم إطلاق أيديهم بلا مزاحمة من العسكريين، ليتصرفوا في مصير البلد كما يشاءون. وحين خالفت الحكومة رغبتهم وعينت رجلا عسكريا هو الجنرال"ديريو" حاكما عاما، رفض

---

95 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص13.

96 Histoire de l'Algérie contemporaine , p49.

97 Ibid, p49.

98 المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر ، ص15.

99 La Paysannerie algérienne.. , p65.

المستوطنون هذا التعيين، وهاجموا مقر الحاكم وأرغموه بالقوة على مغادرة الجزائر[100].

وبمجيء الحكم المدني ازداد نفوذ المستعمرين أكثر من ذي قبل، وظل يتعاظم باستمرار إلى أن أصبح في إمكانهم أن يؤثروا على مجريات الأمور في فرنسا نفسها. وتجلى هذا النفوذ في أوضح صورة له سنة 1914، حين طرحت الحكومة الفرنسية للنقاش مشروع إصلاح في إحدى جلسات البرلمان يعطي للجزائريين بعض الحقوق السياسية، وذلك عقب الاضطرابات التي أحدثها قانون تجنيد الجزائريين الذي صدر قبل ذلك بعامين. فتحرك المعمرون لمنع مناقشة المشروع، ونجحوا في ذلك نجاحا ساحقا، بحيث قاطع الجلسة 587 نائبا، ولم يحضر إلا سبعة نواب، وسقط المشروع بسبب تلك المقاطعة[101]، وهو الشيء الذي زاد من غرور المستعمرين وثقتهم الزائدة بأنفسهم إلى درجة جعلت ممثليهم في البرلمان يهددون بانفصال الجزائر عن فرنسا إذا لم تستجب الحكومة الفرنسية لبعض مطالبهم[102].

وتواصل مخطط التوسع على أيديهم وتفتحت شهيتهم على الآخر، للاستيلاء على مزيد من الأراضي، تسندهم القوة العسكرية التي تحولت إلى أداة قمع طيِّعة في أيديهم، تأتمر بأوامرهم وتنفذ رغباتهم، وجملة من القوانين التي فصلت على مقاسهم، يأتي في مقدمتها قانون" فارني" سنة 1873 المتعلق بإلغاء الملكية الجماعية، الذي وإن أقر بواقع قائم كان بالفعل فإنه أضفى صفة الشرعية على"تفكيك نظام العرش"[103]. وكذلك قانون"الأندجينا" القمعي، الخاص بالجزائريين وحدهم، الذي وضعت بنوده الأولى عقب ثورة المقراني سنة 1871، واعتمد عليه في محاكمة الثائرين، واكتملت بقية بنوده الواحدة

---

100 Histoire de l'Algérie contemporaine, p39.

101 د. عمار بوحوش"العمال الجزائريون في فرنسا"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر 1975. ص98.

102 "العمال الجزائريون في فرنسا"، ص108، 109.

103 La Paysannerie algérienne.., p63.

والأربعين في سنة 1881[104]، وهو القانون الذي يلحق العار بواضعيه وبمنفذيه في الميدان سواء بسواء بالقدر الذي يهدر كرامة الإنسان الجزائري ويقهر إرادته، ((وقد استغل في أعمال لا يمكن تخيلها، من تغريم جماعي، وتسخير في الأعمال الشاقة، وتصفية جسدية، وحجز، ونفي، إلخ))[105]، حيث كان هذا القانون يبيح للإدارة المحلية توقيف أي جزائري، وإنزال أقسى العقوبات عليه دون الرجوع إلى المؤسسات القضائية[106].

وهكذا استمر مخطط الاستيلاء على الأراضي الفلاحية، وتجريد الجزائريين من أرضهم بشتى الطرق والأساليب القهرية، بحيث بلغ العدد الإجمالي للأراضي المنتزعة منهم في الفترة ما بين 1871 و 1900 وحدها حوالي ستمائة وسبعة وثمانين ألف هكتار[107].

وقد أدى مخطط انتزاع الأراضي الفلاحية والغابية من الجزائريين، على المدى الطويل إلى نتائج خطيرة انعكست على حياة الناس، على كل المستويات، فقد حرموا من وسيلة عيشهم الأولى، التي هي الفلاحة، لاسيما أن الأغلبية الساحقة من الجزائريين كانت تقطن الأرياف والبوادي، وتعيش على زراعة الأرض أو تربية المواشي[108]، ومنعوا من رعي أغنامهم ودوابهم بعد أن صارت الأرض والغابات ملكا للدولة أو المعمرين، فتدهورت أحوالهم المعيشية، وآل حالهم إلى الفقر المذقع، بل وبلغوا إلى مرحلة الفاقة والجوع، فأصبح ما يعرض في الأسواق لا يستجيب لحاجة الناس من الغذاء، ونزل معدل تزود الجزائري بالقوت سنويا من خمسة قناطير من القمح والشعير قبل سنة 1871 إلى قنطارين في سنة 1900، ونزل هذا المقدار إلى أقل من قنطارين في السنوات التي

104 Ibid, p72.
105 Histoire de l'Algérie contemporaine , p63.
106 La Paysannerie algérienne.. , p26.
107 راجع تفاصيل هذا القانون الجائر في "كتاب الجزائر" لأحمد توفيق المدني، ص306/303.
108 Histoire de l'Algérie contemporaine, p50.

أعقبت الحرب العالمية الثانية[109]. وتحول الفلاحون إلى متشردين ومتسولين، يهيمون في الأرض ويقتاتون على ما يصادفونه في طريقهم من الحشائش وثمار الأشجار البرية وجذورها[110]، وأصبحوا مع الوقت يشكلون احتاطا ضخما من اليد العاملة الرخيصة في أراضي المعمرين، التي كانت بالأمس القريب أراضيهم[111].

وقد أبى المعمرون إلا أن يجعلوا من الفلاحين الجزائريين أنفسهم غنيمة حرب، فعاملوهم معاملة العبيد، واستغلوهم أبشع استغلال، وعملوا على قهرهم بكل الوسائل، وعلى تجريدهم من كل حق، ووضعوا لذلك قانونا يحقق لهم هذا الغرض هو"قانون الأندجينا" الذي يقنن وسائل القمع ويسبغ على القهر وممارسة العنصرية صفة الشرعية. كما جند كثير من الفلاحين الجزائريين ومنذ وقت مبكر من عهد الاحتلال ليقاتلوا على الجبهات الأوروبية[112]، وقتل عشرات الآلاف منهم في الدفاع عن شرف فرنسا وحرية شعبها[113].

واقتضت مصلحة فرنسا من جهة أخرى، أن تفتح لهؤلاء الفلاحين غداة الحرب العالمية الأولى باب الهجرة إلى الأراضي الفرنسية لإدارة عجلة مصانع السلاح والذخيرة الحربية، والتحق بهم عدد هام من الجنود المُسرَّحين من الخدمة العسكرية ليشكلوا قاعدة الطبقة العمالية الجزائرية بفرنسا، التي ما فتئت تنمو منذ ذلك الحين وتتكاثر إلى أن أصبح أفرادها يعدُّون بمئات الآلاف.

---

109 حتى عام 1930 لم يكن هناك إلا 10% من الجزائريين يسكنون المدن. راجع :
A. Megherbi «La Paysannerie algérienne.. » p 102 .

110 العمال الجزائريون في فرنسا، ص31.

111 La Paysannerie algérienne.. , p28.

112 يذكر عبد الغني مغربي، نقلا عن مجلة Historama الفرنسية العدد 219، سنة1970، أن تجنيد الفرنسيين للجزائريين في حروبهم على الجبهات الأوروبية بدأت سنة 1854، حين أصدر نابليون الثالث مرسوما بذلك، فتكونت فرقة من فيلقين باسم"فرقة القناصة الجزائريين" شاركت في معركة"كريمي" على الجبهة الروسية في السنة المذكورة آنفا، وشاركت في صنع انتصار"ألما". راجع عبد الغني مغربي في: La Paysannerie algérienne.. », p47

113 راجع تفاصيل ذلك في"العمال الجزائريون في فرنسا"، لاسيما ص99،98.

ووجد هؤلاء الفلاحون في الهجرة فرصة لتحسين ظروفهم وظروف أسرهم المعيشية، وفتحوا الباب لغيرهم من أبناء جلدتهم ليلتحقوا بهم. لكن المعمرين كانوا دائما لهم بالمرصاد، فاعترضوا على فتح باب الهجرة للجزائريين، خشية أن يفقدوا ذلك الاحتياطي الضخم من اليد العاملة الرخيصة، وراحوا يقدمون لذلك أعذارا ومبررات أقل ما يقال فيها أنها كانت واهية ومطبوعة بطابع الحقد والعنصرية، ومنها أنهم حاولوا أن يظهروا بمظهر الإشفاق على المجتمع الفرنسي من ((هؤلاء الفلاحين القتلة والمجرمين)) ومن الأمراض التي سينقلونها معهم، ولاسيما مرض السل ((لتشكل خطرا على الصحة العامة للفرنسيين))[114]. واستطاع المعمرون بالفعل أن يستصدروا قوانين تحد من هجرة الجزائريين إلى فرنسا، وتضع لها شروطا تعجيزية، لاسيما من الناحية المالية، لا يستطيعها إلا القليل من طالبي الهجرة، نظرا لفقرهم الشديد[115].

الإبادة المعنوية أو الروحية:

وترادفت مع حرب الإبادة المادية هذه بشقيها العسكري والاستيطاني حرب إبادة أخرى لا تقل عنها فتكا وتدميرا، بل لعلها الأشرس والأخطر لأنها تستهدف ضرب القيم المعنوية والروحية للإنسان، وتفرعت بدورها إلى شقين هما:

1 ـ هدم وتدمير البنيات الثقافية والاجتماعية والتشريعية والروحية للشعب الجزائري.

2 ـ إحلال بنيات أخرى محلها مستمدة من ثقافة المستعمر ونظمه الاجتماعية.

وفي هذا السياق يمكن أن نفهم دلالة أن يكون أول قرار يتخذه الجنرال"دو بورمون" القائد العام للحملة الفرنسية على الجزائر، فيما يتعلق

114 Le Jeun Algérien, p54.

115 العمال الجزائريون في فرنسا، ص136.

بتنظيم الحياة العامة، هو أن فرض يوم الأحد عطلة أسبوعية، وذلك ابتداء من يوم 5 يوليو 1830، وثاني قرار له هو أنه أمر بتحويل مسجد كتشاوة إلى كنيسة، ورفع بنفسه صليبا كبيرا على المسجد المذكور[116]. ضاربا بذلك عرض الحائط بتلك الضمانات التي كان قد وعد بها السكان في بيانه الموجه إليهم عشية الاحتلال[117]. وبما جاء في معاهدة الاستسلام التي أمضاها بنفسه مع ممثل الداي حسين، وجاء فيها بالحرف: ((إن الجنرال يتعهد بشرفه أن تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن يُنال من حرية السكان من جميع الطبقات، ولا من دياناتهم وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم))[118].

ولم يكن ذلك من الجنرال إلا بداية القطر، فقد توالت انتهاكات تلك الوثيقة منه شخصيا، وممن جاؤوا بعده، وديست كل بنودها بالأقدام، فلم تسلم أماكن العبادة، ولا الممتلكات العامة أو الخاصة، ولا الصناعة، ولا التجارة، ولا غيرها من شؤون الحياة اليومية للناس. وقد روى حمدان بن عثمان خوجة، الذي كان شاهد عيان على ما حدث ودوّن وقائعه في "المرآة" أنه ((تم الاستحواذ على جزء كبير من المساجد، اكتري بعضها للتجار وحولوها إلى محلات، وخصص بعضها الآخر لإسكان جيوش الحملة))[119]. وأعطى الجنرال كلوزيل أوامره بهدم محلات بيع الكتب وسوق المقاييس، وسوق الصباغين ((وأصبح عمالها بعد تهديمها بدون مورد))[120]. كما قام هذا الجنرال نفسه ((بتهديم جزئي لجامع "السيدة" وقلع رخامه بحثا عن كنز مزعوم، أوهمه

---

116 مولود قاسم "أصالية أم انفصالية" ص123.

117 راجع البيان المذكور في "الحركة الوطنية الجزائرية" للدكتور أبو القاسم سعد الله ج2 ، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص443 .

118 د. جمال قنّان: "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائرالحديث"، المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائرية 1987 ص 303، 304. وقد جاء أيضا في البيان المذكور: ((إني أضمن لكم بأنه ليس منا من ينوي مضرتكم، لا في ممتلكاتكم ولا في عائلاتكم (يتبع في الصفحة الموالية) (تابع الصفحة السابقة). إنني أضمن لكم أيضا بأن بلادكم، وأراضيكم، ومزارعكم، ودكاكينكم، وكل شيء ينتمي إليكم، صغيرا أو كبيرا سيبقى على ما هو عليه (...) إننا نضمن لكم أيضا، ونعطيكم وعدا شرفيا وصريحا لا يقبل التغيير ولا التفسير، بأن جوامعكم ومساجدكم ستكون محترمة (...) ونضمن بأن لا أحد منا سيتدخل في شؤونكم الدينية..إلخ)).

119 حمدان خوجة "المرآة" تعريب وتحقيق وتقديم د. العربي الزبيري، ش.ون.ت. الجزائر 1975، ص262.

120 نفسه، ص277.

اليهود بأنه مدفون فيه (...) ولما لم يجد شيئا، نُزِع الرخام وبيع))[121] وحتى المقابر امتدت إليها يد الاحتلال وعبثت بأحجارها وعظامها. يقول حمدان خوجة: ((وفي عهد الجنرال كلوزيل نهب الأموات في مدافنهم، وسمح بالاتجار بالعظام البشرية، وبيعت حجارة المقابر، ثم نقلت إلى باب الوادي لتحول إلى مادة الجير. ووقع الاستيلاء على آجر المقابر))[122].

كل هذا كان مجرد بداية لتنفيذ مخطط الإبادة المعنوية المشار إليه آنفا لتأتي بعده خطوات لاحقة شملت أملاك الحبوس الإسلامية والإدارة والتشريعات والقوانين والتعليم وكل شؤون الحياة العامة، بل شملت حتى جوانب عديدة من الحياة الخاصة للأفراد. ويمكننا أن نحدد معالم المخطط المذكور في الميادين الآتية:

1 ـ الاستيلاء على أملاك الوقف لتجفيف منابع التمويل عن المؤسسات الإسلامية التقليدية التي كانت قائمة، والتي كان ينظر إليها على أنها مصدر المقاومة والمخزون الاحتياطي للثورات ضد الاحتلال، ومن ثمة تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية أيضا.

2 ـ تغيير نظام التعليم السائد في لغته وفي محتواه.

3 ـ القيام بحملات التبشير الواسعة لتنصير السكان.

4 ـ تزوير تاريخ الجزائر وطمسه أو تشويهه إن تعذر طمسه.

---

121 نفسه، ص279.

122 "المرآة"، ص292.

1 ـ الاستيلاء على أملاك الوقف وتعطيل العمل با لشريعة.

صدر قرار الاستيلاء على أملاك الوقف الإسلامية العامة في الثامن من ديسمبر 1830 وكان عددها 2600 وقف، ومنها أوقاف مكة والمدينة التي كان يُحوَّل جزء منها لشريف مكة، فأجبر الوكيل المكلف بها على دفع ريعها للخزينة العامة[123]، وكان قرار التأميم بحجة أن لا تستغل أموال الأوقاف في إشعال وتموين الثورات.

وألغت سلطات الاحتلال العمل بالتنظيمات الإدارية والقانونية التي كانت سارية على عهد الداي، والمستمدة أساسا من الشريعة الإسلامية، وجردت القضاة المسلمين بقرار 28 فبراير 1841 من معظم مهامهم، ونزعت منهم حق الحكم في الجنايات والجنح، وأصبح الحكم فيها من مهام"دائرة الاستئناف" الفرنسية[124]. وصدر قانون 26 جويلية 1873 لينزع من القضاة المسلمين حق النظر في مسائل الملكية والاستحقاق، وأصبح قاضي الصلح الفرنسي هو الحاكم في القضايا العامة بين المسلمين، ولم تعد صلاحية القضاة المسلمين تتجاوز حدود عقد الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام قضاة الصلح الفرنسيين[125].

وبناء على هذا صار الجزائريون يلجؤون مرغمين إلى المحاكم الفرنسية للفصل في نزاعاتهم فيما بينهم أو في نزاعاتهم مع المعمرين، وكانت عضوية المحلفين مقصورة على الفرنسيين وحدهم[126]، وهو الشيء الذي كان يجعل المتقاضي الجزائري في مواجهة غريم هو الخصم والحكم في آن واحد.

وفي نطاق فرنسة البلد وتغيير معالمها العربية الإسلامية عمدت الإدارة الاستعمارية إلى سلسلة من الإجراءات الواسعة النطاق لتغيير أسماء المدن

---

123 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص23.
124 "كتاب الجزائر" ص313.
125 نفسه، ص314.
126 Histoire de l'Algérie contemporaine, p64.

والقرى. لتطلق عليها أسماء ضباط وساسة ورجال دين فرنسيين. مثل"أورليان فيل"(الشلف حاليا) و"قيوفيل"(مستغانم)، و"فيليب فيل"(سكيكدة)، و"ميشلي"(عين الحمام)، و"سانت آرنو" (العلمة)، وروفيكو(حجوط). وكذلك فعلوا بالشوارع والأحياء والساحات العامة، وتجاوز ذلك إلى سجل الحالة المدنية الذي أنشأوه سنة 1882، وتغيرت بسببه الأنساب، وعد في نظر الجزائريين اعتداء مبيتا على هويتهم وأنسابهم[127].

2 ـ تغيير نظام التعليم ولغته

لقد كانت المدرسة من أهم المؤسسات التي استهدفها الاستعمار منذ الأيام الأولى لاحتلاله البلد[128]، وكانت للمحتلين قناعة بأن المدرسة هي المنفذ الذي عن طريقه يتسللون إلى عقول الجزائريين وقلوبهم، ويجعلونهم يقبلون بفكرة الاستعمار، وبالتعايش مع المستعمرين، يتجلى ذلك في العديد من تصريحات وتقارير العسكريين الذين تداولوا على السلطة في بداية الاحتلال، ومنهم الدوق"دو روفيكو" الذي صرح سنة 1832 قائلا: ((أرى أن نشر لغتنا هي الوسيلة الأكثر فعالية لفرض هيمنتنا في هذا البلد))[129]، وقال في مناسبة أخرى: ((إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نُحِل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا))[130]. وهذا أيضا رأي "الدوق دومال" الذي أولى عناية خاصة لهذا الموضوع ، وجاء في تقريره الشامل الذي رفعه إلى الحكومة الفرنسية سنة 1858

---

127 Histoire de l'Algérie contemporaine, p64.

128 L'Amicale des anciens instituteurs et instructeurs d'Algérie « Les enseignants d'Algérie se souviennent.. », Ed. Privat 1981 , p31 .

129 Yvonne Turin, « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale , écoles, médecines, religion, 1830-1880 » , E.N.A.L., Alger 1983, p40.

130 Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, pp40-41.

عن وضعية التعليم ما خلاصته بالنسبة لمستقبل المستعمرة: ((إننا في هذه المؤسسة (المدرسة) سنكوّن فرنسيي المستقبل (يقصد الجزائريين)..))[131].

لكن كيف يتم لهم ذلك وقد وجدوا المدارس الابتدائية (القرآنية) في كل مكان، في المدن وفي القرى وفي رؤوس الجبال وأعماق الصحراء، وكان ذلك موضوع تحقيقات وإحصائيات قام بها المحتلون أنفسهم كما سبقت الإشارة، لاسيما في المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة ووهران وتلمسان[132]. وقد وجدوا صعوبة كبيرة في تغيير هذا الواقع، لاسيما أن التعليم كان مرتبطا أشد الارتباط بالحياة الروحية للشعب، حيث كان القرآن يشكل محوره الأساسي، ولذلك كان التعليم واجبا دينيا قبل أن يكون لأي غرض دنيوي، يطلب لفهم الدين وللتفقه فيه، فكانت الصعوبة بالنسبة للمستعمرين تتمثل في إيجاد الوسيلة التي تمكنهم من الدخول إلى هذا العالم، والكيفية التي يستطيعون بها التوفيق - في مرحلة أولى - بين تعليم مطبوع بالطابع الديني المميز وبين تعليمهم الأوروبي الدنيوي المطبوع بطابع اللائكية؟ لذلك كان لابد من تغيير الوضع الذي كان قائما حتى ولو عن طريق الهدم والتخريب، الذي عبر عنه أحد الضباط المقربين من الجنرال بيجو وهو"شارل ريشار" حين قال: ((فلا نرى مانعا في أن يكون مآل هذه المؤسسات (يقصد المدارس العربية والمساجد) إلى الخراب، وأن يرجع الشعب العربي إلى عهود الجهالة الأولى، وعندئذ سوف يتأتى لنا أن نعلمه شيئا وأن نكسبه إلى صفنا عن طريق التربية))[133]. غير أن قادة الاحتلال الذين كان بأيديهم الحل والعقد آثروا أن يستعملوا طرقا أكثر مرونة، فأنشأت السلطات، باقتراح من الكونت"دو روفيكو"، ابتداء من سنة 1833، أول مدرسة

131Christiane Achour « Abécédaire en devenir, idéologie coloniale et langue française en algérie » Ed. E.N.A.P , Alger 1985, p149.

132 من ذلك إحصاء الجنرال"بيدو" الذي قام به في مدينة قسنطينة سنة 1837، و تقرير الدوق دومال سنة 1848 عن وضعية التعليم في الجزائر، وكذا التقرير المماثل للجنرال"لاموريسيير" سنة 1848 أيضا، وتقرير الرائد ران سنة 1882 عن التعليم العام لمسلمي الجزائر، راجع:
« L es enseignants d'Algérie... » p16.« Abécédaire en devenir » pp146-147.

133 الجزائر ، الأمة والمجتمع، ص338.

مختلطة بمسجد"سوق الجمعة" الذي كان من جملة الحبوس الإسلامية المؤممة، تعلم الفرنسية لأبناء الجزائريين واليهود، والعربية لأبناء الفرنسيين[134]. ثم أنشئت مدارس أخرى على شاكلتها في القبة ودالي ابراهيم، ثم في مدن أخرى مثل وهران وعنابة، وقد كان غرضهم الظاهر هو خلق نوع من التآلف والتقارب والانصهار بين مختلف الطوائف، حسب ما عبر عنه الدوق دو روفيكو[135]. لكن الغرض الخفي كان خلق مدرسة بديلة تنافس المدارس القرآنية التي ظلت رغم تضييق الخناق عليها وعلى معلميها، تؤدي وظيفتها التعليمية.

وقد استقبل الجزائريون هذه المدرسة البديلة بكثير من التخوف ترجمه عدم إقبالهم على إدخال أبنائهم إليها، وامتناعهم عن إعطاء المتصرف الإداري العام"ديبسي" أسماء العلماء والمعلمين الذين كان في إمكانهم القيام بمهمة التعليم باللغة العربية[136]، ولذلك لم يلتحق بهذه المدارس من أبناء المسلمين إلا 95 من جملة 1324 تلميذا[137].

وفي سنة 1850. على عهد الجمهورية الثانية، وأمام فشل النموذج السابق الذكر من تلك المدارس، صدر مرسوم أنشئ بموجبه نموذج جديد من المدارس أطلق عليه اسم"المدارس العربية الفرنسية" [138]، وتبعه مرسوم آخر في السنة نفسها"يقترح" تحديث التعليم العربي القرآني في داخل البلد كله، وكان ذلك في الواقع نوعا من وضع المدارس القرآنية تحت المراقبة المباشرة لسلطات الاحتلال، وهو ما دفع بالكثير من المعلمين إلى هجر مدارسهم وتلاميذهم[139]. وكان الفشل من نصيب هذا النموذج الجديد من المدارس، ولم يتجاوز عدد التلاميذ الذين كانوا يترددون على"المدرسة العربية الفرنسية" من أبناء

---

134 Les enseignants d'Algérie ... , p32.
135Ibid. p32.
136 Affrontements culturels.. , p45.
137 Les enseignants d'Algérie.., p33.
138 Ibid , p34.
139 Ibid. p36.

الجزائريين أكثر من1٪. وأنشئت بعد ذلك مدارس أخرى متخصصة مثل "مدارس تكوين المعلمين"، وبعض المدارس المهنية المخصصة للبنات، لكن ظلت هذه التجارب إلى سنة 1880 عبارة عن سلسلة من التجارب المتتالية الفاشلة بسبب مقاطعة الجزائريين لها[140].

وقد استعمل المحتلون كل الوسائل في هذا الميدان لكسر مقاومة الجزائريين واختراق صفوفهم، فكانوا يدفعون لبعض الدراويش ورجال الطرق مكافآت شهرية ليتكلموا في مختلف المناسبات كلاما في صالح الاحتلال، كما كانوا يختلقون الأحاديث النبوية، ويلفقون الأقوال المأثورة التي تتنبأ بدوام السيطرة الفرنسية، وفي هذا الصدد ذهبت الجرأة ببعض القادة العسكريين إلى حد أنه اقترح تكليف أحد الحجاج الجزائريين بوضع بعض تلك الأحاديث المختلقة، والأقوال الملفقة، خفية، تحت حجر عند ضريح النبي محمد (ص)[141]

ومع مرور الوقت وتكرُّس الاحتلال كأمر واقع راح الجزائريون يتخلون عن تحفظهم شيئا فشيئا إزاء تعليم اللغة الفرنسية لأبنائهم، فأصبحوا هم الذين يطالبون السلطات ببناء المدارس وبالإنفاق على التعليم، على أن لا يكون ذلك على حساب تعليم اللغة العربية أو بإهمال المساجد، ومن ذلك موقف أهالي بجاية في مقابلة لهم مع عامل عمالة قسنطينة سنة 1850 (وكانت بجاية تابعة إداريا لعمالة قسنطينة) حيث سجل عامل العمالة تلك المقابلة في في تقرير له بقوله: ((لقد طلب أهالي بجاية مقابلتي فقابلتهم، فلم يحدثوني عن أملاكهم المحتجزة ولا عن بؤسهم الشديد، ولكنهم خاطبوني قائلين: أصدر الأمر بترميم مسجدنا، ووفر لنا مدرسة لائقة، وادفع للمعلم أجره الذي صار يستحيل علينا دفعه له. هذا كل ما نطلب منك))[142] ويعلق عامل العمالة على ذلك في اندهاش

---

140 Les enseignants d'Algérie.., p37.

141 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص340.

142« Affrontements culturels.. », p33.

وإعجاب لم يستطع إخفاءهما بقوله : ((لقد تأثرت تأثرا عميقا وأنا أواجه هذا النوع من نكران الذات، إلى جانب كل ذلك العوز الشديد، ووعدت أن أتوسط لهم بالحاح لصالح تحقيق رغبات في غاية المشروعية مثل هذه))[143].

ونورد في هذا الصدد أيضا قولا لسي محمد بن رحال[144]. قاله سنة 1881 أمام لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي كان يرأسها "جول فيري"، جاءت لتحقق في أوضاع التعليم في الجزائر، عبر فيه عن رغبة الأهالي الجزائريين، بصفته نائبا عنهم وممثلا لهم: ((ينبغي أن تبنى مدرسة في كل قرية وفي ظل كل نخلة))[145]. لكن المستعمرين، بالرغم من اقتناعهم بأن التعليم هو طريقهم إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، إلا أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام جادين في نشر التعليم على نطاق واسع يسمح للجزائريين بالتخلص حقا من الجهل، والتفتح على الحضارة الأوروبية الحديثة، لأن ذلك كان مناقضا لمصالحهم. لقد كانوا دائما متخوفين من تعليم الجزائريين، وقد عبروا عن ذلك صراحة وبمختلف الأشكال، فجاء هذا التخوف بشكل مهذب ومتسم بطابع التعليل العلمي على لسان علماء اجتماع مرموقين، مثل"كوستاف لوبون" حين قال: ((إن العبارة المتداولة اليوم على لسان كل هندي تعلم الإنكليزية هي"الهند للهنود"، ولو علّمنا نحن"عربنا" لتحولت العبارة على ألسنتهم: "الجزائر للعرب"))[146]، والتخوف نفسه عبر عنه المعمرون لكن بعبارات عارية من كل أدب، ومشبعة بروح عنصرية حاقدة، تجلى ذلك في رفضهم للتشريع المدرسي الذي وضعه"جول فيري" سنة 1883، ونص على إجبارية التعليم لكل الأطفال، وأعطى فرصا أفضل في التعليم لأبناء الجزائريين، وأوصى ببناء

---

143 Ibid, p33.

144 محمد بن رحال 1925.1856، وهو أحد المثقفين الوهرانيين البارزين في الربع الأخير من القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي، وقد عرف بمواقفه الوطنية ، ونضاله من أجل اللغة العربية، وإتاحة فرص التعليم لكل الأطفال الجزائريين راجع : الفصل الثاني من كتاب عبد القادر جغلول"تاريخ الجزائر الحديث" بعنوان: "محمد بن رحال وتعليم الجزائريين"، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت 1982، من ص59 إلى ص124.

145 Christiane Achour «Anthologie de la littérature algérienne de langue française » E.N.A.P. Alger, Bordas. Paris 1990, p20.

146 Les enseignants d'Algérie... , p22

المدارس لهم، على أن تتكفل البلديات بتمويل بنائها، فوصفوا مشروعه بقولهم: ((إنه مخطط مكلف وخطير في آن واحد..)) لفائدة من وصفوهم بـ"جموع المشردين"[147] وتلتقي حجتهم مع حجة"لوبون" المذكورة آنفا ((بأنه في حالة تعميم التعليم فإن النداء الذي سيجتمع عليه"الأهالي" هو" الجزائر للعرب"))[148].

إن هذه الحقيقة تتجلى لنا أكثر من خلال الأرقام إذا ألقينا نظرة على تطور عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا يؤمون المدرسة الفرنسية، فقد كان عددهم سنة 1879 على سبيل المثال لا يزيد عن 3172 (وكانت نسبة الفتيات بينهم ضئيلة) وفي سنة 1892، أي بعد الإصلاحات التي أقرها قانون"جول فيري"، بلغ العدد 11500، ولم يتجاوز عددهم في مطلع القرن العشرين 24172 لعدد من السكان يقارب الخمسة ملايين نسمة، بحيث لم تتجاوز نسبة التمدرس بين الأطفال الجزائريين أكثر من 2٪[149]، وفي هذه الفترة بالذات كان عدد أطفال المستعمرين في المدارس يبلغ 92 ألف تلميذ، لعدد من السكان لا يصل إلى نصف مليون نسمة[150].

لقد كانت السياسة التعليمية الاستعمارية في جميع مراحل الاحتلال محكومة بأهداف محددة، حتى وإن لم تكن دائما معلنة، وعلى هذا الأساس أنشئ في الأول ما أطلق عليه اسم"المدارس الموريسكية الفرنسية" ثم"المدارس العربية الفرنسية" و"المدارس البلدية المختلطة" و"مدارس المعلمين"، إلخ.. وكانت دائما تستجيب لحاجات محددة ومحدودة، فقد كان الغرض في النوع الأول هو إدخال اللغة الفرنسية إلى المدارس القرآنية، وكان الغرض في النوع الثاني هو تكوين نخبة من المتعلمين يحتاج إليها الفرنسيون في تعاملهم مع

---

147 Histoire de l'Algérie contemporaine, p70.
148 Les enseignants d'Algérie..., p70 .
149 الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال" مؤسسة"موفم" للنشر، الجزائر 1993، ص17.
150 Les enseignants d'Algérie.., p94.

الجزائريين، كموظفين في القضاء الإسلامي وفي الترجمة العسكرية والعدلية، وحتى في التدريس باللغة العربية[151]، وفي جميع الأحوال فقد كان الغرض هو تكوين نخبة تكون واسطة بين الإدارة وبين الأهالي، وتكون الأسبقية لأبناء الأعوان والأعيان كالقياد والأغوات والقضاة وكبار ملاك الأراضي[152] وبناء عليه، لم تكن هناك أبدا نية في يوم من الأيام لتعميم التعليم، حتى ولو كان بلغة المستعمرين، لأن ذلك سيجعل الجزائريين يتخلصون من شبح الجهل ويدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم المهضومة.

إن هذه الأمثلة تكشف عن مدى تناقض السياسة الاستعمارية وتذبذبها بين رغبة في تحويل الجزائريين إلى فرنسيين عن طريق المدرسة، وبين تخوفها من نتائج التعليم التي يمكن أن تتحول في أيديهم إلى سلاح يستعملونه لرفع الظلم والاستغلال المسلط عليهم.

3 ـ *النشاط التبشيري المسيحي*

سبق أن أشرنا من قبل أن من نوايا الغزاة المبيتة أن يجعلوا من الجزائر أرضا مسيحية، وقد أجمع الكل على ذلك: السياسيون و العسكريون ورجال الدين على السواء، حتى وإن اختلفت أغراضهم من ذلك وتباينت الأولويات عند كل فئة منهم، بين الغرض الدنيوي عند الفئة الأولى بما تمثله المستعمرة الجديدة بأراضيها الواسعة وثرواتها الهائلة، وبين الغرض الديني لدى فئة الكهنوت الذين كانت تحركهم في المقام الأول نوازع صليبية، فكان هدفهم هو محاصرة الإسلام وتقليص رقعته الجغرافية، والعمل بشتى الطرق والوسائل على إضعافه بإدخال المسلمين في المسيحية. وقد ظهرت البوادر الأولى للعمل على تحويل وجه البلد عن طابعه الإسلامي المميز إلى المسيحية منذ البدايات الأولى للاحتلال، وتمثلت خاصة في الاستيلاء على أملاك الأوقاف الإسلامية، كما

---

151 أبو القاسم سعد الله "اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية". مجلة "الكلمة"، الجزائر، العدد 4 يناير 1993 ص7.
152 راجع: الطاهر زرهوني" التعليم في الجزائر"، ص18.

سبقت الإشارة، وتحويل عدد من المساجد إلى كنائس، وحدث ذلك بطريقة فظة لا تتفق أبدا مع الحضارة التي ادعى الغزاة أنهم جاؤوا لينشروها بين أهالي البلد، ولا مع تعاليم المسيح الذي كان يبشر بالسلام والمحبة. تجلى ذلك في طريقة استيلائهم على مسجد"كتشاوة" الذي دخله الجنرال" دو روفيكو" وجنوده عنوة، وأجبروا أربعة آلاف مصلٍ كانوا يعتصمون به على مغادرته بالقوة، ليجعلوا منه كاتدرائية أطلقوا عليها اسم"القديس لويس فيليب"، وهو أحد أشهر ملوك فرنسا الصليبيين، وقد مات في تونس سنة 1270 م وهو على رأس إحدى الحملات الصليبية على بلاد الإسلام[153]. وفي إطلاق اسمه على أول مؤسسة مسيحية تقام في الجزائر عن طريق الغصب، ما يشير إلى الروح الصليبية التي كان يضمرها الغزاة.

وقد أسهمت الملكة"إميلي" زوجة الملك"لويس فيليب" نفسها في تقديم هدايا للكاتدرائية الجديدة، كما بعث البابا"كريكوار السادس عشر" للكاتدرائية الجديدة بتماثيل للقديسين، وأعرب عن امتنانه وشكره للذين قاموا بذلك العمل[154]، ويتضح من هذا كله أن ما قام به العسكريون في الجزائر لم يكن مجرد تجاوزات فردية لضباط جيش الاحتلال، وإنما كان يدخل ضمن مخطط ثلاثي الأطراف، رأسه في الجزائر وقاعدته في باريس وروما، وهو المخطط الذي سيتضح مع مر الأيام ومع التوسع في الاحتلال، بحيث كان هناك دائما تنسيق وتآزر بين السلطة الرسمية في باريس، والعسكرية في الجزائر، والروحية في روما، وقد برز في أجلى صوره من خلال هذه التظاهرة الرسمية المسيحية في حفل افتتاح كاتدرائية لويس فيليب، كما تجلى التآزر والتنسيق مرة أخرى بين

153 هو لويس التاسع، الذي لقب بالقديس، عاش ما بين 1214 و 1270 م، واشتهر بحملتين صليبيتين قادهما بنفسه، واحدة إلى مصر حيث انهزم وأسر في دمياط سنة 1249م واشترى حريته بالمال، والأخرى إلى تونس، وفيها مرض وتوفي ودفن سنة 1270. المرجع : « Larousse » مادة : St-Louis

154 الحركة التبشيرية، ص34.

الأطـراف الثلاثــة في المخطـط الـذي وضـعوه سـنة 1833 بشـأن إرسـال فرقة"العازاريين" إلى الجزائر للشروع في مهمة تنصير السكان[155].

لقد كان الملك لويس فيليب على قناعة تامة ((أن مستقبل المستعمرة (الجزائر) مرهون بتنصير سكانها)) ولذلك كان يشجع المبشرين ويؤيد مساعيهم، ذلك ما فعله على سبيل المثال مع الكونت "أوغسطين دوفيلار" أول من فتح باب التبشير في الجزائر وأقام ملاجئ للأيتام في بوفاريك، مع أخته الراهبة "إميلي دوفيلار"، التي استجلبت راهبات من فرنسا، وفتحت أول مدرسة للبنات بالجزائر سنة 1836، فلقيت بدورها كل التشجيع والمساعدة من الملك وزوجته على السواء[156].

وكان العسكريون يشاركون ملكهم في قناعته بضرورة تنصير السكان ويوفرون الحماية للمبشرين، وكان الماريشال"سولت" وزير الحربية قد بعث في سنة1841 لجنة خاصة كانت مهمتها البحث عن وسائل الاستعمار بواسطة الفرق الدينية، وجاء تقرير اللجنة المذكورة ليؤكد ((أنه لا يمكن للجزائر أن تكون فرنسية إلا إذا أصبحت مسيحية))[157] وعلى إثر ذلك أرسلت فرقة"الإخوة لاتراب" إلى الجزائر، وأسست مركزا فلاحيا بمنطقة سطاوالي، ولقيت دعما كبيرا من الجنرال بيجو، الذي قيل عنه إنه كان يكره رجال الدين، وقد وضع بنفسه الحجر الأساسي لدير هذه الفرقة الدينية، ونوه في كلمته بهذه المناسبة بالعلاقة المتينة بين الراهب والجندي[158]، وسلم للأب "بريمولت" مجموعة من الأطفال الجزائريين الأيتام قائلا له: ((حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، فإذا فعلت فلن يعودو إلى دينهم ليطلقوا علينا النار))[159].

155 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص43 .
156 نفسه، ص46.
157 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص81.
158 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص275 .
159 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص62.

والدعم والتأييد نفسه يلقاه القس"سوشي" عند نزوله بقسنطينة من قبل الجنرال"دوغالبوا" الذي تيمن بمقدمه، وأعلن له عن ترحيبه بـ"أخوات القديس يوسف" واستعداده لإيوائهن بقصره حتى يجد لهن محلا خاصا بهن. وتعبيرا عن حسن نواياه في هذا المسعى ورغبته في التعاون مع القس لخدمة الحركة التبشيرية، أقدم الجنرال على تحويل مسجد أحمد باي إلى كنيسة، وأغلق في المقابل خمسة عشر مسجدا بالمدينة. وكان القس سوشي قد أرسل إلى قسنطينة بتوصية من الجنرال"فالي"، وبالتنسيق مع الأسقف"دبيش" - وهو أول أسقف يعين على رأس أسقفية الجزائر بعد تأسيسها سنة 1839 - وكان "سوشي" يمثل الساعد الأيمن للأسقف"دبيش" في شؤون التبشير[160].

وكتب"لويس فويو"، الكاتب الخاص للجنرال"بيجو" يقول ((بأن مستقبل المستعمرة سيكون حالكا إذا لم تقدم السلطة على تنصير السكان))، وكان هذا الكاتب يتصور أن الإسلام سوف يختفي من الجزائر - بفعل التبشير - في ظرف عشرين عاما[161]. ولعله برأيه هذا يكون قد أثر على الجنرال بيجو، وجعله يغير موقفه من رجال الدين ويتعاون معهم في مهمتهم التبشيرية.

أما رجال الدين أنفسهم، فبحكم اختصاصهم كانوا أكثر قناعة وأشد حماسا من السياسيين والعسكريين لمهمتهم التنصيرية، فكان الأب"لاندمان"، الذي قدم إلى الجزائر سنة 1839 لينفذ مشروع "الجمعية المسيحية لاستعمار وتحضير إفريقيا" يقول: ((إن فرنسا لا يمكن لها أن تستعمر إفريقيا إلا بعد أن تغرس قوانينها ودينها ولغتها))[162]. وكان الكاردينال "لافيجري" يرى بدوره ((أن تنصير مسلمي شمال إفريقيا سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي بالجزائر))[163]. وتحقيقا لهذا الغرض اشترى الأب"لاندمان" سنة 1847 خمسمائة

---

160 نفسه، ص53.

161 Rabah Belamri «L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» O.P.U. Alger 1980 p97.

162 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص89.

163 نفسه، ص119.

هكتار من الأراضي الزراعية قرب قالمة، وأنشأ عليها مشروع قرية فلاحية، على غرار ما فعله"الإخوة لاتراب" في سطاوالي، وأقام بها ملجأ للأيتام والمشردين من أبناء الجزائريين، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشر والثامنة عشر، يعملون في الأرض، ويتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الدين المسيحي، وكان يشرف عليهم ويقوم بتعليمهم خمسة من الرهبان. وقد شجع الماريشال "سولت" مشروع الأب لاندمان وساهم فيه بمبلغ عشرين ألف فرنك[164].

وعلى خطوات الأب لاندمان سار الكاردينال"لافيجري"، الذي برز بشكل خاص في مجاعة 1867ـ1869، فأقام الملاجيء للمشردين من أبناء المسلمين، في بوزريعة وبولوغين والأبيار والقبة وبوفاريك ومدينة الجزائر، قصد معالجتهم وتنصيرهم[165]، وبنى قرى عربية مسيحية، واشترى أراضي واسعة في العطاف، وأسس قريتين كبيرتين بها، وزوج الأيتام فيما بينهم. وكان يهدف إلى استعمال الأهالي أنفسهم في التبشير، ويريد أن يقدم البرهان على أن الاندماج يمكن أن يحدث عن طريق التنصير. وقد جاءته التبرعات من كل حدب وصوب في فرنسا، وحصل على مساعدة وتأييد الأمبراطور نابليون الثالث نفسه، الذي كان مثل سلفه لويس فيليب يؤمن أن تطبيق"سياسة الاندماج" التي حاول تطبيقها في الجزائر، لا تأتي إلا عن طريق التنصير والتعليم. وجاءت المساعدات للكاردينال من انكلترا وبلجيكا، وإسبانيا وإيطاليا، ومن البابا شخصيا، ومن الكنيسة البروتستانية[166].

والكاردينال لافيجري هو الذي دعا إلى جلب الموارنة المسيحيين من لبنان، للاستعانة بهم في تنصير الجزائريين[167]. وكان قنصل فرنسا في الإسكندرية قد راسل وزارة الخارجية، وأشار إلى أهمية استعمار الجزائر عن

---

164 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص91،92.
165 نفسه، ص112.
166 نفسه، ص113.
167 نفسه، ص111.

طريق جلب الموارنة المسيحيين من لبنان ((الذين سوف يؤثرون على سكان الجزائر حينما يسكنون بينهم))[168]. وهذا دليل آخر على أن السياسيين والعسكريين كانوا لا يلتقون مع رجال الدين في الهدف وحسب ولكن يلتقون معهم في التفكير أيضا.

وبفضل المساعدات الضخمة التي تلقاها، والتأييد الذي وجده الكاردينال من السلطات المدنية والعسكرية ومن المستوطنين، أنشأ سنة 1869 فرقة" الآباء البيض"، وهي الفرقة التي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر ثم في تونس والمغرب ثم في إفريقيا بعد ذلك[169]. كما أنشأ أيضا فرقة "الأخوات البيض" للتبشير في الوسط النسائي عن طريق التطبيب والتعليم والخدمات الخيرية. لأن الوصول إلى المرأة - كما قال - هو وصول إلى الأسرة كلها[170]. وحين رأى تمسك السكان بدينهم عد ذلك تعصبا أعمى، وراح يهاجمهم لأجل ذلك ويسئ إليهم، وقد دعا في إحدى لحظات اليأس، بعد أن فشلت جهوده المضنية في تنصير الجزائريين إلى تزويدهم بنسخ من الإنجيل وطردهم إلى الصحراء[171]

وكانت استراتيجية المبشرين بمختلف نحلهم تهدف إلى التقرب من الأهالي واستمالة قلوبهم عن طريق القيام بالأعمال الخيرية، كإنشاء مراكز للمشردين. وتقديم المساعدة الطبية للمرضى، وبناء المستشفيات وإنشاء القرى الفلاحية وغير ذلك. وعن طريق أعمال البر والإحسان كانوا يحاولون جلب الناس إلى الدين المسيحي. ووضعت للعمل التبشيري قوانين أسقفية، وسطرت له أهداف، وحددت طرق وأساليب للعمل بغرض التأثير على الأهالي[172].

---

168 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص93.
169 نفسه، ص128.
170 نفسه، ص129.
171 نفسه، ص116.
172 راجع مواد"القوانين الأسقفية للتبشير بين الأهالي" في كتاب"الحركة التبشيرية... الملحق رقم 3، ص169.

وكان موضوع غزو بلاد القبائل عن طريق التبشير محل مراسلات ومشاورات بين الدوق دومال والأب"ريجيس"، وأبى هذا الأب إلا أن يرافق حملة الجنرال"راندون" على هذه المنطقة، وجسد أحد الرسامين يدعى"هوراس فيرني" تعاون الكنيسة مع العسكر في لوحة تظهر خضوع السكان للقوة الفرنسية، ويعلو المشهد صليب كبير يقف الأب ريجيس إلى جانبه وهو يقيم قداسا، تخليدا لهذا الغزو[173]. وقد حصل الأب ريجيس على "صليب جوقة الشرف" من الحكومة الفرنسية اعترافا له بمشاركته في عملية الاستعمار في الجزائر.

وتضافرت جهود الكنيسة مع جهود السلطات السياسية والعسكرية في إقامة المستعمرات، فكان المبشرون يجمعون التبرعات في فرنسا ويشترون الأراضي، ويقيمون المستوطنات لفائدة عائلات فلاحية تستجلب من مقاطعة الألزاس وغيرها من المقاطعات الفرنسية، وهذا ما فعلته"الجمعية المسيحية لاستعمار وتحضير إفريقيا" التي أسسها الأب "لندمان" والأمير البولوني"كازيمير بيرسي"[174] وأنشأ الأب "دوغا" من جهته "جمعية للصلاة من أجل تنصير المسلمين في العالم وإحياء الكنيسة الإفريقية" فانخرط فيها الفرنسيون بعشرات الآلاف، ووفروا لها المال الكثير[175].

غير أن حسابات السياسيين والعسكريين حتى وإن التقت في الهدف مع المبشرين فإنها لم تكن تتطابق دائما وحسابات هؤلاء، ولا تتفق في أسلوب العمل ولا في درجة الحماس، فكان ذلك مدعاة لنشوب الخلافات بينهم وتبادل الاتهامات أحيانا، وذلك ما حدث على سبيل المثال بين الماريشال"ماكمهون" و"الكاردينال لافيجري"، فقد ضاق الماريشال بتجاوزات الكاردينال، وهو الذي استحسن من قبل فكرة استجلاب الموارنة من الشرق، وأبدى استعداده

---

173 نفسه، ص84.
174 نفسه، ص87.
175 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص70.

لاستقبالهم في القطاع الوهراني[176]، وأعلن له عن عدم رضاه عن ذلك، غير أن الكاردينال رد على النقد باتهام "المكاتب العربية" التي يديرها العسكريون بأنها تقف في وجه العمل التبشيري، وتمنع التأثير الأوروبي عن المسلمين[177]. وحين لم يجدالماريشال أذنا صاغية من الكاردينال، بعث برسالة إلى وزير الحربية يطلب منه وضع حد لأعمال لافيجري، لكن الوزير تجاهل الطلب لأنه كان يؤيد أعمال الكاردينال[178].

وأمام تكرار شكاوى العسكريين من أعمال لافيجري، اضطر الأمبراطور نابليون الثالث نفسه إلى التدخل، وأمره بترك شأن العرب للحاكم العام، لكن التأييد الذي لقيه لافيجري في رحلته إلى فرنسا على المستوى الرسمي (من الحكومة) ومن الرأي العام، جعل الأمبراطور يعدل عن رأيه ويسمح له بمواصلة مهمته التبشيرية[179].

وهكذا التقت الأطماع التوسعية الاستعمارية مع الأحقاد الدينية الصليبية لتشكل حلفا مقدسا استولى على الأرض، ونهب خيرات البلاد، واستعبد أهلها، وحاول القضاء على هوية الشعب الجزائري وعلى دينه، واستبدالهما بهوية الغزاة ودينهم.

4 - تزوير تاريخ الجزائر أو تشويهه

كان لابد للاستعمار في مرحلة معينة من مراحل الاحتلال أن يخلق، من جهة أخرى، أيديولوجية تبرر وجوده، ويستند إليها في استمرار احتلاله للبلد، وكان العمل في هذا الاتجاه يمضي نحو اتجاهين متعاكسين، الاتجاه الأول هو نسج أساطير تكون بمثابة مبررات تسبغ على وجوده نوعا من الشرعية

---

176 نفسه، ص98.
177 نفسه، ص118.
178 نفسه، ص120.
179 الحركة التبشيرية، ص121.

وتعطي له الحق في إعمار الأرض، والاتجاه الثاني يتمثل في العمل على نفي وجود الآخر (المستعمَر)، وطمس تاريخه، وتشويهه عندما يكون طمسه أمرا غير ممكن. وقد اشترك في هذه المهمة مؤرخون، وباحثون في الآثار، ومستشرقون، وعلماء اجتماع، وعلماء الأجناس، ولغويون، وأدباء، وبالطبع اشترك في هذه المهمة عسكريون، ورجال دين، وتحولت الجزائر بذلك إلى حقل تجارب وميدان واسع للبحث في مختلف الميادين.

أسطورة "الجزائر الرومانية"

والواقع أن أيديولوجية الاستعمار المبنية على الاتجاهين المشار إليهما، قد بدأت تتشكل كغيرها من المخططات الاستعمارية، منذ الأيام الأولى للاحتلال، فقد كان المستعمرون يعتبرون أنفسهم ورثة للأمبراطورية الرومانية، وأنهم بهذه الصفة إنما يستعيدون ما فقدوه من أرزاق وممتلكات[180]. وكان العقيد كافينياك من أوائل من اهتموا بأسطورة"الجزائر الرومانية" التي أصبحت تشكل إحدى مبررات المستعمرين في احتلال الأرض، وإحدى الركائز التي تنبني عليها أيديولوجيتهم. وكان العقيد"كافينياك" خبيرا في الآثار، فاهتم اهتماما كبيرا بالحفريات، وأمر بإجرائها ((لكي يستخرج الآثار التي تبرهن للبدو بأن الأوروبيين لهم حقوق قديمة في امتلاك البلاد))[181]. وكانت فكرة تنصير الشعب الجزائري لدى المبشرين تقوم أيضا على هذا المبرر، فعملوا من جهتهم على إحياء فكرة الكنيسة الإفريقية التي أسسها المحتلون الرومان في شمال إفريقيا، وإلى ذلك يشير القس"سوشي" في شيء من الزهو ومن الحنين إلى تلك الفترة عند زيارته لمدينة قسنطينة سنة 1839، حين كتب يقول: ((إن الجنرال "دوغالبوَا" استقبلني بكل حفاوة في هذه المدينة التي لم يدخلها قسيس منذ 1400 سنة))[182].

---

180 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص283.

181 نفسه، ص284 .

182 نفسه، ص53.

وقد عرفت الجزائر أعدادا هائلة من ضباط الشؤون الأهلية والرحالين والمبشرين الذين اختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة لدى سكان البلد بمختلف مناطقهم[183]، وكانت تلك الدراسات، والتحقيقات، والتقارير، والتصنيفات، والخرائط، والفهارس، تهدف في الأول إلى أغراض استراتيجية آنية وهي مراقبة العدو لتصفيته جسديا، ثم صارت فيما بعد تهدف لأغراض سياسية، وهي معرفة هذا العدو من الداخل، من أجل تحطيمه اقتصاديا وثقافيا[184]. وقد قام بجزء من هذه المهمة المستشرقون وعلماء الإناسة، وحاولوا أن يقنعوا الأهالي المغلوبين على أمرهم بأن المستقبل مع المستعمر، وأنه لا مستقبل لهم بدونه[185]، حتى وإن وجد من بين هؤلاء من رفض السير في هذا المسعى وهم قلة قليلة، مثل المستشرق إسماعيل "أوربان"* الذي جهر برأيه، واستنكر ما كان يجري من جرائم في حق الإنسان الجزائري، وحذر الحكومة الفرنسية من عواقب سياستها في الجزائر، واقترح عوض الاستعمار المباشر أن تنشأ في الجزائر مملكة عربية تفرض عليها الحماية. غير أن آراءه قوبلت بحملة صحفية شديدة اللهجة، سواء في فرنسا أو في الجزائر[186].

وقد سمحت تلك المعرفة الدقيقة بالتركيبة الاجتماعية للسكان من استغلال نقاط الضعف فيها، وتصريفها لفائدة المستعمرين، الذين استغلوا بالأخص النعرات القبلية لزرع روح الشقاق بين السكان، بتقسيمهم إلى بربر وعرب، ووصفوا الأوائل منهم بالأصلاء والآخرين بالغزاة الدخلاء[187]. متبعين في ذلك سياسة المحتلين الرومان الذين اخترعوا وطبقوا قبلهم سياسة "فرق تسد" ليتمكنوا بها من بسط سيطرتهم على شمال إفريقيا. وفي هذا السياق ذهب بعض

183 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص138.
184 «L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» , p104.
185 Daniel Reig «L'homo-Orientaliste» Coll. Islam-Occident. Ed. Maisonneuve et Larose, Paris 1988,p144.

* وكان قد اعتنق الإسلام في تركيا قبل مجيئه إلى الجزائر.

186«L'homo - Orientaliste », pp146-147.
187 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر"ص138.

المستعمرين يبحثون للقبائل عن أصل آري، وقالوا عنهم إنهم من أصل جرماني، وأنهم عرفوا المسيحية قديما[188]. غير أن الكاردينال "لافيجري" حين ركز جهوده التبشيرية على هذه المنطقة ذكر أسبابا أخرى هي أقرب إلى الأهداف الحقيقية للاستعمار من محاولة عزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الأخرى من البلاد، منها كثافة سكانها وتجمعهم في منطقة واحدة، وعزلتهم بسبب التضاريس الطبيعية عن المناطق الأخرى، واعتقاده أن التعاليم الإسلامية غير متمكنة في نفوسهم*.

وكان الجنرال "دوماس" أول من اهتم من العسكريين بدراسة عادات وتقاليد القبائل، ورأى أنهم يحتفظون بقوانين قديمة لا تتفق مع تعاليم الإسلام[189].

تأسيس جامعة الجزائر

وبتأسيس جامعة الجزائر سنة 1900 أنشأ الاستعمار ما أطلق عليه المؤرخ الجزائري محمد الشريف ساحلي اسم "المشتلة الأيديوجية"، التي ستتكفل بتخريج مدافعين أشداء عن أيديولوجية الاستعمار من قانونيين ومؤرخين وفلاسفة ولغويين[190]، كان عملهم كلهم يسير في الاتجاهين المذكورين آنفا، ويصب في الأهداف نفسها التي تخدم الاستعمار وتقدم له المبررات "العلمية" لوجوده في الجزائر، وحق البقاء فيها.

---

188 نفسه، ص140.

* وقد أثبتت له الأيام أنه كان واهما في تصوره، وذلك من خلال حادثتين بارزتين على الأقل، الأولى أن التبشير كان أحد العوامل الرئيسية في قيام ثورة الطريقة الرحمانية سنة 1871، التي قادها المقراني والشيخ الحداد، وكان الناس قد ضاقوا ذرعا بنشاط المبشرين، والثانية تتمثل في الجهود التبشيرية المضنية التي بذلها الأب كروزا ، لمدة تزيد عن العشرين سنة، بتشجيع من الكاردينال وتأييده المادي والمعنوي، ولكنه فشل في مهمته فشلا ذريعا، جعل العقيد "هانوتو" قائد القطاع العسكري يكتب للماريشال "ماكماهون" قائلا ((إن الأب كروزا يسعى إلى هدف وهمي)) بل ويحذر من تصرفاته ((التي تزود كل من أراد أن يستأنف الحرب، بمحرك يدفعه إلى القيام بها)). راجع خديجة بقطاش "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" من ص146 إلى ص152.

189 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" ص140.

190 «Décoloniser l'histoire», p14.

وهكذا انصب اهتمامهم على فترة الاحتلال الروماني للجزائر، فسلطوا عليها الأضواء وألفوا فيها المؤلفات، وأولوا عناية خاصة بالآثار الباقية من تلك الفترة، ونشطت التنقيبات عن المدفون منها تحت الأرض، فتم إحصاؤها وتصنيفها، ووضعت لها الخرائط، وجهزت لها المخابر، وبنيت المتاحف، ودرست دراسة معمقة. ومن هنا أصبحت الخرائب الرومانية في تيبازا وشرشال وجميلة وتيمقاد وغيرها محجة للدارسين والمنقبين والمبشرين والأدباء والسواح على السواء، يدفعهم الفضول العلمي، أو يحركهم الحنين الديني، أو يسوقهم الاغتراب الرومانسي، أو يتسلط على عقولهم الهوس العرقي ووهم البحث عن أمجاد"إفريقيا اللاتينية"**.

وفي مقابل هذا الاهتمام بالفترة الرومانية تجوهلت الفترات التاريخية الأخرى وطمست معالمها وأهملت آثارها، وبالأخص الآثار الإسلامية التي لم يكن يُتطرق إليها أو إلى التاريخ الإسلامي في الجزائر بوجه عام، إلا إذا كان في ذلك ما يعزز الأطروحات الاستعمارية، ويؤيد الأحكام المسبقة عن العرب والمسلمين.

وقد تزعم هذه الحركة الجامعية باحثان كان لهما الدور الأكبر في بلورة الأيديولوجية الاستعمارية وتغذيتها بالأفكار، ونشرها بين الطلاب، ونعني بهما: المؤرخ"ستيفان كزال" والباحث الاجتماعي" أ. ف.كوتييه"، كل حسب اختصاصه، حيث صرف الأول عنايته لدراسة الفترة الرومانية، واختار له منهجا في ذلك أملاه عليه عامل نقص المعلومات عن الفترة المدروسة في الجزائر، وعدم دقتها حين تكون المعلومات متوفرة، ويتمثل أساسا في ملإ الفراغات التي كانت تصادفه في تلك الحقبة بما يماثلها في الحياة المعاصرة، ومن ذلك دراسته لحياة البربر القدامى بالرجوع إلى مجتمع البربر اليوم[191]. وهو الشيء

** من أمثال الكاتب"لوي بيرتران" و"روبير راندو" و"جان أنطوان نو" وكلهم من أبرز وجوه الأدب الاستعماري في الجزائر، والمنظرين له.

191«Décoloniser l'histoire» p, 21.

الذي قاده إلى استنتاج غريب عن هذا المجتمع يتفق تماما والأيديولوجية الاستعمارية، ونعني به ما أسماه بـ"الجمود البربري" (L'immobilisme berbère) الذي يتجلى - حسب رأيه - في ((التمسك الشديد للبربر بوضعهم الاجتماعي أكثر من أي شعب آخر من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط))[192]. أما "كوتييه" فقد اشتهر بنظرياته الجغرافية والاجتماعية، وذهب من جهته إلى القول: ((يمثل المغربي، بلا أدنى ريب، الإنسان المتأخر عن الركب، الباقي بعيدا في الخلف من بين الأجناس البيضاء المطلة على البحر المتوسط (...) إن هذا الجنس لايمتلك أية ذاتية إيجابية))[193]. ويرجع ذلك إلى طبيعة الرجل البدوي الشمال إفريقي الذي يقول عنه أيضا ((إنه ذو نزعة عدمية، شديد الميل إلى الفوضى والتخريب)) وهو ما يترجم، في اعتقاده، عجز شمال إفريقيا عن صنع تاريخها الخاص[194].

وقد مهدت هذه الطروحات الطريق لمن جاء بعدهما من الأتباع والأشياع ليتخذوا منها مرتكزا يستندون إليه، ليتوسعوا فيها، ويحشدوا لها ما لا يعد من"الأدلة" و"القرائن" التي تحاول بكل الوسائل أن ترسخها في الأذهان، وتلبسها ثوب العلم، وتجعل منها"حقائق" لا يتطرق إليها الشك. ففكرة"كزال" عن"الجمود البربري" هي حقيقة لاجدال فيها عند"جان لاسيس"، الذي يرى أن ((البربري يقاوم كل تجديد، وبالتالي كل تقدم))[195]، وهذا"شارل أندري جوليان"، الذي كان في أول أمره - ومعه ثلة من المؤرخين والكتاب السياسيين اليساريين - يرفض حتمية"كزال" الجغرافية وحتمية"كوتيه" العرقية، يعود في وقت لاحق ليكتشف وزميله"شارل كورتوا" أن كزال وكوتيه لم يكونا مخطئين تماما في كل ما ذهبا إليه، فقد توصلا بدوريهما إلى ((أن التضاريس الجغرافية

192«Décoloniser l'histoire», p63.
193 Ibid, p20.
194 Ibid, p21.
195 Ibid, p22.

قد فتّتت البلد ومنعت قيام وحدته السياسية، وساعدت، في المقابل، على تكوين تجمعات سكانية"أصلية" في بلاد القبائل والأوراس، صمدت حتى اليوم لعوامل التعرية التاريخية))[196].

وجاءت اجتهادات"كابريال كامب" في هذا الصدد لتضيف تأكيدات أخرى على"صحة" الحتمية الجغرافية: ((إن التسميات الجغرافية للجزائر مثل"شمال إفريقيا" و"بلاد المغرب"، والإثنية مثل بلاد البربر، تؤكد العجز عن الفعل التاريخي (الحضاري) الذي ذهب إليه "كوتيه"))[197]. وكذلك الحتمية العرقية: ((لا يوجد في عالم المتوسط ريف أكثر محافظة وأكثر انغلاقا عن المغريات المدنية من ريف شمال إفريقيا))[198]. ومن هنا أعطى هؤلاء الباحثون صورة يائسة عن ماضي الجزائر، وحصيلة لا يمكن أن توصف إلا بالكارثة، عن كل مراحل التاريخ الجزائري، قديمه (عهد الممالك البربرية) ووسيطه (العهد الإسلامي) وحديثه (العهد التركي)، باستثناء الفترة الرومانية التي عدوها الفترة الذهبية التي عرفتها الجزائر، ليخلصوا من كل ذلك إلى ما يسمونه "الخلاص الرباني" الذي جاء به الاحتلال الفرنسي[199].

* * *

وبعد، لقد حاولنا في الصفحات السابقة أن نرسم معالم الحرب الإبادية التي شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري، بشقيها المادي والمعنوي، وقد كانت ـ كما أوضحنا ـ حربا شاملة، طاحنة ضد الإنسان الجزائري، واتخذت لها أوجها عديدة متشابكة ومتداخلة، صليبية، لغوية، ثقافية، حضارية، ظلت قائمة على أشدها طوال فترة الاحتلال الفعلي الذي دام أكثر من

196 Décoloniser l'histoire, p19.
197 Ibid p18.
198 Ibid, p21.
199 Ibid, p15

مئة واثنين وثلاثين عاما، وقد عانى منها الشعب الجزائري الأمرين، وما زال يعاني من آثارها إلى يومنا هذا غير أنه ينبغي، في مقابل ذلك، أن نسجل حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها من الطرف الآخر، ألا وهي أن الاستعمار لم يهنأ أبدا باحتلاله للجزائر، لأنه لم يتمكن في يوم من الأيام من قهر روح المقاومة في الشعب الجزائري، وظل طوال بقائه في حالة تحفز دائم، لا يكاد يخضع منطقة حتى تثور ضده منطقة أخرى، ولا يكاد يخمد ثورة حتى تشتعل في إثرها ثورة أخرى. فبقدر ما كان تصميم المحتل قويا من أجل تحقيق أغراضه العدوانية، بقدر ما كانت مقاومة الجزائريين له عنيدة وبلا هوادة، بدأت بمقاومة الأمير عبد القادر، التي انطلقت بعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة الجزائر[200]، وشملت كل مناطق الغرب والوسط وتزامنت منذ سنة 1837 مع مقاومة أحمد باي في المناطق الشرقية للبلاد، إلى غاية 1848[201]. وما كادت مقاومة الأمير وأحمد باي تنتهي حتى تلتها حركات مقاومة أخرى، وثورات في مختلف مناطق البلاد، ظلت نيرانها مشتعلة طيلة القرن التاسع عشر، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مقاومة الزعاطشة سنة 1849 بقيادة الشيخ أحمد بوزيان، ومقاومة منطقة القبائل بقيادة لالة فاطمة نسومر (1857). وثورة الحاج المقراني والشيخ الحداد (1871) بالمنطقة نفسها، وثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى سنة 1864، وثورة الأوراس سنة 1879 بقيادة الشيخ بوبرمة، وثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية سنة (1881) بقيادة الشيخ بوعمامة، وقد دامت هذه الأخيرة أكثر من عشرين عاما[202]. ويضاف إلى ثورات القرن التاسع عشر

---

200 بدأت مقاومة الأمير عبد القادر للمحتلين تحت قيادة والده محي الدين، حيث شارك إلى جانبه في العديد من المعارك، قبل أن يبايع بالإمارة ويتولى قيادة الكفاح في شهر نوفمبر 1832. انظر: "الأمير عبد القادر الجزائري" للأميرة بديعة الحسني الجزائري. منشورات سلام للترجمة والنشر، ط2 . دمشق 1992. ص26، 36. وكذا "حياة الأمير عبد القادر" لشارل هنري تشرشل، ترجمة د. أبوالقاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس/الجزائر 1974، ص50، 53.

201 "مذكرات أحمد باي" تحقيق د. العربي الزبيري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973، ص99.

202 ويعدها المؤرخون، إلى جانب ثورة المقراني والحداد، أكبر وأعظم الثورات بعد مقاومة الأمير عبد القادر، خاصة إذا نظرنا إليهما من حيث اتساع الرقعة الجغرافية التي امتدتا إليها، وحجم الوقائع الحربية التي جرت أثناءها، والنتائج التي أسفرت عنها. راجع "الحركة الوطنية الجزائرية" للدكتور أبو القاسم سعد الله، ج 2، ص57.

انتفاضات القرن العشرين العديدة، التي يمكن أن نذكر أهمها مثل انتفاضة سكان عين التركي ومليانة سنة1901، وأحداث عين بسام سنة 1906، وبني شقران ومعسكر سنة 1914، والأوراس والهضاب العليا الشرقية سنة 1916 والتوارق بالهقار بين سنتي 1916 و1919، ومظاهرات ماي 1945 في قالمة وسطيف وخراطة، وخاتمتها ثورة التحرير الكبرى في فاتح نوفمبر1954 التي وضعت حدا نهائيا للاستعمار المباشر في هذا البلد[203]

وعلى العموم ، فقد دفع الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدوره ثمنا غاليا في الأرواح والأموال والمعدات، مع الفارق الكبير - بالطبع - بين ما دفعه المستعمر وما دفعه الشعب الجزائري، بسبب اختلال موازين القوى المادية في كل المجالات لصالح الاستعمار، ومع الفارق أيضا في الموقع بين المعتدي والمعتدى عليه. وقد كانت حروب الاستعمار في الجزائر، بشهادة الفرنسيين أنفسهم، أكبر الحروب الاستعمارية في العصر الحديث، وأكثرها تكلفة في الأرواح والأموال والمعدات[204] ولا يمكن لنا اليوم أن نقول بأن هذه الحرب قد وضعت أوزارها نهائيا باستقلال الجزائر في الخامس من جويلية 1962، وذلك بالنظر إلى آثارها العميقة التي تركتها في الشعب الجزائري، والتي ما تزال إلى يومنا هذا ماثلة للعيان، منقوشة في البنيان، ناطقة في الإنسان. وإننا إذا حاولنا أن ننكر تلك الآثار، أو نهون من شأنها، فإن ذلك سيكون نكرانا منا للتضحيات الجسام التي قدمها الشعب الجزائري، وللمقاومة العنيدة التي أظهرها طوال فترة الاحتلال، في سبيل الحفاظ على كيانه، وعلى مقوماته الثقافية والروحية.

ومما لا شك فيه أن إزالة الآثار المادية لتلك الحرب أسهل بكثير من إزالة الآثار النفسية، والتشوهات الفكرية، هذه التشوهات التي ما فتئت تظهر بين الحين والحين في طرح تساؤلات حول"حقيقة" الهوية الوطنية وحول

203للاطلاع على التفاصيل راجع: د. يحي بوعزيز" ثورات الجزائر في القرنين 19و20".

204 C.f « Histoire de l'Algérie contemporaine » p19. «L'Algérie hors la loi »p19. .

مقومات الشعب الجزائري الأساسية ـ وقد أشرنا إلى الجدل حول هذا الموضوع في أول الفصل ـ مما يعني أن الاستعمار قد تمكن في نهاية الأمر من أن يثير الشكوك في نفوس بعض الجزائريين حول هويتهم الوطنية، وحول مقوماتها الأساسية، وقد تحولت تلك الشكوك مع الوقت إلى "قضية" أدبية وفكرية، وإلى "أزمة" سياسية وثقافية.

ونعتقد أن الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ العشرينيات من هذا القرن إلى اليوم، قد شكل ظاهرة مثالية للتعبير عن هذه "القضية" أو "الأزمة" الأدبية، الفكرية، الثقافية، السياسية، وأنه جسد في حد ذاته معلما بارزا في هذه الأزمة، وذلك هو ما سوف نحاول أن نبينه في الفصول اللاحقة.

* * *

الفصل الثاني

أدب الجزائريين بالفرنسية،
النشأة والتطور

يرجع المؤرخ والباحث "جان ديجو" أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891[205]، وهو عبارة عن قصة بعنوان "انتقام الشيخ"، مستقاة - حسب ما يذكر ديجو - من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال [206]، ونشرتها "المجلة الجزائرية التونسية، الأدبية والفنية" [207]

إلا أن الباحث نفسه يذكر أن عملية المسح الشامل التي قام بها للجرائد والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة ما بين 1880 و1920، بحثا عن نصوص أخرى لجزائريين آخرين، لم تسفر إلا على نتائج هزيلة [208]، بحيث لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات "رنين" عربي - حسب تعبيره - مثل "الجزائري" و "الراوي" و"الفرياني"، وهو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، بل ويرجح أنها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين [209]، ويستثني اثنين منهم، أحدهما يدعى أحمد بوري، الذي نشر

205Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française" O. P. U . Alger 1982 . P 18.

206 وهو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين، الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية ، وتعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين . راجع حياته ونضاله في كتاب "تاريخ الجزائر الحديث. دراسة سوسيولوجية" فصل" محمد بن رحال ومسألة تعليم الجزائريين" للدكتور عبد القادر جغلول. ترجمة فيصل عباس . دار الحداثة . بيروت ط2 ، 1982 . من ص59 إلى ص 124 .

207 « La Revue algérienne et tunisienne ,littéraire et artistique » N°13, du 26 /9 au 3/10/189 . C.f Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française". P 18.

208 Ibid . P 18.

209 Ibid . P 18.

سنة 1912 في جريدة "الحق" رواية مسلسلة بعنوان "مسلمون ومسيحيون"[210]. ويعلق على الرواية بأنها كتبت بـ"ماء الورد"، كناية على القفز المتعمد للمؤلف على تناقضات الواقع، حين يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين في غاية الانسجام والوئام[211]. والثاني يدعى سالم القُبي[212]. الذي نشر سنة 1917 مجموعة شعرية بعنوان " حكايات وقصائد من الإسلام"، أتبعها بمجموعة أخرى سنة 1920 بعنوان "أنداء مشرقية"، ولا يختلف عن الأول في تمجيده للإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد[213].

ونظرا لهذا الفراغ المسجل بين سنة 1891 التي ظهرت فيها قصة " انتقام الشيخ "، وبين سنوات العشرينيات من القرن العشرين، التي ظهرت فيها عدة نصوص أدبية ـ لأسباب سنأتي على ذكرها فيما بعد ـ لجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية، ولا سيما في مجال الرواية، فإن "جان ديجو"، المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ، ويَعدُّ مؤَلَّف القايد بن الشريف، الموسوم بـ " أحمد بن مصطفى

---

210 يذكر الباحث الجزائري أحمد الأنصاري عنوانا آخر لهذه الرواية وهو "مسلمون ومسيحيات" في تقديمه للطبعة الجديدة لرواية محمد ولد الشيخ "مريم بين النخيل "، راجع: « Myriem dans les palmes » O.P.U . Coll. Textes anciens. Alger 1985,(Introduction de Lansari Ahmed), p1.

211 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française" , P 19.

212 يشير ديجو بشأن هذا الرجل، أنه تلقى رسالة من الباحث الجزائري عبد القادر جغلول، يبلغه فيها أن سالم القبي لم يكن جزائريا مسلما، وإنما هو اسم مستعار لأحد أفراد الطائفة اليهودية التي كانت تقطن تلمسان، إلا أن ديجو يشك بدوره في صحة هذه المعلومة ، ويستدل على ذلك بإشادة المؤلف بالإسلام. راجع: . Jean Déjeux , op. cit. ,marge n°11, P. 19

213 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française", p19 .

القومي"، بداية تلك الانطلاقة [214]. وينظر إليه على أنه أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية [215].

وإذا سلمنا بهذا التاريخ، على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهو ما لا ينكره بعض الباحثين المعروفين، ولكنهم يتجاهلونه في الوقت ذاته، كما يتجاهلون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة ما بين الحربين[216]. فإن هناك ملاحظة لا يمكن لنا أن نتجاوزها هنا، دون أن نبحث فيها، وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبداية ظهور هذا الأدب، فهي مدة تنوف عن التسعين عاما وهو أمر غير عادي، وغير طبيعي، لا سيما إذا أخذنا بدعاوى الاستعمار الذي كان يردد دائما أن رسالته في الجزائر هي رسالة حضارية. والحقيقة أن هناك عوامل وأسبابا عديدة أخرت ظهور هذا الأدب كل هذه المدة، أبرزها عاملان رئيسيان: الأول سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، وحربه الاستئصالية الضروس - كما فصلنا القول في الفصل السابق من هذا البحث - ضد

---

214 Jean Déjeux , "La littérature algérienne d'expression française". Col. Que-sais-je, P.u.f. Paris 1979.P 59.

215 Jean Déjeux, "Situation de la littérature maghrébine de langue française " , P 19.

* لم نتمكن، رغم المحاولات المتكررة من العثور على هذا المؤلف في مظانه، غير أنه، نظرا لغلبة طابع المذكرات الشخصية عليه ، حيث يروي فيه صاحبه قصة مشاركته في الحرب العالمية الأولى، كمجند جزائري في الجيش الفرنسي، كما يذكر « جان ديجو"، فإن غيابه من المدونة لا يؤثر على دراستنا.

216 من هؤلاء الباحثين عبد الكبير الخطيبي ، وغني مرّاد، حيث يتجاهل الأول الإنتاج الروائي الذي سبق سنة 1945، ويشير الثاني مجرد إشارة على الهامش إلى بعض الروايات التي سبقت ذلك التاريخ، ويعلق عليها بأنها ((مرت دون أن ينتبه إليها أحد لأن الشعب الجزائري كان منشغلا عن ذلك الأدب البكائي، أو المكرس لإرضاء الذوق الاغترابي الفرنسي بتضميد جراحه ، التي تسبب فيها قمع 1945)). راجع على التوالي:

- Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". Ed. F. Maspéro . Paris 1968.
- Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française". Ed. Oswald. Paris 1976. P 68.

الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب ومناجزة وتوتر دائم، منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين، ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر، سواء على الصعيد السياسي أو الفكري، أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما، والثقة شرط أساسي لقيام مثل ذلك التعاون المنشود في مجال السياسة، أو التلاقح الفكري، أو التأثير الثقافي والحضاري، والعامل الثاني يتمثل في سياسة التعليم التي طبقها المحتلون في الميدان، أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها - وقد فصلنا فيها القول في الفصل السابق أيضا - بحيث قضوا على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال قضاء يكاد يكون مبرما، ولم يعوضوها بمنظومة أخرى تضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم كما كان الحال في فرنسا.

لقد كان الجزائريون والمستوطنون الأوروبيون يعيشون جنبا إلى جنب، ولكن كخطين متوازيين لا يلتقيان، كان لكل مجتمع منهما حياته الخاصة التي لا يشاركه فيها الطرف الآخر، فللمستوطنين الأوروبيين مقاهيهم وملاهيهم ونواديهم ومسارحهم، وللجزائريين مقاهيهم ونواديهم وجمعياتهم الثقافية والرياضية الخاصة بهم، وكما لم يكن المستوطنون يسمحون للجزائريين بمشاركتهم أنشطتهم الثقافية والرياضية، حيث كانت - كما يذكر العلامة سعد الدين بن شنب - نوعا من الفاكهة المحرمة على الجزائريين [217]. فإن هؤلاء

217 S. Benchneb , préface des « Memoires » de M. Bachetarzi, , S.N.E.D Alger 1968 , p6.

كانوا من جهتهم لا يبدون أية رغبة في مشاركة المستوطنين أنشطتهم الثقافية أو الترفيهية، وهو نوع من المقاومة السلبية للمحتل، وحفاظا منهم على ثقافتهم وهويتهم الخاصة [218]، ومن هنا ينفي "جاك بيرك" وجود أي تعايش حقيقي كان قائما بين الأوروبيين والجزائريين [219]. ويعبر أحد الباحثين الفرنسيين عن هذه الهوة التي تفصل بين الاثنين أحسن تعبير حين يقول: ((لا يوجد بين فرنسا والجزائر سوى ألف كيلومتر من ماء البحر، ولكن يوجد بين أحياء الأوروبيين في المدينة وأحياء "الأهالي" مسافة فلكية هي تلك التي صنعها الاستعمار)) [220].

ونظرا لهذه الوضعية العدائية المستحكمة التي ظلت تطبع العلاقة بين الطرفين، فقد كان أي تبادل ثقافي، أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينهما يكاد يكون منعدما. لقد كان المحتل ينظر في الغالب إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار، أما الجزائريون فكانوا يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل، ويقابلون بحذر كل ما يصدر عنه، ومن أشهر الأمثال التي كانت تُتداول على ألسنتهم، وتترجم ذلك التوجس والحذر الذي كانوا يتعاملون به مع المحتل قولهم: "كل ما يأتي من الغرب ما يفرّح القلب".

1 ـ عوامل ظهور هذا الأدب

ولكن هذا الوضع عرف عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بعض الانفراج ووقع ما يشبه نوعا من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف

---

218 أحمد منور "مسرح أحمد رضا حوحو"، رسالة ماجستير، معهد الآداب، جامعة الجزائر 1990، ص17.

219 Cité par Bouba Mohammedi - Tabti « La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature , lecture de quelques romans » , O.P.U , Alger 1986, p31.

220 Ibid , p32

الانفتاح على الآخر، وساعد على ذلك حالة الانفراج الدولي التي أعقبت الحرب، وإعلان مبادئ ويلسون الشهيرة التي تحدثت لأول مرة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، كما ساعدت على تجسيد هذا الانفراج إجراءات سياسية وإدارية اتخذتها الحكومة الفرنسية خففت من حدة التوتر وهيأت الأجواء المناسبة لمثل ذلك الانفتاح، وتمثلت فيما أصبح يعرف بقوانين 4 فبراير 1919. التي ألغت السلطات الاستعمارية بموجبها معظم مواد " قانون "الأندجينا " العنصري، الذي كان يحكم الجزائريين بقبضة من حديد [221] وكانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء قيامها بتلك الإجراءات المساعدة على الانفراج إلى رد بعض الجميل لما يربو عن ثلاثة وسبعين ومائة ألف جندي جزائري كانوا قد شاركوا في الحرب تحت العلم الفرنسي، وقُتِل وجرح منهم الآلاف. كما كانت أيضا لفتة اعتراف وتقدير منها لجهود العمال الجزائريين الذين كانوا يقيمون على التراب الفرنسي، وضمنوا استمرار دوران آلات المصانع الفرنسية طوال الحرب، معوضين في ذلك مئات الآلاف من زملائهم العمال الفرنسيين الذين جندوا في الحرب [222]

وبناء على هذه الاعتبارات، واستنادا على القانون المذكور، أصبح في إمكان الجزائريين، لأول مرة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، حق إنشاء الأحزاب السياسية وإصدار الصحف، والمشاركة في الانتخابات المحلية. وكانت الانتخابات البلدية في مدينة الجزائر عام 1919 بمثابة المحك الذي

221 سبق الحديث عن هذا القانون في الفصل الأول من هذا البحث، ص30 .
222 عمار بوحوش "العمال الجزائريون في فرنسا" . ص ص98 . 99 .

يتضح على ضوئه مدى صدق النوايا الاستعمارية في المضي قدما في وضع الإصلاح السياسي موضع التنفيذ، وكانت النتيجة مذهلة بالنسبة للمستعمرين حين حصل الأمير خالد على الأغلبية الساحقة من أصوات مواطنيه[223] وجاءت الصدمة أقوى من احتمال المحتلين ، لذلك أثاروا القلاقل حول شخص الأمير ، وحرموه من حق الترشح لانتخابات 1922، ولفقوا له تهمة التآمر على أمن البلد بسبب تقديمه عريضة للرئيس الأمريكي ويلسون سنة 1919 ــ أثناء توقيع اتفاقيات " فيرساي " ـ طلب فيها منه تدخل القوى الكبرى لفرض استفتاء للشعب الجزائري على تقرير المصير[224].

وكان هناك عامل سياسي آخر له تأثيره أيضا في اتخاذ تلك الإجراءات الإصلاحية في السياسة الفرنسية في الجزائر، تمثل في بداية استعداد المحتلين للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي، والفرنسي نفسه، يبرر استمرار احتلال البلد، ويظهر ثمار" الرسالة الحضارية" التي طالما ادعى الاستعمار الفرنسي أنه جاء لنشرها في الجزائر، فكان لابد من تشجيع الأدب، ونشر أعمال إبداعية لكُتَّاب من

---

223 لأمير خالد (1875 . 1936) هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، قائد المقاومة الوطنية للاحتلال الفرنسي في القرن19 . وقد كان أبرز وجوه الحركة الوطنية الجزائرية في الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. راجع في هذا الصدد:
Itinéraire politique de L'émir Khaled, in « L'émir Khaled , documents et témoignages .. », réunis et présentés par Mahfoud Khaddache, O.P.U et EN.A.P Alger 1987, p11-14.

224 ظلت هذه الوثيقة مجهولة، وغير مُتأكد من صحتها إلى أن عثر عليها الباحث والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في ميكروفيلم بمكتبة ميشيغان الأمريكية، مأخوذ عن أوراق الرئيس ويلسون المحفوظة بمكتبة الكونغرس، فترجمها ونشرها سنة1981 . راجع: أبو القاسم سعد الله "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج2، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1986 ص49. وقد تعرض الأمير خالد بعد ذلك للمضايقة والاضطهاد ، ثم سجن، وأخيرا نفي من الجزائر ليموت سنة 1936 في دمشق بعيدا عن الجزائر. راجع :
Mahfoud Kaddache « L'émir Khaled.. », p70.

"الأهالي" تظهر كيف أن "جمعة " أو « Friday » [225] قد حفظ الدرس، وتعلم لغة سيده وعاداته المتحضرة، وأصبح يعبر بتلك اللغة عن مختلف شؤونه الخاصة والعامة.

وهكذا ظهرت فجأة، وبعد أكثر من تسعين عاما من الاحتلال، أعمال أدبية باللغة الفرنسية لجزائريين، كتبت على عجل للمناسبة، ونشرت على عجل أيضا، بالرغم مما كانت تنطوي عليه من نقائص وعيوب - إذ كان لابد من التسامح مع "جمعة " - حتى يتقن القواعد بشكل أفضل، ويتمرن على أساليب التعبير تحت بصر وسمع سيده: ((.. فكان المؤلفون (الجزائريون) يريدون أن يبرهنوا (للمستعمر) أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون)) [226].

وعلى هذا النحو ظهرت في عشرية 1920 ـ 1930 خمسة أعمال أدبية . وكنا أشرنا من قبل إلى مجموعة سالم القبي الشعرية، والسيرة الذاتية للقايد بن الشريف، ونضيف إليهما رواية " زهراء، امرأة المنجمي" [227] « Zohra , la femme du mineur » لعبد القادر حاج حمو التي صدرت سنة 1925. ورواية "مأمون بداية مثل أعلى" [228] « Mamoun, l'ébauche d'un idéal » ، لشكري

---

225 إشارة إلى تعليم "روبنسون كروزو" اللغة الإنكليزية لخادمه "جمعة" في رواية " دانيال ديفو" الشهيرة التي تحمل الإسم ذاته.

226 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française", p29 .

227 Hadj Hamou Abdelkader « Zohra , la femme du mineur » , Ed. du Monde Moderne. (Aux Editeurs Associers). Paris 1925.

228 Chukri Khodja « Mamoun , l'ébauche d'un idéal » , Ed. Radot , Paris 1928, Réédité par l'O.P.U. Coll. Textes anciens. Alger 1992 .

خوجة التي صدرت سنة 1928، ورواية: "العلج أسير بربروسيا" [229] « El-Euldj , captif des barbaresques » للكاتب نفسه التي صدرت سنة 1929.

وواضح أن هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية لا يشكل عامل فخر إذا قيس بطول فترة الاحتلال أو بحجم الدعاية التي أحاطت بها السلطات هذا الحدث. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا العدد نفسه يعكس مدى عقم المدرسة الاستعمارية وضآلة النتائج التي أعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي.

2 ـ موضوعاته

ولأن الكُتّاب من أبناء البلد الأصليين الذين نشرت أعمالهم قد اختيروا بعناية كبيرة ـ وهم قبل كل شيئ نتاج المدرسة الفرنسية، وينتمون في معظمهم إلى أبناء الذوات، وإلى المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية ممن كانت أحوالهم ميسرة [230]. ويؤمنون فوق هذا بفكرة التعايش مع الاستعمار، وبفكرة الاندماج في مجتمع المستوطنين ـ فإنهم كانوا يشيدون صراحة، وبلا تحفظ، بـ"فضل" الاستعمار على البلد، ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسيتين، غير أن القضايا التي عبروا عنها قد عكست بالرغم من كل ذلك، وعن غير قصد منهم، فيما يبدو، العديد من الإشكاليات المعقدة التي كانت تطرحها تلك الثقافة والحضارة الغربية الليبرالية، بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم، ومن

229 Chukri Khodja , « El-Euldj, captif des barbarèsque » , Ed. I.N.S.A.P , France 1929. Réédité par l'O.P.U . Coll. Textes anciens. Alger 1992.

230 سيتضح لنا ذلك من خلال التعريف الذي سنقدمه لكل كاتب على حدة حين نعرض لأعمالهم بالدراسة في الفصول اللاحقة.

أهم تلك الإشكاليات التي كوّنت الهاجس الرئيسي في تلك الأعمال الأدبية مسألة حرية تعاطي الخمور، ولعب القمار ، وهي عادات كانت تشكل جزء من الحياة اليومية العادية للفرنسيين، أدخلوها معهم للجزائر، وصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون، وكذا تسامحهم في ممارسة الدعارة ، وتعاطي بعض المخدرات مثل الحشيش، حيث كانوا يعدونها من الأمور الشخصية التي تتعلق بحرية الفرد في المجتمع، في حين ، تعد هذه الأشياء من المحرمات في الشريعة الإسلامية، وتلزم إقامة الحد على مرتكبها. مع العلم أن هؤلاء الكتاب لم ينظروا إلى الأمور المذكورة من وجهة النظر الشرعية المحضة، وإنما أولوا عنايتهم بتصوير آثارها المدمرة على الأسرة المسلمة في الواقع الاجتماعي. هذا ما حاولت أن تعبر عنه رواية " زهراء، امرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، التي تعد بحق باكورة الأعمال الروائية للكتّاب الجزائريين باللغة الفرنسية، فقد كان بطلها، وهو عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة مليانة، يعيش مع زوجته عيشة راضية قانعة، رغم فارق الأجر الكبير بينه وبين ما يتقاضاه أي عامل أروبي يعمل معه في المنجم ذاته، وما إن خالط مجتمع المدينة، وعاقر الخمرة مع رفاقه من العمال الأروبيين، حتى تدهورت حاله، وأهمل زوجته، وترك الصلاة، وانتهى به الأمر إلى السجن مُتهَما بارتكاب جريمة قتل، لم يقترفها في الحقيقة [231] وكذلك عالجت رواية "مأمون " لشكري خوجا، موضوع الخمرة ونتائجها المدمرة على حياة بطله، الذي جاء من عمق

---

231 تكشف الرواية في الأخير أن المقتول جاء هاربا من إيطاليا، بعد ارتكابه جريمة هناك، غير أن أهل القتيل تمكنوا من معرفة مكانه في الجزائر فبعثوا من لحق به ، وأخذ بثأرهم منه.

الريف الجزائري إلى العاصمة لمتابعة الدراسة، و بعد مخالطة المجتمع المديني الأوروبي - بحكم أنه ابن " قايد"[232] انتهت حياته بالمرض والموت من جراء الشرب والسهر ولعب القمار.

والشيء المؤكد أنه حتى وإن جاءت ولادة الشكل الروائي لدى الجزائريين في سنوات العشرينيات كاختيار فردي في أحد جانبي الظاهرة، كما يرى مصطفى الأشرف [233]، فإن موضوع معاقرة الخمرة، وتعاطي الحشيش، ولعب القمار، لم يأت عفويا، ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية، أو "موضة " أدبية لدى كتَّاب هذه الفترة [234]، ولكنه كان هاجسا اجتماعيا، تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية، عن الحدود الفاصلة بين المحرَّم والمُباح في الدين وفي القانون المدني، بين حرية الفرد بالمفهوم الغربي، والوازع الديني والأخلاقي بالمفهوم الإسلامي، ومن هنا نلاحظ أن أزمة الهوية قد رافقت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية منذ بدايته الأولى.

3 - موضوع الاندماج في فترة الثلاثينات في الرواية

وقد تطورت هذه الانشغالات والتساؤلات لدى هؤلاء الكتاب، إلى ما يشبه الحيرة أو أزمة الضمير، حينما طرحت مسألة إمكانية حصول بعض

---

232 "القايد" موظف جزائري لدى سلطة الاحتلال، والوسيط بين الإدارة وبين الأهالي في كل الشؤون، ولذلك فهو يتمتع بسلطات تنفيذية واسعة، يستمدها من كونه ممثلا للحاكم الفرنسي (ما يقابل اليوم الوالي أو نائبه)، أي أنه كان وسيلة القمع التي ينفذ بها الاستعمار إرادته على الجزائريين، ولأجل ذلك كانت السلطات تختاره بكل عناية من بين الأعيان المخلصين لها.

233 Mostefa Lacheraf « Brève contribution à un débat sur le roman maghrébin » p39, in « Ecrits didactiques, sur la culture, l'histoire et la société » E.N.A.P Alger 1988.

234 ولم يشغل هذا الموضوع الروائيين وحدهم، وإنما شكّل الموضوع الرئيسي في هذه الفترة لدى رجال المسرح أيضا، فعالجوه في العديد من المسرحيات، اشتهرت منها " الشفاء بعد المنع " (1923)، و" خديعة الغرام " و" بديع " (1924)، وكلها لمحمد المنصالي، ومسرحية " عنتر الحشايشي " (1930)، لعلي سلالي. راجع في هذا الصدد: - Arlette Roth "Le théâtre algérien" . Ed/ François Maspéro. Paris 1967, p23.
- Allalou "L'aurore du théâtre algérien 1926-1932" Cahiers du C.D.S.H. N°9. Oran .1982,p33.

الجزائريين على صفة " المواطَنة الفرنسية " La citoyenneté française". وجاءت هذه المسألة كجزء من الانفتاح الذي أشرنا إليـه، وكنتيجـة للإصلاحات التي أتت بها قوانين 4 فبراير، وهـي مسـألة، تمـس في الصـميم ـ كمـا هـو واضـح ـ موضوع الهويـة، فكـان السـؤال المحـير لـدى الكتّـاب، ولـدى بعـض الزعمـاء السياسيين ولدى المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية بوجه عـام، هـو: كيـف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا، مع ما في ذلـك مـن تنـاقض، لأنـه فرنسـي بحكم واقع الاحتلال، ومع ما يترتب على ذلك ـ في حالة حصـوله علـى صـفة مواطن فرنسي فعلا ـ من تبعات والتزامات، وكيف يبقى في الوقت ذاتـه عربيـا مسلما ؟ لقد كان هذا السؤال محورا أساسيا في معظم الروايات الـتي ظهـرت في الفترة ما بين 1929 و1948، وهي على أية حال قليلة العـدد، لا تتعـدى سـبع روايات في مجملها، مثل رواية "مريم بين النخيل" (1934) لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار، فتى جزائـري" (1941)[235] لـرابح زنـاتي، و"ليلـى فتـاة جزائريـة " (1948)[236] لجميلة دباش، ولكن تظل رواية " العلج أسير بلاد البرابر" لشكري خوجة أهم رواية عالجت هذا الموضوع، مع أنها كانت أسبق في الظهور من كل الروايـات المـذكورة (تعـود إلى سـنة 1929 كمـا سـبقت الإشـارة)، وذلـك لأنهـا ابتعدت ـ خلافا للروايات الأخرى ـ عن المعالجة المباشرة للموضوع، حيث لجأ كاتبها إلى استلهام وقائع من تاريخ " رياس البحر"، في جزائر القـرن السـادس

---

235 R. Zénati « Bou-El-Nouar, jeune algérien »..Ed. La maison des livres. Alger 1945.

236 Djamila Débèche « Leila, jeune fille algérienne ». Imprim. Charras. Alger 1948.

عشر، ليسقطها، بشكل فني بارع على عصره في عشرينيات القرن الحالي، ويحاول أن يدفع القارئ إلى استخلاص العبرة من كل ذلك [237]

4 ـ فرحات عباس وخلفية هذا الأدب

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الزعيم الوطني فرحات عباس كان أول من فتح النقاش في هذا الباب، وكرّس استعمال صفة "الفتى الجزائري" في أدبيات الحركة الوطنية في فترة العشرينيات والثلاثينيات، كدلالة على الجيل الجديد من المثقفين الجزائريين من خريجي المدرسة الفرنسية، وذلك في مقالات متفرقة له نشرها في الصحف ما بين سنتي 1922 و 1930، ثم جمعها ونشرها سنة 1931 في كتاب بعنوان "الفتى الجزائري " [238]. وقد ترددت هذه التسمية كثيرا بعد هذا التاريخ وبرزت في عناوين العديد من روايات الجزائريين، التي أثبتناها أعلاه .

وقد جسد شكل كتاب "الفتى الجزائري" أرضية النقاش الذي شغل روائيي هذه الفترة، وأهم الطروحات الفكرية الرئيسية التي حاولوا أن يجسدوها عن طريق الفن الروائي، وقد انطلق فرحات عباس في كتابه المذكور من الدفاع عن مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأوروبيين، وبالتحديد

237 لجأ المؤلف إلى التاريخ ، وبالضبط إلى فترة حكم الأخوين عروج وخير الدين التركيين (العقد الثاني من القرن 16)، واختار شخصياته الروائية من أسرى الحروب البحرية الأروبيين في البحر المتوسط، الذين كانوا يدخلون في الإسلام تحت ضغوط الترهيب أو الترغيب، محاولا إسقاط تلك الأحداث بملابساتها الخاصة على حالة الجزائريين الذين أصبحوا يحتلون موقع الأسرى الأروبيين في ظل الاحتلال الفرنسي.

238 Ferhat Abbas « Le jeun algérien » , p9.

من قانون التجنيد الذي كان يميز بين هؤلاء وأولئك في المدة التي كان يجب على كل مجند قضاءها في الخدمة العسكرية [239].

ثم وسع بعد ذلك من دائرة النقاش ليتعرض إلى بعض القضايا الآنية ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، مثل ظاهرة هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليتحولوا هناك إلى عمال، فيعلل أسبابها، ويبين دوافعها ، ويكشف عن العراقيل التي يضعها المعمرون في طريق هجرة الفلاحين [240]. ومثل الاتهامات الباطلة التي كثيرا ما يفسر بها المحتلون كل نشاط ثقافي أو اجتماعي أو سياسي للشبان الجزائريين، فيرمونهم تارة بالتعصب الديني، وتارة بالميول الشيوعية الهدامة [241]. ومنها قضايا ذات بعد حضاري وثقافي وديني، مثل رده على ما أسمته المدرسة التاريخية الاستعمارية "الآثار المدمرة للاحتلال العربي لشمال إفريقيا" [242]، حيث يناقش هذا الزعم مناقشة مستفيضة، ويجري مقارنة في غاية الإقناع وقوة الحجة بين طبيعة " الاحتلال العربي " من جهة، وبين طبيعة الاحتلال الروماني قديما والفرنسي حديثا والآثار التي خلفها هؤلاء وأولئك في البلاد والعباد، ويدافع في مقال آخر بحرارة عن الإسلام والحضارة

---

239 كان فرحات عباس قد كتب هذا المقال . باسم مستعار . أثناء تأديته للخدمة العسكرية، وكانت الخدمة الإجبارية بالنسبة للمجند الجزائري تمتد ثلاث سنوات، في حين لا تتعدى بالنسبة للأوروبي أكثر من ثمانية عشر شهرا، راجع:
Ferhat Abbas,op.cit , p34.

240 « L'exode des ouvriers algériens en France » , in « Le Jeun algérien », p51

240 كان فرحات عباس قد كتب هذا المقال . باسم مستعار . أثناء تأديته للخدمة العسكرية، وكانت الخدمة الإجبارية بالنسبة للمجند الجزائري تمتد ثلاث سنوات، في حين لا تتعدى بالنسبة للأوروبي أكثر من ثمانية عشر شهرا، راجع:
Ferhat Abbas,op.cit , p34.

241 L'intellectuel musulman en Algérie, et Les incidents de Jemmapes - Notre inferiorité intellectuel, Ibid, p66-68

242 « Les races supérieures - Colonisation et islamisation» Ibid, p 76

العربية الإسلامية [243]. ويبين المزايا الروحية والأخلاقية للإسلام، وعن النبي العربي، ضد افتراءات المستشرقين، ويشيد بأخلاقه، ونزاهته، وعدله، ويدلل على ذلك بشواهد من حياته.

وقد شكلت هذه الموضوعات الخلفية الفكرية لمعظم الروايات التي ظهرت في الفترة التي سبقت 1952 ـ كما سبقت الإشارة ـ [244]. فقد دافع الروائيون من جهتهم بطرق شتى عن الإسلام، وعملوا على التعريف به خاصة، وإظهار سمو مبادئه، وعظمة رسالته، لأنهم كانوا يعتقدون أن الأوروبيين لا يعرفون الإسلام، ولو عرفوه على حقيقته لغيروا رأيهم فيه، ولذلك كثيرا ما نجدهم يستشهدون بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية، ويحرصون أشد الحرص على شرحها وتبيين مقاصدها [245]. أما مظاهر النقص الذي يحسبه الأوروبيون على الإسلام، فيرجعها هؤلاء الروائيون إلى حالة تخلف المسلمين وجهلهم وفهمهم الخاطئ للإسلام وتعاليمه، مثل فهمهم لمعنى القضاء والقدر، الذي يتحول عند بعضهم إلى استكانة وخمول، ورضى بالواقع مهما كان مزريا وبائسا، أو مثل إفراطهم في

---

243 « les haines religieuse contre l'Islam - le Prophète » Ibid, p 89 .

244 وزاد عليهم فرحات عباس بتذكير المحتلين بما ارتكبوه من فظائع بالأمس القريب، ولا سيما ماجرى في الخمسين سنة الأولى من الاحتلال ، فتحدث عن "مأساة الأمس وعدم وضوح الرؤية بالنسبة للغد " وساق أمثلة ووقائع من تلك الفظائع التي ارتكبتها الجيوش الفرنسية الغازية، وأقوالا ومواقف لجنرالات الجيش الفرنسي ، يندى لها جبين الإنسانية، وحذر من مغبة التمادي في سياسة القهر التي ظل المحتلون يمارسونها منذ وطئت أقدامهم الجزائر إلى ذلك اليوم، وخلص في مقال آخر بعنوان "عدالة ونزاهة قبل كل شيء ، وسياسة بعد ذلك " إلى ما معناه ، أن لا سبيل إلى التعايش السلمي بين مختلف الأجناس والأديان إلا على أساس العدل والمساواة بين الجميع .) راجع :
Ferhat Abbas « Le Jeun algérien », La tragédie d'hier et l'incertitude de demain- Nous voulons exister , p115 et Justice et loyauté d'abord, politique après, p151 .)

245 وسنقف على هذه الظاهرة بشيئ من التفصيل حين نعرض لتحليل الروايات في الفصول اللاحقة .

العمل بالتراخيص التي رخصها لهم الله في بعض أمور حياتهم، كتعدد الزوجات [246].

غير أن روائيي هذه المرحلة - وفي تأثر واضح بكتابات المستوطنين الأوروبيين من مدرسة "الجزأرة " (Les algérianistes) [247] أحلوا مسألة الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيات المحل الأول، وهو الشيء الغالب [248]، أو بين الفرنسيين والجزائريات، وهو القليل، نظرا للمانع الديني [249]. ومن خلال رابطة الزواج المختلط، الذي يعد خرقا للممنوع، سواء بالنسبة للجزائريين أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين، يطرح الروائيون مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية، ومن خلال ذلك القضايا السياسية، التي يرونها سببا في تباعد الطائفتين وتنافرهما. ونجد في النظر إلى الزواج المختلط موقفين رئيسيين، فقد عده بعضهم ممكنا، ولكنه غير مجد في خلق الانسجام المطلوب بين الطائفتين، نظرا لاختلاف العقيدة، وهذا ما عبر عنه شكري خوجة في روايته "العلج أسير بربروسيا" [250]. في حين عده بعضهم الآخر - وهم الأكثرية - السبيل الوحيد للتقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين، لإيجاد الانسجام المرجو في التركيبة الاجتماعية، في ظل الواقع الاستعماري، وهذا ما ذهب إليه محمد ولد الشيخ

---

246 عالج ر. زناتي على الخصوص هذين الموضوعين بشيء من التوسع في روايته "بولنوار فتى جزائري".

247 سيأتي الحديث عن هذه المدرسة الأدبية وعن غيرها في الفصل التالي.

248 لعل ذلك يرجع إلى طبيعة الفن الروائي نفسه الذي يحفل كثيرا بالعلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة، ويجعل منها محورا رئيسيا في تطور الأحداث.

249 لأن الإسلام لا يبيح للمسلمة الزواج من غير المسلم ، ونجد هذا النوع الأخير من الزواج المختلط في رواية "مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ، وفي رواية "ليلى فتاة جزائرية" لجميلة دباش.

250 يلتقي موقف شكري هذا مع مع موقف الكتاب باللغة العربية ، الذين عبروا . بدون استثناء . عن رفضهم القاطع للزواج المختلط في أشعارهم وقصصهم، ومقالاتهم الصحفية ، وعدوه خطرا كبيرا على المجتمع الجزائري المسلم، راجع في هذا الصدد، على سبيل المثال: محمد سعيد الزاهري "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"، الصادر سنة 1928، وأعيد طبعه بدار الكتاب، الجزائر، 1983. وعبد المجيد الشافعي " خواطر مجموعة "، المطبعة الجزائرية بقسنطينة (دون تاريخ).

في "مريم بين النخيل" ور. زناتي في "بولنوار الفتى الجزائري"، وجميلة دباش في "ليلى الفتاة الجزائرية". غير أن الجميع يتفق على أن ما يمنع تحقيق مثل هذا التقارب، بل ويفشل الزيجات المختلطة، إنما هو الأحكام المسبقة التي تحملها كل طائفة عن الأخرى، ورفضها لهذا الزواج ، وعدم استعدادها لأن تتزحزح قيد أنملة عن مواقفها، وهو ما يشكل ضغطا اجتماعيا قويا لا يستطيع أبطال الروايات الصمود في وجهه ، فيكونون ضحايا المجتمع من الطائفتين. هذا ما حدث لبطل رواية "مامون"، وما حدث لبطل رواية "بولنوار الفتى الجزائري".

وتندرج في هذا السياق رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون، التي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1939 [251]. حيث يلتقي كاتبها مع كتّاب هذه المرحلة في منطلقاتهم الفكرية، أي في الإيمان بمبدإ سياسة الاندماج، والتعايش مع الأوروبيين و" الأهالي "، وهي الفكرة التي غرستها في نفسه " دار المعلمين " ببوزريعة[252] وقد كتب روايته "ابن الفقير" انطلاقا من هذا المنظور، حيث كان يعتقد أن "الأهالي" قد أتيحت لهم فرصة التعرف على بلاد فرنسا وسكانها عن طريق الهجرة. وعن طريق المدرسة ((حتى إن أطفال القرية يعرفون من أين ينبع نهر السين (...) وما بقي إلا أن يسقط القناع "الوحشي" ، "البدائي"،أو بعبارة

251 يوسف نسيب "مولود فرعون حياته وأعماله"، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991 ص 41.
252 نفسه ، ص 8.

مختصرة: "اللاإنساني" الذي تختفي وراءه وجوه الأهالي، وعندما يسقط القناع، يتم التعارف من كلا الجانبين)) [253].

ويختلف إلى حد ما عن غيره من كتاب هذه المرحلة في طغيان طابع السيرة الذاتية على عمله، متخذا من عنايته بتصوير العادات والتقاليد القبائلية كخصوصية محلية، مقابل الخصوصية الدينية - أي الإسلام - التي دافع عنها غيره من الكتاب للحفاظ على قانون الأحوال الشخصية. وفي الإشارات القليلة التي وردت في الرواية عن الإسلام لم يظهر فرعون ما يدل على أنه يوليه أية أهمية باعتباره مقوما أساسيا للشخصية الجزائرية [254].

5 - لبيك وإدريس: الروايتان اللتان خرجتا عن التقليد:

وقد عرفت سنة 1948 خروجا عن هذا التقليد الذي سارت عليه الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر، بصدور روايتي "إدريس" لعلي الحمَّامي و" لبَّيك " لمالك بن نبي، وكلا الكاتبين كانا بعيدين عن الفكر الاندماجي الذي كانت تدعو إليه حركة "الفتيان الجزائريين"، وتبناه كتَّاب الروايات السابقة، وعبروا عنه في أعمالهم الأدبية، فقد كان الأول أحد المناضلين الجزائريين الذين عرفوا بكفاحهم الطويل ضد الاستعمار بالسلاح وبالفكر على السواء إلى آخر لحظة في حياته [255]. واختار أن يعبر، في طفرة نوعية على مستوى الوعي

---

253 نفسه ص 32.

254 بل إنه كان يبدي سخرية من الإسلام. حسب ما يقول يوسف نسيب. في الإشارات القليلة التي وردت في هذه الرواية وفي غيرها من أعماله الأخرى عن الإسلام. راجع: يوسف نسيب "مولود فرعون حياته وأعماله"، ص 27.26.

255 وتوفي في حادث سقوط طائرة في 12 ديسمبر سنة 1949، بكراتشي، وهو في طريق عودته من المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الذي انعقد في باكستان بعد أن مثل الحركة الوطنية الجزائرية في المؤتمر المذكور. راجع:
Amar Belkhodja « Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien » , Ed. Dahlab. Alger 1991 , p23 .

الوطني، عن كفاح شعوب شمال إفريقيا، وتطلعها للانعتاق من ربقة الاستعمار، من خلال تصويره لوقائع ثورة الريف بالمغرب الأقصى سنة 1923 بقيادة عبد الكريم الخطابي، التي شارك فيها الكاتب شخصيا إلى جانب الأمير عبد المالك الجزائري - أحد أحفاد الأمير عبد القادر - الذي كان يقيم بالمغرب، وقاد المقاومة المسلحة مع عبد الكريم الخطابي [256]. وهذا ما يفسر أن الطبعة الأولى من هذه الرواية، التي كانت سباقة في طرح موضوع الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر من الاستعمار، قد نشرت بالقاهرة [257]، لأنه كان من المستحيل إصدار مثل هذه الرواية الثورية آنذاك في الجزائر، أو حتى في فرنسا*، أما الثاني فهو مفكر إسلامي، كان قد عبر عن توجهه الفكري في كتابه "الظاهرة القرآنية"، الذي كان قد صدر قبل عام من روايته المذكورة [258]. وفي هذه الرواية [259] يعود الكاتب إلى معالجة موضوع الخمرة الذي كان يشكل الهاجس الرئيسي لكتّاب العشرينيات كما أشرنا من قبل، ولكن من منظور جديد. وفي نطاق تصور نظري متكامل لدى المؤلف عن " شروط النهضة " الجزائرية التي يرى أنها لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الرجوع إلى الأصل، أي إلى الدين الصحيح ، وبناء على هذا الأساس يعطي المؤلف الحل، ولا يترك بطله حائرا مستسلما، ينتظر مصيره المحتوم في قدرية وعجز كامل، كما كان حال بطلي رواية " زهراء امرأة

---

256 Amar Belkhodja « Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien », p12 .

257 Jean Déjeux« Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française »,Ed.Karthala,Paris 1984, p105

* ثم أعادت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر طبعها ثانية سنة 1976، وثالثة سنة 1988.

258 Malek Ben Nabi « Le phénomène coranique », Ed. Enahdha Alger 1947.

259 Malek Ben Nabi « Lebbeik » , Ed . Enahdha Alger 1948 .

المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، و " مامون " لشكري خوجـة، ويتمثـل الحـل في توبة البطل، وتكفيره عن ذنوبه ، بالذهاب إلى البقاع المقدسة ليؤدي فريضة الحج، ومن هنا جاء عنوان الرواية " لبيك "، وهو بهذه الحل ((يريد أن يبرهن بأن لاشيء قد ضاع، وبأن الشعب يستطيع بـلا ريـب أن يمسك بزمـام أمـره، ويسـتعيد شخصـيته عـن طريـق تجديـد تمسـكه بعقيدتـه الـتي هـي ضمان تحرره .)) [260]

6-ثلاثية ديب وبداية الأدب الاحتجاجي

وشكل ظهور رواية "الدار الكبيرة " لمحمد ديـب سـنة 1952 [261]منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون [262]. فلأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المـثقفين ومناقشـاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة، في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي بين "الأهالي" والمعمرين، عن طريق الدعوة إلى الاندماج والزواج المختلط، لتنـزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وتتحدث عن هموم الناس البسـطاء مـن عامـة الشعب، وتصف أحوالهم المعيشية القاسية، ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، ولأول مرة تتحدث عن النضال السياسي الجزائري، وعن مناضـلين يعيشـون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الاستعماري [263]، ولأول مرة تطرح تسـاؤلات

---

260 Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française", p69 .
261 Mohamed Dib « La grande maison », Seuil, Paris 1952 .
262 باستثناء رواية "إدريس" للحمامي، المشار إليها أعلاه ، التي ظلت تشكل حالة خاصة.
263 يمثلهم في الرواية حميد سراج.

محـددة وصـريحة عـن الهويـة الوطنيـة وعـن مفهـوم الـوطن، وعـن الهويـة الحقيقية للجزائريين [264].

وقد تأكد هـذا التوجـه الجديـد في أعمـال الكاتـب اللاحقـة، لاسـيما في روايتي "الحريق" (1954) [265]، و"مهنة الحياكة" (1957) [266] اللتين تشكلان امتدادا وتكملة لـ" الـدار الكـبيرة "، فقـد كشـفت الأولى عـن عـالم البـؤس في الريـف، ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع والاستغلال الفاحش، وقهر المعمرين لهم كلما حاولوا أن يحتجوا على وضعهم المـزري، وصـورت الثانيـة حيـاة الحـرفيين في المدن، التي لم تكن تختلف في شيئ عن حيـاة الفلاحـين البائسـة، إلا في نـوع المهنة ونوعية المستغل .

7 ـ روايات الثورة

وظهرت في هذه الفترة نفسها أعمال روائية أخرى لكتاب آخرين، تسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه أعمال محمد ديـب الأولى، نـذكر منهـا علـى الخصـوص روايـة "نـوم العـدل" (1955) [267] لمولـود معمـري، و"نجمـة" (1956) [268] لكاتب ياسين، فقد كشفت الرواية الأولى عن حالة التخلف والفقر والاستغلال والحرمان التي كانت تعاني منها القرى القبائليـة المنعزلـة في رؤوس

---

264 وسط الزيف الذي كانت المدرسة الفرنسية تلقنه للأطفال الجزائريين. يطرح المعلم الجزائري حسن . الذي ينطق الفرنسيون اسمه "أسن" . على تلاميذه سؤالا عن مفهوم الوطن ، ويروح الأطفال ببراءة يتبارون في الإجابة عن السؤال مما حفظوه من كتبهم الدراسية ، ويضطر المعلم أن يصحح لهم المعلومات المزيفة التي لُقنوها ، ويتوجه إليهم في حديثه باللغة العربية ، التي يندهش التلاميذ وهم يسمعونه يتحدث بها أمامهم لأول مرة، ليقول لهم: "ليس صحيحا ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم "، راجع: "الدار الكبيرة " ترجمة الدكتور سامي الدروبي. دار الطليعة . بيروت 1968 ص 26.

265 Mohamed Dib « L'incedie », Seuil, Paris 1954 .

266 Mohamed Dib « Le métier à tisser », Seuil, Paris 1957 .

267 Mouloud Mammeri « Le sommeil du juste » , Plon . Paris 1955 .

268 Kateb Yacine « Nedjma » , Seuil , Paris 1956 .

الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس من جهة، ووطأة الاستعمار واستغلاله لحالة الجهل والتخلف والخلاف فيما بينهم من جهة أخرى، بما يخدم مصالحه ويضمن له استمرار التحكم الكامل في مصائر العباد وأقواتهم، في حين عرضت الرواية الثانية لحالة البطالة والفقر المدقع الذي يعيشه الجزائريون في المدن، والاستغلال والإهانة التي يتعرض لها العاملون باليومية في وُرش المعمرين وضياعهم الواقعة على أطراف المدن، وهو ما يضاعف الإحساس بالظلم لدى أولئك العمال، ويدفع ببعضهم إلى التمرد، وربما إلى ارتكاب جرائم قتل [269].

وقد تناول الكاتب أيضا في جانب من الرواية مظاهرات 8 مايو 1945. التي وقعت في سطيف وخراطة وقالمة وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين، وصوّر وقائع من القسوة والوحشية التي قمعت بها تلك المظاهرات [270]. فكانت هذه الأعمال الروائية بمثابة المؤشر الذي يشير إلى ما آلت إليه أوضاع الجزائريين من التردي والفساد، والمُحذِّر من مغبة ما كان وشيك الوقوع، ألا وهو انفجار ثورة التحرير الكبرى في فاتح نوفمبر 1954. علما أن هذه الروايات لم تنشر في الجزائر، وإنما نشرت في فرنسا، وفي دور نشر معينة

269 هذه حال أبطال رواية "نجمة ": لخضر، ومصطفى ، ومراد، ورشيد، فكلهم تمردوا على سلطة المستعمرين، ورفضوا الإهانة، وكلهم عاشوا حياة التشرد، والملاحقات البوليسية، والسجون، وقد وجد بعضهم نفسه مدفوعا لارتكاب الجريمة، مثل مراد الذي لم يستطع احتمال الظلم والإهانة التي تعرضت لهما خادمة عربية تعمل عند المقاول "ريكار"، حين حاولت العروس وبعض المدعوين لحفل زفاف المقاول إرغام الخادمة العربية على شرب الخمر، وحين قاومتهم ورفضت مزاحهم الثقيل، ضربوها ضربا مبرحا ، فتدخل مراد بقوة ليخوض معركة ساخنة لوحده انتهت بمقتل المقاول وعروسه. راجع: « Nedjma » , VII, p25 à 27.

270 وشارك الكاتب نفسه في تلك المظاهرات بمدينة سطيف، وقبض عليه وسجن وطرد من الثانوية بسبب ذلك. راجع: Mohamed Ismaïl Abdoun « Kateb Yacine »Coll.Classiques du monde S.n.e.d, Nathan Alger-Paris1983, p3.

ومعروفة [271]، حيث وجدت تعاطفا معها من قبل مثقفي اليسار الفرنسي خاصة، والمثقفين المتنورين بوجه عام، ووجدت رواجا لدى جمهور القراء الفرنسيين، وهذا ما عجّل بظهور أعمال روائية أخرى، لنفس المؤلفين المذكورين، ولمؤلفين آخرين، تعززت بهم وبأعمالهم هذه النزعة الاحتجاجية التي عرف بها الأدب الجزائري الفرنسي اللسان في فترة الخمسينيات، لتتحول مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال كاتب ياسين اللاحقة، ومالك حداد، وآسيا جبار، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح دام سبع سنوات ونصف، بحيث لم يعد هناك ما يدعو إلى أية مهادنة للاستعمار، أو أية مصالحة معه، إلا على أساس انفصال الجزائر عن فرنسا، واستقلالها عنها استقلالا تاما [272]، وقد عبر الدكتور صالح قادر - أحد أبطال رواية "التلميذ والدرس" - عن هذا المعنى بكثير من الدقة والإيجاز، حين اعتبر أن حياته الحقيقية قد بدأت مع مظاهرات 8 ماي 1945 الدامية [273].

وهذا هو المعنى الذي عبرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة التي ظهرت بدء من سنة 1958. مثل رواية "الإنطباع الأخير" (1958) [274] لمالك حداد، التي

---

271 ولا سيما منشورات "سوي" Seuil التي تأتي في مقدمة دور النشر التي نشرت للجزائريين وشجعت أدبهم، بالإضافة إلى دور: جوليار، ودونوال، وكوريا، وبلون. راجع إحصاء عبد الكبير الخطيبي في: « Le roman maghrébin », pp32-33.

272 ويبدو أن هذه القناعة كانت قد نضجت في ذهن كل الأنتليجانسيا الجزائرية كلها، حتى لدى أولئك الذين عرفوا بصبرهم وطول نفسهم مع الاستعمار، مثل الزعيم فرحات عباس الذي صرح في سنة 1953 قائلا: "لم يبق من حل سوى الرشاش":
Cité par Bouba Mohammedi , « La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature.. » , p18 .

273 مالك حداد "التلميذ والدرس" ترجمة سامي الجندي، دار الطليعة، بيروت 1962 ص19.

274 Malek Haddad « La dernière impression » , Ed. Julliard , Paris 1958 .

تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المسلحة، و"صيف إفريقي" (1959)[275] لمحمد ديب، التي قدمت نماذج من صور المقاومة الشعبية، أبطالها فلاحون من الأرياف، وحرفيون في المدن، وشبان وفتيات، مثقفون وأنصاف مثقفين وأميون، وعرضت لوحات دامية مما كانت تقوم به القوات الفرنسية من قنبلة بالطائرات، وقصف بالمدفعية للقرى والأرياف، وتشريد لسكان تلك القرى، وما كانت تفعله تلك القوات نفسها في المدن من قمع وترهيب للسكان الآمنين، وتعذيب للمناضلين والثوار الذين يقعون بين أيديها، وزج بالأبرياء في غياهب السجون والمحتشدات.

وقد عاد ديب إلى تصوير أحداث الثورة من جديد في روايته اللاحقة: "من يذكر البحر" (1962) [276]. ولكن بأسلوب مغاير، حيث لجأ فيها إلى استعمال الرمز والتكثيف الشديد للأحداث، ليعبر بذلك عن أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار التي آلت إليها القرى والمداشر.

وفي رواية " التلميذ والدرس " (1960) [277]. و "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" (1961) [278] لمالك حداد، يرسم الكاتب جو الحرب هذا، ولكن بطريقة مختلفة عن محمد ديب حيث يركز على جو القلق والتوتر الذي يطبع الحياة

---

275 Mohamed Dib « Un été africain » , Seuil , Paris 1959 .

276 Mohamed Dib « Qui se souvient de la mer » , Seuil , Paris 1962 .

277 Malek Haddad « L'élève et la leçon » , Ed. Julliard , Paris 1960 . Réédité : Coll. 10-18.

278 Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus » , Ed. Julliard , Paris 1961 . Réédité : Coll. 10-18.

العامة أكثر مما يركز على الأحداث والوقائع، ويجعل أبطاله يعيشون ذلك القلق والتوتر، ويعانون الحرب وآثارها، مثل ما كان خالد بطل "رصيف الأزهار" ((يعاني الحرب كما يعاني صداعا في الجمجمة)) [279]. وتقول "فضيلة" في رواية "التلميذ والدرس": ((أنا شقية ..))، ويعلق الدكتور "قادر" على ذلك بقوله ((كنت أنتظر هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن)) [280] وعلى العموم، فقد كتبت هذه الأعمال كلها أثناء ثورة التحرير، من موقف ملتزم ومنحاز إلى الثورة [281].

وبإصداره لديوانه الأول "الشقاء في خطر" (1956) [282]. يكون هذا الشاعر قد أعطى للشعر المنظوم بالفرنسية من قبل الجزائريين دورا رائدا ومتميزا في التغني بالثورة والتحريض على مقاومة المستعمر بالكلمة الشعرية المعبرة والمؤثرة، وكان الشعر قبل هذا التاريخ متخلفا عن الرواية في هذا المجال، وقد جاء ديوانه الثاني "اسمعني وأناديك" [283]، ليعزز مكانة الكلمة الشعرية الملتزمة، ويؤكد قدرة الشاعر الخارقة على الإبداع، وهو الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي الشهير "لويس أراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا [284]

279 Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus », p34 .

280 مالك حداد "التلميذ والدرس" ص 47.

281 وقد انضم الكتاب بأقلامهم إلى الثورة، كما كلف بعضهم من قبل قيادة الثورة . مثل مالك حداد . بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوروبا والبلاد العربية والعالم، مثل تلك الرحلة التي قادته في ربيع 1961 إلى القاهرة ودمشق.

282 Malek Haddad « Le malheur en danger » La Nef de Paris, 1956 .

283Malek Haddad « Ecoute et je t'appelle », Ed. Maspéro, Paris 1961.

284 ملك أبيض العيسى، ترجمة ديوان مالك حداد "الشقاء في خطر"، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط 2. بيروت 1979، ص23.

8 ـ روايات ما بعد الاستقلال

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينيات تقريبا إلى هذا الاتجاه الذي وصفناه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، وقد اتخذت لها كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن مثل ما نجد في رواية " أطفال العالم الجديد " (1962) [285]لآسيا جبار، وضرب القرى والمداشر بالمدافع والطائرات، وتهديم المنازل على رؤوس سكانها مثل ماهو الحال في رواية "الأفيون والعصا" (1965) [286] لمولود معمري، ووصف الحياة الصعبة داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها كما نجد في روايتي "أصابع النهارالخمسة" (1967) [287]لحسين بوزاهر و"أسلاك الحياة الشائكة " (1969) لصالح فلاح [288]

ويمكن وصف هذه الأعمال بأنها كانت تصور كلها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة، وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب، وتتغنى بأمجاده ومآثره القديمة والحديثة، وتعمق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة، وتلتقي مع كتابات وأبحاث تاريخية واجتماعية تاريخية ظهرت في هذه الفترة [289]

285 Assia Djebar « Les enfants du nouveau monde », Ed. Julliard , Paris 1962. Réédité : Coll. 10-18.
286 Mouloud Mammeri « L'opium et le bâton », Plon, Paris 1965. Réédité: Coll. 10-18 .
287 Hocine Bouzaher « Les cinq doigts du jour » , S.N.E.D Alger 1967 .
288 Salah Fellah « Les barbelés de l'existence » , S.N.E.D Alger 1969 .
289 مثل كتابات محمد الشريف ساحلي عن الأمير عبد القادر ، وعن تشويه الاستعمار للتاريخ الجزائري، وكذا كتابات مصطفى الأشرف عن الأمة والمجتمع، وقد اعتمدنا بعضها كمراجع في هذا البحث.

9 ـ المسرحيات

وفي مجال المسرح سارت معظم المسرحيات التي ظهرت في هذه الفترة بدورها في هذا الاتجاه الثوري، وأهمها ـ حسب اهتمام النقاد بها، وحسب الصدى الذي أحدثته ـ تلك التي قدمها كاتب ياسين مثل مسرحية "الجثة المطوقة" و"الأجداد يزدادون ضراوة" التي عرضت على خشبة المسرح أثناء الثورة التحريرية في « بروكسيل »، ثم نشرت مع نصوص أخرى بعنوان "دائرة الانتقام" (1959) [290] وهناك أعمال أخرى لقيت صدى أقل، مثل مسرحية "أصوات في القصبة" (1960) [291] لحسين بوزاهر.، ومسرحية "الميلاد" و"الزيتونة" (1962) [292] لمحمد بوديا، و"احمرار الفجر" (1969) [293] لآسيا جبار ووليد قرن، وكذا مسرحية "الرجل ذو النعل المطاطي" (1970) [294] لكاتب ياسين، التي عرضت على خشبة المسرح الوطني الجزائري سنة 1969 بلغتها الأصلية (الفرنسية)، ثم باللهجة العامية. وحتى إن ابتعد المؤلف في هذه المسرحية عن الجزائر من حيث المكان، فإنه لم يبتعد عن الثورة كموضوع، حيث يتخذ من كفاح الشعب الفتنامي ضد الاستعمار الفرنسي موضوعا لها.

غير أننا نلاحظ أن معظم المسرحيات التي سبقت الإشارة إليها كانت قد عرضت خارج الجزائر، وفي أوروبا بالتحديد، على جمهور غير الجمهور

290 Kateb Yacine « Le cercle des représailles », Seuil, Paris 1959 .
291 Hocine Bouzaher "Voix dans la Casbah" , Maspéro 1960.
292 Mohamed Boudia « Naissance » suivie de « L'olivier », Ed. La Cité , Lausanne 1962 .
293 Assia Djebar et Walid Garn « Rouge l'aube », S.N.E.D Alger 1969 .
294 Kateb Yacine « L'homme aux sandales de caoutchouc » , Seuil, Paris 1970 .

الجزائري، أما التقليد الذي سار عليه المسرح في الجزائر، في مختلف مراحله ـ ومنه ما قدمته فرقة "جبهة التحرير الوطني" أثناء الثورة المسلحة ـ فهو تقديم العروض باللهجة العامية الجزائرية، ولذلك لم يكن للمسرح الناطق باللغة الفرنسية حضور قوي في صالات العرض الجزائرية، وظل معظم ما كان يكتب منه بهذه اللغة نصوصا موجهة للقراءة لا للتمثيل، ولم تكن تجد لدى الجمهور إقبالا على قراءتها مثل ذلك الذي كانت تلقاه الرواية، فكان هذا أحد الأسباب الرئيسية ـ من ضمن أسباب أخرى ـ التي جعلت كاتب ياسين يتخلى عن كتابة مسرحياته باللغة الفرنسية، ليكتب ويقدم عروضه بالعامية الجزائرية ((التي يفهمها جميع الجزائريين، في أغلبيتهم الساحقة)) [295].

وقد تبعه في هذا المضمار تلاميذ وأتباع، كتبوا بدورهم بالعامية، ويأتي في مقدمتهم سليمان بن عيسى الذي بدأ الكتابة في سنوات السبعينيات بنقل بعض مسرحيات كاتب ياسين من الفرنسية إلى العربية العامية ، ثم تحول إلى التأليف، وقدم عدة أعمال مسرحية لاقت نجاحا كبيرا، أهمها مسرحية "بوعلام زِد القدّام" (1975)، و"بابور غرق " (1983)، و"أنت خويا وأنا أشكون؟" (1990) [296]. وقد عاد في السنوات الأخيرة إلى الكتابة بالفرنسية من جديد، ليؤلف ويعرض، ابتداء من سنة 1991، عدة مسرحيات له في بلجيكا [297].

---

295 « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », Entretien réalisé par Hafid Gafaiti . Coll. Voix Multiples . Laphomic. Alger 1986 , p10.
296 Achour Chorfi « Mémoire algérienne: dictionnaire biographique » , Ed. Dahlab . Alger 1996, p135 .
297 Ibid. P135 .

10ـ القصة القصيرة

أما بالنسبة للقصة القصيرة باللغة الفرنسية، فمثلها مثل الشعر، لم تحظ بالأهمية ولا بالأولوية لدى الكتاب والقراء على السواء، وتأتي في الدرجة الرابعة من حيث الاهتمام بها بعد الرواية والشعر والمسرحية [298]. وقد ظهرت متأخرة بالقياس إلى الرواية والشعر، وكان محمد ديب رائدها الأول بمجموعته الأولى " في المقهى " (1955) [299]. التي نقابل فيها العديد من شخصيات ثلاثيته الروائية، مثل " عمر "، والعمة " حسناء "، و" ابنة العم الصغيرة "، حيث يقدم محمد ديب إضافات جديدة يتعلق بعضها بأحداث كان قد أشار إليها في الثلاثية مجرد إشارات سريعة ، كزواج "ابنة العم الصغيرة"، الذي يخصه بقصة مستقلة هي قصة "زواج بديع "، وبعضها بالتطور الذي حدث في حياة الأبطال أو في وعيهم، مثل الطفل عمر، الذي استنتج بصفة تلقائية في هذه المناسبة ـ وهو الذي طالما عانى آلام الجوع ـ أن السعادة في الحياة ليس أساسها الأكل، ولكن الشعور الداخلي بالمتعة [300] وقد اتخذت القصة القصيرة بالفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال ، ككثير من الأعمال الروائية والشعرية في هذه الفترة، حرب التحرير كموضوع رئيسي لها [301]. وكان محمد ديب في مجموعته

---

298 هذا ما يستنتج من قول الدكتور عبد الله ركيبي ((على أن الملاحظ أن الباحثين عندما يتعرضون لمناقشة هذا الأدب، إنما تنصب عنايتهم بالدرجة الأولى على الرواية والشعر والمسرحية ، ويغفلون الحديث عن القصة القصيرة بالفرنسية))، راجع: د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر" ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1969 ، ص246.

299 Mohamed Dib « Au Café », Gallimard , Paris 1956

300 د. عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري 1925.1967 "ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982 ، ص379 .

301 نفسه ، ص 382 .

القصصية الثانية "الطلسم" (1966) [302] سباقا مرة أخرى في هذا المجال. ويتأكد التركيز على موضوع الثورة التحريرية في كل مرة يظهر فيها عمل قصصي جديد، لا سيما في أعمال الكتّاب الذين اشتهروا بكتابة القصة القصيرة، على قلتهم، مثل قدور محمصاجي في مجموعته " زهور نوفمبر" (1969) [303]، ومولود عاشور في مجموعاته "الناجي" (1971) [304]، و"عباد الشمس" (1973)[305]، و"آخر موسم للعنب » (1975) [306]، و" أيام المعاناة " (1983) [307] وكلها لمولود عاشور، إذ تشكل فيها القصص المتعلقة بالثورة نسبة عالية جدا .

ويلاحظ عموما بشأن القصة المكتوبة بالفرنسية في الجزائر ضعف مساهمة الروائيين الكبار في كتابتها [308]، وكثرة من كتبوا فيها، على تنوع اختصاصاتهم الأصلية، من شعراء، ومسرحيين، وصحفيين، وكتاب مقالات، بحيث لم يتعد أغزرهم إنتاجا في هذا الفن، وهو مولود عاشور، أربع مجموعات قصصية، ومع ذلك تذهب الباحثة "عايدة بامية " إلى القول بأن القصة الجزائرية باللغة الفرنسية ((أظهرت بعض التفوق على نظيرتها العربية.. لأنها لم تعمد إلى استخدام نفس القدر من الشعارات والتعابير المتبادلة وأن لهجتها كانت أقل

---

302 Mohamed Dib « Le Talisman » Ed. du Seuil, Paris 1966 .

303 Kaddour M'hamsadji « Fleurs de Novembre » (nouvelles), S.N.E.D Alger 1969.

304 Mouloud Achour « Le Survivant et autres nouvelles », S.N.E.D Alger 1971.

305 Mouloud Achour « Héliotropes » (nouvelles), S.N.E.D Alger 1973 .

306 Mouloud Achour « Les dernières vendanges » (nouvelles), S.N.E.D Alger 1975 .

307 Mouloud Achour « Jours de tourmets » , E.N.A.L Alger 1983 .

308 لمحمد ديب مجموعتان: "في المقهى" 1955، والطلسم (1966)، ولمولود معمري مجموعة واحدة نشرت بعد وفاته "توقفات" « Escales » (1996)، ولرشيد ميموني "حزام الغولة " (1990)، ولكاتب ياسين، وبوجدرة، وبوربون قصص قليلة متفرقة لم تجمع في مجموعات.

دعائية ووعظا)) [309]. ولكنها تستدرك بعد ذلك لتسوق قولا لجان ديجو ـ وهو أكبر مختص في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ـ ينتقد فيه هذه القصة، ويقول عنها ((إنها مليئة بالصيغ المكررة والعبارات المتداولة)) [310]

11 ـ دارسون فرنسيون ومشارقة

هذا بالنسبة لما أنتجه الكتاب على المستوى الإبداعي، لاسيما في مرحلة ما قبل استعادة الاستقلال الوطني، أما على المستوى النقدي والتنظيري فإنه لم يظهر في المقابل نقاد ودارسون جزائريون متميزون لهذا الأدب، حيث ظل يعاني من فراغ كبير في هذا المجال، وظلت تصريحات الكتاب ولقاءاتهم في بعض المناسبات مع الصحافة أو الجمهور هي المرجع الرئيسي لرصد توجهات هذا الأدب، وتسجيل مواقف كتابه إزاء مختلف القضايا الأدبية أو القضايا السياسية على السواء. وهي تصريحات ـ رغم أهميتها بالنسبة للدارس ـ تتسم في الغالب بطابع الظرفية، والارتجال، والذاتية ، ولا تكون دائما معبرة عن الواقع الفعلي، وقلما نجد لهؤلاء الكتاب نصوصا ذات طابع تنظيري، أو تأملي، تعبر عن فهم الكاتب للوظيفة الإبداعية لكتابته، أو عن تصوره للرسالة الاجتماعية أو السياسية التي يحملها. وحتى حينما وجد هذا الأدب عناية على مستوى المتابعة النقدية، والدراسة المتخصصة، فإن هذه المهمة تكفل بها

309 د. عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري" ص 390 .
310 د.المرجع نفسه" ص 390 .

مؤرخون وباحثون فرنسيون، أمثال "جان ديجو"، و"شارل بون" و"جاكلين أرنو"، و"كريستيان عاشور" [311].

غير أن هذا لا ينفي وجود أطروحات جامعية حول هذا الأدب، قدمت هنا وهناك ، لباحثين جزائريين، ولا سيما في العقود الأخيرة، ولكن ظل معظمها غير منشور، كما جرت في بعض المناسبات مناقشات متفرقة على صفحات الجرائد والمجلات، بأقلام كتاب جزائريين حول قضايا أدبية وفكرية معينة ، وحول بعض الروايات، نذكر منها على الخصوص تلك المناقشات التي جرت في أوائل الخمسينيات حول رواية "الربوة المنسية " لمولود معمري عقب صدورها في أكتوبر 1952. وقد اشترك في النقاش جزائريون، ومستوطنون، وفرنسيون من المتروبول، فهلل لها بعض الشبان الجزائريين ـ كما يذكر محمد الصالح دمبري ـ [312]، وراحوا يتجادلون حول موضوعها وأحداثها، ويطرحون تساؤلات حول مراميها، وحول ما إذا قصد الكاتب منها نقد المجتمع التقليدي، أم أراد أن يعبر بها عن نزعة إقليمية عنده (النزعة البربرية)، أم قصد الكشف عما تعانيه الطبقة الفلاحية من شقاء واستغلال ؟ [313]. على أن

---

311 هذه الأخيرة جزائرية من أصل فرنسي، وقد استعنا كثيرا في بحثنا هذا . كما هو ملاحظ في الهوامش . بما كتبه هؤلاء الباحثون عن أدب الجزائريين باللغة الفرنسية. ومن جهة أخرى، نسجل أيضا أن ما كتب عن هذا الأدب باللغة العربية ، وما ترجم منه إليها إنما كتب وترجم على يد العرب المشارقة، ولا سيما سوريا ولبنان ومصر، إلا استثناءات قليلة تمت في الجزائر وتونس، وفي المغرب مؤخرا.

312 محمد الصالح دمبري "مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري"، ترجمة حنفي بن عيسى، مجلة "الثقافة"، العدد 102 ، 1989.

313 نفسه ، ص39.

هناك من انتقد لجوء الكاتب في روايته إلى التلميح، وأعرب عن أمله ((أن يكون في المستقبل أكثر التزاما من حيث مواقفه السياسية)) [314].

كما رحبت صحافة المستوطنين الأوروبيين بالرواية، وكال لها صحافيوها المديح، ((واتخذوا من أصل مؤلفها القبائلي ذريعة لخدمة أغراضهم الاستعمارية)) [315]، فأشادوا بالقرابة الفكرية التي اكتشفوها في الرواية بين الأوربيين والقبائل، وبالحساسية التي يتمتع بها الكاتب ((التي تشبه حساسية الفرنسيين))، وعدُّو الرواية نجاحا كبيرا لرسالة التعمير التي جاؤوا لنشرها في الجزائر[316].

وقد حدث رد فعل قوي من قبل الأوساط الوطنية الجزائرية عن هذا المديح المشبوه للرواية، تمثل أساسا في مقالات كتبها محمد الشريف ساحلي، ومحفوظ قداش ومصطفى الأشرف، فوضع الأول لمقاله عنوانا مثيرا هو " ربوة التنكُّر "، وطالب فيه الروائي بتوضيح موقفه، والدفاع عن نفسه، ولاسيما حول ما أشيع عن رعاية المارشال " جوان" لروايته [317]، وأدان الثاني الرواية بشدة، وقال ضمنيا ما معناه أنه ما دامت الرواية قد وجدت استقبالا حسنا في الصحافة الاستعمارية، فهذا معناه أنها سيئة بالنسبة لنا [318]. ولام الكاتب على صمته، ((وذكَّره بأن الظروف الخاصة التي تعيشها الجزائر لا تسمح باتخاذ مواقف

---

314 محمد الصالح دمبري "مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري" ص40 .

315 "مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري، ص41.

316 نفسه ، ص42 .

317وقد استجاب معمري لهذا الطلب بعد طول صمت .كما يوضح دمبري . وأنكر وجود أية علاقة له بالمارشال جوان راجع دمبري، انفسه ص 44.

318 Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". p25.

غامضة، أو تجاهل مشاكل الساعة)) [319]. في حين رأى مصطفى الأشرف أن معمري ((زخرف الحقائق الجزائرية عن قصد وألبسها ثوبا فولكلوريا، جعل روايته أقرب إلى الأدب الموسوم بالصبغة الاستعمارية)) [320].

12ـ مستقبل الثقافة والأدب في الجزائر المستقلة

وقد عرفت السنوات الأولى من الاستقلال بعض المناقشات الفكرية على صفحات الجرائد، وأشهرها تلك المناقشة التي أثارها مقال لمصطفى الأشرف نشره سنة 1963 في مجلة "الأزمنة الحديثة" الفرنسية بعنوان "مستقبل الثقافة في الجزائر" [321]. ودارت حول قضايا تتصل بالثقافة والأدب، وشارك فيها مراد بوربون، ومحمد بوديا، وبشير حاج علي، ومالك حداد، ومحمد حربي [322].

وكانت وجهات النظر متباينة جدا حول القضايا المطروحة، وتحول النقاش في الأخير إلى مهاترات واتهامات شخصية، عدها مالك حداد شيئا محزنا، لأن الحوار الذي دار بين أطراف النقاش ((لم يناقش القضايا الجوهرية التي تمس الثقافة مفهوما وإنتاجا وتوجها ولغة، ولكنه انصب على قضايا أخرى جزئية)) [323].

---

319 "مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري"، ص44 . ويبدو أن هذا النقد قد أثر تأثيرا إيجابيا في مولود معمري، فجاءت روايته الثانية "نوم العدل" (1955) معبرة عن موقف معادٍ من الاستعمار بشكل لا لبس فيه، انظر:
Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". p26.

320 نفسه، ص 26 .

321 Mostefa Lacheraf « L'avenir de la culture algérienne » in « Les Temps modernes », N°209, Octobre1963, pp720-745.

322 Cf: « Révolution Africaine » N°s : 45,46,47,48,49,50, 57 du 7-14-21-28 Décembre1963 et du 4-11-29 Janvier1964 successivement ,et « El-Moudjahid » n°s 157 du 7/12/63 - 160 du 28/01/64.

323 راجع عرضا لهذه المناقشة في كتاب د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، نشر دار الأمة، الجزائر 1993 ص ص 259 . 264.

والحقيقة أن مالك حداد، كان أسبق في طرحه لموضوع مستقبل الثقافة والأدب في الجزائر، قبل وقف القتال بشهور عديدة، وذلك في مقاله المطول الذي نشره سنة 1961، وأعطاه عنوان "الأصفار تدور في فراغ " [324]، وأهداه لروح الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وسنعود في الفصل الموالي لنستعرض ونناقش أهم ما جاء في هذا المقال، نظرا للأهمية التي تكتسيها موضوعاته في العديد من القضايا الحيوية المتعلقة بالكاتب، والكتابة، ولغة الكتابة، ومستقبل الأدب والثقافة في الجزائر.

وقد تجددت المناقشة حول القضايا التي أثارها الأشرف في مقاله المشار إليه، وقبله مالك حداد، وحول قضايا أخرى، ولاسيما قضية اللغة. وأهمها تلك الندوة التي أدارها محمد الصديق بن يحي، ونشرتها يومية « المجاهد » بالفرنسية، ودار موضوعها حول التعريب واللغة الفرنسية، واللغة العربية ومستقبل الأدب الجزائري، وشارك فيها مولود معمري، وآسيا جبار، ومحمد الشريف ساحلي، ومحمد بوديا، وجان سيناك. وقد تباينت فيها الآراء أيضا، ولم تخرج بنتيجة [325]

13 ـ بداية توجه جديد في الرواية بعد الاستقلال

وبعد الانقلاب الذي أطاح بنظام الرئيس بن بلّة، في 19 يونيو 1965، وقيام النظام العسكري بقيادة العقيد هواري بومدين، تفرق أعضاء "جمعية

324 Malek Haddad « Les zéros tournent en rond » (essais) , Ed. F. Maspéro, Paris 1961 .

325 د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" ص 264 .

الكتاب" التي كانت قد تأسست في 28 أكتوبر 1963 [326]. لا سيما كُتّابها باللغة الفرنسية، وفضل معظمهم المنفى الاختياري، وكان المنفى في الغالب هو فرنسا، وكانت الأسباب في الواقع غير محددة وغير واضحة، نظرا للتوجه الفكري لدى معظمهم، الذي كان توجها "ثوريا" [327]. أي أنه كان يتفق مع توجهات البلد السياسية في ذلك الوقت، وهذا ما يجعل اختيارهم العيش خارج الجزائر "لأسباب سياسة " أمرا غير محدد وغير واضح، ولكن على العموم كانوا يشتكون من عدم توفر المناخ الديمقراطي الذي يمكنهم من التعبير عن أفكارهم بكل حرية.

وبدأ يظهر بعد منتصف الستينيات، ضمن أدب الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية، توجه جديد، لا سيما في الرواية، غلبت عليه النزعة السياسية الانتقادية، ولذلك أسماه أحد الباحثين بأدب "النزعة الاحتجاجية، الاجتماعية والسياسية " [328]، ونشر معظم هذا النوع الاحتجاجي في فرنسا، نذكر منه على الخصوص أعمال محمد ديب الروائية التي ظهرت في الفترة ما بين 1968 و1973: "رقصة الملك" (1968) [329]. و"إله أرض البربر" (1970) [330]

---

326 Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française » , p182.

327 جاء في ميثاق الاتحاد الصادر عن الجمعية العامة بتاريخ 1963/10/28، التي أُنشيء فيها"اتحاد الكتاب الجزائريين"، ((إننا نلتزم ببعث ثقافة وطنية، ذات طابع شعبي في منطلقها وفي مرماها، متشبعة بالروح العلمية، ملتزمة بالنهج الثوري كما رسمه ميثاق طرابلس .)). راجع نص "ميثاق الاتحاد" في:
Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française » , p183.

328 «Une tendance contestataire » , Voir Guy Daninos « Les nouvelles tendances du roman algérien de langue française » Ed. Naaman Sherbrooke, Québec, Canada 1979, p121 et 130.

329 Mohamed Dib « La danse du roi »,Seuil , Paris 1968

330 Mohamed Dib « Dieu en Barbarie »,Seuil , Paris 1970.

و"معلّم الصيد"(1973)[331] ورواية مراد بوربون "المؤذن"(1968)[332] و"التطليق"(1969)[333] ، و"ضربة شمس" (1972)[334] لرشيد بوجدرة، و"موت صالح باي" (1980)[335] لنبيل فارس. فكل هذه الأعمال الروائية يجمعها قاسم مشترك واحد يتمثل في النقد الشديد اللهجة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، حتى وإن ركزت على هذا الجانب أو ذاك، أواختلفت الطرق الفنية التي تعبر بها.

وقد استمر هذا التوجه الانتقادي، أو الاحتجاجي حتى بعد وفاة بومدين في أواخر شهر ديسمبر 1978، ونجد ذلك بارزا في روايات رشيد ميموني خاصة، مثل رواية "النهر المحول" (1982)[336]، التي يشير عنوانها إلى المضمون الذي عبرت عنه الرواية، وهو تحول الثورة على يد العسكر عن مسارها النضالي ذي الطابع الشعبي، وعن أهدافها الاجتماعية الطموحة، و"طومبيزا " (1984)[337]، التي تسير في الاتجاه نفسه، ولكن تحمل مرارة أكبر، وتنتقد الأوضاع الاجتماعية بحدة أقوى، حيث يتعلق الأمر بحرمان مزدوج بالنسبة للبطل الذي يعاني من الفقر والاعتلال الصحي من جهة ، ومن النبذ الاجتماعي من

---

331 Mohamed Dib « Le Maître de chasse »,Seuil , Paris 1973 .
332 Mourad Bourboune « Le Muezzin », Ed. Christian Bourgeois, Paris 1968.
333 Rachid Boudjedra « La répudiation » , Denoël, Paris 1969.
334 Rachid Boudjedra « L'insolation » , Denoël, Paris 1972 .
335 Nabile Farès « La mort de Salah Baye L'Harmattan , Paris 1980.
336 Rachid Mimouni « Le fleuve détourné », Ed. P. Laffon Paris. 1982 .
337 Rachid Mimouni « Tombéza » P. Laffont , Paris 1984 .

جهة أخرى، لأنه جاء إلى هذا العالم نتيجة عملية اغتصاب لأمه، التي ضربت إلى حد الموت، وفارقت الحياة إثر ولادته.

وكذا في روايات الطاهر جاوت، ولكن برمزية أكثر إيغالا وغموضا، وبلهجة أقل حدة، مثل روايته " الباحثون عن العظام "[338] وإلى حد ما رواية "منزوع الملكية" (1981)[339]. التي يقترب فيها وضع بطله إلى حد كبير من وضع بطل رواية "طومبيزا"، حيث يعاني بدوره من أزمة هوية حادة، نتيجة تجريده من وسيلة التعبير الأساسية التي هي اللغة، ويوظف الكاتب الرمز في هذا العمل على نطاق واسع، ويعطي لنفسه حرية كبيرة في خلط الأساليب السردية، ليرسم لبطله وضعا مأساويا مؤثرا[340].

واستمر هذا الاتجاه في الظهور حتى بعد مظاهرات أكتوبر1988، وصدور دستور23 فبراير 1989، الذي سمح بالتعددية السياسية. ولعل أبرز عمل روائي ظهر في هذه الفترة هو رواية " شرف القبيلة" (1989)[341] لرشيد ميموني، التي رصد فيها السلوكات التي كان يقوم بها مسؤولوا وإطارات ومناضلو "الحزب الواحد"، والتي كانت تتميز، حسب ما تصورها الرواية، بالنفاق،

---

338 Tahar Djaout « Les chercheurs d'os » Ed. du Seuil, Paris 1984 .
339 Tahar Djaout « Lexproprié » , S.N.E.D Alger 1981 .
340 لهذا تبدي السيدة كريستيان عاشور تحفظا على اعتبار "منزوع الملكية" رواية، حتى وإن نشرت على أنها رواية. راجع :
Christiane Achour « Anthologie de la littérature algérienne de langue française » , p141 .
341 Rachid Mimouni « L'honneur de la tribu » Ed.P. Laffont, Paris 1989 . Réédité a Laphomic, Alger 1990.

وتشجع على انتشار الانتهازية، والرشوة، والجهوية. وصور كل ذلك في شكل كاريكاتوري ساخر[342].

هذا هو التوجه الذي ساد كتابات الجزائريين باللغة الفرنسية بعد منتصف عقد الستينيات بوجه عام، لكن مظاهر هذا التوجه تعددت وتنوعت، ولم تقف عند حدود المعارضة السياسية البحتة، أو نقد الأوضاع الاجتماعية، والفساد الإداري، فمنذ السبعينيات طرحت مسائل أخرى، لعل أهمها مسألة الهوية الوطنية، والهوية الأمازيغية بالتحديد، التي عبرت عنها بشكل مباشر بحوث مولود معمري اللغوية والأنتروبولوجية على الخصوص[343]. وبشكل غير مباشر روايته الأخيرة "العبور" (1982) [344]. كما طرحها غيره في أعمال أدبية مختلفة، تتراوح بين التصريح والتلميح، وبين المباشرة والرمزية، مثل ما نجد في مسرح كاتب ياسين عامة الذي يتميز بأسلوب استفزازي، يسخر فيه من الدين الإسلامي[345]. ويهاجم اللغة العربية الفصحى، ولا يعتبرها لغته أو لغة الشعب الجزائري [346]، وهي لغة ميتة في نظره ، مثلها مثل اللاتينية [347]. ومثل أعمال نبيل فارس الروائية، مثل "ذاكرة الغائب" (1974) [348]. ومثل "المنفى

342حولت هذه الرواية مؤخرا بباريس إلى فيلم سينمائي .

343 راجع في هذا الصدد على الخصوص كتابه : - « Culture savante , culture vécue », Ed. Tala, Alger 1991 .

344 Mouloud Mammeri «La traversée », Paris , Plon 1982. Reédité aux éditions Bouchène , Alger 1989 .

345 نذكر منها على الخصوص مسرحياته: "مسحوق الذكاء" و "محمد خذ حقيبتك"، و"حرب الألفي سنة" إلخ. وكلها تصب في هذا الاتجاه .

346 Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », (Entretien) , p56 .

347 Ibid, p61 .

348 Nabile Fares « Mémoire de l'absent », Seuil, Paris 1974.

والحيرة " (1976) [349]. التي تطرح العديد من الأسئلة حول الهوية الجزائرية "المستلبة"، والثقافة "الأصيلة " المغيبة، وكذا الأمر في بعض أعمال الطاهر جاوت كروايته "منزوع الملكية" التي سبقت الإشارة إليها، وروايته "اختراع الصحراء" (1987) [350].التي يتخذ فيها من سيرة المهدي ابن تومرت البربري أساسا لنقد التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب، ويطرح أسئلة إشكالية تتعلق بالهوية الجزائرية، ويحاول أن يسقط وقائع ذلك التاريخ على واقع الحركات الإسلامية في العصر الحاضر.

في حين ظل هناك أدب مهادن للسلطة، صدر معظمه في الجزائر، يتناول موضوعات صارت تقليدية، مثل تصوير أحداث الثورة التحريرية التي سبق أن وقفنا عندها في بعض الروايات، وفي المسرح، والقصة القصيرة، ونذكر في هذا الصدد من الروايات المتأخرة "المغارة المتفجرة" (1979) [351]لآمنة مشاكرة، و"التمزق" (1980) [352] و"المحنة الأخيرة " (1983) [353] لمحمد شايب ، و"عصابة الأطلس" (1983) [354]. و"أسود الليل " (1985) [355]. و"الأطلس يحترق" 1987 [356] لعز الدين بونمور .

---

349 NabileFarès « L'exil et le désarroi », Maspéro , Paris 1976.
350 Tahar Djaout. « L'invention du désert ». Ed. du seuil. Paris 1987.
351 Yamina Méchakra « La grotte éclatée », S.NE.D Alger 1979 .
352 Mohamed Chaib « Le déchirement » , S.N.E.D Alger 1980 .
353 Mohamed Chaib « La dernière épreuve », E.N.A.L Alger 1983
354 Azzedine Bounemeur « Les bandits de l'Atlas », Gallimard, Paris 1983
355 Azzedine Bounemeur « Les lions de la nuit », Gallimard, Paris 1985 .
356 Azzedine Bounemeur «L'Atlas en feu », Gallimard, Paris 1987 .

كما ظل هناك دائما أدب يأخذ موضوعاته من الواقع المعيش، ويرصد التحولات الاجتماعية والسياسية التي كانت تحدث في ذلك الحين [357]. وهناك موضوع ظل حاضرا على الدوام في الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ونعني به موضوع السيرة الذاتية للمؤلفين، نذكر منها رواية "الشمس تحت الغربال" (1982) [358]، و"النظرة المجروحة " (1987) [359]، وكلاهما لرابح بلعمري، و"راس المحنة " (1991) [360] لعبد الرحمن الوناس.

14 ـ ما بعد أكتوبر 1988

وفي مطلع التسعينيات، ومع صعود المد الإسلامي في هذه الفترة، ودخوله بقوة معترك السياسة، أخذت تظهر أعمال روائية في هذا الأدب تنتقد هذا المد نقدا لاذعا، وتصوره في شكل خطر سياسي واجتماعي داهم، يهدد الديمقراطية والحريات العامة، ومن ثمة تدعو بشكل صريح ومباشر إلى التصدي له ومحاربته بكل الوسائل [361] وتعد أعمال رشيد ميموني القصصية والروائية الأخيرة أبرز النماذج في هذا الصدد، مثل بعض نماذجه في مجموعته القصصية "حزام الغولة"

---

357 كموضوع الإصلاح الزراعي الذي شرع في تنفيذه تحت اسم "الثورة الزراعية" في بداية السبعينيات وأسال كثيرا من الحبر.

358 Rabah Belamri « Le soleil sous le tamis », Publisud, Paris 1982 .

359 Rabah Belamri " Regard blessé », Gallimard, Paris 1987 .

360 Abderrahmane Lounes" Ras El-Mahna", E.N.A.L, Alger 1991.

361 وقد أصدر ميموني في هذا الصدد كتابا ينتقد فيه الإسلاميين بشكل مباشر بعنوان "عن البربرية بوجه عام، والأصولية بالخصوص": «De la barbarie en général et de l'intégrisme en particulier. Ed. Père aux Clercs, France 1992 .

وكان رشيد بوجدرة قد سبقه إلى نقد الإسلاميين بكتيّب مماثل يحمل عنوان: "فيس الحقد"، أو بترجمة حرفية: "جبهة الحقد الإسلامية للإنقاذ":

Rachid Boudjedra « Le fis de la haine » , Ed. Bouchène , Alger 1992 .

(1990) [362] وروايته "اللعنة" (1993) [363]، التي تتخذ من اعتصام الإسلاميين في ساحة أول ماي في جوان 1991، واستيلائهم على قسم الاستعجالات في مستشفى مصطفى، بعد صدامهم مع قوات الأمن، محورا لها.

والحقيقة أن نقد الدين كما يتجلى في فهمه وتطبيقه في الواقع، وكذا نقد رموزه ممثلة في الزعامات الدينية التقليدية، ليس جديدا في كتابات الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية، بدء برواية "بولنوار" لرشيد زناتي في الثلاثينيات، مرورا بـ "المؤذن" لمراد بوربون في الستينيات، و"اختراع الصحراء" للطاهر جاوت في الثمانينيات ، ولكن أسلوب النقد هو الذي يتغير حسب وجهة نظر الكاتب وعقيدته السياسية ، وأيضا حسب حركة الظواهر الاجتماعية ، والتغيرات السياسية التي يتجلى فيها الدين.

15 ـ **أدب الجيل الثاني من الجزائريين في فرنسا :**

وقبل أن ننهي الحديث عن التطور الذي عرفه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية ، لابد لنا أن نشير إلى أسماء كتّاب جدد من أصل جزائري برزوا في فرنسا خلال العقدين الأخيرين وهم في معظمهم من أبناء العمال المهاجرين، ممن أصبحوا يعرفون باسم "البور" [364] أو "الجيل الثاني" من المهاجرين الجزائريين، أمثال زليخا بوقرط و علي غالم، ومهدي شارف، و أ. زيتوني، وجانيت لشمط، وآكلي تاجر، ومحمد كنزي، وناصر كتان، وغيرهم، فبحكم أصولهم

---

362 Rachid Mimouni « La ceinture de l'Ogress » , Ed. Seghers,Paris 1990 . Laphomic Alger 1990 .
363 Rachid Mimouni « La malédiction » Ed. Stock, Paris 1993. .Universel , Alger 1995 .
364 كلمة مولدة مجهولة الأصل ، تطلق على أبناء الجيل الثاني من المهاجرين الجزائريين .

الجزائرية كثيرا ما يتناولون موضوعات لها صلة من قريب أو بعيد بالجزائر والجزائريين، حتى وإن تعلقت تلك الموضوعات بجوانب من صميم الحياة اليومية في المجتمع الفرنسي المعاصر [365] وهم في نظرنا، يشكلون بوجه من الوجوه، امتدادا وتطورا طبيعيا لأدب الجزائريين المخضرمين باللغة الفرنسية، لا سيما ما تعلق منه بالهجرة الجزائرية في فرنسا، حتى وإن أنكروا هم هذا الامتداد ورفضوه بقوة [366]، مع فارق في المستوى الفني لهذا الأدب، إذ يحكم عليه بعض الباحثين بأنه أدب متمرد، لايعترف بالقواعد الفنية، ولا حتى بالقواعد اللغوية [367]

ومهما يكن مستوى هذا الأدب، ومهما يكن رفض أو قبول كتاب هذا الجيل الانتماء إلى المخضرمين من الكتاب الجزائريين بالفرنسية، فإنه من السهل على الملاحظ المحايد إدراك الصلة التي تربط بين أدب هؤلاء وأولئك، في العديد من الأوجه، وأبرزها الشخصيات التي يصورونها والأبطال الذين يصنعون أحداث رواياتهم.ومن هنا نطرح سؤالا نراه على قدر كبير من الأهمية فيما يخص التوجه الذي يمكن أن يتوجهه الأدب الجزائري باللغة الفرنسية مستقبلا: وهو ألا يكون أدب "البور" هذا مؤشرا قويا نحو التطور الطبيعي لأدب الجزائريين المكتوب بالفرنسية ؟ أعني الاندماج شيئا فشيئا، في المجتمع

365 كثيرا ما تصور أعمالهم الحياة "المغلقة" للمهاجرين في الأحياء التي يقطنونها ، والعنصرية التي تمارس ضدهم وضد أبنائهم فيما يخص فرص التعليم والتكوين ، والعمل، كما تتحدث عن العادات والتقاليد العربية الإسلامية داخل الأسر المهاجرة، كصوم رمضان والاحتفال بالعيد، وتتناول أيضا العلاقات مع جيرانهم من غير العرب أو المسلمين، وكذا العلاقات العاطفية فيما بينهم وبين أبناء وبنات المهاجرين الآخرين، أو بينهم وبين أبناء وبنات الفرنسيين ، والعوائق الإثنية، والدينية ، والأسرية التي تقف في طريق مثل هذه العلاقات إلخ .

366 Christiane Achour « Anthologie de la littérature algérienne de langue française » , p184 .

367 Ibid, p184 .

الفرنسي، وفي الأدب الفرنسي ليصبح في يوم من الأيام جزء لا يتجزأ من الأدب الفرنسي ؟ وما يدفعنا إلى هذا التساؤل الوجيه في نظرنا، هو ما ذهب إليه أحد الباحثين المرموقين في الأدب والثقافة المغاربية بالفرنسية، وهو "ألبير ميمي" الذي قال ((إن أدب المستعمَرين باللغات الأوروبية، محكوم عليه - فيما يبدو - بالموت في سن مبكرة)) [368]. وهو يعني أنه أدب ارتبط ميلاده وتطوره بالظاهرة الاستعمارية، وكذلك سيكون موته مرتبطا بزوال الظاهرة.

هذا من حيث التطور الذي عرفه هذا الأدب في مراحله المختلفة، التي يمكن أن نميز فيها أربع مراحل رئيسية، مرحلة ما بين الحربين، وهي مرحلة البداية التي كانت متعثرة فنيا، ومتذبذبة سياسيا، والمرحلة التي تمتد ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة التحرير في فاتح نوفمبر 1954، وهي مرحلة التململ والقلق وترقب ما سيحدث، حيث كانت كل المؤشرات في هذه الفترة تنبئ بأن شيئا ما سوف يحدث [369]. ومرحلة الثورة التي لم يكن فيها أمام الكتاب أي مجال للتردد أو الحياد، وقد كانوا في غالبيتهم في مستوى الحدث، بمواقفهم السياسية، وبأعمالهم الفنية، ومرحلة ما بعد الاستقلال التي عرفت تنوعا كبيرا في المواقف والرؤى حول مختلف القضايا الاجتماعية، والتوجهات السياسية والفكرية، وحول القضايا الفنية أيضا، كما عرفت تأثرا بالأحداث

368Albert Memmi « Portrait du colonisé » , Ed. J.J. Pauvert. Utrecht, 1966 , p147.

369 كانت رواية "الحريق" لمحمد ديب تحمل العديد من الإيحاءات والرموز التي تنبئ باقتراب قيام الثورة، بدء بالعنوان نفسه الذي تحمله.

السياسية الكبيرة التي مرت بها الجزائر [370]، وخاصة انقلاب 19 يونيو 1965. وأحداث أكتوبر 1988.

16 ـ التطور الكمي لهذا الأدب

أما من حيث التطور الكمي لهذا الأدب، وبقطع النظر عن نوعية الإنتاج المنشور من حيث القيمة الفنية، على أساس أن النشر في حد ذاته لا يعد مقياسا للجودة، فنلاحظ أنه ظهر منه في الفترة ما بين الحربين العالميتين عدد محدود من العناوين لا تزيد في مجموعها عن عشرة ما بين أعمال روائية وشعرية [371]. ثم راح العدد يزداد باضطراد، بحيث نشر ـ حسب إحصاء للسيد جان ديجو ـ في الفترة ما بين سنة 1945 و 1962 ما مقداره 86 عملا موزعا على النحو التالي: 32 رواية، و40 مجموعة شعرية، و12 مسرحية ومجموعتان قصصيتان [372]. وفي فترة مساوية تقريبا للفترة المذكورة، أي ما بين 1962 و 1978. نشر 184 عملا موزعا كالتالي: 44 رواية، و108 مجموعة شعرية، و 20 مسرحية، و 12

---

370 تتفق هذه المراحل إلى حد كبير مع المراحل التي ذكرها "فرانتز فانون في كتابه "معذبو الأرض" بخصوص تطور وعي المثقفين الأفارقة كما يتجلى من خلال إنتاج الكتاب المستعمَرين، باستثناء المرحلة الرابعة التي واكبت مرحلة الاستقلال الوطني (التي لم يتنبأ بها فانون، ولم تمهله الأيام لكي يلاحظها في الواقع) فيذكر أنه في مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على أنه هضم ثقافة المستعمِر المحتل، فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة، وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمَر فيقرر أن يتذكر نفسه..إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته، ويعود إلى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة، وفي مرحلة ثالثة، تسمى مرحلة المعركة، نرى المثقف المستعمَر بعد أن حاول أن يغرق في الشعب يعمد إلى عكس ذلك، إنه الآن بدلا أن يغفو غفوة الشعب يستحيل إلى موقظ للشعب، إنه الآن ينتج أدب معركة. ومع ذلك يحذر فانون من نسيان شيء جوهري وهو اللغة والتقنية التي يستعيرها المستعمَر من المستعمِر فإذا نسي الكاتب هذه الحقيقة فإنه يكتفي بأن يكسو هذه الأدوات بثوب يريد له أن يكون قوميا، ولكنه كالأدب الغربي الذي يتكلم عن البلاد الأخرى. راجع : Frantz Fanon « Les damnés de la terre » , Ed. E.N.AG , Alger 1987, pp193-194 .

371 استعرض جان ديجو معظم عناوينها وأسماء كتابها في: «La littérature algérienne contemporaine » Coll. Que-sais-je , P.U.F Paris 1975, pp58-60

372 Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p67 .

مجموعــة قصصــية [373]، نشــر حــوالي ثلــث العــدد الإجمــالي المــذكور منــه في الجزائر [374]. ونشر الباقي في فرنسا أساسـا، وفي بلجيكـا، وكنـدا، وسويسـرا بنسب متفاوتة [375].

ونلاحظ أن الإنتاج الإجمالي قد تضاعف بأكثر من مرتين ، بزيادة قدرها 37,5 بالمائة في الإنتاج الروائي، في حين تضـاعف الإنتـاج الشـعري بـأكثر مـن مرتين ونصف المرة، والمسرحيات بأكثر من مرة ونصف، والقصص بست مرات. ولا نمتلك إحصائيات دقيقة وشاملة عن هذا الأدب بعـد سـنة 1978، وحسـب تتبع الباحث لما يصدر منه في السوق الوطنية فقد سجل تراجع كـبير في مجـال الشعر والمسرحية والقصة القصيرة، ابتداء من منتصف الثمانينيات، قد يصل إلى درجة الصفر في بعض السنوات بالنسبة للشعر [376]. في الوقت الذي واصلت فيـه الرواية تقدمها، وسجلت رواجا في المبيعات، وتنوعـا في الموضـوعات، وعرفـت توجها جديدا نسبيا هو معالجتها للموضوعات التاريخيـة ، الـتي كانـت شبه معدومة في الفترات السابقة [377].

373 Ibid , p67 .
374 Ibid , p73 .
375 يقف احصاء "ديجو" السابق الذكر في سنة 1978، وم نعثر في غيره إلا على إحصائيات جزئية تتجاوز هذا التاريخ ، لذلك لم نأخذ بها .
376 وهذا ينطبق على الإنتاج الأدبي باللغة العربية أيضا.
377 نذكر منها على الخصوص: رواية "أسوار الحرية" (1985) لرشيد قاهار: Rachid Kahar « Les remparts de la liberté », E.N.A.L Alger 1985 . التي يدور موضوعها حول ثورة المقراني والحداد سنة 1971 ، ورواية "ألف وثمان مائة وثلاثين" (1986) لعبد الرزاق هلال : Abderrezak Hellal « Dix huit cent trente », E.N.AL Alger 1986. التي تدور حول الغزو الفرنسي للجزائر كما هو واضح في العنوان . وكذا رواية "الموتة الأولى لحسين داي" (1990) لـ م.ك. بوقرة: M.K. Bougurra « La première mort de Hussein - Dey » , Ed. E.N.A.P , Alger 1990

وسبب تراجع الأنواع الأخرى يعود أساسا لعدم إقبال الجمهور على قراءتها، وهو ما دفع بالناشرين - مع إفلاس الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وانفتاح سوق الطبع والنشر على المستثمرين الخواص - إلى التخلي عن نشرها. أما تضخم عدد العناوين التي صدرت منها في السابق فيعود إلى سياسة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، التي لم يكن النشر فيها مدروسا دراسة اقتصادية تستجيب لقانون العرض والطلب، وإنما كان يخضع لاعتبارات أخرى، سياسية حينا، ونخبوية حينا آخر، وداخلة حينا في نطاق الصراعات اللغوية التي كانت قائمة [378]، مما أدى مع مرور الوقت إلى تضخم أعباء الشركة ، وتكدس إنتاجها في المخازن، وعجل بإفلاسها وتصفيتها أخيرا.

وما نشر من هذا الأدب في الخارج يخضع بدوره لاعتبارات سياسية وثقافية، وترعاه المنظمة العالمية لنشر وحماية اللغة الفرنسية في العالم، التي توجد أهم مراكزها - بعد فرنسا - في كندا وبلجيكا، وسويسرا.

لكن لا يفسر هذا الكم من العناوين الصادرة من هذا الأدب بالعوامل التي ذكرناها آنفا فحسب، إذ كان هناك أيضا عامل انتشار التعليم على نطاق واسع بعد الاستقلال.

وقد ظلت لغة التعليم الأساسية في مختلف مراحله، بما في ذلك التعليم الابتدائي هي اللغة الفرنسية، ولم يشرع في تطبيق التعريب الفعلي إلا ابتداء من

---

378 روى لي مسؤول في الشركة المذكورة أن بعض أعضاء لجان القراءة، من مناصري التيار الفرانكوفوني، كانوا يقومون بتصحيح النصوص التي تعرض عليهم بالفرنسية من الأخطاء اللغوية، ويعالجون ضعف أسلوبها، ويوصون بنشرها بعد ذلك، تشجيعا لكتابها الناشئين، وتقوية لصفوف التيار الفرانكوفوني.

سنة 1971، وكان ذلك بشكل تدريجي بطيء، صعودا من السنوات الابتدائية إلى الثانوية، ولم تصدر النصوص الرسمية المتعلقة بـ "المدرسة الأساسية" التي تعد بحق مدرسة جزائرية في لغتها ومحتوى برامجها إلا في سنة 1976، ولم يشرع في تطبيقها ميدانيا إلا في الموسم الدراسي 1981/1980 [379]. أضف إلى هذا كله المحيط المفرنس الذي كان يشمل الإدارة، والاقتصاد، ووسائل الإعلام، ووسائط الترفيه والتثقيف، وكذا انفتاح البلد على فرنسا - بلد المستعمِر السابق - انفتاحا اقتصاديا وسياحيا كبيرا مما أوجد مناخا ملائما ساعد على تطور الإنتاج الأدبي والثقافي باللغة الفرنسية من حيث الكم، أما من حيث النوع فقد ظل الكتاب المخضرمون، الذين بدأوا الكتابة قبل الاستقلال، يمثلون صفوة كتاب هذا الأدب، وظلت أعمالهم الأدبية أجود ما أنتج فيه.

* * *

379الطاهر زرهوني "التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال"، ص52 .

الفصل الثالث

أدب الجزائريين المكتوب بالفرنسية، وإشكالية الانتماء والهوية...

1- هوية الأدب يحددها أصل الكاتب أم لغة الكتابة؟

من أهم الإشكاليات التي أثيرت وتثار حول الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية، إشكالية هوية هذا الأدب، وإلى أي جهة ينبغي أن ينسب ؟ أيعد أدبا فرنسيا، كما يرى بعضهم، نظرا إلى اللغة التي كتب بها، وإلى الجمهور الذي كان يتوجه إليه أم يعد أدبا جزائريا باعتبار"الروح" التي كتب بها، كما يقول آخرون ؟ وفي كلا الحالين: أيعد أدبا قوميا فرنسيا (في الحالة الأولى) حتى ولو كتبه فرنسيون بالجنسية المكتسبة لا بالأصل عن بلد ليس هو فرنسا في نهاية الأمر ؟ أو أدبا جزائريا (في الحالة الثانية) حتى ولو كتب باللغة الفرنسية ؟ ومهما كانت الإجابة فإنها تفتح الباب على إشكالات جديدة، وتطرح أسئلة جديدة ليس من السهل الإجابة عليها، أو التوفيق بين محتوى الإجابة وبين مفهوم الهوية القومية والأدب القومي.

وكما لا يخفى علينا فإن هذه الظاهرة، ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر، ليست خاصة بالجزائر وحدها، فقد عرفتها بنسب متفاوتة معظم بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، التي كانت خاضعة في يوم من الأيام للاستعمار الفرنسي - ومازال بعضها خاضعا لهذا الاستعمار حتى اليوم - كما أنها ليست ظاهرة خاصة بالاستعمار الفرنسي وحده ، فقد وجدت في أغلب البلدان التي

احتلتها الدول الأوروبية في القارات الثلاث، حيث توجد اليوم آداب مختلفة كتبت وتكتب في تلك البلدان، باللغات الإنكليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية،وإلى حد ما باللغة الهولندية، أي بلغات الدول الاستعمارية الأوروبية التقليدية التي بدأت هجمتها على القارات الأخرى بعد اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح.

وعليه، فإن الأسئلة التي طرحت وتطرح فيما يتعلق بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هي أسئلة مطروحة أيضا بالنسبة للأدب الآسيوي، والإفريقي. والأمريكي اللاتيني المكتوب باللغات الأوروبية المشار إليها أعلاه. ولكي تجد لها جوابا موضوعيا، ينبغي أن تعالج، حسب رأينا، في هذا الإطار التاريخي الجغرافي السياسي، مع الأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه، بظروف كل بلد، وبخصوصياته اللغوية والثقافية، وبطبيعة الاستعمار الذي خضع له.

وهذا التمييز له أهمية كبيرة، إذ هناك فرق كبير بين بلد له لغة وطنية واحدة مشتركة مكتوبة، كما كان الحال في الجزائر، وبلد له لُغات متعددة كالهند أو باكستان مثلا، وبلد ثالث ليس له إلا لهجات غير مكتوبة مثل ما هو الشأن في العديد من البلدان الإفريقية، ففي الحالة الأولى تكون لغة المستعمِر عاملا سلبيا يعمل على مزاحمة لغة البلد، وعلى إضعاف مركزها الاجتماعي، ودورها الثقافي والحضاري، ويخلق ازدواجية لغوية وصراعات ثقافية وطبقية، في حين يمكن أن تلعب لغة المستعمِر في الحالة الثانية دورا إيجابيا، كعامل توحيد ثقافي، ووسيلة تفاهم مشتركة كانت مفقودة من قبل بين أبناء البلد

الواحد [380]، وقد تكون عامل تطوير وتحديث للغات واللهجات المحلية، وهذا ما يفسر أن العديد من هذه البلدان اتخذت لغة المستعمر لغة وطنية رسمية. كما أن طبيعة الاستعمار أيضا يمكن أن تشكل عاملا حاسما، فهناك فرق بين الاستعمار الاستيطاني وبين الحماية، وبين الاستعمار الفرنسي مثلا والاستعمار الإنكليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة من قبل ليُحِل محلها بنيات أخرى لا علاقة لها في الغالب بلغة البلد وثقافته، أما الثاني فيعمل على إبقاء البنى الثقافية القديمة، ويركز على البنية الاقتصادية، وعلى التحديث الثقافي النخبوي [381]. وحيث أن قضية كهذه تتجاوز الحدود السياسية واللغوية للبلدان المعنية، فإنها تدخل بطبيعتها في اختصاص الأدب المقارن، الذي أخذ على عاتقه منذ نشأته في القرن الماضي الخوض في مثل هذه الإشكاليات ذات الطابع الدولي.

2 ـ وجهتا نظر مختلفتان لمدرستي الأدب المقارن:

غير أننا نلاحظ ، ومنذ الوهلة الأولى، أن المقارنين الفرنسيين ـ الذين كانوا سباقين في مجال الدراسات الأدبية المقارنة، وفي وضع قواعدها ومناهجها، وفي توجيهها أيضا الوجهة التي أرادوها لها ـ قد أغفلوا إغفالا تاما الحديث عن أدب المستعمرات، سواء منها المستعمرات الفرنسية أو المستعمرات الأوروبية

---

380 هذا الدور يمكن أن تقوم به إحدى اللغات الوطنية أيضا ، إذا توفرت الإرادة السياسية لدى أبناء البلد، حتى وإن كانت أقل تطورا من لغة المستعمِر.

381 راجع في هذا الصدد الفصل الأول من كتاب أستاذنا الدكتور عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" وعنوانه "بين الفرانكوفونية والأنجلوسكسونية" الذي عقد فيه مقارنة وافية بين طبيعة الاستعمار الإنكليزي وطبيعة الاستعمار الفرنسي، من ص 15 إلى ص 33.

الأخرى، وتركزت بحوثهم أساسا على نماذج وأمثلة من القارة الأوروبية، وتناولت في الغالب الأعم علاقات التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي من جهة، والأدب القومي لأحد البلدان الأوروبية الأخرى من جهة ثانية، وبالأخص العلاقة مع الآداب القومية الكبرى، كالأدب الألماني، والإنكليزي، والروسي، والإيطالي، والإسباني، دون أن يغفلوا في الوقت نفسه البحث في العلاقة مع آداب قومية أخرى محدودة الانتشار والرقعة الجغرافية، كالأدب الهولندي، والبولندي، والبرتغالي [382]. إلا أنهم قلما خرجوا عن ذلك التقليد الذي يمركز البحوث في القارة ألأوروبية ويجعل الأدب الفرنسي حاضرا دوما في أي بحث [383].

ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نرجع الإغفال المشار إليه، إلى هذه المركزية الأورو/فرنسية وحدها، إذ توجد هناك أسباب أخرى نرى أن لها دورا في هذا الإغفال، أهمها ذلك التقليد الذي جعله المقارنون الفرنسيون قاعدة لا يمكن خرقها من قبل الباحثين، وهو أنه لا يصح إجراء المقارنة بين أدبين قوميين إلا

382 وقد عاب عليهم الأستاذ "ريني ويليك" هذه النظرة القومية الضيقة، ووصفها في شيء من السخرية بأنها عملية ((مسك للدفاتر الثقافية))، وبأنها ((الرغبة في تنمية مدخرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمته على الشعوب الأخرى)). راجع: رينيه ويليك "مفاهيم نقدية"، سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية ، ترجمة د. محمد عصفور شباط. فبراير 1987 ، ص 368.

383 يكفي إلقاء نظرة على أكثر الكتب الفرنسية تداولا في "الأدب المقارن " لأشهر الأساتذة في هذا الميدان ، مثل بول فان تيغم ، جان ماري كاري، ماريوس فرانسوا غويار، كلود بيشوا و أ.م. روسو، للتأكد من هذه المركزية الأوروبية. الفرنسية. والوحيد الذي ثار على هذا التقليد هو الأستاذ إتيامبل في كتابه "مقالات في الأدب العام" . راجع:
Marius-François Guyard « La littérature comparée », Coll. Que-sais-je, P.U.F Paris 1978 p6.

عبر الحدود اللغوية [384]. وهذا ما يتعارض مع كون أدب المستعمرات - في حالة النظر إليه كأدب قومي أجنبي - قد كتب باللغة المشتركة مع المستعمِر.

وهناك سبب آخر نراه أيضا من وراء هذا الإغفال، وهو وضع تلك المستعمرات "القانوني" كبلدان تابعة للدولة أو الدول المستعمِرة، مما يجعل من الأدب الذي ينتجه أهلها، من وجهة نظر هؤلاء الباحثين، فرعا من الأدب القومي للمستعمِر، لا أدبا قوميا أجنبيا قائما بذاته [385]. والدليل على ذلك، فيما يخص الجزائر، أن القواميس الفرنسية الأدبية، وكذا المؤلفات ذات الطابع التأريخي العام، قد تعاملت مع الكتّاب الجزائريين باللغة الفرنسية، في طبعاتها قبل سنة 1962. ككتّاب فرنسيين، وصنفتهم كفرنسيين على هذا الأساس [386]. بل إننا قد نجد مثل هذا التصنيف في مؤلفات أحدث، تعود إلى ما بعد استقلال الجزائر بسنين عديدة [387].

وحتى ندرك أبعاد المشكلة من أساسها، ونتعمق في فهمها، ينبغي أن نذكر بأن مسألة الانتماء إلى الجزائر قد طرحت، من الناحية التاريخية قبل

384 Claude Pichois et A.M. Rousseau « La littérature comparée » Armand Colin. Coll. U2 Paris 1971, p175.
وقد تأثر العديد من المقارنين العرب بهذه النظرة الفرنسية، ويأتي في مقدمتهم د. محمد غنيمي هلال، الذي يؤكد بدوره على أن موضوع الأدب المقارن هو ((دراسة مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة (...) والحدود بين تلك الآداب هي اللغات)) راجع: د. محمد غنيمي هلال "الأدب المقارن" دار العودة. بيروت 1983، ص 9 .

385 هذا بالنسبة للاستعمار الاستيطاني على الخصوص، كما كان الحال في الجزائر ، حيث كانت فرنسا تعد الجزائر أرضا فرنسية، والجزائريين رعايا فرنسيين ، أو "فرنسيين مسلمين".

386 د. عايدة بامية "تطور الأدب القصصي الجزائري" ، ص53 .

387 هذا ما نجده عند الناقد المعروف "جان ريكاردو" في كتابه "الرواية الجديدة" الذي يضع فيه كاتب ياسين ضمن كتاب هذه الرواية من الفرنسيين. راجع: Jean Ricardou « Le nouveau roman », Ed. Seuil, Coll. M. (Ecrivains de toujours), Paris 1978 , pp 6-7.

مطلع القرن العشرين من قبل المستوطنين الفرنسيين، وكان هناك من بينهم من ولد في الجزائر، الذين أرادوا، بعد أن تم لهم انتزاع الأرض من أهلها، أن ينتزعوا منهم الانتساب إليها أيضا، فوصفوا أنفسهم بـ "الجزائريين"، وكتبوا أدبا أرادوه أن يكون من "داخل الجزائر"، يتمتع باستقلاليته ، في مقابل الأدب الذي كتبه "عن الجزائر" كتَّاب من "الخارج" [388]. وقد أكد "ميزات" - وهو أحد أبرز وجوه ذلك الأدب الاستيطاني المستقل [389] هذه الصفة حتى بالنسبة لبطل قصصه الشهير "كاغايو" حين يُسأل "أأنتم فرنسيون ؟ " فيجيب " لا ، نحن جزائريون" [390].

3- الكتاب المستوطنون ومحاولة احتواء التسمية:

وقد نتج عن التصريحات والمناقشات والجدال الذي دار منذ بداية القرن العشرين وإلى بداية العشرينيات، بين المستوطنين من جهة، وبينهم وبين منابر أدبية في "المتروبول"، حول وجود "أدب استيطاني" في الجزائر، إلى بعث ما يشبه "مدرسة أدبية " اتخذت من مجلة "فرنسا الكبرى" و"الحياة"، و"ميركور دو فرانس"، و"مجلة العالمين"، وإلى حد ما "جريدة "الوقت" (لوتان)، منبرا

388 Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », pp11-12 .

389 هو "أوغيست روبيني: Auguste Robinet "المشهور بـ "ميزات : Musette "، من مواليد الجزائر (1862 . 1930)، نشر على مدى عشرين سنة سلسلة من قصص "المغامرات"، تصور مشاهد ومواقف "فكاهية" من حياة بطله "كاغايو"، الذي يقدمه الكاتب كنموذج يعكس عقلية مجتمع المستوطنين الجدد، ويتصف بالقوة الجسدية، وحب النساء ، وهو ((مشاكس وعنصري وديماغوجي)) راجع :

- Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p23

390 FadhilaYahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. » Ed. ENAL-Gam , Alger-Bruxelles. 1985 . p17.

لنشر أفكارها، وهي الأفكار التي تبلورت شيئا فشيئا ، لتعرف فيما بعد بحركة "الجزأرة": (L'algérianisme) [391].

وفي هذا السياق أصدر المستوطنون سنة 1906"مختارات من الشعر الجزائري"[392] لم يكن من بين شعرائها في الواقع اسما واحدا جزائريا فعلا، أي من أبناء البلد الأصليين، وتكرر نشر مثل هذه المختارات الشعرية سنة 1920، والقصصية سنة 1925 [393]. وفي هذه المرة الأخيرة، وتحت تأثير التغيير الذي جاءت به قوانين 4 فبراير 1919، خرج ناشرو "المختارات" عن التقليد المعمول به من قبل، ليضموا على احتشام اسما واحدا من" الأهالي" هو اسم عبد القادر حاج حمو[394]. ولكن دون أن يتخلوا عن طروحاتهم الاستعمارية المعتادة، حيث نجد لويس برتران، الأب الروحي للكتاب المستوطنين، يعلن بكل سرور في المقدمة أنه ((تحقق في هذه "المختارات" ما كان يأمله منذ خمسة وعشرين عاما، وهو ميلاد إفريقيا اللاتينية))[395].

وتكريسا لهذا الاتجاه الاستيطاني في الأدب، أنشأ الكتاب المستوطنون هياكل تنظيمية تسنده، وتقاليد تعطيه شخصيته المتميزة، واستقلاليته عن"المتروبول" فأسسوا في سنة 1921 جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم "جمعية

391FadhilaYahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. » p61-62 .

392 Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p26 .

393Ibid. p27-28.

394صاحب رواية "زهراء امرأة المنجمي" التي أصدرها سنة 1925، كما ذكرنا في الفصل السابق، وتعد أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية.

395Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p29.

الكتاب الجزائريين"، ومجلة تنطق باسم الجمعية سموها"إفريقيا" [396]. وأنشؤوا "جائزة أدبية"، أطلق عليها فيما بعد اسم "الجائزة الكبرى"، ظلت تمنح سنويا إلى سنة 1954، باستثناء بعض سنوات الحرب العالمية الثانية[397].

وقد وجد من بين هؤلاء الكتاب فئة تتعاطف مع "الأهالي"، حاولت أن تتفتح على محيطهم، وأن تقترب منهم، بل، وتتقرب إليهم، وتتعلم لغتهم، وتكتب عنهم قصصا وروايات، وتدافع أحيانا عن بعض قضاياهم، لأنها اقتنعت، فيما بدا من توجه هذه الفئة - وقد تمكن المحتلون من بسط سيطرتهم الكاملة على مقدرات البلد، واطمأنوا إلى تفوقهم الساحق على الأهالي - بأنه لا بد من منح فرصة لهؤلاء الأهالي لكي يسهموا بدور ما في حياة المستعمرة، حتى ولو كان دورا هامشيا، والسماح لكل من يبدي منهم استعدادا بالاندماج في المجتمع الاستيطاني الجديد، وهذا ما برز على الخصوص في كتابات "ألبير تروفيموس" و"ستيفان راوول" و"إيزابيل إيبرهاردت"، و"ماكسيمليان هيلر"، و"لوي لوكوك"، الذين اهتموا بتصوير العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية لدى المسلمين ولدى اليهود، وكذلك اعتنوا بتصوير حياة المستوطنين اليومية في القرى وفي المدن الداخلية الصغيرة، ونقل جانب من علاقاتهم مع "الأهالي"، ومع بعضهم البعض، وعالجوا بعض المسائل التي تمس بصفة عامة المجتمع

---

396 وأنشأوا بعدها عدة مجلات أخرى، منها مجلة "الجزائر : Algéria " و"المجلة اللاتينية" ، و"مجلة إفريقيا الشمالية".

راجع:
Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p24 .

397 Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p25 .

الاستيطاني المتعدد الأعراق والديانات، وأولوا اهتماما خاصا بمسألة الزواج بين مختلف الطوائف، ولاسيما بين المسلمين والمسيحيين من جهة [398]، وبين اليهود والمسيحيين من جهة أخرى [399]. ويرجع التركيز على هذا الجانب بالذات، حسب ما نرى، لأهمية التزاوج المختلط في بعث التقارب والتفاهم والانسجام، في أوساط المجتمع الجديد الذي كانوا يتصورونه ويدعون إليه، والقائم على تعدد الأعراق والديانات، من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ما في هذا الجانب العاطفي من مادة درامية غزيرة ملائمة للفن الروائي، تجد في الصعاب والعقبات التي يلقاها المتزوجون من طائفة غير طائفتهم معينا لا ينضب.

وقد اتخذوا أحيانا مواقف مناهضة لسياسة المستوطنين الجائرة إزاء الأهالي، ولكن ليس إلى درجة التشكيك في الأسس التي تقوم عليها سياسة الاستيطان في حد ذاتها، أو أيديولوجيته بشكل عام[400]. وبالرغم من ذلك فإن زملاءهم من المحافظين لم يكونوا راضين عنهم، واتهموهم بالانحياز إلى الأهالي، وأطلقوا عليهم لأجل ذلك اسم "محبي الأهالي (Les

---

398 وهو الموضوع الذي سيشكل محورا رئيسيا في روايات الجزائريين باللغة الفرنسية في الفترة ما بين 1925 و1952. (راجع الفصل السابق)

399 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p28.

400 من هؤلاء الكتاب "لوي لوكوك" و "ألبير تريميفوس" و"إيزابيل إيبرهاردت، و"ماكسيمليان هيلر"، وأبرز الأمثلة على التعاطف مع الأهالي نجده في أعمال هاتين الكاتبتين، ففي رواية "البحر الأحمر" (1923) على سبيل المثال، لماكسيمليان هيلر . وهي يهودية قسنطينية . نجد دفاعا قويا عن أبناء جلدتها من جراء ما يلقونه في مجتمع المستوطنين الأوروبيين من نزعة العنصرية و"معاداة السامية"، ودفاعا في الوقت نفسه عن ظلم المستوطنين للسكان المسلمين، وقد جعلت بطل روايتها وهو محام يهودي شاب ينتحر نتيجة فشله في الدفاع عن أحد المسلمين الذين انتزعت منهم أرضهم ظلما، أمام مؤامرات المستوطنين الذين عرفوا كيف يفشلون مسعاه أمام القضاء الاستيطاني المتحيز. راجع :
Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », 29.

(indigénophiles"[401]. والواقع أن كتاباتهم كانت ذات طابع "إشفاقي" كما يصفها الباحث محمد أمين الزاوي ((تحاول أن تكشف الفقر والمعاناة التي يعيشها الأهالي، وفي ذات الوقت تكشف جمال هذا الفقر من موقف بورجوازي رومانتي سياحي متفرج))[402].

في الوقت نفسه، ظلت فئة من حركة كتاب "الجزأرة " تتمسك بالطروحات الاستعمارية السابقة عن الحرب العالمية الأولى، التي وضع أسسها وعمل على نشرها "لويس برتران" و"ميزات " على الخصوص، في أعمالهما الروائية ، وفي كتاباتهما الأخرى، ذات الطابع التحريضي المباشر، وذلك منذ ما قبل مطلع القرن، ويأتي على رأس هذه الفئة المحافظة الكاتب "روبير راندو" [403]. الذي كان يرفض تماما فكرة دمج المسلمين مع غيرهم من الطوائف الأخرى التي تشكل المجتمع الاستيطاني، ولأجل موقفه المتصلب هذا، اعترض "الأهلانيون" على ترشيحه لـ "الجائزة الأدبية الجزائرية " ، وكانت حجتهم أنه "انفصالي"، لا يشاركهم في فكرة "دمج الأهالي"، التي كانوا يدعون إليها [404]

401 وقد ترجم محمد أمين الزاوي لفظة Les indigénophiles بـ"الأهلانيين"، راجع: محمد أمين الزاوي "الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية" رسالة ماجستير نوقشت بجامعة دمشق سنة 1984، ص55.

402 نفسه، ص55.

403 روبير راندو (1873 . 1950) ، وإسمه الحقيقي "روبير آرنو" كاتب روائي، أشهر أعماله: "المستوطنون" (1907)، "الجزائريانيون" (1911)،"كاسار البربري" (1921). أسهم بآرائه النظرية في وضع أسس الأدب الاستيطاني في الجزائر، وكان عضوا بارزا في حركة "الجزأرة". راجع: Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p26.

404 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », 21.

ويلاحظ في قصص وروايات هؤلاء الكتاب، ولا سيما من عرفوا بتعاطفهم مع الجزائريين، ظاهرة تداخل اللغات، ولاسيما الفرنسية والعربية منها، بدرجة ملفتة للنظر، فاقوا فيها من سبقوهم من رواد "الأدب الاستيطاني المستقل"، وبالخصوص "ميزات"، كما ألمحنا آنفا، مع الفارق في الرؤية والهدف من استعمال هذا التداخل اللغوي [405]. بحيث نجدها مليئة بالتعابير والمفردات والأسماء والأمثال والتشبيهات العربية، وهو ما يلاحظ حتى في عناوين الحكايات والقصص، مثل أعمال "لوي لوكوك" على الخصوص [406]. كـ "سيدي غراب" (1923). و"خمسة في عينك" (1924)، و"كاين" (1930) [407]. وهوما شكل في حد ذاته ظاهرة لغوية كانت محل اهتمام بعض الباحثين [408].

4- مدرسة الجزائر بزعامة " البير كامي"

وفي منتصف عقد الثلاثينيات، ومع صعود اليسار في فرنسا إلى سدة الحكم ، ممثلا في " الجبهة الشعبية "، عرف أدب المستوطنين في الجزائر بدوره نقلة نوعية استحوذ فيها كتاب يساريون على توجيه مسار الحركة

---

405 لقد كان "ميزات"، يتكلف خلق "لغة" خاصة في كتاباته، أطلق عليها اسم لغة "السابير" تختلط فيها المفردات والتعابير الفرنسية بالإيطالية والإسبانية، بل، والعربية والعبرية والبربرية، بدافع إثبات الذات، وتأكيد استقلالية مجتمع المستوطنين الأوروبيين في الجزائر عن لغة الفرنسيين في فرنسا، أما ظاهرة تداخل اللغات لدى مدرسة "الجزأرة"، فترجع أساسا لشدة التصاق أعمالهم بالواقع، وعنايتهم بتصوير العادات والتقاليد المحلية، ووصف مختلف مظاهر الحياة اليومية لـ"الأهالي" .

406 "لوي لوكوك" (1885 . 1932) أحد أهم كتاب حركة "الجزأرة" كما يصفه "جان ديجو"، وأحد الذين عرفوا بتعاطفهم القوي مع الجزائريين، وقد عمل بكل ما في وسعه على تغيير نظرة المستوطنين إلى "الأهالي". راجع :
Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p31-32.

407 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p32 .

408 راجع في هذا الصدد الملحق الإحصائي الدقيق الذي وضعته السيدة "كريستيان عاشور" بالتعابير العربية المستعملة في قصص وروايات أشهر هؤلاء الكتاب، في كتابها:
"Abécédaires en devenir; idéologie coloniale et langue française en Algérie", p 541 à 578.

الأدبية فيما أصبح يعرف بـ "مدرسة (مدينة) الجزائر" الأدبية، وهو الاسم الذي أطلقه عليها "كابريال أوديسيو" أحد زعمائها البارزين، أو "مدرسة شمال إفريقيا للأدب"، حسب التعديل الذي أدخله "ألبير كامو" على اسمها [409]

تميزت "مدرسة الجزائر" هذه من الناحية الأدبية عن سابقتها بتحول مركز الاهتمام لدى كتابها من وصف العادات والتقاليد وحياة القرى والأرياف والمدن الداخلية، إلى التركيز على موضوع البحر والشمس والحياة في المدن الساحلية، وكان لألبير كامو بكتاباته الوصفية الأولى ممثلة على الخصوص في كتابه " أعراس" (1938) ثم بأعماله الروائية والقصصية اللاحقة، ولا سيما "الغريب" (1942) و "الطاعون" (1947). دور بارز في إرساء أسس هذه المدرسة الأدبية، بفضل النماذج الفنية الرائعة التي قدمها من خلال تلك الأعمال.

وما يميز هذا الوصف بالنسبة لألبير كامو ، أنه لم يكن وصفا سطحيا أو محايدا، ولكنه كان تفاعلا كاملا مع الطبيعة، وتواصلا عبر الحواس، يعكس فلسفة في الحياة ، ونظرة إلى الكون والوجود، تجلت أول ما تجلت في "أعراس" التي عبر فيها عن إحساس قوي بالطبيعة، وتفاعل مع عناصرها، ورصد لكل ما يصدر عنها، وامتزاج كامل بها، وإقبال غير هياب على بهجة الحياة والتلذذ بمتعها، إنه نوع من "زواج الإنسان بالطبيعة"، بالمعنى الشهواني الذي توحي به كلمة "الزواج"، وهذه ـ كما يقول أحد النقاد ـ هي الدلالة التي يوحي بها

409 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p29.

عنوان كتابه "أعراس" [410]. وقد عبر عن هذا المعنى في أماكن متفرقة من "أعراس" مثل ما نجد في هذه الصورة الرمزية المكثفة حين يقول :

((بحر وبراري وصمت، وروائح هذه الأرض، إنني أمتلئ بحياة شميَّة وأعض على ثمرة العالم التي قد صار لونها بلون الذهب، وقد اهتز كياني من الإحساس بعصارتها الحلوة القوية، وهي تسيل على شفتي)) [411].

ويعطي لإحساسه هذا بعدا تاريخيا لا يتوقف عند حدود اللحظة الحاضرة، وذلك عبر تأملاته وهو يطوف بين آثار الرومان في "تيبازا" و"جميلة" ((هذا التداخل بين الريح والشمس، الذي يمزج النور بالخرائب (الآثار)، إنه شيء يتشكل ليعطي للإنسان أداة اختبار لهويته في مقابل عزلة المدينة الميتة وصمتها)) [412].

ويؤكد هذا الإحساس بالتاريخ في موضع آخر، وهو يتجول على شاطئ البحر، بين ضجة المصطافين وحركتهم المليئة بالحياة والحيوية، حين يقول: ((...اليوم، وعلى امتداد هذا التاريخ، فإن ركض الفتيان على شاطئ المتوسط يلتقي مع الحركات الرائعة لرياضيي "ديلاس")) [413].

410Albert Camus « Noces à Tipaza » in « Noces » , Ed. Gallimard , Paris 1950, p27.

411 Ibid , « Noces à Djémil » , p32 .

412 Ibid, « L'été à Alger » , p52 .

413 Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien » in « De la décolonisation à la révolution culturelle » , S.N.ED Alger 1973 , p168 .

ولشدة غرامه بالشمس والبحر اختار الكاتب لبطل روايته "الغريب" اسم "مورسو" القريب من اسم "جان ميرسو" الذي كان كامو يوقع به مقالاته الصحفية سنة 1939 ـ كما يذهب إلى ذلك صديقه إيمانويل روبلس ـ وهو اسم منحوت من كلمتي "شمس" و"بحر" (Mer-Soleil)[414].

ونلاحظ في روايته "الغريب " أيضا أن الشمس والبحر يتخذان بعدا رمزيا قويا بحيث يصبحان وجها للحياة والموت معا، فقد ارتكب "مورسو" جريمته حين قتل الرجل العربي على الشاطئ وهو واقع تحت تأثير حرارة الشمس وانعكاس أشعتها على سطح البحر، كما ذكره حر ذلك اليوم بحرارة اليوم الذي دفن فيه أمه:

((وشعرت بحبات من العرق تتجمع على أهدابي. كانت الشمس كشمس ذلك اليوم الذي دفنت فيه أمي، ومثل ذلك اليوم شعرت بصداع في جبهتي على الخصوص، وكل عروقي كانت تنبض بقوة تحت جلدها، وبسبب لفح ذلك الحر الذي لم أعد أحتمله، تقدمت خطوة إلى الأمام. كنت أعرف أنها حركة حمقاء، لأنني كنت أعلم أن خطوة إلى الأمام لا يمكن أن تخلصني من الشمس، ومع ذلك تقدمت خطوة، خطوة واحدة إلى الأمام... وعميت عيناي خلف هذا الستار من الدموع والملح، ولم أعد أحس إلا بدقات الشمس على جبهتي... وأخذ كل شيء يتأرجح أمامي، ونفث البحر كتلة من الهواء سميكة ولاذعة، وبدا لي كما لوكانت السماء قد فُتِحت على اتساعها لتمطر لهبا،

414Ibid. p171 .

وتوتر كياني كله، وقلصتُ يدي على المسدس ، فاستجاب الزناد، ولمست بطن المســـدس المصـــقول، وهنـــا، وفي دوي جـــاف وحـــاد في آن واحـــد، بدأ كل شيء...)) [415]

غير أن "مدرسة الجزائر" هذه، حتى وإن اختلف توجهها السياسي عن المدرسة السابقة، وطبعت في الظاهر بطابع اليسار المناهض للفاشية، فإنها لم تكن تحمل من الفكر الثوري ما يجعلها تعيد النظر في الأطروحات الاستعمارية السابقة [416]، فلم تبتعد من حيث الإسم عن حركة "الجزأرة"، بحرصها على تأكيد جزائريتها بربط اسمها بالجزائر، كما أن أساسها ظل استعماريا خالصا، مثلها مثل الحركة المذكورة.

إن النموذج الذي قدمته "مدرسة الجزائر"، وعبر عنه "كامو" وجماعته، باعتباره رؤية فنية، ومذهبا أدبيا، لا يختلف في واقع الأمر في جوهره عن دعوة

---

415 Albert Camus « L'étranger » Ed. Gallimard , Coll. (Le livre de Poche) , Paris 1957 , p90 .

416 وقد سجل لنا التاريخ بالوقائع، كيف أن الجمهوريين في القرن التاسع عشر كانوا أسوأ بالنسبة للجزائر من الملكيين ، كما أن اليسار الرسمي الفرنسي لم يكن أفضل من اليمين، لأن اليمين كان على الأقل صريحا وواضحا ، ففي عهدهم وقعت كل التجاوزات، وخاصة بعد عودة الجمهوريين إلى الحكم سنة 1871 (راجع الفصل الأول من هذا البحث من ص 29 إلى 31). كما ينبغي أن نذكر هنا أنه في أول فرصة أتيحت لليسار الفرنسي للوصول إلى سدة الحكم ، أصدرت حكومة "ليون بلوم" سنة 1937 قرارا يقضي بحل حزب "نجم شمال إفريقيا" الذي كان حليفا لها منذ نشأته إلى وقت قريب من ذلك العهد، واعتبرت نشاطه خطرا على الشعب، واتهمته بالتعامل مع الفاشية والنازية. والحكومة اليسارية نفسها كانت قد رفضت في سنة 1936، نزولا عند رغبة المستوطنين الأوروبيين، مطلب حزب "فيدرالية المنتخبين الجزائريين" بمنح المثقفين الجزائريين والضباط الذين خدموا في الجيش الفرنسي حق المواطنة الفرنسية La citoyenneté française، وحق التصويت في الانتخابات التي تجري في البلد، دون التخلي عن دينهم الإسلامي، وهو الشيء الذي ولّد لدى زعماء هذا الحزب شعورا قويا بالخيبة، ورد فعل جعلهم يغيرون نظرتهم في مسألة "الاندماج"، ليطالبوا بحق الاستقلال الداخلي. راجع في هذا الصدد ، على التوالي: يوسف مناصرية "الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919 . 1939 "، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص 85 . وعمار بوحوش " المهاجرون الجزائريون في فرنسا" ص ص 103 ، 104.

" لويس برتران" قبله إلى بعث حضارة الرومان القديمة في شمال إفريقيا، أو ما كان يصر "برتران" على تسميته بـ " حضارة إفريقيا اللاتينية "، حتى وإن بدت دعوة كامو وجماعته محايدة، وبعيدة عن تعصب "برتران" وعنصريته، بل إنها قد تبدو في ظاهرها دعوة إنسانية (Cosmopolite)، تعمل على تقارب الشعوب، وتحاول أن تتخطى الحدود القومية الضيقة إلى الانفتاح على كل سكان المتوسط، بلا استثناء ولا إقصاء، والحقيقة أنها كانت إلى حد ما كذلك في شقها الذي يتحدث عن وضع أسس أدب متوسطي، يقوم على عناصر طبيعية تشترك فيها كل الشعوب المطلة على المتوسط من بحر أزرق فسيح، وشمس ذهبية ساطعة، وخضرة غابية تبهج القلب وتمتع النظر ، ولكن سرعان ما تكشف الدعوة في شقها الثاني عن وجهها التسلطي المركزي الأوروبي (Eurocentriste) المبَّيت، وذلك حين يجعل المبشرون بها هذا الديكور الطبيعي يستمد روحه من القيم الفكرية والحضارية اليونانية والرومانية، أي الأوروبية، ويتجاهلون تماما بقية الحضارات المتوسطية الأخرى التي ازدهرت على الشاطئ الشرقي والجنوبي للمتوسط، وسبقت في معظمها الحضارتين اليونانية واللاتينية إلى الوجود بعشرات القرون، ونعني بها الحضارة الفينيقية، والفرعونية، وحضارة قرطاج ونوميديا.

وقد عبر زعماء المدرسة عن هذا المعنى منذ انطلاقتهم الأولى، بحيث أن " غابريال أوديسيو" [417] على سبيل المثال، كان لا يخالف "لويس برتران"

---

417 غابريال أوديسيو (1900 . ..) روائي وشاعر ، وأحد المؤسسين البارزين لـ "مدرسة الجزائر" . راجع :
Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p36 .

في ادعائه بأن المتوسط هو "بحيرة لاتينية"، ويتعمد أن ينطق العبارة باللاتينية مثله، ويسندها إلى ضمير جماعة المتكلمين فيقول: (Mare nostrum) (بحرنا) ليؤكد على عراقة ملكية المتوسط لحضارة اللاّتين، ولكنه لا ينسى فقط أن يذكّر "برتران" بأن المتوسط ((كان بحرا إغريقيا قبل أن يكون لاتينيا)) [418].

ويذهب معظم زعماء مدرسة الجزائر هذا المذهب، ويأتي في مقدمتهم ألبير كامو، الذي قال في محاضرة له ألقاها سنة 1937، وبدا فيها بدوره كأنه يصحح لـ "لويس برتران " فكرته عن " إفريقيا اللاتينية ": ((لا ينبغي أن يوضع في روما ما كان قد بدأ في أثينا، كما أنه لابد من إيجاد حضارة مشتركة بين كل سكان ضفاف المتوسط)) [419]. ونلاحظ هنا كيف أن كامو يتحدث عن كل سكان ضفاف المتوسط، ولكنه يكتفي بذكر الحضارتين اليونانية واللاتينية، ولا يشير حتى مجرد الإشارة إلى الحضارات المتوسطية الأخرى. وقد تميز كامو أكثر من زملائه الآخرين بقدرته على تجسيد تصوراته النظرية في أعماله الإبداعية التي أشرنا إلى بعض منها آنفا [420].

---

418 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p30 .

419 Ibid, p30

420 تجسد مشروعه النظري في شقه الأول في "أعراس" حين راح يستنطق الآثار الرومانية في "تيبازا" و"جميلة"، ويتغنى بالديكور الجميل الذي كان يحيط بها من بحر وغابة، وشمس مشرقة، ثم في روايتي "الغريب" و"الطاعون"، وواصل مشروعه في شقه الثاني باستلهامه من الميثولوجيا اليونانية ومن التاريخ الروماني عدة أعمال أدبية اصطبغت بطابع فلسفي، مثل أسطورة "سيزيف"(1942) التي حاول أن يجسد من خلالها فلسفة العبث (L'absurde) التي عرف بها، و"كاليغولا" (1945)، التي عالج فيها مشكلة الاستبداد، من خلال استعراض وقائع من حكم الأمبراطور الروماني الطاغية كاليغولا، في تلميح واضح إلى شخصية "هتلر" و"ميسوليني" اللذين ابتليت بهما أروبا الحديثة، وقد شكل كل ذلك خلفية فكرية متكاملة لدى الكاتب تستمد قيمها من الثقافة الغربية القديمة وتعبر عن أوضاع أروبا في العصر الحاضر .

وانطلاقا من فكرة الحضارة المتوسطية هذه ، يحسب "إمانويل روبلس" نفسه مواطنا "متوسطيا"[421] ، ولكنه مثل "كامو" لا يرى من المتوسط إلا الأرض المحتلة التي يقف عليها (الجزائر)، والضفة الشمالية من المتوسط: ((إنني ابن الجزائر بقدر ما أنا ابن إيطاليا، أو اليونان، أو إسبانيا))[422].

ولم يكن "كامو" وهو المدافع العنيد عن الحرية، يتصور حتى مجرد التصور، انفصال الجزائر عن فرنسا[423]، وقد ظل على موقفه ذاك إلى أن توفي سنة 1960، والثورة الجزائرية على أشدها، بل لقد وقف موقفا مضادا من كفاح الشعب الجزائري، وقد عبر عن ذلك في ندوة صحفية له عقدها بستوكهولم عام 1957، بمناسبة تسلمه لجائزة نوبل للآداب، فأجاب على سؤال شاب جزائري طلب منه أن يوضح موقفه من "حرب الجزائر" بقوله ((إنني أومن بالعدالة، ولكنني أدافع عن أمي قبل دفاعي عن العدالة))[424].

وواضح من قوله هذا أنه يعترف ضمنيا بعدالة القضية الجزائرية، وحق الشعب الجزائري في الحرية، ولكن عاطفته الوطنية (دفاعه عن أمه "فرنسا") تمنعه من الوقوف إلى جانب العدالة.

---

421 "إيمانويل روبلس" من أصل إسباني، ولد سنة 1914 بوهران، له ما يقارب العشرين عملا أدبيا، تتوزع بين الرواية والقصة والمسرح، أشهرها رواية "أعالي المدينة" ومسرحية "مونسيرا". المرجع: Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p42.

422 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p31 .

423 ((لأن انفصالهما . حسب تصوره . سيقضي عليهما معا بشكل أو بآخر)) :
Cité par Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française » , p36 .

424 Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien » p178 .

وإذا كانت هذه العبارات، غامضة بعض الشيء، وقابلة لأن تؤول بشكل من الأشكال لصالح الكاتب، بسبب الأسلوب الأدبي المكثف الذي استعمله فيها، فإن تصريحاته الصحفية الأخرى لم تكن لتقبل أي تأويل: ((ينبغي أن ينظر إلى مطلب الاستقلال الوطني الجزائري في جزء منه كتعبير عن هذه الأمبريالية العربية الجديدة التي تدعي مصر، من موقع الثقة في قواتها. أنها تشكل طليعتها)) [425].

أما بعض زملائه الآخرين فقد تغير موقفهم من قضية الشعب الجزائري تغيرا جذريا، وخاصة "إيمانويل روبلس". وقد ذهب بعضهم إلى الوقوف في صف الثورة الجزائرية بلا تحفظ مثل ما فعل "جان سيناك" [426]، و"هنري كريا " [427]. اللذين عبرا عن تجندهما لخدمة القضية الجزائرية عن طريق الكلمة، وأطلق الأخير على نفسه وعلى رفاقه من مناصري الثورة الجزائرية اسم "جيل 54" [428]، في إشارة واضحة إلى السنة التي انطلقت فيها شرارة الثورة.

---

425 Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien », p179 .

426 الشاعر "جان سيناك" من مواليد 1926، ببني صاف، اشتغل في التدريس وفي الصحافة الأدبية والإذاعة، أصدر ما يزيد عن عشرة أعمال أدبية معظمها دواوين شعرية، ذهب ضحية جريمة غامضة في نهاية أوت 1973 . المرجع :
Jean Déjeux "Dictionnaire des auteurs maghrébin de langue française », pp192 à 195.

427 الشاعر "هنري كريا " أو "هنري شريعة "، لأنه نحت اسمه من اسم جبل الشريعة في أعالي البليدة، ولقبه الحقيقي هو "كوشان" ولد سنة 1913 من أم جزائرية وأب فرنسي، أصدر ما يزيد عن خمسة عشر ديوانا شعريا، وساهم بالكتابة في مجال الرواية والمسرح والمقالة المرجع:
Jean Déjeux "Dictionnaire des auteurs maghrébin de langue française »,pp146 à 14

428 « La littérature algérienne d'expression française » Sous la direction de Albert Memmi « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963, p63 et Ghani Merad, p39 .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن دعوة "مدرسة الجزائر" إلى إيجاد أدب متوسطي يستمد خصائصه من الطبيعة المتوسطية، وروحه من الحضارة اليونانية والرومانية قد وجدت لها صدى وتقبلا في حينها لدى العديد من المثقفين المغاربة من حاملي الثقافة الفرنسية، كما وجدت لها صدى، فيما يبدو، حتى في بعض البلاد الواقعة خارج الهيمنة الثقافية الفرنسية، وبالأخص في مصر، حين حمل لواءها كاتب كبير هو الدكتور طه حسين، ولكن من منظور آخر[429]. دون أن يحصر نطاقها في مجال الأدب وحده، وذلك في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، الذي نشره سنة 1938. حيث عبر فيه عن ((إيمانه بأن مستقبل الثقافة في مصر يتعلق بالانتماء إلى البحر المتوسط وإلى الغرب (...) وهي النظرة التي يشاركه فيها "الفرانكوفونيون" (الجزائريون والمغاربة)، ودعاة الاتجاه إلى الغرب وحضارته، سواء منهم من أحس بالانبهار أمام تفوقه أم من لم يشعر بذلك. واعتبر هذا أمرا مفيدا وصالحا لتطورنا وخروجنا من المأزق الثقافي والحضاري الذي تعيشه الأمة العربية))[430]. وبالطبع لم يتحقق مستقبل الثقافة في مصر على النحو الذي رسمه طه حسين، ولكن مشروعه أو ما يماثل مشروعه وجد من يدافع عنه في مصر، وفي البلاد المغاربية، ومازال إلى يومنا هذا من يؤمن به هنا وهناك [431].

---

429 (5) كانت دعوته تلك. كما فسرها الدكتور عبد الله ركيبي على سبيل الترجيح. ((نوعا من تحرير الفرد والمجتمع من "عقدة الغرب" ومن مركب النقص تجاهه، بحيث يصبح المصري هو نفسه مندمجا في هذه الثقافة وفي هذه الحضارة لا عالة عليها أو تابعا لأصحابها))، راجع : د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" ص 217.

430 د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" ، ص217 . 218 .

431 نفسه، ص217. ومازال مثل هذا المشروع يطرح بشكل أو بآخر في الصحافة الجزائرية والعربية، وفي هذا الصدد ظهر بالجزائر مؤخرا (نوفمبر1997) العدد الأول من مجلة جديدة بالفرنسية تصدر عن دار "ماريبور" بعنوان

5 ـ علاقة الجزائريين بجمعية الجزأرة ومدرسة الجزائر:

ومن البديهي أن الكتاب الجزائريين في هذه المرحلة لم يكونوا بمعزل عن "مدرسة الجزائر"، كما لم يكونوا من قبل بمعزل عن حركة "الجزأرة" التي سبقتها، فقد كان معظمهم ينتسب إليها بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء بتبني طروحاتها الفكرية، أو عن طريق توظيف جمالياتها في الكتابة الإبداعية، وقد كان عبد القادر حاج حمو من أوائل الأعضاء في "جمعية الكتاب"، ثم أصبح نائبا لرئيس الجمعية المذكورة ، كما حصل على عضويتها في وقت لاحق البودالي سفير ، ومحمد زروق، وجميلة دباش على سبيل المثال [432]، كما كانوا وغيرهم من الكتاب الآخرين مثل رابح زناتي، ومحمد ولد الشيخ، يسيرون من الناحية الفنية على خطوات تروفيموس، ولوكوك وإيبيرهاردت، وهيلر، في كتابة ما عرف بـ"الرواية الإثنوغرافية " [433]التي راجت على الخصوص في

« Escales »، "تعنى أساسا بنشر الثقافة المتوسطية ". أما على الضفة الأخرى من المتوسط، قد شهد النصف الثاني من العام الحالي (1977) في إيطاليا وحدها مؤتمرين، عقد أحدهما في نهاية شهر أكتوبر بنابولي نظمته قيادة البحرية الإيطالية، يتعلق بالنشاط البحري في الفترة ما بين القرنين 12 و16، والآخر في الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر في باليرمو حول موضوع "أدب البحر المتوسطي"، وشارك في كلا المؤتمرين ممثلون من أروبا والبلاد المغاربية ومصر، ويظهر من تعاليق هؤلاء المشاركين التي نشرتها الصحافة أن النوايا لم تكن دائما حسنة. راجع على التوالي جريدتي: " الخبر " ، بتاريخ 22 و 23/11/ 1997، و El-Watan du 19/11/1997. ويرى بعض الملاحظين أن اللقائين اللذين تما بين بعض مثقفي اليسار العربي والأوروبي والإسرائيلي في غرناطة بإسبانيا سنة 1992، وفي أوسلو هذه السنة 1977، على هامش محادثات السلام الفلسطينية . الإسرائيلية ، يدخلان أيضا في هذا الاتجاه المتوسطي.

432 Jean Déjeux in « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p17.

433 وحصل بعضهم على جوائز مختلفة، بما فيها "الجائزة الكبرى"، مثل عبد القادر حاج حمو وجان عمروش المذكورين. كما حصل العديد من الكتاب الجزائريين الذين اشتهروا في عقد الخمسينيات بدورهم على جوائز مثل ديب ، وفرعون ومعمري. راجع في هذا الصدد:

Jean Déjeux « Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945 -1977 » , S.N.E.D Alger 1979, p21 à 23

العشرينيات والثلاثينيات، بحيث لم تكن تختلف رواياتهم عن روايات المستوطنين إلا في كونها تعكس((صورة ذاتية للإنسان الجزائري)) [434]. وفي المرحلة اللاحقة كان كاتب ياسين ومحمد ديب ومالك حداد ومصطفى الأشرف ومحمد الشريف ساحلي ينتمون إلى اليسار، مثلهم مثل كامو وروبليس وسيناك وكريا، ويناضلون أحيانا في حزب واحد، ويعرفون بعضهم بعضا معرفة شخصية، ولهم صداقات حميمة أحيانا [435]. وزمالة في العمل، وكانت لهم لقاءات ومناقشات أدبية [436]. وكانوا يحررون، أو ينشرون مقالات وإبداعات في العديد من الصحف والمجلات جنبا إلى جنب [437]. ولم يكونوا أبدا يختلفون - في أحسن الأحوال - عن زملائهم من الكتاب المستوطنين في الأشكال الفنية، فقد ظلوا في معظم الأحيان يستلهمون موضوعات رواياتهم من التراث المحلي، ويسردونه بشكل تقليدي أو تعليمي، ولم يحاولوا أبدا الخروج عن الشكل أو

---

434 Ahmed Lansari « Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente », O.P.U Alger 1986, pp42-43.

435 يروي محمد ديب في حوار إذاعي له بعض ذكرياته مع ألبير كامو، ولقاءاته المتكررة معه كلما زار العاصمة، ومن تلك الذكريات أمسية قضياها معا ذات يوم ربيعي من سنة 1950 بنواحي تيبازا التي كان كامو يحبها كثيرا، وتحدث عن جوانب من شخصية كامو التي تتميز بالمرح وحب الحياة، وذكر أنه بعد الغداء، راح كامو، وقد لعبت برأسه الخمرة، يسير على سور الميناء الضخم، ويرقص ويغني مثل طفل. (مقتطف من حوار إذاعي مطول مع محمد ديب (يمتلك الباحث شريطا مسجلا منه) ، أجرته معه إذاعة فرنسا الثقافية: France Culture وأذيع في شهر ماي من السنة الجارية 1977) .

436 مثل ذلك اللقاء الذي انعقد في الفترة ما بين 23 فبراير و13مارس 1948 بـ"سيدي مدني" قرب البليدة، وأشرفت على تنظيمه "مصلحة الحركات الشبانية والتربية الشعبية"، وكان من ورائه ألبير كامو الذي شارك فيه بحما، وحضره من الكتاب الجزائريين على الخصوص محمد ديب. راجع :
Jean Déjeux « Mohammed Dib , écrivain algérien » Ed. Naaman de Sherbrooke. Québec. Canada 1977,p9.

437 مثل جريدة Alger Républicain ، و L'action ومجلات : Afrique و Simoun و Soleil ; Terrasses وغيرها.وقد اشتغل كل من محمد ديب وكاتب يسن كمحررين ومراسلين بصحيفة " Alger Républicain" التي كان يعمل بها كامو نفسه .

النموذج المتداول الذي يكتب به المستوطنون، وقد استمروا في الكتابة على هذا المنوال حتى في عهد الثورة التحريرية، بحيث تمكنوا من تقديم نموذج ثوري على مستوى المضمون مستلهم من الثورة نفسها، ولكنهم على مستوى الشكل لم يتمكنوا من التخلص من النموذج التقليدي المتداول، وأصبح التباعد (Décalage) صارخا بين مضمون ثوري حقيقي وشكل "فقير"، ومتعجل في الغالب[438]. ولم يشكل الاستثناء في هذا "التباعد" إلا كاتب ياسين في روايته "نجمة" [439].

وكانوا يتوجهون جميعا إلى قارئ واحد ، أو رأي عام واحد هو القارئ الفرنسي، والرأي العام الفرنسي بشقيه: الفرنسي في فرنسا ، والاستيطاني في الجزائر، ليقولوا بعض الحقائق [440]. أما القارئ الجزائري فلا مجال للحديث عنه في الفترة المتحدث عنها، في ظل واقع تعليمي لاتتاح فيه الفرصة في التعليم الابتدائي إلا لحوالي6% من مجموع الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة آنذاك، أما التعليم الثانوي والجامعي فإن النسبة فيه كانت ضئيلة جدا إلى درجة لا تستحق الذكر [441]. يضاف إلى هذا الجانب المستوى المعيشي الضعيف لمعظم الجزائريين، وهو ما كان يقف حائلا دون وجود هذا القارئ، بحيث كانت القراءة محصورة في عدد محدود من الموظفين وأنصاف المتعلمين من

438 Abdelkabir Khatibi « Le roman maghrébin » , p15.

439 Ibid,p15.

440 Jean Déjeux « Mohammed Dib , écrivain algérien » p13. Et Albert Mémmi, « Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française », Ed. Présence Africaine , 2ème édition, Paris 1965 , (Introdution) p18.

441 اجع الطاهر زرهوني "التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال" ص 22 .

التجار وملاك الأرض، وهم من القلة بحيث لا يشكلون جمهورا قارئا، ولا رأيا عاما يعتد به.

من هذا كله، وبسبب هذه التسميات التي تنتسب كلها إلى الجزائر، وهذا التداخل بين المدارس الأدبية في المفاهيم والمنطلقات الفكرية، وهذا التلاقي على المستوى الجمالي بين الكتاب، بالرغم من تباين أصولهم الإثنية، واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والدينية، بالإضافة إلى وسيلة التعبير، أي اللغة التي كانت تشكل العنصر الأساسي المشترك بين الجميع، جاء سوء الفهم في المقصود لدى كل طرف بـ "الأدب الجزائري"، وفي تحديد من هو "الكاتب الجزائري"؟ ومن هنا جاء التنازع على من يصح أن يتصف بهذه الصفة، والكل يدعي لنفسه هذا الشرف .

هذا ما دفع ببعض الصحف والمجلات المتخصصة مثل مجلة " الأخبار الأدبية " الفرنسية إلى القيام سنة 1960 باستفتاء في هذا الصدد، شارك فيه مجموعة كبيرة من الكتاب الجزائريين والمستوطنين، وكان من بينهم محمد ديب ومولود فرعون، ومالك حداد، وهنري كريا، وكابريال أوديسيو، وجول روا، وجان بيليكري، وروجي كوريل، وغيرهم من الأسماء المعروفة [442]. وكان السؤال الرئيسي يدور حول: من هو الكاتب الجزائري ؟ وقد نص السؤال

---

442 يذكر ألبير ميمي في مقدمة "مختارات من أدب الكتاب المغاربة من ذوي التعبير الفرنسي" أنه سبق للصحيفة نفسها "الأخبار الأدبية" أن نشرت في عددها الصادر بتاريخ 15 أكتوبر 1953 تحقيقا للسيد ب، كرونو جعل محوره التساؤل عما إذا كان لـ"أدب شمال إفريقيا " خصائص تميزه عن الأدب الفرنسي، وتوصل إلى نتيجة أنه لا يوجد من الناحية العملية ما يميزه عنه . راجع :
Albert Mémmi, « Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française », Ed. Présence Africaine, Paris 1965, 2ème édition, p12.

بالكامل على ما يلي: حينما يذكر اسم الكتّاب الجزائريين فإنه غالبا ما يراد به الكتّاب من الأصل الأروبي، مثل ما يراد به، وبنفس القدر الكتّاب المسلمين العرب أو القبائل، فهل تقدِّرون أنتم أن عبارة "الكتّاب الجزائريين" لاتحمل أي لبس في معناها ؟ [443].

وقد اتفق معظم المستفتين على أن هناك بالفعل لبسا في العبارة، لكنهم اختلفوا اختلافا شديدا في تعليل أسباب اللبس، وقدم المستوطنون على الخصوص أسبابا واهية، وتفادوا ذكر الحقائق التاريخية التي نتج عنها، فرده بعضهم، مثل " روني جاك كلو " إلى الثورة الجزائرية التي كانت آنذاك في عامها السادس، ومع ذلك يطلق عليها هذا الكاتب وغيره من المستوطنين عبارة " الأحداث" الأخيرة [444]. كما رده بعضهم الآخر مثل " جول روا " إلى "تنوع أصول الكتاب الجزائريين" الذي يرى فيه، من ناحية أخرى، دليلا على الثراء الروحي للجزائر" [445]. في الوقت الذي راح فيه بعضهم الآخر يغلف رده بعبارات إنشائية فضفاضة ومضللة، مثل "روجي كوريل" الذي وصف الجزائر بأنها ((مخدر أسود وأبيض ، يقتل ويحيي..))، وأنه يتحتم ((على من ربطوا مصيرهم بها أن يغضوا الطرف عن "خيانتها" لهم مع غيرهم ، كما يتغاضى

443 Marissel André « Les écrivains algériens s'expliquent » , in « Les Nouvelles littéraires » du 13 Octobre 1960. Cf: Jean Déjeux « Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945 - 1977 », p27 .

444 Malek Haddad « Les zéros tournent en rond », p24 .

445 Ibid,p25.

(حرفيا: يتواطأ) العشاق الأذكياء، على خيانة معشوقة على قدر كبير من الجمال والبلادة)) [446].

وقد استفز هذا القول وشبيهه من الأقوال الشاعر مالك حداد الذي عاد مجددا إلى موضوع الاستفتاء المذكور في مقاله المطول " الأصفار تدور في فراغ "، ليرد على "كوريل" بقوله: ((إن الجزائر ليست عشيقتنا المشتركة، إنها أمنا. ولا يمكن ارتكاب " زنا المحارم " في أسرتنا)) [447]. وكان قبل هذا قد اتهم المجلة التي أجرت الاستفتاء بـ ((إخفاء حقائق شديدة الصراحة)) [448]، ثم راح يناقش العديد من إجابات الكتاب المستوطنين، واتهمهم بدورهم بتجاهل وضعهم كجزء من الأقلية التي تحتل البلد، وتجاهل ما كان يحدث آنذاك في الجزائر[449].

وأبى مالك حداد إلا أن يرد على موضوع الاستفتاء نفسه، فبدأ رده بهذه العبارة الحاسمة: ((ليس جزائريا بالمرة كل من أراد ذلك)) [450]. لأن المسألة أعمق بكثير من مجرد الاختيار، أو العيش المشترك مع آخرين، فوق رقعة واحدة من الأرض، فالكاتب ـ كما يوضح ـ هو نتاج التاريخ أكثر مما هو نتاج الجغرافيا [451]. وإذا كان لابد من الانتماء على أساس "الجغرافيا" فإن انتماء

446 « Les zéros tournent en rond »,p26.
447 Ibid,p26.
448 Ibid, 24
449 Ibid, p23.
450 Ibid,p32.
451 Ibid,p32.

الكاتب إلى قوم لا يقاس إلا بمساهمته، بلا تحفظ وبلا تأنيب ضمير، في الكفاح السياسي والعسكري لأولئك القوم [452]، تماما مثل ما فعل هنري كريا ، وجان سيناك اللذان وقفا - رغم أصولهما الأوروبية - إلى جانب كفاح الشعب الجزائري بكل وضوح، وتجاوزا بذلك حاجز التردد [453]، فاستحقا بذلك شرف الانتساب إلى الجزائر.

أما الانتماء على أساس التاريخ فهو شيء يختص به الكتَّاب "الأهالي" من ذوي الأصل العربي - البربري، وهو العامل الذي يجعلهم يختلفون عن الكتاب المستوطنين حتى وإن استعملوا لغة واحدة مشتركة. يقول ((إن هناك فرقا شاسعا بين غابريال أوديسيو وجان عمروش، وبين روبليس وديب، وجول روا وكاتب ياسين، وروجي كوريل وآيت جعفر ، بالرغم من حقيقة أنهم جميعا يكتبون الفرنسية)) [454].

والتاريخ بالطبع ليس هو ذلك الامتداد الزمني الضارب في ماضي الشعوب والأمم ولكنه حياة الشعوب والأمم نفسها عبر العصور، وممارساتها اليومية، وما تحمل في طياتها من قيم وأخلاق وعادات، وتأتي في مقدمة تلك الممارسات اللغة، والمعتقد الديني، ثم الطبائع والأخلاق التي تترسب عبر العصور لتصنع لتلك الشعوب والأمم طبيعة أخرى، ومن هنا يرجع مالك حداد سبب الاختلاف المشار إليه في الاستفتاء إلى عامل اللغة بالدرجة الأولى، وبالتحديد لغة الأم،

---

452 Ibid,p25.
453 Ibid,p28.
454Ibid, p32.

حيث يقول: ((إن ما يفرق بين الكتّاب الأهالي والمستوطنين ليس المواقف السياسية... ولكنه الحنين إلى لغة الأم بالنسبة إلينا، التي فُطمنا عنها، وأصبحنا أيتامها بلا منازع)) [455].

ثم يضيف إلى عامل اللغة عاملين آخرين هما الدين: ((إن طابع الإسلام الذي طبع حياتنا بطابع لا ينمحي، يميزنا كذلك عن بعضنا البعض، وإن كان لا يفصلنا)) [456]، وعامل الطبع أو الأخلاق المتوارثة: ((إن لنا أساليب في التفكير والإحساس، وما إلى ذلك من تصرفات، هي أشياء خاصة بنا . فحتى لوعبرنا بالفرنسية فإننا ننقل حلمنا، وغضبنا، وشكوانا الصادرة من أعماق قرون وقرون من تاريخنا)) [457].

6 ـ هل هو أدب جزائري أم أدب جزائريين؟

وعلى العموم، فإن الغموض في مسألة "من هو الكاتب الجزائري" هو من وجهة نظر مالك حداد ناتج عن مجرد ظرف تاريخي طارئ أوجده الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو لامحالة زائل مع الوقت، لاسيما أن تباشير الاستقلال كانت في ذلك الوقت (1961) كانت تلوح في الأفق، ومن الطبيعي أن تستعيد اللغة العربية، اللغة الرسمية للبد مكانتها في كل المجالات الثقافية والفكرية: ((وسيتعلم الجزائريون المنحدرون من أصول فرنسية أنفسهم هذه

455 Malek Haddad « Les zéros tournent en rond », p32.
456 Ibid,p33.
457 Ibid,p33.

اللغـة، ليلتحمـوا بمـواطنيهم)) [458]، وحينهـا ((سـيكون للجزائـر كتابهـا الحقيقيون، الذين يمثلونها بحق، أما جيلنا نحن ، فلـن يكـون حينئـذ سـوى جيل انتقالي)) [459].

ونلاحظ أنه حتى تاريخ إجراء الاستفتاء الأدبي المذكور، كان السؤال يطرح بشأن جنسية الكاتب لا بشأن جنسية الأدب نفسه الذي كان يُكتب، كما كان الأمر يتعلق بما يكتب باللغة الفرنسية لا غير *، أما ما كان يكتب بالعربية آنذاك، أو ما كتب منه منذ الاحتلال، أو قبل الاحتلال الفرنسي، فقد كان يُتجاهل تماما، كأنه غير موجود، فإن ذكر شيء من أدب الجزائر وثقافتها في العصور الخوالي، ذكر ما كتب منه قبل دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، وتردد اسم "أبوليوس" و"أغوسطينوس"، و"تريتيليان"، و"فيليكس مينوسيوس" [460]. الذين يعدهم "لويس برتران" وأضرابه المؤسسين الأوائل لإفريقيا اللاتينية المسيحية، وهو أسلوب تعوّد الفرنسيون على استعماله إزاء كل ما يشكل مقومات الشعب الجزائري، من ثقافة، ولغة، وتاريخ وغير ذلك. ولم يطرح موضوع "الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية"، أو أيضا "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي " كما يسميه البعض، إلا بعد استعادة الاستقلال الوطني، وقد طرح في مقابل "الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية".

---

458 Ibid,p37.

459 Ibid p38.

* إلا ما كان من إشارة مالك حداد هذه للمستقبل ، عما سيكون عليه الأدب في الجزائر المستقلة.

460 Cf. Jean Déjeux «La littérature algérienne contemporaine », p4.

والحقيقة أن مالك حداد كان بنظرته الاستشرافية للمستقبل سباقا لطرح مشكلة هوية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية، وكان رأيه كما سبق أن استعرضناه واضحا لا لبس فيه، إنه لا ينفي جزائريته بحكم جزائرية من كتبوه، وكذلك بحكم الروح التي كتب بها، والتي عكست في الغالب الأعم، وبشكل تلقائي، القيم الروحية والأخلاقية الأصيلة للشعب الجزائري، ولكنه في الوقت نفسه لم يعده أدبا قوميا (Une littérature Nationale) أصيلا، كما هو الحال بالنسبة للأدب المكتوب باللغة العربية، ونظر إليه على أنه أدب ظرفي وانتقالي، يمثل مرحلة عابرة في تاريخ الجزائر.

وقد أكد مالك حداد موقفه هذا في مناسبات أخرى بما لا يقبل أي تأويل، مثل ما نجد في كلمته التي ألقاها بدمشق في شهر مايو من سنة 1961 حيث جاء فيها قوله: ((كما كان على بعض فناني السينما الصامتة أن يختفوا، وأن يتركوا أماكنهم لممثلي السينما الناطقة، فإن على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون لجيلي، ولهم تكوين ثقافي كتكويني، أن يتركوا أماكنهم اليوم أو غدا، في ظرف قصير أو طويل - ولكنه أكيد على أية حال - للكتاب الجزائريين الذينيكتبون باللغة العربية ، وأن يقنعوا بترجمة أعمالهم (إلى اللغة العربية) في بلدهم. إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية))[461].

---

461 Malek Haddad « La libérté et le drame de l'expression chez les écrivains algériens » , Ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas , Juin 1961 , p15.

ويضيف في الكلمة نفسها: ((إن على كاتب ياسين، ومحمد ديب، وفرعون، ومعمري ، ووراي، وآسيا جبار، إذا كانوا واعين بعدُ بهذه الحقيقة، أن يخضعوا لهذا القدر، لهذه السيرورة التاريخية التي لا مناص منها، ألا وهي: الاختفاء أو التكيف مع الوضع الجديد)) [462] وقد ظل مالك حداد على موقفه هذا بعد الاستقلال، وردده في بعض كتاباته الصحفية التي نشرها في جريدتي "النصر " و"المجاهد"[463].

أما عن تسمية هذا الأدب بـ"الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية" أو " الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي"، فمالك حداد يرفضه، وقد عبر عن هذا الرفض في حوار له أجرته معه جريدة "لاكسيون" التونسية ، بتاريخ 1972/01/16، وأعطى له اسما آخر قلبه رأسا على عقب ليصبح: " الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري"[464]، وهو إسم لم يستعمله قبله ولا بعده أحد، ويلخص به وجهة نظر في غاية الدقة والإيجاز ، فهو يؤكد من جهة على "الروح" الجزائرية التي كتب بها ، وتجلت من خلال المضمون الذي عبرت عنه، ولكنه يعده فرنسيا بالنظر إلى وسيلة التعبير، ألا وهي اللغة التي كتب بها.

ومن الملاحظ هنا، أن مالك حداد كان متفردا، في الاهتمام المبكر بهذه المشكلة، كما أن تعبيره عنها كان صريحا إلى درجة أثارت ردود فعل معارضة

---

462 Ibid P16.

463 Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française »,p81.

464 Ibid, p84.

لدى معظم زملائه الكتاب الآخرين، بل ردود فعل مستنكرة وغاضبة أحيانا، هذا ما نلمسه مثلا في تصريح صحفي لمحمد ديب، رد به على عبارة مالك حداد الشهيرة " اللغة الفرنسية هي منفاي" [465]، فقال: ((إنه بفضل اللغة الفرنسية قد تجنبنا الوقوع في مخاطر الجهوية... وإنني كجزائري، لا أحس بأية مأساة في استعمالها، ومن يدعون ذلك إنما يخفون ضعفهم بذلك)) [466].

لكن نظرة محمد ديب تغيرت مع الوقت، ليعود فيلتقي بعد أكثر من ثلاثين عاما مع مالك حداد في شعوره بالمنفى والاغتراب في اللغة الفرنسية وفي المجتمع الفرنسي، وهذا ما عبر عنه بمرارة في أحد تصريحاته في سنة 1993. حين قال: ((إن رغبة التجذر في عالم غير عالمك تتكسر أمام عدم تمكنك أبدا من لقاء مجتمع. يجب الاعتراف بما هو بديهي: ستبقى دائما جزء من أولئك المهاجرين البوهيميين الذين نصبوا خيامهم على مشارف مدينة، فإذا هم متهمين بسرقة دجاج السكان الأصليين)) [467].

أما مولود معمري فيرد على عبارة مالك حداد بقوله: ((يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللغة التي

465 Malek Haddad « Les zéros tournent en rond », p21.

466 Cité par Abdelkabir Khatibi in « Le roman maghrébin » , pp37-38.

467 محمد ديب في تصريح له لأسبوعية "Ruptures" الجزائرية، نشرته له في عددها 16 /02/ 1993، وأعادت نشره، مترجما إلى العربية بقلم جيلالي خلاص، جريدة المجاهد الأسبوعية، في عددها 1699 بتاريخ 1993/02/26.

يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو...إنني أقول: إن هذه فرصة، بل إنها ثروة للثقافة الجزائرية)) [468]

وهذا بالتقريب رأي كاتب ياسين الذي ينظر إلى اللغة الفرنسية على أنها أولا وقبل كل شيء "وسيلة تعبير" [469]، وثانيا على أنها هي أيضا "لغة جزائرية" [470]. أما الثقافة الفرنسية ((فلا يمكن لها إلا أن تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة)) [471].

7 ـ مأساة التعبير وصمت الكتاب:

والحقيقة أن هؤلاء الكتاب وغيرهم ممن لم نذكرهم، حتى وإن خالفوا مالك حداد الرأي نظريا، ورأوا في كلامه مبالغة كبيرة، ونوعا من "المازوشية" أو تعذيب الذات، فإنهم على المستوى العملي، وحينما نتتبع التحولات التي حدثت في حياتهم ككتاب، نجدهم قد عاشوا بدورهم "المأساة" ذاتها التي تحدث عنها مالك حداد، وعانوا جميعا الإحساس نفسه بالقلق والحيرة والتردد، وقد نتجت فصول هذه المأساة عن التحول الذي حدث على الساحة الجزائرية بعد استعادة الاستقلال الوطني، الذي أفرز واقعا سياسيا واجتماعيا وثقافيا جديدا تماما، ووجد الكتاب أنفسهم حيارى أمام هذا الواقع الجديد بوجوهه المتعددة، ولا سيما في علاقتهم المباشرة ككتاب بينهم وبين هذا الواقع،

---

468 نقلا عن سعاد محمد خضر "الأدب الجزائري المعاصر" منشورات المكتبة العصرية، صيدا. بيروت 1967، ص90 .

469 Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française » , p147.

470 Jean Déjeux in « Situation de la littérature maghrébine de langue française », 85.

471 Ibid. P85 .

حيث وجدوا أنفسهم في مواجهة سؤال أساسي وحاسم: لمن أكتب؟ أ أكتب للفرنسيين كما كان الحال من قبل؟ وفي هذه الحال ماذا أقول لهم، وقد استقل البلد وانتهى الأمر، ولم يعد هناك صراع عسكري أو سياسي مباشر بيننا وبينهم؟ أم أكتب للجزائريين؟ وحينئذ لمن أكتب وقد بلغت الأمية عند ما غادر الفرنسيون الجزائر نسبة تفوق 85 بالمائة[472]. وتزيد عن 90 بالمائة في الأوساط الريفية؟ وبأية لغة أكتب؟ أ بالفرنسية وهي فضلا عن كونها لغة غير مفهومة إلا لحوالي 8 بالمائة من الجزائريين، ولا يستطيع أن يقرأ بها إلا حوالي نصف هذا العدد[473]. فإنها تمثل من جهة أخرى لغة عدو الأمس؟ أم أكتب بالعربية؟ وفي هذه الحال كيف أكتب بهذه اللغة وأنا نفسي أجهلها، وعاجز عن التعبير بها؟ وحتى في هذه الحال، فإن عدد القراء لن يكونوا أكثر من 4٪.

هذه في تصورنا هي الأسئلة المحيرة التي يكون هؤلاء الكتاب قد طرحوها على أنفسهم غداة الاستقلال، بوعي منهم أو بغير وعي، بشكل واضح ومحدد أو مبهم ومشوش، خفي أو علني، الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة إلينا هو أن هذا القلق والحيرة والتساؤل قد انعكس على حياتهم ككتاب، وأثر تأثيرا قويا وبارزا للعيان على وتيرة إنتاجهم الإبداعي، وعلى نوعيته، فقد لجأ مالك حداد إلى الصمت المطبق، وعمل بمقولته التي أوردناها آنفا بأنه ((على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون لجيلي ، ولهم تكوين ثقافي كتكويني، أن يتخلوا عن

472 Abdellah Mazouni « Culture et enseignément en Algérie et au Maghreb » ,Ed. Maspéro, Paris 1969. p
473 Ibid. P

أماكنهم للكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة العربية))، ولم يصدر أي عمل إبداعي في فترة الاستقلال إلى أن توفي سنة 1978. واتجه محمد ديب إلى الكتابة التجريدية الرمزية، وأخذ يبتعد في رواياته شيئا فشيئا عن الجزائر زمانا ومكانا وشخوصا، حتى بلغ أقصى حدود الاغتراب في أعماله الأخيرة، أي في "ثلاثية الشمال "، التي جعل مسرح أحداثها يدور في أقصى شمال أوروبا (فنلندا) [474]. وبهذا اكتسب أدب محمد ديب طابعا عالميا (Universel) لا يختص ببلد معين، ولا يوجه إلى قارئ بعينه، وإنما إلى قارئ عالمي مفترض، وقد اضطره هذا التحول الجذري في أدبه إلى نشر أعماله لدى ناشر جديد هو دار " سندباد "، والتخلي عن دار "سوي" التي نشرت له معظم أعماله السابقة، لأن أدبه الجديد لم يعد يتلاءم مع نوعية الأدب الذي تنشره هذه الدار.

كاتب ياسين من جهته، وقع في حيرة من أمره بين رسالته الاجتماعية، باعتباره كاتبا ملتزما يؤمن بـ" حتمية " انتصار الثورة الاشتراكية العالمية، ويحتاج للتبشير بها في أوساط العمال والفلاحين إلى لغة تواصل بينه وبينهم، لكن حاجز الأمية - كما يقول - كان يقف حائلا بينه وبين جمهوره[475]. ولذلك قرر - بعد طول صمت دام ثلاثة عشر عاما [476]التخلي نهائيا عن الكتابة بالفرنسية، لأنها غير مفهومة لدى الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري،

---

474 تتكون من الروايات التالية: نوم حواء : Le Sommeil d'Eve، ثلج من رخام Neige de marbre، صحراء بلا تعاريج Le Désert sans détour. وقد صدرت كلها عن دار Sindbad على التوالي سنوات: 1989، 1990، 1992.

475 Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », (Entretien) , p10.

476 Ibid. P8.

وبالأخص لدى جمهور الفلاحين والعمال، الذي يتوجه إليه بالخطاب [477]، كما وقف موقف الرفض من استعمال اللغة العربية الفصحى، لأن الشعب لايفهمها ـ حسب اعتقاده ـ هي أيضا، وهي بدورها لغة أجنبية مثل الفرنسية في نظره [478]. واتجه منذ بداية سنوات السبعينيات إلى كتابة المسرحية باللهجة العامية الجزائرية.

والحقيقة أن كاتب ياسين كان قد أحس قبل غيره من الكتاب الآخرين، ومنذ صباه المبكر بالمأساة، وعبر عنها، وذلك حين قرر والده ذات يوم إدخاله المدرسة الفرنسية، أو حسب تعبيره ((حين قرر أن يلقي به بين فكي الوحش)) [479]. وقد عبر عن المأساة بطريقة رمزية غاية في قوة الدلالة، حين تحدث عن " القطيعة " المؤلمة التي أحدثتها المدرسة الفرنسية بينه وبين أمه، فبسبب غيابه معظم ساعات النهار في المدرسة، وانشغاله بمراجعة دروسه وإنجاز واجباته المدرسية في البيت، انقطع الحديث بينه وبين أمه أو كاد، ولم يعد له متسع من الوقت لسماع حكاياتها وأشعارها الشعبية الممتعة، وكانت هي نفسها شاعرة بالعربية العامية، فكانت تجلس إلى جانبه وهو منهمك في مراجعة دروسه وإنجاز واجباته، وتروح تنقل نظرها في صمت بينه وبين كتبه وأوراقه، حتى أنها اقترحت عليه ذات مرة ـ من أجل إعادة التواصل بينهما ـ أن يعلمها اللغة الفرنسية ، ولم يكن ذلك ممكنا ، فكان هذا بالنسبة إليه بمثابة ((قطع

---

477 Ibid. P10.

478 Ibid.P56.

479 Kateb Yacine « Le polygone étoilé » Ed. du Seuil, Paris 1966 , p180.

السرة مرة أخرى))[480] بينه وبينها، وقد اختار أن ينهي روايته "المضلع النجمي" بهذه العبارة: ((وهكذا فقدت أمي وفقدت كلامها في آن واحد، وهما الكنزان اللذان لا يقبلان الاستلاب، ومع ذلك فقد استلبا مني))[481].

مولود معمري بدوره عاش أزمة التعبير هذه ، فقلّت أعماله الإبداعية بشكل محسوس، وتباعدت تواريخ صدورها، بحيث لم يصدر في الفترة الممتدة ما بين سنة 1965، وهي السنة التي أصدر فيها رواية "الأفيون والعصا"، ووفاته سنة 1989، إلا رواية واحدة هي "العبور" سنة 1982، ومسرحيتين لم يكن لهما ذلك الصدى الذي أحدثته رواياته، وهما: "المأدبة" [482]سنة 1973، و"ريح الفون" [483]سنة 1982، كما نشر بضع قصص قصيرة في أوقات وأماكن متفرقة، جمعت بعد وفاته ونشرت بالجزائر سنة 1996 بعنوان " توقفات" [484].

ويعتقد معمري مثل كاتب ياسين بوجود أربع لغات في الجزائر، ويصور وضعها على النحو التالي: المستوى الأول وتأتي فيه اللغة العربية "الكلاسيكية "، وهي اللغة الرسمية وفي الوقت نفسه "اللغة التي هي ليست لغة أي أحد من الجزائريين "، وفي المستوى الثاني نجد اللغة الفرنسية، ووضعها القانوني غير واضح لكنها تتمتع بمكانة مرموقة " لأنها لغة التعامل اليومي"، وتأتي في المستوى الثالث والأخيرة اللغتان الشعبيتان: العربية

480 Ibid. P181.
481 Ibid, p182.
482 « Le Banquet » , Ed. Perrin. Paris 1973.
483 « Le Foehn » , Ed. Publisud, Paris 1982 .
484 « Escales » , Ed. Bouchène , Alger (S.d.p : Sans date de publication) .

الجزائرية والأمازيغية وهما لغة الحديث اليومي لكل أفراد الشعب، غير أنهما لا تتمتعان بأي وضع قانوني رسمي[485] ومن هنا اتخذ مولود معمري موقفا شبيها جدا بموقف كاتب ياسين من "الوضع اللغوي في الجزائر"، وانصرف بجهوده انصرافا كليا إلى النضال من أجل "القضية الأمازيغية" والعمل على دراسة وتدريس وتطوير اللغة القبائلية، ووضع قواعد لها[486]، وإحياء تراثها الثقافي القديم، ودراسة الفلكلور القبائلي خاصة، والأمازيغي عامة ، فأصدر أبحاثا ودراسات عديدة في هذا المجال، وترجم إلى اللغة الفرنسية أشعارا وقصصا من التراث الشعبي الشفوي القبائلي[487].

وتمر آسيا جبار بالأزمة نفسها، وتعترف بها صراحة، بل وتردد تعبير مالك حداد عن هذه الأزمة حين تستعمل لفظ "المنفى" فتقول: ((لقد كان منفانا الأول لغويا، وكان ذلك منذ عهد الصبا))[488]، وكانت تعد الازدواجية اللغوية

---

485 Mouloud Mammeri « L'experience vecue et l'expression littéraire en Algérie » in « Culture savante, culture vécue » p154 .

486 أصدر في هذا الصدد " تاجرومت نتامازيغت Tajerrumt n Tamazight "، أو " أجرومية اللغة الأمازيغة " عن دار: (Maspéro. Paris 1976) ، و"مختصر قواعد اللغة البربرية": Précis de grammaire berbère ، سنة 1988 عن مطبوعات "أوال" أو "الكلمة"، وهي "دفاتر الدراسات البربرية " التي أسسها معمري بباريس وصدر منها عشرة أعداد في الفترة ما بين 1985 و1989 . وكان قد أصدر أيضا سنة 1973 بالجزائر قاموسا مزدوج اللغة بعنوان "أماوال" ، أمازيغي فرنسي . فرنسي . أمازيغي.

4873 أصدر منها بالخصوص "أشعار قبائلية سنة 1969 عن دار "ماسبيرو" بباريس: (Poèmes Kabyles anciens, Maspéro, Paris196 ،ومجموعتين من الحكايات الشعبية القبائلية سنة 1980، عن دار "بورداس" وهما على التوالي: "ماشاهو": « Machaho Contes berbères de Kabylie » , Bordas , Paris 1980 ، و"تالم شاهو" : « Tellem Chaho Contes berbères de Kabylie » , Bordas , Paris 1980 .

488 Cité par Jean Déjeux in « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p87.

((نوعا من العرج المزدوج)) [489]. وللتغلب على هذه الأزمة حاولت حين تكتب أن تلائم بين موروثها الثقافي العربي وبين قواعد اللغة الفرنسية، فكانت تبحث عن الصيغ التي تتناسب وتلك المستعملة في العربية، كتقديم الفعل على الفاعل، والموصوف على الصفة، ووضع المفعول به في غير موضعه المعتاد، لأن ذلك له علاقة - حسب رأيها - بحساسية المغاربة وطريقة استيعابهم الخاطف للأشياء [490]. وكانت تفضل استعمال صيغة "اسم الفاعل الحاضر" (Participe présent) في سردها للحدث الروائي، وتبذل جهدا مضنيا في سبيل ذلك ((لأنه الصيغة الأكثر ملاءمة في الفرنسية لترجمة الأزمنة المتعددة التي تتعايش في الضمير العربي في آن واحد)) [491].

وقد انقطعت آسيا جبار عن الكتابة الروائية منذ سنة 1967، أي بعد إصدارها لرواية "القبرات الساذجة" [492]، وانصرفت إلى مجالات تعبيرية أخرى، فبدأت بكتابة الشعر، وأصدرت "قصائد للجزائر السعيدة" [493]، لتنتقل إلى الإخراج المسرحي [494]، فالكتابة المسرحية حيث أصدرت بالاشتراك مع وليد قرن مسرحية "احمرار الفجر" [495]، ثم إلى التحقيقات الاجتماعية الشبهة

---

489 Assia Djebar « Poèmes pour l'Algérieheureuse » , S.N.E.D Alger 1969, p2.

490 « Situation de la littérature maghrébine de langue française »p 87.

491 « Situation de la littérature maghrébine de langue française ». P87.

492 « Les Alouettes naïves » , Ed. Julliard , Paris 1967, reéd. Coll. 10-18.

493 « Poèmes pour l'Algérie heureuse » , Op.Cit.

494 Jean Déjeux « Dictionnaire des auteurs algériens de langue française », p99.

495 « Rouge l'aube », S.N.E.D Alger 1969 .

بالتحقيقات الصحفية، لتصدر "نساء مدينة الجزائر في بيوتهن" [496]، وأخيرا اشتغلت بالسينما، حيث أخرجت فيلما سنة 1979 بعنوان " نوبة نساء جبل شنوة" [497]، وشريطا تلفزيونيا بعنوان " الزردة وأغاني النسيان" عرضته التلفزة الجزائرية سنة 1982.

وفي هذا التنوع في اهتمامات الكاتبة، بعد أن عرفت كروائية، وتنقلها من فن إلى آخر ما يترجم ـ في نظرنا ـ أزمة التعبير التي عاشتها، وعاشها الكتاب الجزائريون باللغة الفرنسية في فترة ما بعد الاستقلال بصفة عامة، هذه الأزمة التي اتخذت لها أشكالا مختلفة من كاتب إلى آخر كما مر معنا. وفيما يخص آسيا جبار، نستطيع أن نجد لأزمتها أدلة أخرى، ومنها تصريح أدلت به بشأن فيلمها " نوبة نساء جبل شنوة "، الذي كان من المفترض أن تنجزه في شكل رواية، حين قالت: ((ما فعلته هو أنني مررت من الأدب المكتوب إلى الأدب الشفوي)) [498]، وهو تصريح يقربها كثيرا من موقفي كاتب ياسين ومولود معمري في تخليهما عن التعبير الكتابي ليلجآ إلى التعبير الشفوي .

هذا على العموم موقف الكتاب "المخضرمين" الذين بدأوا الكتابة في العهد الاستعماري من مشكلة التعبير، وهذه هي مأساتهم حسب تعبير مالك حداد، حتى وإن رفض العديد منهم تسميتها بـ " المأساة". ويجدر بنا أن نذكّر هنا بحقيقة أن هؤلاء الكتاب لم يكن لديهم خيار في مسألة استعمال اللغة الفرنسية،

---

496 J. Déjeux « Dictionnaire des auteurs algériens.. », p100.

497 « La Nouba des femmes du mont Chenoua » .

498 Cité par Jean Déjeux in « Situation de la littérature maghrébine….», p88.

لأنها كانت اللغة الوحيدة التي يتقنونها - باستثناء اللهجة العامية - ويستطيعون الكتابة بها، ولم يكن في مقدورهم الكتابة باللغة العربية، حتى لو أرادوا ذلك، بل لم يكن في مقدورهم إتقانها والكتابة بها - لوحاولوا تعلمها والكتابة بها - بالقدر الذي يتقنون به اللغة الفرنسية ويعبرون بها[499].

ومن هنا فقد كان هذا الجيل برمته معذورا، ولم يكن في حاجة إلى تقديم مبررات عن اختياره الكتابة بالفرنسية، لأنه لايملك الخيار أصلا، فإما أن يكتب بهذه اللغة الوحيدة التي يمتلكها، وإما أن يصمت، ومبرره معروف ومفهوم، فقد كان هو نفسه ضحية نظام التعليم الاستعماري الذي حرمه وحرم أجيالا عديدة من الأطفال الجزائريين من تعلم لغتهم العربية، ولكن الغريب في الأمر هو موقف بعض هؤلاء الكتاب من اللغة العربية، كما أوضحنا سابقا، فهو موقف يتميز بكثير من التناقض وعدم الانسجام مع حقائق التاريخ، ومع مضمون الأدب الذي كتبوه، ومع القضايا الوطنية التي تبنوها، ودافعوا عنها. فمن ينكر منهم أن تكون اللغة العربية لغة الشعب الجزائري، ويعدها لغة أجنبية، يلتقي بالضرورة مع موقف الاستعمار الذي كان يعدُّ اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وكذلك يعدُّ جاهلا أو مكابرا من يعدُّ اللغة العربية غريبة عن الشعب الجزائري، وغير مفهومة لديه، وهو الذي احتضنها طيلة أربعة عشر قرنا، فحفظها وحفظته، وكانت له ولشخصيته وثقافته وعاء ووجاء طيلة

499 منهم من حاول ذلك مثل مالك نبي ،الذي تعلم اللغة العربية على كبر، في الفترة التي عاش فيها في القاهرة في سنوات الثورة التحريرية ، وكتب بها الجزء الثاني من "شاهد القرن"، وبعض المحاضرات التي كان يلقيها في ملتقيات "الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، ولكن ظل الفارق كبيرا وبارزا للعيان بين كتابته بالفرنسية وكتبه بالعربية.

القرون المذكورة، وهو يلتقي في هذا الرأي مرة أخرى مع آراء المستشرقين الفرنسيين حين يقسمون بدورهم اللغة العربية اليوم إلى لغة " كلاسيكية " قديمة، ولغة فصحى حديثة ، ولغة عامية متداولة في الحديث اليومي [500]، كما يعد مكابرا أيضا من يسوي بين لغة مكتوبة ذات حضارة عريقة مثل اللغة العربية، وبين لهجة عامية بسيطة، مازال يبحث لها عن حروف تضبط بها، ولا تستطيع أن تعبر إلا عن أبسط الحاجات اليومية، وحتى في هذه الحاجات البسيطة تحتاج إلى الاستعارة من العربية أو الفرنسية، بل إنه يفضل اللهجة العامية على اللغة العربية، بدعوى أنها غير مفهومة مرة، وأنها ليست لغة الشعب مرة أخرى. إن مثل هذه التناقضات الصارخة لا يمكن تفسيرها إلا بوجود أزمة تعبير حادة يعاني منها - وينكرها في الوقت نفسه - هؤلاء الكتاب، وقد حاولنا أن نبين ذلك من خلال أقوالهم وأفعالهم.

8 - الكتابة بالفرنسية بعد الاستقلال: عدم قدرة أم موقف سياسي؟

أما فيما يخص الجيل الجديد من هؤلاء الكتاب باللغة الفرنسية، الذين برزت أسماؤهم بعد الاستقلال، وهم فئتان - كما مر معنا في الفصل السابق - فئة تعيش في الجزائر وتكتب عن الجزائر، ونشرت كل أعمالها أو بعض أعمالها في

---

500 راجع في هذا الصدد الفصل الأول من كتاب المستشرق "دانييل ريق"، الأستاذ السابق بجامعة السربون الموسوم بـ "قرنان من الاستشراق، أو اللغة العربية في فرنسا منذ القرن الـ 19"، الذي يذهب هذا المذهب ويقول بوجود ثلاث لغات عربية: كلاسيكية قديمة، وفصحى حديثة للكتابة، وعامية للتعامل اليومي، ويضرب مثالا على ذلك بقوله: ((إن الرجل العربي اليوم ينتقل من قراءة جريدة معاصرة إلى مخطوطة من الماضي، في الوقت الذي يدير فيه شؤون حياته اليومية بعاميته المعتادة)) :

Cf: Daniel Reig « Homo Orientaliste, la langue arabe en France depuis le 19è siecle » , Ed. Maisonneuve et la Rose, CoL. Islam et Occident, Paris 1988, p25.

الجزائر، وفئة تعيش خارج الجزائر ـ في فرنسا خاصة ـ وتنشر أعمالها في فرنسا وكندا وبلجيكا وسويسرا . فهذه الفئة الأخيرة من الكتاب لا تعنينا، لأنها لم تعد تكتب عن الجزائر إلا عرضا، والعديد منهم تخلوا عن الجنسية الجزائرية، وانصرفوا إلى الكتابة عما يعنيهم كأقلية تعيش في المجتمع الفرنسي، أو عما يعني ـ في أحسن الأحوال ـ جاليتهم المغاربية التي ينحدرون منها، ولم يعد يربطهم بالجزائر في الواقع إلا أصولهم، أو بعض علائقهم الأسرية، أو الترسبات الثقافية التي ورثوها عن أهاليهم، فهي تطفو على السطح بالضرورة في كتاباتهم.

أما الفئة الثانية، وهم الكتاب الذين يعيشون في الجزائر، ويكتبون عن الجزائر باللغة الفرنسية، فينبغي أن ينظر ـ من وجهة نظر منطقية ـ إلى مسألة الكتابة بهذه اللغة عندهم على أنها موقف سياسي منهم، ومسألة اختيار واعٍ ومقصود، قبل أن يكون اختيارا فنيا، لأن هذا الجيل كانت له فرصة ـ على عكس الجيل السابق ـ لتعلم اللغة العربية، وكل كتَّابه أو جلهم يمتلكون اللغة العربية بقدر ما، يسمح لهم بالكتابة بها، أو على الأقل يسمح لهم بتطوير معرفتهم بها إلى درجة الإتقان. والحقيقة أننا لا نمتلك نصوصا أو تصريحات لهؤلاء الكتاب تؤكد أو تبرر سبب اختيارهم للكتابة باللغة الفرنسية، ولكن عدم وجود مثل هذه التصريحات لا ينفي وجود الموقف السياسي ولا الاختيار الواعي والمقصود لديهم، وبناء عليه، يمكن أن تطرح العديد من الأسئلة في هذا الصدد، كأن نسأل مثلا: أهو موقف من اللغة العربية في حد ذاتها مثل ما فعل

كاتب ياسين ومولود معمري، واعتبارها لغة أجنبية ؟ أم هو تعبير عن رغبة في استمرار احتلال اللغة الفرنسية لموقعها المتميز في الجزائر، كما كانت في عهد الاستعمار، وقناعة بأهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة والثقافة الفرنسية في الجزائر المستقلة ؟ وفي كلا الحالين، وفي جميع الأحوال الممكنة الأخرى، وبقطع النظر عن نوعية الأجوبة المحتملة، فإنه لا يصدر عنهم في أحاديثهم اليومية في الصحافة ما يدل على وجود أدنى شك لديهم في أن ما يكتبونه بهذه اللغة ليس أدبا جزائريا. بل إنهم لم يعودوا يتطرقون بالحديث إلى هذا الموضوع، باعتباره أمرا بديهيا ولا يحتاج إلى نقاش.

9ـ حالة خاصة: رشيد بوجدرة

رشيد بوجدرة كان الكاتب الوحيد من بين هؤلاء الكتاب الذي كسر القاعدة، وتحول إلى الكتابة باللغة العربية، علما أنه كان ومازال أغزرهم إنتاجا وأكثرهم شهرة، وذلك عندما أصدر في سنة 1981 روايته الأولى باللغة العربية، بعنوان " التفكك " [501]، بعد ما كان نشر سبع روايات باللغة الفرنسية، لاقت كلها رواجا كبيرا، وأكسبته شهرة واسعة [502]. وفي رأيه، الذي عبر عنه في العديد من المناسبات، أن تحوله إلى الكتابة باللغة العربية هو شيء طبيعي ولا

---

501 نشر طبعتها الأولى في دار ابن رشد ببيروت سنة 1981، و طبعتها الثانية بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982 ، (279 صفحة) .

502 وقد أصدر بعد "التفكك" سلسلة من الروايات كلها باللغة العربية، وهي على التوالي: "المرث"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1984)، "ليليات امرأة آرق" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1985)، "معركة الزقاق" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1986)، " فوضى الأشياء " دار بوشان ، الجزائر (1990)، و"تيميمون" دار الاجتهاد ، الجزائر (1994). وكان يقوم بعد نشرها باللغة العربية، بترجمتها إلى اللغة الفرنسية بنفسه، وينشرها في منشورات Denoël بباريس التي كان يرتبط معها بعقد طويل المدى.

يحتاج إلى أي تفسير. وقد ظلت حالة التحول هذه لدى بوجدرة من الكتابة بالفرنسية إلى العربية، الحالة الوحيدة والاستثنائية التي لم تتكرر لحد الآن بين الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية[503].

10-الأدب الجزائري بالفرنسية: تكريس التسمية بالاستعمال

أما النقاد والدارسون، والمهتمون بوجه عام بهذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في الجزائر، فإن نظرتهم إلى هوية هذا الأدب جد متباينة، فهناك من يعده "جزائريا " وكفى، مع الحرص على تمييزه دائما بعبارة "المكتوب بالفرنسية "، أو "ذو التعبير الفرنسي"، ولم يشغل نفسه كثيرا بطرح السؤال: لماذا هو جزائري، أو بالإجابة عن السؤال. وهذا موقف الباحثين والمؤرخين الفرنسيين عموما، الذين بحثوا في هذا الأدب أو أرخوا له، ويأتي في طليعتهم الأب جان ديجو، والأستاذ شارل بون، وفي سكوتهم هذا ما يتسع للعديد من التأويلات، ولعل أقرب هذه التأويلات التي تتبادر إلى الذهن أن في وصفهم لهذا الأدب بـ "الجزائري" تأكيدا منهم بطريقة ضمنية، على عدم اعتباره " أدبا فرنسيا "، وفي هذه الحال يصبح السؤال الذي طرحناه آنفا والجواب عليه أمرا ضروريا: لماذا هو أدب جزائري ؟ كما يفهم أيضا من عبارة "المكتوب بالفرنسية " أو " ذو التعبير الفرنسي" بأنه تمييز له عن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية، أو ذاك المنقول شفويا بالعربية العامية، أو بالأمازيغية، وحتى في هذه

---

503 قرأنا في الصحافة مؤخرا أنه أصدر في هذه السنة (1997) بباريس رواية بالفرنسية بعنوان « La vie à l'endroit » عن دار « Grasset »، ولا ندري إن كانت هذه عودة منه إلى الكتابة بالفرنسية، أم هي ترجمة لنصها الذي يحتمل أن يكون قد كتبه بالعربية.

الحال يظل طرح السؤال، والجواب عليه ضروريا : كيف اكتسب جزائريته ؟ وهل يتساوى في اكتساب هذه الصفة ما كتب منه بلغة أهل البلد وما كتب بلغة أجنبية ؟

ويلتقي مع الباحثين والمؤرخين الفرنسيين الباحثون الجزائريون، ومعهم الباحثون المغاربيون الآخرون الذين كتبوا عن هذا الأدب باللغة الفرنسية، أمثال غني مراد، وكريستيان عاشور، وعبد الكبير الخطيبي، وألبير ميمي[504]، فهم يعدونه بدورهم "جزائريا "، أو "مغاربيا" - بحسب الموقف - ولا يتساءلون هم كذلك عن "جزائريته" أو "مغاربيته" إلا قليلا[505]، مع ما يمكن أن يحمله استعمالهم لهذا الوصف من قصد أو دلالة مغايرة [506]، كما استعملوا من جهتهم المصطلحات نفسها التي استعملها الباحثون الفرنسيون ، وخاصة مصطلح "الأدب الجزائري باللغة الفرنسية "، أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي

---

504 أغفلنا هنا تقديم أي تعريف بأصحاب هذه الأسماء، أو الإشارة إلى مؤلفاتهم، وذلك لكثرة ما تكررت أسماؤهم وعناوين مؤلفاتهم في بحثنا هذا.

505 منهم على الخصوص: علي مراد الذي عالجه في فصل خاص في ما أسماه "المشكلات المتضمنة" في هذا الأدب، وخص بالمعالجة: مشكلة "اختيار اللغة"، و"القومية الأدبية"، و"الجهوية والعالمية "، ولكنه اعتمد أساسا على استعراض وتأكيد ما قاله الكتاب المبدعون في هذا الصدد، وكذا فعل عبد الكبير الخطيبي في ما أسماه "البنى التحتية الأدبية والمشكلة اللغوية"، ولا نرى داعيا هنا لاستعراض ما قالاه، أو مناقشته لأنه لايشكل في الواقع إلا تكرارا وتأكيدا لوجهات نظر الكتاب في هذه المشكلات، وهي وجهات النظر التي سبق لنا أن استعرضناها وناقشناها في الصفحات السابقة. راجع:
Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française » , de la page 147 à 167.

506 كان يكون قصد الباحثين الفرنسيين من عدم اعتباره فرنسيا انطلاقا من عدم وجود صلة مباشرة له بالأدب الفرنسي إلا في لغته، فهو إذن غريب عنه، ويشبه في وضعه من هذه الناحية الأدب البلجيكي أو السويسري المكتوب بالفرنسية، في حين قد يكون قصد الجزائريين والمغاربة من نسبته إلى الجزائر أو بلاد المغرب، هو رفض الهيمنة والاحتواء الذي قد يشكله الأدب الفرنسي على هذا الأدب. راجع :
Abdelkabir Khatibi , « Le roman maghrébin » , de la page 31 à 41 .

"، وهو ما كرس بصفة نهائية تقريبا هذا الإسم، وجعله متداولا في الاستعمال اليومي في الصحف والنشريات وفي أحاديث الناس كلما تطرقوا إلى هذا الموضوع.

11 ـ تيار وسطي: هو أدب جزائري وليس أدبًا قوميا:

أما الباحثون باللغة العربية الذين تعرضوا لمناقشة هذا الموضوع، فينقسمون إلى اتجاهين رئيسيين: اتجاه ينكر الهوية العربية لهذا الأدب، بحكم اللغة التي كتب بها، ويرى أنه ((ليس ممكنا اعتبار رواياتهم (أي الكتاب) باللغة الفرنسية جزء من التراث الثقافي العربي)) [507]. ومن هؤلاء من ((وضع الكتَّاب الجزائريين في صف واحد مع الكتَّاب الفرنسيين الذين ولدوا هم أيضا على أرض الجزائر وعاشوا فيها)) [508]. ويستند أصحابه في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها، التي تلحق الأدب ـ مهما كانت جنسية كاتبه ـ بالأمة التي تتكلم اللغة التي كتب بها ذلك الأدب ، وتعده من أدبها القومي[509]. وهناك اتجاه آخر يذهب إلى العكس من هذا تماما، ويمثله أساسا الدارسون والمترجمون العرب الذين درسوا هذا الأدب، أو نقلوا بعض النصوص منه إلى اللغة العربية، وذلك حين يعدون ((هذا الأدب المغربي ليس من الأدب الفرنسي في شيء)) [510]. وإنما هو ((أدب جزائري بكل معنى

---

507 د. سيد حامد النساج "بانوراما الرواية العربية الحديثة "، دار المعارف بمصر 1980 ، ص187 .

508 د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، ص243.

509 راجع د. محمد غنيمي هلال "الأدب المقارن" ، ص9 .

510 د. سامي الدروبي، مقدمة ترجمته لثلاثية محمد ديب "الدار الكبيرة، الحريق، النول"، دار الطليعة ، بيروت 1968، ص5.

الكلمة..)) [511]. و((أدب وطني ملتزم (...) وقطعة من التراث المعرفي العربي)) [512]. وحينما ينقل إلى العربية إنما يعاد بذلك إلي "اللغة الأم" [513]. وقد ذهب باحث عربي من أصحاب هذا االاتجاه إلى إصدار بيان في هذا الصدد يدافع فيه عن "جزائرية" هذا الأدب [514]. وينتقد مدرسة الأدب المقارن الفرنسية في طروحاتها "الأورومركزية"، التي يرى أنه يحكمها "المنطق الاستعماري"، وهو المنطق الذي يؤدي إلى إلغائها لجنسية الأدب الجزائري "العربية" لتلحقه بالأدب الفرنسي[515].

وواضح في نظرنا أن كلا الاتجاهين يبالغ في إنكار هوية هذا الأدب العربية نكرانا كاملا، أوفي محاولة إثباتها بكل الوسائل والطرق، إما بدافع الحماس إلى العروبة،أو بدافع التعاطف مع القضية الجزائرية [516]. ففي الوقت الذي يختزل فيه أصحاب الاتجاه الأول المشكلة كلها في عامل اللغة وحدها، ويعدونها العامل الأساسي والحاسم في انتسابه إلى الأدب الفرنسي ويجدون في

---

511 د. نور سلمان "الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر"، دار العلم للملايين، بيروت 1981، المقدمة ص 15.

512 هذا رأي الباحث محمد أمين الزاوي في "الرواية الجزائرية ذات الرسم الفرنسي "، المقدمة ص ج .

513 ملكة أبيض العيسى، مقدمة ترجمتها لمسرحيتي "الجثة المطوقة " و "الأجداد يزدادون ضراوة"، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط2 ، 1979 ، ص15.

514 صاحب هذا البيان هو د. عز الدين المناصرة ، الأستاذ السابق بجامعات عنابة وقسنطينة وتلمسان، وهو بعنوان "بيان الأدب المقارن، إشكاليات الحدود". راجع النص الكامل للبيان المذكور في: "أعمال الملتقى الأول للمقارنين العرب الذي نظمه معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة، في الفترة ما بين 8 و12 جويلية 1984، حول موضوع "الأدب المقارن عند العرب، المصطلح والمنهج"، نشر ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1991، من ص 115 إلى ص138.

515 نفسه، ص121،120.

516 تشكل هذا الاتجاه أثناء الثورة الجزائرية المسلحة، ومثله أساسا المترجمون العرب الذين نقلوا نصوصا من هذا الأدب إلى اللغة العربية، كنوع من التعاطف مع كفاح الشعب الجزائري، ويبدو أن تعاطفهم هذا كان له بالغ الأثر في تشكيل رأيهم فيه.

مدرسة الأدب المقارن الفرنسية سندا لهم وحجة، يتجاهل أصحاب الاتجاه الثاني هذا العامل، ويسقطونه من حسابهم ليجعلوا منه "أدبا عربيا خالصا".

وهناك تيار وسطي يتحدث عما يسميه " الروح " الجزائرية، أو العربية التي كتب بها، ويلخصه هذا القول لإبراهيم الكيلاني: ((فهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعية التي يقوم عليها ماضي الشعب الجزائري وحاضره))[517].

ويقترب هذا الرأي الوسطي كثيرا من رأي بعض المفكرين والنقاد والمؤرخين الجزائريين المرموقين [518]، مثل محمد الميلي، الذي تحدث عن هذه " الروح " لدى "بعض" الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية ، هذه الروح التي استمدت أصالتها وعمقها في رأيه ((من تأثير البيئة التقليدية والأم الجزائرية (...) وتلك الروح (هي) التي جعلتهم ينجحون (أي الكتاب) في التخلص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية، ويعبرون عن رفضهم للاحتلال حتى باللغة الأجنبية))[519]، ومثل أبو القاسم سعد الله، الذي يميز بدقة بين وصف هذا الأدب بـ"الجزائري" ووصفه بـ "القومي"، أو الوطني[520]. ويرفض أن يوصف بهذه الصفة الأخيرة: ((فهو جزائري على أساس الأرض التي ولد فيها، ولكن

---

517 د. إبراهيم الكيلاني "أدباء من الجزائر"، سلسلة "اقرأ ، نشر دار المعارف بمصر، العدد 192. ديسمبر 1958، ص 28.

518 وتقترب أيضا، إن لم نقل تتفق تماما مع رأي بعض الكتاب أنفسهم، ولا سيما رأي مالك حداد . الذي قدمناه آنفا . حين تحدث في "الأصفار تدور في فراغ" عن الفارق الأساسي بين كتابات الجزائريين والفرنسيين.

519 محمد الميلي "فرانتز فانون والثورة الجزائرية " الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، الطبعة الأولى: بيروت/ لبنان 1973، ص50.

520 نلاحظ مرة أخرى أن لفظ قومي تؤدي هنا معنى: وطني. راجع الفصل الأول من هذا البحث، ص 7.

لا يمكن في نظري أيضا أن يقال عنه بأنه أدب قومي، إذا كنا نعني بالقومية الكيان الحضاري للأمة الذي تشكل اللغة قاعدة أساسية فيه)) [521]. وكذا عبد الله ركيبي الذي يميز بدوره بين الأدب الذي كتب في المرحلة الاستعمارية وبين الذي كتب بعد الاستقلال، ففي بحث له عن القصة القصيرة الجزائرية، يعود تاريخه إلى سنة 1967 [522]. كان قد أفرد فصلا لهذا اللون الأدبي الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، وعده أدبا جزائريا[523]. لكنه في كتابه الأخير " الفرانكوفونية مشرقا ومغربا "، ومع إصرار بعض الكتاب على اختيار الكتابة باللغة الفرنسية بعد استعادة الاستقلال، أو الاستمرار في الكتابة بها، وتجاهلهم لكل التغير الذي وقع في المجتمع الجزائري في العقود الثلاثة الماضية، نراه يتخذ موقفا آخر من هذا الأدب، ويعلل ما كان قد أصدره عنه من أحكام بقوله: ((قد تكون الأحكام السابقة خاضعة لظروف الكفاح الوطني التحرري، الذي كان في حاجة إلى كافة الأسلحة، ومنها القلم الوطني، والكلمة المناضلة الشريفة، بأية لغة كتبت، أما الآن فإن ما يكتب بهذه اللغة الأجنبية هو شذوذ عن القاعدة، وخروج عن الواقع الطبيعي المألوف، بل تحدٍّ سافر للتاريخ والثوابت)) [524].

ومن جهتنا ، نميل كثيرا إلى هذا الموقف الوسطي الذي لا يتجاهل التاريخ وملابساته، ولكنه لا يسقط من حسابه، في الوقت نفسه، الحقائق

521 د. أبو القاسم سعد الله " تجارب في الأدب والرحلة " المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 ص176.

522 د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، المقدمة، ص 7.

523 نفسه، الفصل المتعلق بالأدب الجزائري بالفرنسية، من ص 240 إلى ص273.

524 د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا"، ص 89 .

الأخرى. فالشيء الذي لا يمكن الاختلاف فيه أن هذا الأدب قد ولد على الأرض الجزائرية، بأقلام جزائرية، في ظروف استعمارية قاسية وغير طبيعية، في الوقت الذي كان فيه المحتلون يستعدون للاحتفال بمرور قرن من الزمن على استيلائهم على الجزائر، وقد شاء له المحتلون أن يكون شاهدا ودليلا على "ثمار" الرسالة الثقافية والحضارية التي ادعى الاستعمار أنه جاء لنشرها في الجزائر، وحققوا غرضهم الدعائي في أول الأمر [525]. لكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، وتحول هذا الأدب في مرحلة لاحقة - قبيل الثورة التحريرية المسلحة وأثناءها - إلى وسيلة نضالية للكفاح ضد المستعمر، وللتعريف بالقضية الجزائرية في العالم، وكل هذه الحيثيات تجعل من هذا الأدب أدبا "جزائريا "، سواء من حيث الولادة، أوالمحتوى، أو النسب[526].

لكن هذا لاينسينا، من جهة ثانية، بأنه كتب بلغة المستعمر، وأنه لم يكن كله أدبا نضاليا، ولا كله مشرفا لأصحابه [527]. كما أنه كتب لقارئ غير القارئ الجزائري، ومن جهة أخرى، فإن هناك من الجزائريين من يحاول اليوم أن يتخذ من الماضي النضالي لبعض الأدباء الجزائريين باللغة الفرنسية ذريعة

---

525 حققوا ذلك حينما وجدوا من الجزائريين من ساعدوهم في ذلك، وأشادوا في كتاباتهم وتصريحاتهم بـ"أفضال" الاستعمار على الجزائر، وبرسالته الحضارية والثقافية.

526 يتحدث محمد ديب في هذا الصدد عن غياب الأب بالنسبة لأدب الجزائريين باللغة الفرنسية، أما الأم فهي الجزائر الحاضرة في وجدان كل كاتب "مسلم "، ولذلك لا يعاني هذا الكاتب - حسب ما يرى ديب - من مشكلة الهوية مثل الكاتب اليهودي المنحدر من أصل جزائري، الذي تخلى عن جنسيته سنة 1871 بمقتضى قانون "كريميو" الشهير. (مقتطف من الحوار المشار إليه آنفا الذي أجرته إذاعة فرنسا الثقافية مع الكاتب في شهر مايو 1977).

527 احتفل بعض الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية - مثل عبد القادر حاج حمو، ومحمد ولد الشيخ - مع المستعمرين بمرور قرن على احتلالهم للجزائر، وألقوا خطبا بهذه المناسبة على المنابر الرسمية. راجع:
Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p18 .

للدفاع عن وجود هذه اللغة في الجزائر، وعن استمرار الكتابة بها، ومن ثمة تكريس الواقع الموروث من عهد الاستعمار، واعتبار الأدب المكتوب بالفرنسية في الجزائر أدبا وطنيا، على قدم المساواة مع الأدب المكتوب باللغة العربية. ومن الجزائريين أيضا من مازال إلى يومنا هذا يعد اللغة الفرنسية "غنيمة حرب" يجب الحفاظ عليها والاستفادة منها، بل، ويعد اللغة الفرنسية لغة وطنية، ويطالب بمساواتها دستوريا مع اللغة العربية [528]. وهذا ما يجعلنا نتعامل مع هذه المسألة بشيء من الحذر حتى لا نقع في الشطط، فنقول إنه لا يمكن بأية حال من الأحوال الفصل بين هذا الأدب وبين الظروف التاريخية التي صنعته، ومن هنا فهو بسلبياته وإيجابياته على السواء أدب جزائري، وهذا ما جعلنا نثبت له هذه الصفة في عنوان بحثنا هذا، ولكنه لا يمكن لنا بأية حال من الأحوال أن نعده أدبا قوميا، بحكم اللغة التي كتب بها، حيث أن الأدب القومي لا يكون بغير اللغة القومية، واستنادا إلى نص الدستور الجزائري، فإنه لا توجد هناك لغة وطنية رسمية للجزائر سوى اللغة العربية، وعليه، فإن حقيقة كون هذا الأدب مكتوبا باللغة الفرنسية، وهي لغة أجنبية في الجزائرمن الناحية الرسمية، يمنعه من أن يكون أدبا قوميا.

---

528 لقد شاعت هذه العبارة "اللغة الفرنسية غنيمة حرب" واستعملها بعض الأدباء في حواراتهم الصحافية، كما استعملها بعض الساسة ورؤساء الأحزاب الجزائريين، بحيث تصعب نسبتها إلى شخص بعينه. راجع في هذا الصدد: جريدة "السلام" الصادرة بتاريخ الثلاثاء 1991/01/01، عن موضوع: "المساواة بين العربية والفرنسية"، بقلم الزاوي العربي.

الفصل الرابع



الخمرة طريق لضياع الدنيا والدين

نتناول بالتحليل في هذا الفصل ثلاث روايات،تعود اثنتان منها إلى عقد العشرينيات، أما الثالثة فتعود إلى نهاية الأربعينيات، غير أنها تلتقي جميعها فى كونها تعالج موضوع تعاطى الخمرة،انطلاقا من خلفية فكرية واحدة هى الخلفية الإسلامية ،وتظهر ما ينجر عن إدمان الخمر من نتائج مدمرة على الأفراد والمجتمع على السواء.

كما تلتقي الروايات الثلاث، وإلى حد كبير، في كونها قريبة من بعضها بعضا من الناحية الفنية ، بتأثرها البارز بالرواية "الإثنوغرافية" الاستعمارية التي كانت رائجة في العشرينيات إلى غاية منتصف الخمسينيات من هذا القرن العشرين، حيث يولي هذا النوع من الرواية أهمية خاصة لرسم المحيط الاجتماعي، وتصوير العادات و التقاليد، وإبراز القيم الدينية والاجتماعية المتغلغلة في المجتمع، وتأثيرها في سلوك الناس وتصرفاتهم[529]

---

[529] راجع الفصل الثالث من هذا البحث بعنوان: أدب الجزائريين المكتوب بالفرنسية، إشكالية الانتماء والهوية ، ويمكن تلخيص أهم مميزات هذه الروايات من الناحية الفنية في النقاط التالية: 1 . الاحتفاء بإظهار الطابع المحلي من خلال وصف العادات و التقاليد. 2 . إدخال الكثير من الكلمات العربية في النسيج الروائي. 3 . إدخال بعض التعابير العربية، وترجمة معاني الأمثال الشعبية و الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية. 4 . عرض العلاقة بين الجزائريين والمستعمرين والأحكام المسبقة

وهذه الروايات حسب ترتيب ظهورها زمنيا هي: "زهراء امرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو التي ظهرت سنة 1925، و"مامون أو مشروع مثل أعلى" لشكري خوجه التي صدرت سنة 1928، و"لبيك" لمالك بن نبي التي نشرت سنة 1948.

تنطلق هذه الروايات الثلاث من فكرة مركزية واحدة تتمثل في أن المجتمع الجزائري كان يعاني من انتشار الآفات الاجتماعية التي يأتي الإدمان على الخمر في مقدمتها، لا لأن الخمرة هي الآفة الأخطر، ولكن لأنها الأكثر انتشارا من الآفات الأخرى كتدخين الحشيش، ولعب القمار، وممارسة البغاء. ومن خلال تطور السياق الروائي للأحداث، وتتبع أحوال الأبطال وهم ينحدرون شيئا فشيئا نحو الانهيار المادي والمعنوي بسبب الإدمان، يحاول هؤلاء الكتاب أن يبرزوا النتائج المدمرة لتلك الآفة على صحة الأفراد وعقولهم، وعلى تماسك الأسرة واستمرارها، وعلى قيم المجتمع الأخلاقية والدينية.

ويحمل هؤلاء الكتاب مسؤولية انتشار هذه الآفات، بشكل ضمني حينا، وصريح حينا آخر، للنظام الاستعماري الذي كان يبيح العديد منها، ويعُد تعاطيها أو ممارستها داخلا في باب الحرية الشخصية، ويتسامح في بعضها مثل

التي تحكم هذه العلاقة، بغرض إزالة سوء الفهم، ومحاولة التقريب بينهم . 5 . الحوارات الطويلة التي تتخلل النصوص، والشروح المسهبة لوجهة نظر المؤلف، أو لوجهة النظر الإسلامية (بالنسبة للمسلمين الجزائريين).

تدخين الحشيش وممارسة الدعارة، ومن ثمة يسهل الحصول عليها، وتتوفر أماكن وجودها مثل الحانات، ونوادي القمار، وأماكن اللهو، ومحلات البغاء[530].

ولا يعني هذا أنهم ينفون وجود تلك الآفات في المجتمع الجزائري قبل دخول الاستعمار، لكنها كانت محرمة شرعا وقانونا، ولا تمارس إلا في الخفاء، بعيدا عن أعين الناس ورقابة الدولة، بسبب خوف مرتكبها من إقامة الحد عليه، فلما جاء الاستعمار صارت تمارس علنا وبصفة قانونية، ومن هنا تأتي مسؤولية الاستعمار في نشرها وفي تحمل نتائجها.

ومن اهتمام بواكير هذا الأدب بمعالجة الآفات الاجتماعية من منطلقات فكرية إسلامية تتجلى لنا إحدى السمات المميزة لهذا الأدب التي تتمثل في توجهه منذ البداية، أي من مطلع عشرينيات القرن العشرين، توجها اجتماعيا نقديا و إصلاحيا، حتى و إن بدا في نقده مهادنا للاستعمار، ومنصرفا إلى تصوير الفولكلور المحلي أكثر من اللازم، وهو ما عابه عليه بعض النقاد وعدُّوه بسبب

---

[530] جاء ما يؤكد هذا القول في محاضرة الأمير خالد الشهيرة التي تحمل عنوان " وضعية مسلمي الجزائر" التي ألقاها بباريس في 12 و 19 جويلية 1924 أمام ما يزيد عن اثني عشر ألف شخص، ومنها قوله ((بدعوى عدم المساس بالحرية الشخصية المزيفة فإن الأخلاق قد تسيبت تماما، و أصبحت المومسات (فتيات في العاشرة من عمرهن) يتجولن في الشوارع بكل حرية، على مرآى من أعين بوليس الأخلاق اللامبالية، وغزيت الأحياء بالبيوت التي يقال لها "البيوت المفروشة" ، بالرغم من الاحتجاجات الشديدة للناس الشرفاء، كما أن المشروبات الروحية صارت تقدم بوفرة للأهالي في كل المقاهي و الحانات و المقاصف، بالرغم من القانون المتعلق بالسكر في الأماكن العمومية)).

Cf. << La situation des musulmans d'Algérie>> par l'Emir Khaled, in << L'Emir Khaled>>. Documents et témoignages , réunis et présentés par Mahfoud Kaddache, p 154.

ذلك خاليا من أي غرض سياسي أو رسالة اجتماعية[531]، والحقيقة أنه كان يحمل أغراضا سياسية، وأهدافا اجتماعية، وسيتبيّن لنا ذلك جليا من خلال استعراضنا لأحداث الروايات التي ظهرت في تلك الفترة، وتحليلنا للظروف السياسية التي أحاطت بها.

---

531 هذا رأي "جان ديجو" مثلا، حينما اختزله في قوله ((بأنه نوع من تعلم الإنشاء بلغة فرنسية خالية من الأخطاء اللغوية، برهن به أصحابه للفرنسيين أنه في مقدورهم أن يقولوا كلاما جميلا))، وبهذا تعلل الباحثة عايدة بامية ((لماذا لاتعتبر الفترة المبكرة الأولى ممثلة لبداية أدب جزائري حقيقي))، ويعبر باحثون آخرون عن هذا المعنى بتجاهلهم لهذا الأدب تجاهلا كاملا. يرجع رأي ديجو ويامية على التوالي في:

<< Situation de la littérature maghrébine de langue française > , p28 29 .

وفي "تطور الأدب القصصي الجزائري" ص 60.

1 زهراء امرأة المنجمي لعبدالقادر حاج حمو:

هذه الرواية لعبد القادر حاج حمو[*] ، وتحمل اسم بطلتها (أو بطلها) كما جرت العادة في عناوين معظم الروايات الإثنوغرافية، وتجري وقائعها بمدينة مليانة، في الوسط العمالي أساسا، وذلك في سنوات العشرينيات من القرن العشرين. ولأجل ذلك يحتل منجم الحديد الذي يقع في جبل "زكار" المشرف على المدينة موقعا رئيسيا في الرواية، لكن الإطار العام للأحداث لا يقف عند حدود المنجم وحده، فهو يتسع ليشمل أحياء المدينة الشعبية القديمة، وشوارعها الرئيسية وبعض معالمها المميزة، كالمسجد الجامع، وضريح العالم الصوفي "سيدي أحمد بن يوسف"، والحديقة العامة حيث تقام الحفلات، وكذا

---

[*] عبد القادر حاج حمو (1891 – 1953)، واسمه المستعار: عبد القادر فكري، من مواليد مدينة مليانة، من أسرة عريقة يرجع أصلها إلى مازونة بالغرب الجزائري، وإلى شيوخ الطرق بمدينة معسكر. وكان والده قاضيا بمليانة. خريج المدرسة الفرنسية الإسلامية، وحاصل منها على دبلوم الترجمة الشرعية. عين في بداية حياته المهنية كمدرس لمادة اللغة العربية في مؤسسة للتعليم الرسمي بـ "سانت أوجين" بالعاصمة (الرايس حميدو حاليا)، ثم عين كإمام للجامع الكبير بالعاصمة لمدة عشرين عاما، كان عضوا في الحركة الماسونية، ونائبا لرئيس "جمعية الكتاب الجزائريين" التي أنشأها المستوطنون الفرنسيون سنة 1921. ألقى كلمة باسم موظفي السلك الديني الرسمي من المسلمين، وكذا الكتاب الجزائريين المسلمين في الاحتفال الذي أقامه الفرنسيون سنة 1930 بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر. أصدر رواية "زهراء امرأة المنجمي " << Zohra, la femme du mineur >> سنة 1925 (في223 صفحة من القطع الصغير)، و"رفقاء الجنينة" (Les Compagnons du jardin) سنة 1933 (في 193 صفحة، من الحجم نفسه) ، وهو عبارة عن محاورات مطولة في شكل رسائل تبادلها مع زعيم "مدرسة المتحزئرين " " روبير راندو" حول مسائل مختلفة في الدين الإسلامي وعن المجتمع الجزائري. مصدر المعلومات في التعريف بالكتاب :

Jean Déjeux << Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française >>.
Christiane Achour, << Anthologie de la littérature algérienne de langue française >>.
Achour Chorfi, << Mémoire algérienne dictionnaire biographique >>.

المقاهي العربية، والحانات الأوروبية، والأحياء التي يسكنها المستوطنون الأوروبيون. كل ذلك في وصف حركي حي، وتصوير دقيق ومتنوع لمختلف أوجه الحياة اليومية للناس في العشرينيات من القرن الماضي.

وإذا كان اختيار الكاتب لهذا الإطار المكاني والوسط الاجتماعي يعود بالدرجة الأولى، في تظرنا، إلى كونهما مكانا ووسطا نموذجيين لتجميد أفكار الكاتب فيما أراد أن يعبر عنه، وهو انتشار الآفات الاجتماعية في المدينة، الذي نجم عن التحول الاقتصادي والاجتماعي فيها، فإن هناك عاملا آخر على قدر كبير من الأهمية في الاختيار، ألا وهو معرفة الكاتب الجيدة لليانة ومجتمعها، بحكم أنه ولد ونشأ في هذه المدينة، وشاهد بعينيه كل التحولات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية التي حدثت فيها في الربع الأول من القرن العشرين، فما عده ذلك كثيرا على رسم صورة حية ودقيقة عن تلك التحولات في قالب فني جيد، بالنظر إلى كون المؤلف أول كاتب جزائري يخوض تجربة الكتابة الروائية باللغة الفرنسية.

ونعتقد أن اختيار الكاتب للمكان كان موفقا، بالنظر إلى وجود منجم الحديد الذي أدخل تغييرا جذريا على حياة المدينة، وصار عامل استقطاب اليد العاملة من مختلف الأماكن، ولاسيما اليد العاملة الأوروبية، وهو ما أخرج المدينة من عزلتها التقليدية، وغير من طابعها الفلاحي، لتجمع بين الفلاحة وبين أحد مظاهر الصناعة، كما كان عامل تغيير في تركيبتها الاجتماعية التقليدية، لتتحول إلى خليط متعدد الأعراق والجنسيات، وهو ما شكل تهديدا حقيقيا

وخطيرا على هوية وثقافة سكانها الأصليين من جهة، وهوية المدينة نفسها من حيث طابعها العمراني من جهة أخرى، ويبدو لنا أن هذا الإحساس بالخطر لدى المؤلف، وخوفه على مصير مدينته، كان الدافع الرئيسي الذي حدا به إلى كتابة روايته قبل الدافع الفني، وهو ما يؤكد الغرض الاجتماعي والسياسي لدَى المؤلف.

1 ـ التحول الصناعي الذي جلب معه الآفات الاجتماعية

يحاول الكاتب منذ بداية الرواية أن يدخل القارئ في جو ذلك التحول الذي أفسد على الناس حياتهم، وغير من عاداتهم حين دخلت " الميكنة الحديثة" حياتهم (Le machinisme moderne)، فأصبحوا يستيقظون في عتمة الصباح الباكر، لا على صياح الديكة، ولكن على هدير محركات القطارات، وضجيج "الطراموبات" التي تنقل العمال إلى المنجم، وحركة السيارات في الشارع، فكانوا يستقبلون يومهم بسبب ذلك مشدودي الأعصاب، يلعنون تلك الآلات الحديثة التي أقلقت راحتهم[532]

لكن هذا الموقف من السكان الذي يبدو معاديا للميكنة و لمنتجات الحضارة الحديثة لا يرده الراوي ـ الذي يعبر بشكل واضح، من خلال السياق، عن وجهة نظر الكاتب ـ إلى ما أدخلته الميكنة من تغيير في عادات الناس، ولا إلى ما تسببه لهم من إزعاج لراحتهم، لأن ذلك يهون إذا ما قورن بالمنافع العظيمة

---

[532] << Zohra la femme du mineur>>, p12

التي تقدمها لهم الآلة، والخدمات الجليلة التي تضعها تحت تصرفهم - مع العلم أنها وضعت أصلا لفائدة المستوطنين ورفاهيتهم لا للجزائريين - وإنما يرده إلى التخوف من الآلة التي ترمز قبل كل شيء إلى قوة المحتل وتفوقه، ولذلك ((تصبح الآلة مذمومة حينما تستخدم كسلاح في يد الأقوى))[533]. وكذلك حينما تكون مجلبة لعادات تنجر عنها مفاسد اجتماعية وأخلاقية[534]، لاسيما أن هناك من الجزائريين أناسا من ذوي النفوس الضعيفة، يصفهم المؤلف بـ "المسلمين السيئين" ممن انساقوا في طريق تلك المفاسد، وغرقوا في حمأتها:

((ولم يكونوا يأخذون عن الأوروبيين إلا الموبقات، وأولها الكحول التي هي أشدها مقتا إلى النفس))[535]. والدليل على ذلك يتجسد في المنجم الذي هو رمز التصنيع، بما جلبه على المدينة من انتشار الخمارات، وشيوع مجال القمار، ووفود الأغراب عليها، وحدوث اعتداءات على النساء، فأفسدت هذه الخمارات الأوروبية الشباب، واستقطبت إليها العمال الفقراء من العرب الذين كانوا لا ينفضون عنها ليلا ولا نهارا، حتى في ساعات الصباح الأولى، حيث يصبحون على أقداح الصباح قبل توجههم إلى عملهم في المنجم، ويمسون على أكواب

---

[533] Ibid, p20

[534] تتعرض زهراء بطلة الرواية أثناء الاحتفال بالولي سيدي أحمد بن يوسف للمضايقة من أناس أغراب، و تكون مناسبة تعبر فيها النساء عن اقتناعهن أن المنجم هو سبب فساد الأخلاق و انتشار الزنا في المدينة. راجع الرواية ص143،144 .

[535] << Zohra ..>>, p16 .

الغبوق بعد رجوعهم منه، تاركين وراءهم الفرنكات القليلة التي تعبوا كثيرا من أجل الحصول عليها، ودفعوا مقابلها الكثير من الجهد و العرق[536]

ويعد أحمد الملياني، وهو أحد أبناء مليانة الأصلاء، المثال النموذجي لهؤلاء العمال الفقراء، والشبان الذين أفسدتهم الخمرة، وحطمت حياتهم الأسرية، وذهبت بصحتهم وعقولهم، وكان من قبل مثالا للاستقامة وحسن السلوك، يؤدي الصلوات في وقتها، ويقوم بواجباته الدينية الأخرى أحسن قيام، ويعيش مع زوجته زهراء التي كان يحبها و يرعاها حياة أسرية هانئة، رغم الفقر وقلة ما يقبضه من عمله في المنجم*.

وحيث أن الملياني هو بطل الرواية، والنموذج المثالي الذي أراد الكاتب أن يجسد عن طريقه أفكاره ورسالته الاجتماعية، فقد اعتنى عناية فائقة بتصوير مختلف المراحل التي مر بها هذا البطل في طريقه نحو الإدمان، منذ أن ارتشف القطرة الأولى إلى أن صار سكيرا مسلوب الإرادة، لا يستطيع الإقلاع عن الشرب حتى حين يريد ذلك. لكن الكاتب حرص قبل ذلك على أن يقدم للقارئ صورة وافية عن حياة الملياني الأولى، قبل أن ينزلق نحو الإدمان. حتى يستطيع أن يلمس من خلال ذلك التحول الكبير الذي حدث في حياة وسلوك هذا الرجل، بل إنه ، وإمعانا في إيهام القارئ بواقعية القصة وتاريخية شخصياته ــ وقد

---

[536] Ibid, p 15.

* يشير الكاتب في العديد من المرات إلى تفاوت الأجور بين العمال الأوروبيين و الجزائريين الذي يصل إلى ثلاثة أضعاف، راجع على سبيل المثال صفحات الرواية 16، 19، 30، 35 .

تكون حقيقية فعلا - يشير إلى تاريخ مولد الملياني وهو سنة 1880 م، وإلى أصله الأندلسي، ونشأته البورجوازية التي سمحت له أن ينال حظا من التعليم الأساسي، وإلى علو مقام أبيه وجده اللذين كانا يشغلان في عهد الحكم التركي منصب "قايد"**، ولكنهما فقدا بمجيء الاستعمار الفرنسي كل ما كانا يتمتعان به من الامتيازات، فلم يرث عنهما الإبن والحفيد إلا الفقر، ولم يشفع له شرف المُحتد، ولا علمه الذي أخذه على يد المفتي وإمام المسجد أن يكون أكثر من مجرد عامل بسيط في منجم الحديد.

وبالرغم من الفقر فقد كان الملياني في بداية عهده بالعمل في المنجم يعيش حياة سعيدة مع زوجته زهراء، يقوم من نومه على صوت أذان الفجر، فيتوضأ ويصلي، ويتناول فطوره الذي تكون زوجته قد أعدته له، ثم يتوجه إلى عمله، حاملا زاده، مودعا بدعوات الزوجة، وبنصائحها له بحسن التصرف مع رؤسائه في العمل، حتى يحافظ على مصدر رزقه[537]

وظل الملياني على هذه الحال إلى أن بدأ يعاشر بعض الأفراد من المجتمع الأوروبي، ممن كانوا يعملون معه في المنجم، وفي مقدمتهم "كريمتشي" رئيسه في العمل - وهو من أصل إيطالي - الذي ربطته به منذ أن حل بمليانة صداقة حميمة، لأنه، كما يصرح البطل، لم يكن يجرح مشاعره مثل أغلبية المستوطنين

** القايد هو ممثل السلطة و نائب الحاكم في شؤون الأهالي من سكان الريف، كان يعينه الحاكم التركي عادة من بين الأعيان الموالين للسلطة، وقد حافظ الاستعمار الفرنسي على هذا التقليد في إبقائه على المنصب، وفي إختياره لمن يشغله.

[537] << Zohra ..>>, pp 7-11 .

الأوروبيين، ولم يكن يشاركهم مواقفهم العنصرية تجاه العرب[538]، وكان كريمتشي ينطلق في تعامله مع الملياني من قناعاته السياسية قبل كل شيء، فقد كان ينتمي في أفكاره إلى اليسار الفوضوي الذي كان ثائرا على كل شيء في المجتمعات الأوروبية، من معتقدات وأوضاع اجتماعية[539]. ومن ذلك ثورته على طريقة تعامل تلك المجتمعات مع غير الأوروبيين من الأقوام الأخرى، لاسيما إذا كانوا من سكان المستعمرات. يضاف إلى هذا أنه كان حديث عهد بالإقامة في الجزائر، فلم يكن متعودا على تلك الممارسات العنصرية التي كان المستوطنون يتعاملون بها مع الجزائريين. غير أن كريمتشي هذا نفسه الذي فتح بيته للملياني، وأدخله الوسط الاجتماعي الأوروبي، وكان شفيعه في دخول حفلات المستوطنين الأوروبيين، هو الذي أثر عليه شيئا فشيئا، وجره إلى معاقرة الخمرة.

وقد حاول الملياني في بداية الأمر أن يقاوم تلك الضغوط المعنوية التي كان يمارسها عليه كريمتشي وأضرابه من المستوطنين، وكذا من بعض "المسلمين"* ،

---

[538] Ibid, p17.

[539] Ibid, p96.

*كان المستوطنون الفرنسيون حين يتحدثون عن الجزائريين يستعملون لفظ "المسلمين" أو "العرب" أو "الأهالي" بمعنى واحد، ولا يستعملون لفظ "الجزائريين" إلا قليلا، ويكون حينئذ متبوعا دائما بصفة "المسلمين"، ليميزوا بينهم و بين المستوطنين الأوروبيين، لأنهم كانوا يعدون أنفسهم جزائريين بدورهم – كما مر معنا من قبل – وقد قلدهم الجزائريون في الاستعمال كما نلاحظ هنا .

ومحاولاتهم إيهامه أن شرب الخمر من مظاهر التحضر[540]. وظل الملياني يقاوم طيلة عام بأكمله، ويرد كل دعوات صحبه، ولاسيما دعوات صديقه كريمتشي الذي كان يتردد على بيته كثيرا، وإغراءات زوجته "تيريز" التي كانت تعرض عليه الخمر في كل مرة مع الابتسامة والكلمات اللطيفة[541]. إلى أن ضعفت مقاومته مع الوقت، ورجحت لديه كفة الغواية والإغراء على كفة الوازع الديني والضغوط الاجتماعية المضادة، ووجد نفسه ذات يوم يحمل الكأس إلى فمه ويشربها لأول مرة .

2 ـ معاناة البطل من الضغوط النفسية والاجتماعية

وعن هذه اللحظة يتحدث الراوي فيصف حالة المليـاني بقولـه : ((**وعنـدما قرّب الكأس من شفتيه أول مرة، كانت يده ترتعش، وكان وجهـه شـاحبا، ولكنـه كان يبتسم لأولئك الذين كانوا ينظرون إليه ويدفعونه إلى الفساد. كان يريد أن يبرهن لهم أنه أيضا متحضر، حيث كان التحضـر في نظـر بعـض النـاس هـو شـرب الخمر**))[542].

لكن التغير الذي حدث في سلوك الملياني لم يحدث دفعة واحدة، وهذا ما يتلاءم مع الطبيعة البشرية، لاسيما إذا كانت الشخصية تعاني من الضغوط الاجتماعية والصراع النفسي، وهذا أيضا ما جعل تطور الحدث في الرواية مقنعا

---

[540] << Zohra ..>>, p.24

[541] Ibid, p51.

[542] Ibid, p24.

من الناحية الفنية، وقريبا من الواقع، فقد بدأ الملياني بالتهاون في تأدية الصلوات في أوقاتها، إذ كان يجمعها كلها ليؤديها في نهاية اليوم، ثم ترك الصلاة بعد ذلك ليكتفي بذكر اسم الله و تلاوة بعض الآيات القرآنية[543]. أما تأنيب الضمير فقد ظل يلازمه طوال الوقت، حتى بعد أن أدمن الخمرة وألف شربها كل يوم، وكانت تعتريه بسبب ذلك حالات ندم شديد، تتحول إلى صراع نفسي مؤلم، لاسيما حين يتذكر تلك الدروس التي أخذها عن المفتي، ونصائح إمام المسجد للشباب بالابتعاد عن "أم الخبائث"[544].

إلا أنه، وعوض أن يخرج من حالات الندم تلك بقرار حاسم يجعله يمتنع عن الشرب، كان على العكس من ذلك يفرط فيه، كمحاولة منه للتخلص من عذاب الضمير، ولكن عقله الباطن يظل صاحيا دوما، ويظل ضميره يعذبه حتى في نومه، وقد كانت تنتابه لأجل ذلك كوابيس مزعجة يصحو منها فزعا، ومن ذلك أنه رأى في نومه ذات ليلة أنه يقف بين يدي ربه يوم القيامة، فيحاسب على أفعاله، ويحكم عليه بدخول النار، وحينما تحس زوجته باضطرابه في نومه وتوقظه يحمد الله على أن ما رآه لم يكن إلا حلما[545].

وقد يخرج الملياني من حالاته تلك أحيانا وهو عاقد العزم على الامتناع عن الشرب، لكنه ما إن يلتقي بندمائه ممن تعوّد على الشرب معهم حتى تُشل

---

[543] << Zohra ..>>, , p50.

[544] Ibid, p37.

[545] Ibid p 51 .

إرادته، ويتراجع عن عزمه ((ويعلل نفسه بأنه لن يتجاوز كأسا واحدة، لكنه لا يخرج من الحانة إلا وهو يترنح من السكر))[546].

ومع الوقت بدأت آثار الشرب تؤثر تدريجيا على صحته، وتؤثر في سلوكه الاجتماعي، فبعد ستة أشهر من معاقرة الخمر بدأ يحس بالتعب الجسماني، وصار يبدو شارد الذهن، ومهموما، وأهمل زوجته وبيته، وراح سلوكه ينحرف عما كان عليه، وأصبح مباحا لديه كل ما كان يمنعه تدينه من فعله، فلم يعد يغض الطرف عند رؤية النساء كما كان يفعل من قبل، وأصبح لا يرى غضاضة في مصافحة الأوروبيات منهن، مثل زوجة كريمتتشي[547].

3 ـ شعور بالمهانة والعنصرية

غير أن حادثة وقعت له ذات يوم جعلته يفكر جديا في الإقلاع عن شرب الخمر، لا بدافع من الوازع الديني، ولا بفعل الضغط الاجتماعي المضاد، ولكن لأن الحادثة فتحت عينيه على حقيقة كان غافلا عنها، وإن لم يكن يجهلها، فقد اقتيد إلى السجن ذات ليلة، إثر شجار نشب بينه وبين صديقه كريمتتشي، بعد أن لعبت الخمرة برأسهما في سهرة عامة كان صديقه الإيطالي نفسه هو شفيعه في الدخول إليها، لأنها كانت سهرة مقصورة على الأوروبيين وحدهم، وفي السجن ضرب بالسياط، وقضى ليلته فيه لأول مرة في حياته [548]، وشعر

---

[546] Ibid, p 85.
[547] << Zohra ..>>, 24.
[548] Ibid,p 654

ليلتها شعورا عميقا بالظلم والمهانة، وبالتمييز العنصري، وعرف بالتجربة الملموسة ما معنى أن ينتمي الشخص إلى الأهالي المستعمَرين، أو إلى الأوروبيين المحتلين، وإلا لماذا يضرب ويهان، و يساق وحده إلى السجن، ولا يضرب الإيطالي ويسجن مثله ؟ لقد اكتفى رئيس فرقة الشرطة بسماع شكوى كريمتشي، ورفض حتى مجرد أن يستمع إلى دفاع الملياني عن نفسه، لأنه كان، كمعظم رجال الجهاز القمعي الاستعماري، يحمل فكرة مسبقة عن كل "العرب" **((فكل الأهالي أشرار، ونيتهم أن يلقوا بالفرنسيين، اليوم أو غدا، في البحر))**[549].

وكان له في السجن ما يكفي من الوقت لكي يصحو من سكره، و يفكر في وضعه الذي كان فيه، غير أن تفكيره لم يقده إلى اتخاذ موقف سياسي كما يمكن أن نتوقع، ولكن إلى اتخاذ قرار ذاتي، وموقف أخلاقي بعيد عن السياسة، وهذا ما يتفق مع الموقف المهادن للاستعمار الذي اشتهر به كتاب هذه الفترة - كما سبقت الإشارة - فقد حصر الملياني الموضوع كله في الخمر وحدها، فهي سبب هذا البلاء، ولولاها لما ضرب، و لما أهين، ولما وصل إلى السجن، ومن ثمة راح يقارن حاضره بماضيه، ويتذكر حين كان يعيش سعيدا مع زوجته، يؤدي واجباته الدينية، و يقوم بشؤونه الأسرية على أكمل وجه، ويتمتع باحترام الناس وتقديرهم. وبناء عليه عقد العزم على أن يتوب في هذه

---

549 << Zohra ..>>, p 65.

المرة توبة نصوحا، وأن يقلع عن الشرب نهائيا، ويقطع الصلة بينه وبين كريمتشي، وأن يتوقف عن العمل في المنجم، إذا لزم الأمر، رغم حاجته إليه[550].

غير أنه، ولسوء حظه، لم يتمكن في هذه المرة أيضا من أن يتوب ويستمر على ما عقد عليه العزم، فقد جاءه كريمتشي نفسه يسأل عنه في بيته، ويقول له إنه سامحه، وأنه هو الذي سعى لدى السلطات لإطلاق سراحه، ويدعوه بهذه المناسبة إلى شرب كأس تكون فاتحة عهد جديد في علاقتهما المستقبلية.

وكما هو متوقع، قابله الملياني في البداية بالرفض القاطع، ولكنه عاد فقبل العرض، مرغما، لأن كريمتشي هدده بمتابعته قضائيا، ومطالبته بغرامة مالية كبيرة للتعويض على اعتدائه عليه بالضرب، إن هو رفض دعوته*. وبذلك لم تدم توبة الملياني أكثر من ليلة واحدة، هي تلك الليلة التي قضاها في السجن[551].

وهكذا يستمر الملياني على هذه الحال في صراع مرير مع نفسه ومع محيطه الاجتماعي. ويأتي صراعه مع نفسه من إحساسه بالعجز الكامل - كما يصوره المؤلف - عن الامتناع عن شرب الخمر من جهة، واقتناعه من جهة أخرى أن ما يفعله إنما هو عمل يغضب الله، ويلحق به وبأسرته الضرر المادي والمعنوي،

---

[550] Ibid,p 72 .

* حتى وإن كان هذا التهديد غير مبرر من الناحية المنطقية أو الفنية، إذ ما مبرر إصراره على مصاحبة المليالي، وماذا يجنيه من إرغامه على شرب الخمر؟

[551] << Zohra ..>>, p 80, 81.

ويسيء إليه بين الأهل والجيران، ويحط من قيمته الاجتماعية بين الناس. أما صراعه مع محيطه الاجتماعي فيأتي من تلك الضغوط المعنوية التي كان يتعرض لها من أسرته الصغيرة، أو من الأقارب، أو من الجيران والأصدقاء والمعارف بصفة عامة، وتأتي في أشكال مختلفة، على حسب موقع الشخص منه، في شكل خصام وشجار، أو عتاب ولوم، أو نصائح ومواعظ، أو سخرية وتغامز عليه ممن يعرفونه معرفة سطحية، أو حتى في شكل ذكريات كتلك الأحاديث التي كان يحدثه بها صديقه السابق مدير المدرسة الأهلية، وهو فرنسي، أثناء النزهات التي كانا يقومان بها في غابات زكار، عن أضرار الخمر الصحية، ومآسيها الاجتماعية، وعن الأمثلة الحية من تلك المآسي التي عرف أصحابها معرفة شخصية[552]. بل إن الملياني كان يتعرض للضغط النفسي حتى من سماعه الأذان، فقد كان صوت المؤذن، كلما ارتفع يدعو المؤمنين إلى إحدى الصلوات الخمس، يذكره بتركه لصلاته[553] إلا أن ضغط المحيط الاجتماعي يأتي في المقام الأول من زوجته زهراء، التي كانت تقابله كلما عاد إلى البيت في آخر الليل

---

[552] Ibid, p67 ..

[553] الأذان حاضر باستمرار في هذه الرواية، في مختلف أوقات النهار: الفجر (ص 8، 69) ، المغرب (ص 42، 44)، العشاء (ص 97)، ويحرص المؤلف، من منطلق أن روايته موجهة للفرنسيين، على ترجمة كلمات الأذان حرفيا(ص 96) كما يحرص على توضيح وجهة النظر الإسلامية في مختلف القضايا الاجتماعية التي تتعرض لها الشخصيات في حواراتها المطولة التي يجريها على ألسنتها، ويدعم رأيه بالآيات القرآنية و الأحاديث النبوية.

بالخصام واللوم لتأخره خارج البيت، ولتبديد نقوده في الشرب، وإهماله لبيته، وتركها وحيدة، تعاني البؤس والحاجة[554].

وكانت زوجته تستعمل معه أحيانا أسلوب الملاينة واللطف، استجابة لنصائح عمتها عائشة، فتتوسل إليه، وترجوه أن يقلع عن شرب الخمر، كما كانت تدعو له في صلاتها[555]. ولم تترك وسيلة، تظنها مجدية في جعله يقلع عن شرب الخمر، إلا جربتها معه، ومن ذلك لجوءها للولي الصالح "سيدي أحمد بن يوسف"، تشفع له عنده، لعله يعيده - حسب اعتقادها - إلى الطريق الصواب[556].

كما كانت العجوز عائشة، عمة زهراء، تمارس بدورها على الملياني ضغطا معنويا قويا، رغم أسلوبها اللين والهادئ، فقد كانت امرأة حكيمة، شديدة التدين، تحاول دوما إصلاح ذات البين بين زهراء و بين زوجها بالتي هي أحسن، فتحث زهراء من جهة على الصبر، وعلى مساعدة زوجها في الخروج من محنته، وتنصح الملياني من جهة أخرى بالعناية بزوجته، وبضرورة الإقلاع عن شرب الخمر، لأنها - كما توضح له - تخرب البيوت، وتقضي على المحبة والوئام بين أفراد الأسرة، وتضر بالصحة، وتلجأ في نصائحها إلى مختلف الأساليب بقصد التأثر عليه. تقول له مثلا: ((**إن سني المتقدم يسمح لي أن**

---

[554] << Zohra ..>>, p 67 .
[555] Ibid, p 74, 75
[556] Ibid, p 77.

أنصحك وأقول لك: إن الخمر يصنع بالرجل ما يصنعه الجفاف بالنبتة، ولقد رأيت أكثر من واحد يموتون وهم في ريعان شبابهم، وعرفت منهم من قبل بنذالة، ومنهم متن انغمس في الشجار والسرقة...اذهب إلى المسجد فذاك هو الدواء.))[557].

غير أن هذه الضغوط النفسية والاجتماعية كلها لم تجد نفعا في حالة الملياني، فقد كان، بالرغم من اقتناعه الكامل بمضار الخمر، وبضرورة التخلي عنها، يبدو مسلوب الإرادة، مغلوبا على أمره، مستسلما لقدر لا فكاك منه، أو هكذا أراد له المؤلف أن يكون، حتى يعمق مأساته، ويجعل منه نموذجا مثاليا للمدمن على الخمر، ومن ثمة يكون عبرة لمن يعتبر، وهذه هي الرسالة الاجتماعية التي أراد المؤلف أن يوصلها إلى القارئ.

وكما يمكن أن نتوقع، فإن استمرار الملياني في تعاطي الكحول جعل حالته تتدهور أكثر فأكثر. وتزداد مع الأيام سوء على جميع المستويات: على المستوى المهني، والاجتماعي، والأسري، والصحي، فصار كثير الانقطاع عن عمله، منصرفا طوال يومه إلى الشراب. وقد اضطرته الحاجة إلى بيع أشياءه الخاصة، ثم إلى بيع أثاث البيت، وكان مستعدا لبيع قميصه ليسكر بثمنه[558].

---

557 << Zohra ..>>.p78.
558 Ibid, p.115.

وازدادت العلاقة سوء بينه وبين زهراء زوجته، فزاد إهماله لها، وصار يضربها، وقطع عنها مصروف البيت، وهو الشيء الذي اضطرها إلى العمل كخادمة في بيوت الناس، فكانت تمسح وتكنس، وتغسل وتخيط لهم الثياب لتوفر لقمة العيش لنفسها وله[559]

وتكرر مبيته في السجن بسبب السك[560]. ولم يعد يتورع عن قول أو فعل أي شيء، فكان إذا سكر يشتم الأجداد، ويسب كل المقدسات والأديان[561]، ولم يعد يصوم رمضان[562]، وساءت حالته الصحية، فأصيب بمرض السل[563]. وسكنت جسمه العلة سكنا مستديما، فظل يعاني من ذات الرئة و من آلام في الظهر والكليتين بقية أيامه[564]

4 ـ إغتيال كريمتشي واتهام الملياني بقتله

وطوال عامين كاملين لم يكن هناك ما يدل على أن شيئا ما سيتغير في حياته هذه، إلا استمراره في تدمير ذاته، والانحدار نحو الأسوأ فالأسوأ إلى النهاية المحتومة. لولا وقوع حادثتين هامتين كان لهما الأثر القوي و المباشر في مجرى حياته، تمثلت الأولى في مرض زوجته زهراء ووفاتها المفاجئة، وهي دون

---

[559] << Zohra ..>>, p 120.
[560] Ibid, p 124.
[561] Ibid, p 152.
[562] Ibid, p 183.
[563] Ibid, p 195
[564] Ibid, p 221

الثلاثين من العمر[565]، وتمثلت الحادثة الثانية في اغتيال صديقه كريمتشي ذات ليلة، أثناء تفقده، على غير عادته، ورشات المنجم، فوجهت إليه تهمة قتله، بالتواطؤ مع تيريز زوجة القتيل التي اتهمت بوجود علاقة غرامية بينها وبين الملياني كانت الدافع لارتكاب الجريمة.

أما الحقيقة في اغتيال كريمتشي فكانت بعيدة كل البعد عن الملياني وتيريز، وعن أية علاقة غرامية فعلية أو وهمية بينه وبينها، فاغتيال كريمتشي يرجع لأسباب ثأرية قديمة تتعلق بماضي كريمتشي في بلده الأصلي ايطاليا، وقد أفضى ذات يوم لصديقة الملياني بسره، وكشف له شيئا من ماضيه، بعد أن وثق به وأصبح صديقه الذي كان يحلم بوجوده[566]. فذكر له أن اسمه الحقيقي هو "طاريتشيسو"، وهو اسم عائلته، وأنه نزل بالجزائر ليس بدافع البحث عن لقمة العيش، أو الطمع في الثروة مثل معظم المهاجرين الذين نزلوا بها، لأنه في الحقيقة ينتمي إلى عائلة ميسورة الحال هي عائلة "طاريتشيسو"، وكان والده نائبا في البرلمان الإيطالي، قبل أن يقتل غيلة من قِبَل أحد منافسيه السياسيين يدعى "فاكالدي"، الشيء الذي ألزمه - كما جرت العادة في بلده - أن يأخذ له بثأره و يقتل قاتله[567]، وحيث أنه كان يعرف أن أهل المقتول سيأخذون

---

565 Ibid. p. 180,176 .

566 << Zohra ..>>, p176 .

567 لم يرد في الرواية ما يشير إلى مكان معين في إيطاليا جرت فيه هذه الحوادث، ولكن ينصرف ذهن القارئ، من خلال السباق، إلى جنوب إيطاليا حيث تنتشر عادة جرائم الثأر.

ثأرهم منه،أشاع بين الناس أنه سيهاجر إلى العالم الجديد (أمريكا)، ثم رحل خفية إلى تونس، ومنها إلى عنابة، وبعد أن أقام بها خمس سنوات، أحس فيما يبدو أن غرماءه في الثأر قد اقتفوا أثره وعرفوا مكانه، ففر أولا نحو الجزائر العاصمة، وبعدها جاء إلى مليانة التي كان ينوي أن يجعل منها مجرد محطة في طريقه إلى المغرب الأقصى، لكن المدينة أعجبته فقرر الإقامة بها، وفيها عرف باسمه المستعار "كريمتشي"، وفي فترة الأربع سنوات التي قضاها من عمره في مليانة تعرف على تيريز، وهي إسبانية الأصل، وتزوجها[568].

والواقع أن الرواية لا تتضمن أية تفاصيل، حتى مجرد إشارات إلى الكيفية التي عثر بها أصحاب الثأر على مكان كريمتشي أو "طاريتشيسو"، بل لا يوجد هناك أي كلام صريح يتحدث عن حلول أشخاص غرباء نزلوا حديثا بمليانة، أو ترصد أي كان لحركاته، أو عما إذا كان المغتال قد أحس بوجودهم. حتى ما تعلق بالطلق الناري الذي أطلقه الملياني كان غامضا، فهو في الواقع لم يشاهد أحدا، وإنما أحس بوجود حركة غير عادية في الورشة ظنها للصوص، وقد تكون حركة كريمتشي نفسه، أو تيريز قبل أن تلتحق به. وكذلك تيريز التي لم تشاهد أحدا، ولم تسمع شيئا، باستثناء ذلك الطلق الناري الذي أطلقه المليانى من بندقية كريمتشي بحضورها. ويزيد الأمر غموضا أن الملياني كان سكران، أي أنه لم يكن في كامل وعيه، ولا كانت حواسه في كامل يقظتها، كما كان الظلام

---

[568] << Zohra ..>>, p 213.

في تلك الليلة دامسا، والأحوال الجوية رديئة، وكان الثلج يتساقط، وكل ذلك لم يكن يساعد على الرؤية أو السماع الجيد[569].

وبالرغم من تضافر الظروف ضد الملياني، وعملها كلها على إدانته، فقد جاء الحكم عليه مخففا على غير المتوقع، وهو السجن مع الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات[570]. لاسيما أن الأمر يتعلق بمقتل رجل أوروبي على يد شخص من الأهالي، الشيء الذي لم يكن جهاز القضاء الاستعماري ليتساهل فيه. ولكن يبدو أن الغموض الذي اكتنف الجريمة، وغياب الدليل المادي القاطع الذي يدين الملياني، وكذا الاشتراك المفترض لزوجة القتيل في الجريمة، وهي أوروبية، كانت في صالح المتهم، وعملت على تخفيف الحكم عليه. أما تيريز نفسها فقد حكم عليها بسنة واحدة سجنا لا أكثر.

وبالطبع، كان الدرس قاسيا بالنسبة للملياني، فقد كلفه الإدمان على الخمر ثمنا غاليا، وأكبر ثمن دفعه هو فقدانه لزهراء زوجته التي ماتت في ظروف قاسية كان هو المتسبب فيها، وقد ظل ضميره يعذبه باستمرار لأجلها، ويشعره أنها لم تمت بتأثير المرض على جسمها ولكنه هو الذي قتلها، كما دفع الثمن من صحته التي اعتلت، وشبابه الذي ذهب، واحتاج في آخر الأمر إلى أن يدفع خمس سنوات من عمره في السجن لكي يقلع - مرغما - عن الخمر. لهذا كله،

---

569 << Zohra ..>>, p 206.

570 Ibid, p 215.

وبمجرد أن خرج من السجن، قرر أن يهاجر بعيدا عن مدينة مليانة، ويبتعد عن كل ما يذكره بماضيه فيها، فقصد بلاد المغرب الأقصى، حيث فتح مطعما صغيرا يعيش منه هناك، وسمَّى نفسه المنسي[571].

رواية "مامون أو مشروع مثل أعلى" لشكري خوجة

هذه الرواية لشكري خوجة *، وتستمد عنوانها الرئيسي من اسم بطلها "ممون" **، كما جرت العادة في الروايات الإثنوغرافية، ولكن المؤلف لا يكتفي بالاسم وحده ويردفه بعنوان فرعي يكشف من خلاله عن مضمون الرواية، حيث يعطي البطل في حد ذاته صفة مشروع مثل أعلى، وهو ما يمكن أن يفهم من السياق العام للرواية بمعنيين، معنى مباشر وخاص يتعلق بالقايد

---

[571] << Zohra ..>>, p 220.

* شكري خوجا (1891-1967)، وإسمه الحقيقي و الكامل حسن حمدان، أما "شكري" فهو إسم مستعار، ولد بالجزائر العاصمة، ينحدر من أسرة متعلمة تشتغل بالتجارة وكان جده رئيسا لمحكمة الإستئناف بالعاصمة، خريج المدرسة الفرنسية الإسلامية، وحاصل منها على دبلوم في الترجمة الشرعية، كما حصل على دبلوم في اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1910. اشتغل في سلك القضاء بتابلاط والمدية، قبل أن يستقر في البليدة، و أنشأ جمعية خيرية بالمدية بالاشتراك مع مفتي المدينة، وجمعية ثقافية بالبليدة. وكان صديقا لعبد القادر حاج حمو ، لكنه كان قليل المشاركة في التظاهرات الأدبية. أصدر روايتين هما: "مامون" << Mamoun, l'ébauche d'un idéal >> سنة 1928 (184 صفحة، قطع صغير)، والعلج أسير بربروسيا << El-Euldj, Captif des Barbaresques >> سنة 1929 (137 صفحة، قطع صغير)، ونال على روايته الأخيرة هذه جائزة الفنانين الأفارقة. تذكر إحدى الروايات أنه أصيب قبل وفاته بانهيار عصبي مزق على إثره كل ما كان يحتفظ به من أوراقه الخاصة و مخطوطاته الأدبية.

** أصل الاسم العربي "مامون" (بالهمز)، ولكننا آثرنا أن نتركه مخففا (بدون همزة) مثلما ينطق بالعامية، وأيضا مثلما كتبه صاحبه بالحروف اللاتينية، ومكتفي في دراستنا بهذا العنوان الأول، وذلك لطول العنوان الفرعي و ثقله عند الترجمة.

بودربالة والد البطل الذي علق آمالا كبيرة على ابنه، وبعث به إلى مدرسة فرنسية داخلية بالعاصمة، وأنفق على تعليمه بسخاء لكي يكون طبيبا أو محاميا يفتخر به ويزيده مالا وجاها، ولكن الولد خيب آماله، وأفشل مشروعه في نهاية الأمر، ومعنى عام وغير مباشر وهو التعبير عن مدى البون الشاسع بين "المثل الأعلى" للثقافة والتطور والتحضر الذي كانت المدرسة الفرنسية تبشر به، وتهدف إلى تحقيقه من تعليم النخبة من أبناء الجزائريين، وواقع تلك النخبة المخيب للآمال، من خلال نموذج بطل الرواية الذي هو ثمرة مباشرة من ثمرات تلك المدرسة، والذي لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يعد "مثلا أعلى"، أو رمزا للتطور والتحضر وهو يعاني من كل ذلك التمزق في الشخصية، وتلك البلبلة الفكرية، والقلق النفسي، والحيرة الروحية.

والشيء المؤكد أن الكاتب أراد أن يقدم من خلال روايته نموذجا معبرا عن فئة المثقفين الجزائريين خريجي مدرسة الاحتلال في الجزائر، وكان هؤلاء المثقفون في غالبيتهم العظمى من أبناء القياد، والأغوات، والموظفين، والأعيان، وكبار ملاك الأرض، والمتعاونين مع الإدارة الاستعمارية بصفة عامة، ممن أتيحت لهم فرصة التعلم العصري الحديث دون غيرهم من بقية فئات الشعب الجزائري، وقد تمكن بعضهم من أن يصبحوا أطباء و محامين وصيادلة وأساتذة ومعلمين وموظفين في الإدارة، بل أصبح بعضهم ضباطا في الجيش الفرنسي. وكانوا في معظمهم، بحكم تخرجهم من مدرسة الاحتلال، متأثرين بالثقافة الفرنسية، وبالذوق الفرنسي، ومعجبين، بدرجات متفاوتة، بالحضارة الأوروبية

الحديثة، ولأجل ذلك أصبحوا يعرفون بعد الحرب العالمية الأولى باسم "المتطورين" (les évolués) أو "الإندماجيين" (Les assimilationnistes)، ويشير كلا الاسمين إلى المرتكزين الرئيسيين لفكر وأيديولوجية هذه الفئة، وهما تبني الحضارة الغربية الحديثة روحا ومظهرا، من جهة[572]، والدعوة إلى دمج الجزائر وشعبها في فرنسا والمجتمع الفرنسي من جهة ثانية[573]. وهذه الفكرة الأخيرة هي في الواقع فكرة فرنسية أصلا، ظهرت إلى الوجود بعد أن فشلت كل مخططات الاستعمار في إبادة الشعب الجزائري أو تنصيره، وجاءت كمحاولة أخيرة للقضاء على هوية هذا الشعب وتذويبه في الشعب الفرنسي*، وقد وجدت لها صدى وقبولا حسنا لدى النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية. غير أنه من الضروري أن نوضح أن أفراد هذه النخبة لم يكونوا كلهم على درجة واحدة من الإعجاب بالثقافة الفرنسية، والحضارة الغربية، كما لم يكونوا على اتفاق في فهم الاندماج، ولا على الغرض منه، وهم ينقسمون لأجل ذلك إلى فريقين:

---

572 على طريقة كمال أتاتورك، حيث كان تأثرهم به قويا، ويبدو واضحا حتى في التسمية التي أطلقوها على شبه الهيئة السياسية كي تجمعوا تحتها وعرفت باسم الجزائر الفتاة . راجع: د. يحي بوعزيز الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال مدرسة (1912-1948) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، ص 23 .

573 المرجع نفسه ، ص21 .

*وقد بينا ذلك بشيء من التفصيل في الفصل الأول من هذا البحث.

1 ـ الاندماجيون فريقان: متطرف ومعتدل

أولا: فريق يدعو إلى الاندماج الكلي في فرنسا أرضا وشعبا، وبلا قيد أو شرط، بما في ذلك استعدادهم للتخلي عن العقيدة الإسلامية نفسها، وأبرز وجوه هذا الفريق كانوا من خريجي مدرسة "دار المعلمين" بحي بوزريعة[574]. وكانت جريدة "صوت المستضعفين" << La voix des humbles >> التي أسسها أحد أشهر زعمائهم، تمثل لسان حالهم، والمعبر عن آرائهم[575]. هؤلاء في الواقع كانوا قلة القلة، وقد لقيت دعوتهم معارضة شديدة من الجزائريين ومن المستوطنين الأوروبيين على السواء، رفضها الجزائريون لأنهم لم يكونوا مستعدين للتفريط في هويتهم وعقيدتهم بأي ثمن، ورفضها المستوطنون لأنهم لا يريدون أن يفقدوا امتيازاتهم التي يتمتعون بها بقبولهم مبدأ المساواة مع الجزائريين[576].

ثانيا: فريق ينادي بالأخذ بأسباب الحضارة الحديثة و التقدم العلمي، دون الذوبان فيها، أو التنكر للحضارة العربية الإسلامية، ويدعو إلى الاندماج في الشعب الفرنسي مع ضرورة الاحتفاظ للمسلم بقانون الأحوال الشخصية الخاص به (Le statut personnel) لأن الاندماج من وجهة نظرهم لم يكن هدفا في حد

---

[574] Nadya Bouzar Kasbadji, présentation des deux romans de Chukri <<Mamoun>> et << El-Euldj>> p14.

[575] المقصود بزعيمهم هو المدعو السيد الزناتي الذي يصفه أحمد توفيق المدني في "كتاب الجزائر" بأنه كان ((أكبر داعية للتجنس في القطر الجزائري))، راجع الكتاب المذكور ص 329.

[576] المرجع نفسه ص 329.

ذاته مثل ما كان يسعى إليه الفريق الأول، ولكنه كان يهدف إلى تحقيق المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأقلية الأوروبية من المستوطنين، وقد ظل مطلب المساواة هذا يتكرر لديهم في كل المناسبات، ويأتي في مقدمة مطالبهم الأخرى[577].

برزت فئة المتطورين أو الاندماجيين هذه بعد الحرب العالمية الأولى بشكل خاص، ووجدت في جو الانفراج الدولي الذي أعقب هذه الحرب، وفي إصلاحات 4 فبراير 1919 التي أدخلتها الحكومة الفرنسية على سياستها في الجزائر فرصة للتعبير عن نفسها، وعن مطالبه السياسية، وتطلعها نحو الاضطلاع بدور فعال ونشيط في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلد، وقد عبرت عن كل ذلك عن طريق خوضها للانتخابات المحلية بالدرجة الأولى*، ثم عن طريق الصحافة والأنشطة الثقافية والرياضية والفنية بوجه عام[578]، وتمكنت بالفعل من الحصول على بعض المكاسب السياسية، كما برز من بين صفوفها زعماء سياسيون بدرجات متفاوتة الأهمية وقوة التأثير**.

---

[577] راجع د. يحي بوعزيز، "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية..." ص 33.

* مثل تلك الإنتخابات التي جرت في سنة1919 ، و 1922، و 1924 إلخ .

[578] يقدم الدكتور يحي بوعزيز تلخيصا وافيا عن هذه الأنشطة، ويذكر أسماء العديد من النوادي والصحف التي أنشأوها. راجع: الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية ص12 و 13

** مثل الأمير خالد، وفرحات عباس، و الدكتور بن جلول.

وبالطبع، كان كاتب رواية "مامون" نفسه أحد ممثلي هذه النخبة، وكان ينتمي فكريا إلى الفريق الثاني الذي يمكن أن نطلق عليه اسم فريق الاندماجيين "المعتدلين"[579]، وهم يختلفون في تعليمهم وتكوينهم الثقافي عن الفريق الأول، أي فريق المغالين في الدعوة إلى الاندماج، وهو ما يفسر في نظرنا اختلافهم في الأفكار والمواقف السياسية، حيث كان هؤلاء المعتدلون متشبعين، بحكم تعلمهم في "المدرسة الفرنسية الإسلامية" التي تخرجوا منها، بالثقافة العربية الإسلامية، ومتمكنين من اللغة العربية بشكل جيد، إلى جانب امتلاكهم اللغة الفرنسية وثقافتها. وقد شغل الكثير منهم وظائف لها علاقة مباشرة باللغة للعربية، أو بالدين الإسلامي، كتدريس اللغة العربية في الثانويات، أو شغل وظيفة القضاء في محاكم الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين، أو وظيفة الإفتاء، أو الترجمة الشرعية، وكلها وظائف تتطلب تكوينا عاليا في اللغة العربية وفي علوم الشريعة الإسلامية، في حين كان تكوين خريجي "دار المعلمين" مقصورا على اللغة والثقافة الفرنسيتين، ولذلك يبدو لنا أنهم كانوا يصدرون في مواقفهم المتطرفة عن جهل باللغة والثقافة العربيتين وبالعقيدة الإسلامية أكثر مما كانوا يصدرون عن وضوح في الرؤية ووعي كامل بخطورة ما كانوا يدعون إليه.

---

579 أطلقنا عليهم هذه الصفة من وصف المؤرخ الجزائري الدكتور أبو القاسم سعد لبرنامجهم السياسي بأنه ((كان برنامجا معتدلا))، لكنه يطلق عليهم اسم الليبراليين. راجع د. سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ج2 ص 375.

وكان شكري خوجة واحدا من النخبة المثقفة التي كانت تتحاور حول هذه المسألة التي شغلت كل المثقفين الجزائريين والزعماء السياسيين على السواء، طيلة سنوات العشرينيات و الثلاثينات من القرن العشرين، وأسالت الكثير من الحبر. وعلى غرار صديقه عبد القادر حاج حمو، وجد شكري خوجة في فن الرواية وسيلة مثلى للتعبير عن أفكاره وآرائه في هذا الموضوع الشائك، وفي هذا السياق كتب روايتيه " مامون أو مشروع مثل أعلى"،و "العلج، أو أسير البرابر" التي سنتناولها بالبحث في الفصل اللاحق.

تجري حوادث رواية "مامون"، في سنوات العشرينيات كما ذكرنا آنفا، وهي تلتقي من هذه الناحية مع رواية "زهراء" لحاج حمو، حيث اجتهد الكاتب في نقل صور ومواقف شتى من حياة الناس، وأوضاعهم الاجتماعية، وانشغالاتهم السياسية والثقافية، في ظل حكم أجنبي محتل، كان يتهيأ في تلك الفترة للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال البلد. أما من حيث المكان فتدور أساسا في مدينة الجزائر، وتحاول أن ترسم صورة للعاصمة، في قسمها الأوروبي على الخصوص، كما كانت في الفترة المشار إليها، بشوارعها الواسعة، وحدائقها الغناء، ومطاعمها الراقية، ومنتزهاتها البديعة، وأماكن اللهو والتسلية فيها التي فصلت كلها على مقاس المحتلين، وهيئت خصيصا لهم، لينعموا بالعيش فيها، ويستمتعوا بجمالها.

وهناك جزء صغير من أحداث الرواية يدور في المناطق الريفية بسهل الشلف، وبالضبط عند ملتقى وادي الفضة بنهر الشلف، حيث ولد ونشأ "مامون" بطل

الرواية، وهي أحداث تعكس، على قلتها، صورة وافية عن حياة الفلاحين الجزائريين البائسة، ومعاناتهم المتعددة الأوجه، من الفقر المدقع، والجهل، والمرض، وطغيان المستعمرين، واستبداد أعوان السلطة المحتلة في تعاملهم معهم، من أمثال القايد بودربالة والد البطل وأضرابه الذين كانوا يرهقون كاهلهم بمختلف أنواع الأتاوات والغرامات، ويسلطون عليهم أقسى أنواع العقوبات وأعمال السخرة لأتفه الأسباب.

2 ـ المدرسة الفرنسية طريق التحول:

اختزل الكاتب طفولة البطل "مامون" ونشأته في صفحات قليلة، بالقدر الذي يسمح للقارئ بأخذ صورة عامة عن وضعه كإبن وحيد للقايد بودربالة ـ الذي سيتزوج من امرأة ثانية فيما بعد وتنجب له ولدا آخر ـ وعن أمه "حداهم"، وأبيه القايد المتسلط الذي يرهبه كل الناس، وأعطى أهمية أكثر لرسم الإطار الطبيعي الجميل الذي ترعرع فيه البطل، والبيئة الريفية الفلاحية التي عاش فيها طفولته، ووقدم مشاهد صغيرة من حياة الفلاحين وهم يقومون بأعمالهم اليومية العادية في مزرعة بودربالة، مع بعض اللقطات السريعة عن سلوك هذا الرجل وهو يراقب الكل، ويأمر وينهى، ويعاقب أحيانا، لينتقل بصورة مفاجئة إلى الحديث عن قرار القايد بودربالة بإرسال ابنه مامون إلى العاصمة للدراسة، عملا بنصيحة صديقه القايد "التلي" التي رأى أنها الرأي الأصوب من بين العديد من الآراء والنصائح التي أشار بها عليه أصدقاؤه ومعارفه.

وقد نظر القايد بودربالة إلى مسألة تعليم ابنه نظرة مادية محضة، فجعل هدفه من إدخال ابنه إلى المدرسة الفرنسية أن يتخرج محاميا أو طبيبا، والمحاماة كانت في نظره أفضل، لأن معرفته العميقة بأبناء جلدته من العرب رجحت عنده هذا الاختيار، فهم في غالب الأحيان - كما فكر - لا يذهبون إلى الطبيب ليشكوا له علتهم الجسدية، ولكنهم غالبا ما يذهبون إلى المحامي ليفضوا له بخلافاتهم ويقصُّوا عليه خصوماتهم[580].

ويختزل الكاتب المراحل مرة أخرى، فلا يقدم أية تفاصيل عن دراسة مامون الابتدائية في القرية، أو بعد انتقاله إلى المدرسة الداخلية بالعاصمة، باستثناء إشارة عابرة إلى المدرسة القرآنية التي دخلها وهو في الخامسة من عمره، وقد كانت الإشارة مناسَبة لنقد هذه المدرسة ومبررا للقايد ليبعد ابنه عنها، أكثر مما كانت مناسَبة لإعلام القارئ عن المرحلة التي بلغها الطفل في تعليمه، فالتعليم القرآني، كما جاء في الرواية، يجري على الطريقة التقليدية المتخلفة، ويفتقر إلى القواعد التربوية السليمة، حيث يجلس الأطفال طوال النهار جلسة غير مريحة على الحصير، ويقتصر تعليمهم على تعذيب الذاكرة بالحفظ، وترديد الآيات القرآنية دون فهم لمضمونها[581].

---

580 << Mamoun ..>>, p 28 .
581 Ibid, p 16 , 17.

وينتقل الكاتب بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن بلوغ مامون المرحلة الثانوية، مغفلا الحديث تماما عن المرحلتين السابقتين الابتدائية والمتوسطة في المدرسة الداخلية، وحتى المرحلة الثانوية ذاتها لم يقدم عنها أية تفاصيل تفيد القارئ بنوعية التعليم الذي كان يقدم، ومضمون البرامج، أو نظام العمل، أو تعامل المحيط الإنساني من إدارة وأساتذة مع أبناء الأهالي، أو نظرة زملائهم التلاميذ من أبناء المستوطنين إليهم، بما يسمح بإعطاء خلفية واضحة عن التكوين الفكري والثقافي والعلمي الذي تلقاه البطل في الثانوية. كل ما نجده من ذلك إشارات سريعة ومبتسرة، لا تفيد كثيرا في إظهار الخلفية المشار إليها أعلاه، مثل قوله: إن النظام كان صارما داخل الثانوية، وأن مدير الثانوية – القادم من فرنسا مباشرة – كان دائما عادلا ولا يحمل أفكارا مسبقة، وأن مامون كان يضيق بالدروس، ولاسيما دروس العلوم والرياضيات ...الخ[582].

ولعل أهم شيء يلفت النظر في هذا الصدد يتمثل في إشارته إلى بلوغه سن الثامنة عشر[583]. وهو ما يفيد أنه أصبح رجلا، وكأن الكاتب يريد بهذا أن يختصر المراحل، ويتعجل للوصول إلى هدفه، وهو إخراج مامون من الوسط الدراسي الضيق إلى الحياة العامة في العاصمة التي كانت تعج بمختلف الملهيات والمغريات التي كان مامون قد تهيأ لها نفسيا، وتعوَّد على شيء منها داخل الثانوية، وهي الملهيات والمغريات التي ستقوده نحو التمرد على التقاليد،

---

[582] << Mamoun ..>>, p 34.
[583] Ibid, p32

والانغماس في الملذات بكل أنواعها، وإدمان الخمرة، واعتلال الصحة، والتمزق النفسي والفكري.

3ـ الثانوية طريق الانفتاح على المفاسد:

وبالفعل، فقد تحرر مامون من قيود النظام في الثانوية، فاستأجر له غرفة خاصة في عمارة، وأصبح يرتاد المقاهي والحانات، ويشرب الخمر، ويعاشر المومسات، ويقيم الولائم في المطاعم الفاخرة لزملائه في الدراسة، وأصدقائه من الفرنسيين. وقد تطور به الأمر في وقت لاحق إلى زيارة البيوت الخاصة، وتعاطي الحشيش. كل ذلك بفضل المال الذي كان يغدقه عليه والده القايد بلا حساب، على أمل أن يرى ابنه في يوم من الأيام محاميا أو طبيبا، وهو الأمل الذي طالما داعب خياله، وهون عليه كل تضحية في سبيل ولده.

لكن يبقى السؤال الملح هنا يتعلق بالدواعي والأسباب الموضوعية التي جعلت حياة مامون تتغير كل هذا التغير؟ ولماذا حدث كل هذا الانقلاب في سلوكه؟ إذ أن ما يقدمه لنا الكاتب لا يجيب في الواقع على هذا السؤال بشكل مقنع ومبرر، لأنه لا يقدم ذلك من خلال الوقائع والأحداث، ولكن من خلال السرد التقريري المبتسر الذي أشرنا إليه منذ قليل، والعبارات المقتضبة الخالية من الفعل، مثل قوله في هذا السياق:

((وتحولت حياة مامون وسط جمع التلاميذ تحولا كاملا، فكان يقلد زملاءه الفرنسيين في كل شيء، فيشرب الخمر، و يتذوق بكل تلذذ قطع لحم الخنزير التي كانت توضع على المائدة، ولم يعد لديه أية أحكام مسبقة..))[584].

فهذه العبارة التقريرية لا ترتبط بوقائع محددة أو حتى بأزمنة أو مناسبات معينة، وإنما يفهم منها بشكل عام أن التعليم الذي تلقاه مامون، الطالب الأهلي المسلم، ومخالطته للفرنسيين في الثانوية هما سبب هذا التغير في السلوك. ومثل هذه العبارة يمكن أن تكون مقبولة لو وردت في سياق آخر غير السياق الروائي، أما في مجال الفن الروائي فهي لا تعني شيئا كثيرا، إلا إذا ارتبطت بأفعال وتطورات حقيقية مبنية على حدوث الفعل ورد الفعل، لكي تكون مبررة فنيا حسب المعنى الذي أعطاه أرسطو لمعنى الفعل الدرامي * ، ومن هذا يحق لنا أن نتساءل ثانية: ألا توجد هناك عوامل أخرى قد يكون تأثيرها أقوى على سلوك مامون من تلك التي ذكرها المؤلف؟

وفي نظرنا أن هناك عوامل أخرى جاءت في شكل أحداث مبررة في الرواية كان لها التأثير الحاسم في تحول سلوك مامون، ولكن المؤلف لا يقدمها بهذا المعنى، ومنها مثلا الغياب الكامل لأية رقابة من قبل القايد بودربالة على ما يفعله ابنه في مدينة كبيرة مثل الجزائر العاصمة، مليئة بكل أنواع المغريات،

---

[584] << Mamoun ..>>, p 32

* حسب ما ورد في كتابة "فن الشعر"، حيث تتطور الأحداث تطورا منطقيا حسب مبدأ الضرورة و الاحتمال، وهو مبدأ لايختص بتطور الفعل في المسرح فحسب، ولكنه ينطبق على تطور الفعل في الأنواع الأدبية السردية أيضا.

ومنها جريان المال الكثير بين يدي الابن بلا حساب، وهما عاملان كافيان في حد ذاتهما إلى دفعه نحو طريق الغواية والانحراف، فما بالك إذا اجتمع إليها عاملا الشباب و الفراغ مثل ما اجتمع لمامون؟*.

إن عامل الثقافة ومخالطة أبناء المستوطنين يبدو مقنعا في الرواية على المستوى الفكري أكثر مما يبدو كذلك على مستوى السلوك، فقد بدأت نظرة مامون تتحول شيئا فشيئا نحو شخص والده، وفي الوقت الذي كان والده يجلب إعجاب المارة ببرنسه الأرجواني المخطط بالذهب، وبوجهه العربي الأسمر، المزيَّن بلحية خفيفة وخطها الشيب، وبقامته القوية المهيبة التي تفرض الاحترام على كل الناس، كان مامون يشعر وهو يسير إلى جانبه بالخجل، ويرى أن والده ((**يتعلق بتقاليد بالية، ويرى في كل حركة يقوم بها، و في كل خطوة يخطوها استعراضا في غير محله**))[585].

4 ـ الأستاذ رودوسكي، الأب الروحي لمامون:

وانتهى به الأمر إلى ((**الثورة على هذا الوالد الذي تجاوز الحد - في نظره - و إلى التمرد من جهة أخرى على كل ما هو عربي**))[586].

وقد عبر عن كل هذا التمرد و الرفض لكل ما هو عربي في تلك الحوارات الطويلة والمناقشات التي دارت بينه وبين أستاذه السابق، وصديقه في وقت

---

* يقول الشاعر أبو العتاهية : إن الشباب و الفراغ و الجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

585 << Mamoun ..>>, p 55

586 Ibid, p55.

لاحق. السيد "رودومسكي". وهو بولوني الأصل، وفيها يبدو الأستاذ، على العكس مما يتوقعه القارئ ـ بناء على ما كان المؤلف قد مهد له من قبل بشأن تأثير التعليم الفرنسي على سلوك البطل تأثيرا سيئا- لا يقر مامون على سلوكه، بل، يصارحه بحقيقته دون حرج: ((إني أراك منساقا نحو الانحلال)). وينصحه بضرورة الإعتدال: ((...ولكنني لا أعني بقولي هذا أن تعيش كزاهد... فالإنسان إنسان، وهو ليس كاملا))[587].

ولا يقره أيضا على نظرته إلى والده، ولا على احتقاره للعادات والتقاليد العربية، ولا على انغماسه في شرب الخمر، وهو بهذا الموقف يحل محل مامون المفترض في الدفاع عن تلك التقاليد والعادات ومقوِّمات الهوية العربية الإسلامية. يقول الأستاذ "رودومسكي" لمامون:

((ارفع الغشاوة عن عينيك يا عزيزي، إنني أراك تتعلق بفكرة ثابتة في ذهنك، ناتجة عن حالتك الفيزيولوجية الراهنة (يقصد مرضه)، ومنها تنطلق كل أخطائك، وهكذا أجد أنك تبحث عن الضياع المادي والمعنوي لأبناء جلدتك. إنك تدعو الى قضية غير قابلة للدفاع عنها، إنك تتعاطى الكحول، وتأمل أن يفعلوا كلهم مثلك، هذا هو همك، في حين أنني واحد ممن يودون القضاء نهائيا على هذا الوباء الإجتماعي))[588].

---

587 << Mamoun ..>>, Ibid, p74.
588 Ibid, p79.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن مامون كان يعاني من مرض السل الذي تسبب فيه إفراطه في شرب الخمر، والإقبال على الملذات بكل أنواعها. وقبل خروجه في ظهيرة ذلك اليوم والتقائه مصادفة في المقهى/المطعم بالأستاذ رودومسكي، كان طريح الفراش، ولم يتمكن من الخروج إلى الشارع إلا بعد أن تحسنت حاله بعض الشيء. وقد لفت نظر الأستاذ رودومسكي حال تلميذه السابق الذي كان يجلس في المقهى ساهم النظر، شاحب الوجه، تبدو عليه علامات الإنهاك، فتقدم منه وسأله عن حاله، فدعاه مامون إلى الجلوس، ثم إلى مشاركته غداءه، وأثناء هذه الجلسة الطويلة ناقشا العديد من الأمور التي كانت تشغل بال مامون.

وتكررت اللقاءات والمناقشات بين مامون وبين الأستاذ رودومسكي في مناسبات أخرى، حول مختلف القضايا والأفكار التي كانت تشغل مامون خاصة، والتي يصفها الراوي بأنها أفكار غريبة ولكنها ذات معنى[589]، حول الإسلام والمسلمين، وحول مفهوم الوطن والوطنية، وحول مسائل أخرى عديدة.

ويبدو واضحا أن المؤلف كان يتعمد طرح تلك المسائل للنقاش على لسان المتحاورين بغرض توضيحها، وإزالة اللبس عنها، ومن ثمة كانت تلك المناقشات مناسبة لمامون لكي يدافع فيها، رغم سخطه على أبناء جلدته، بكل قوة عن نقاء الإسلام وسمو رسالته، ويحاول أن يبين أن لا علاقة بين الإسلام

---

589 << Mamoun ..>>, p 172.

وبين أوضاع المسلمين، وإنما السبب في ذلك يعود إلى تعلق المسلمين بالتقاليد البالية[590]، كما يتناول مفهوم "الوطن" (La patrie) الذي ينكره بعضهم على "المسلم"، ويرون أنه فكرة غريبة عن ذهنه، فيتحدث مامون عن الوطن والوطنية بأسلوب شعري محلق، وبطرح فلسفي عميق أثار إعجاب الأستاذ، وجعله يعلق عليه بقوله : ((**يا للشيطان، إنك ترسم جلال الطبيعة و جمالها، بغنائية مفعمة بالفلسفة**))[591].

ويوضح الأستاذ لمامون، من جهة أخرى، أنه فهم كلامه عن الإسلام فهما غير صحيح، ويعبر له عن احترامه الشديد لكل ما له علاقة بالإسلام، وأنه على يقين أن كل الفرنسيين هم مثله في نظرتهم إلى الإسلام[592].

وبالرغم من الاختلاف الذي كثيرا ما كان يميز نقاشاتهما في العديد من المسائل فإن مامون كان، مع ذلك، يرتاح لأستاذه، ويبوح له بكل ما كان يشغل باله، و يجد في آرائه الصريحة صدقا و نزاهة، رغم أن صراحته ووضوح أفكاره كانت تضع مامون في حرج أحيانا، بسبب اندفاعه الذي يجعل آراءه تبدو كرد فعل عاطفي بعيد عن الهدوء والاتزان.

لقد وجد مامون في الأستاذ رودومسكي ما يشبه الأب الروحي الذي ينصحه ويوجهه، كما وجد فيه الصديق الذي يعول عليه عند الشدة، ومن ذلك وقوفه

---

590 Ibid, p128, 129.
591 Ibid, p 127.
592 <<Mamoun..>>, p 127.

بجانبه حين أدخل السجن بتهمة تعاطي المخدرات، حيث قوّم له محاميا يدافع عنه، وتمكن، بفضل مساعيه ومساعي محاميه لدى السلطات القضائية، من أن يخرج من السجن بريئا من أية تهمة[593]. وعندما علم الأستاذ - وقد أصبح مستودع سر مامون - بانتحار ليلِي، عشيقة مامون نصحه بالزواج، لأن الزواج، كما شرح له، هو الذي سيعصمك من حمأة الفساد [594].

كما عمل رودومسكي، من جهة أخرى، على مصالحة مامون على والده، بعد أن ساءت العلاقة بينهما، وذلك حينما رفض مامون ما جاء والده يعرضه عليه، وهو الزواج بابنة صديق له من القياد، رغم أنها كانت مثقفة وتحسن العزف على البيانو[595]. وقد قطع القايد عن ابنه، بسبب ذلك، المساعدة المالية التي كان يبعث له بها كل شهر، كنوع من الضغط عليه، ثم كنوع من العقاب حين اكتشف أن ابنه الذي بعث به إلى العاصمة للدراسة كان يخدعه ويبدد أمواله على الخمر و النساء. وتمكن رودومسكي فعلا من رأب الصدع بين الأب والابن و تم التصالح بينهما [596].

---

593 كانت التهمة ثابتة فعلا على مامون، حيث قبض عليه متلبسا بتعاطي الحشيش في بيت "العالمة" حورية، وكان تعاطي الحشيش ممنوعا قانونا، ولكن الشرطة لا تطبق القانون إلا حينما تشاء، وهذا ما حدث لمامون، أما السبب الحقيقي فقد كان مؤامرة دبرها له "بارسالونار" وكيل "رومومبيار" زوج ليللي عشيقة مامون، انتقاما منه بسبب تلك العلاقة مع زوجة معلمه، بغرض تشويه سمعة والده. راجع: <<Mamoun..>>,p157

594 << Mamoun ..>>, p 165.

595 << Mamoun ..>>, p 88.

596 Ibid, p 166.

وكان آخر عمل إنساني قام به الأستاذ نحو صديقه الشاب، وابنه الروحي، هو أنه اصطحبه في سفره إلى مسقط رأسه، بعد أن انتكس مامون في مرضه، وتدهورت صحته تدهورا خطيرا، وكانت كل الدلائل تشير إلى أنه في النزع الأخير من حياته، وبقي إلى جانبه حتى فارق الحياة في اليوم التالي لوصولهما.

وهذه المواقف كلها من الأستاذ رودومسكي تعطي في الحقيقة صورة مغايرة تماما لما حاول المؤلف أن يوحي به إلى القارئ طوال فصول الرواية، عن فساد الوسط التعليمي الذي عاش فيه مامون من الناحية الأخلاقية، وكان السبب في تغير حاله وانحراف سلوك، ونجد في الرواية دليلا آخر على وجود مثل هذا التناقض - إن صح التعبير - ويتجلى في صورة أخرى قدمها المؤلف عن زميل لمامون في الدراسة هو "دوليساك"، الفرنسي الأصيل، وهي صورة لا تقل نصاعة عن صورة رودومسكي، فقد كان "دوليساك" بدوره نموذجا مثاليا للسلوك الفرنسي المتحضر، إذ أنه كان - كما صوره المؤلف - بعيدا عن التعصب والعنصرية، مؤمنا بالعدالة والمساواة بين كل الناس، خدوما، متسامحا، ومتعاونا مع الجميع، وقد سعى لإيجاد عمل لمامون يعيش منه، بعد أن قطع عنه والده مساعدته المالية، وتمكن من الحصول على ذلك ولكن ليس بسهولة، لأنه كان هناك قوى مضادة ومسيطرة في المجتمع الاستعماري لا تريد للعرب أن يتساووا مع غيرهم من الأجناس الأخرى، حتى في الحصول على وظيفة عادية، وكان "دوليساك" يعرف هذا الوضع جيدا، ولذلك تعامل معه بشيء من المرونة، وطلب من صديقه مامون أن يتفهم الوضع بدوره، وأن يتنازل بعض الشيء في

تعامله مع تلك القوى المضادة، وطلب منه على سبيل المثال أن يستبدل الطربوش العثماني بالقبعة، لأن ذلك - في نظره - سيساعده على اختراق مثل تلك القوى المضادة في المجتمع[597]، في انتظار أن يتغير الوضع في المستقبل القريب: ((**اسمعني يا مامون، إن الزمن سيسوي كل هذا، لقد أزفت الساعة التي سيعُدُّ فيها الجميع، أهليون وأوروبيون، أنفسهم إخوة متحدين ومتضامنين، لا يشغلهم إلا الصالح العام وما يحقق عظمة وطنهم المشترك**))[598].

والجدير بالإشارة هنا أن هذه الصورة عن الفرنسي الأصيل كانت تتكرر باستمرر في هذه الروايات التي تعود إلى المرحلة الأولى (1925-1952)، فهو دائما نزيه، وعادل، وغير عنصري، تلك هي صورة مدير المنجم التي نجدها في رواية زهراء امرأة المنجمي، وصورة مدير الثانوية في رواية "مامون"، وصورة الطالب "دوليساك"، وهي تعبر عن معنى ضمني لدى هؤلاء المؤلفين، يتلمسه القارئ في مختلف المواقف، مفاده أن ظلم الجزائريين، والعنصرية التي تمارس عليهم، ليست من الفرنسيين "الحقيقيين" ولكنها تأتي من غيرهم من الإسبان، والمالطيين، والكورسيكيين، والإيطاليين وغيرهم من الأقوام الأوروبية الأخرى.

---

[597] << Mamoun ..>>, p 120.
[598] Ibid, p 122.

وفي رواية "مامون". كما في رواية زهراء أمثلة عديدة على المواقف العدائية من هؤلاء ضد البطل أو ضد واحد من أبناء جلدته*.

وعلى العموم، فإن رواية "مامون " بالرغم من إختلافها مع رواية زهراء.. في المكان (العاصمة مقابل مدينة داخلية)، وفي شخصية البطل (الطالب الأهلي ذو المركز الإجتماعي الرفيع مقابل عامل المناجم البسيط)، فقد جاءت متقاربة معها زمنيا، ومتماثلة معها على مستوى المذهب الفني، وعبرت مثلها على الهموم والانشغالات نفسها، سواء على المستوى الفكري، أو الاجتماعي، أو السياسي، وقد أولت كلاهما الجانب الاجتماعي أهمية خاصة، ولربما يعود هذا لطبيعة الفن الروائي نفسه، وشكلت الآفات الاجتماعية، ولاسيما آفة الخمر، الهاجس الرئيسي للكاتبين، والمادة الأساسية للنسيج الدرامي في الروايتين، فكانت الخمر هي سبب النهاية المأساوية لكلا البطلين.

---

* يصدم مامون بالواقع الاستعماري أثناء بحثه عن وظيفة، ويجد نفسه في مواجهة أشخاص يقابلونه مقابلة جافة، ولا يتحرجون في إظهار العداء له، ومن أسمائهم أو لهجتهم يتضح لمامون أنهم ليسوا فرنسيين، كرئيس المصلحة الكورسيكي في شركة السكك الحديدية (ص 117)، ومثيله الإيطالي في الشركة البحرية (ص 119) وشبيهه الإسباني، الوكيل التجاري في الميناء (ص 123)، فكلهم رفضوا توظيف مامون العربي، حتى ولو كان مثقفا، و "متطورا"، وفي أحسن الأحوال كانوا يعرضون عليه أعمالا لا تتناسب مع مؤهلاته، حتى لا نقول أعمالا حقيرة.

رواية "لبيك" : لمالك بن نبي

هذه الرواية التي صدرت سنة 1948 بالجزائر، هي العمل الروائي الوحيد لصاحبه مالك بن نبي**، ضمن سلسلة من الأعمال الفكرية التي كتبها، والتي تبلغ زهاء الخمسة عشر عنوانا، بدأها سنة 1947 بـ "الظاهرة القرآنية" وعرف بها منذ ذلك الحين كمفكر إسلامي، يتخذ من تاريخ الدعوة الإسلامية في بدايتها ومن أوضاع العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، مجالا للتأمل الفلسفي والتحليل الإجتماعي.

ويبدو أن واقعية أحداث الرواية وتأثيرها العميق في نفس الكاتب، من جهة، والعبرة الدينية والأخلاقية التي تحملها تلك الأحداث، من جهة أخرى، قد شكلت الدافع الرئيسي الذي دفع المؤلف إلى كتابتها، وقد أشار لكلا العاملين في رسالته الموجهة إلى الناشر التي نجدها مثبتة في بداية الرواية، مما يجعلها

** مالك بن نبي (1905-1973)، ولد بمدينة قسنطينة، ينتمي إلى أسرة متدينة، دخل المدرسة القرآنية ثم المدرسة الفرنسية، وتخرج من إحدى جامعات باريس حاملا لشهادة مهندس في الكهرباء، عاش متنقلا بين فرنسا و الجزائر، والمشرق العربي، حيث أقام مدة في مصر. تخصص في دراسة أحوال الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر، و أصدر العديد من المؤلفات في هذا الشأن (باللغة الفرنسية)، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الظاهرة القرآنية (1947)، وشروط النهضة (1949)، وفكرة كومنولث اسلامي (1956) و آفاق جزائرية في الحضارة و الثقافة والمفهومية (1965)، ومذكرات شاهد القرن 1965 (في جزئين)، وهي مذكرات شخصية وتأملات في أحداث القرن العشرين، أما في مجال الإبداع الأدبي فإنه لم يصدر إلا رواية "لبيك" سنة 1948 .

بمثابة استهلال أو تقديم للرواية، دون أن يذكر بعبارة صريحة وواضحة أنهما دافعه إلى كتابتها[599].

أما موسم الحج الذي جرت فيه أحداث الرواية، فإنه يكون حسب تقديرنا - بناء على قول المؤلف أنها أحداث وقعت فعلا - هو موسم سنة 1349 هجرية، الموافق لسنة 1930 ميلادية، وذلك بالاعتماد على إشارة وردت في نص الرواية تقول: ((موسم الحج لهذه السنة (التي تجري فيها الأحداث) قد جاء في أبريل، شهر البساتين المزهرة)) [600].

وهو ما يتفق مع التاريخ المذكور أعلاه*، ومعنى هذا أن رواية " لبيك"، حتى وإن جاءت متأخرة في تاريخ صدورها، وربما في تاريخ كتابتها أيضا**، فإن زمن الأحداث فيها يعود إلى وقت قريب جدا من زمن أحداث روايتي "زهراء.." و"مامون.."، وهو ما يدخلها من الناحية الفنية في سياق الرواية الإثنوغرافية وانشغالاتها.

---

599 << Lebbeik ..>>, p 7,8.

600 Ibid, p 88

* راجع كتاب "التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية و القبطية"، تأليف اللواء محمد مختار باشا، دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمد عمارة، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، المجلد2، بيروت 1980، توفيقات سنة 1349 هجرية بالتاريخ الميلادي والقبطي، حيث يقابل أول شهر ذي الحجة يوم الأحد 19 أبريل 1930 ميلادية.

** لأن الكاتب يتحدث في رسالته إلى الناشر عن ظروف كتابتها ولا يذكر تاريخا محددا لكتابتها.

وبالفعل، فإن رواية "لبيك" تذكرنا كثيرا برواية "زهراء.." لعبد القادر حاج حمو في العديد من المواقف والأحداث التي وردت فيها، بل تذكرنا بها أحيانا حتى في بعض التفاصيل الصغيرة، مثل تطابق اسم البطلتين "زهراء"" في كلا الروايتين، ومثل صوت الأذان الذي كان في كليهما بمثابة المنبه لضمير البطلين، والمحفز لهما على التوبة، بالإضافة إلى العديد من نقاط الالتقاء بين شخصيتي البطلين في إدمانهما على الخمر، وفي سلوكهما الاجتماعي، وفي علاقتهما بزوجتيهما، وفي تدهور تلك العلاقة بين الزوجين بسبب إدمان الزوج على الخمر، وتطورها من العنف اللفظي إلى العنف الجسدي، إلى الطلاق، وما إلى ذلك مما سننبه إليه لاحقا كلما رأينا ذلك مفيدا.

1 ـ احتفاء مدينة عنابة بالحجيج

تجري وقائع رواية "لبيك" في جزء هام منها في مدينة عنابة، أما الجزء الآخر فيجري على ظهر الباخرة المتوجهة بالحجاج إلى البقاع المقدسة، ويتحدث المؤلف عن مدينة عنابة حديث العارف بها، وبعادات أهلها في الاحتفاء بموسم الحج. وباستقبال المدينة للحجيج باعتبارها منطقة عبور رئيسية لمعظم حجاج المناطق الشرقية للبلاد الذين يتوجهون منها بحرا نحو البقاع المقدسة.

وتتجلى مشاركة أهل المدينة للحجيج في ابتهاجهم بهذه المناسبة في العديد من المظاهر، وأولها التجمهر في أماكن وصولهم بمحطة القطار، وإظهار البشاشة لهم، والهتاف معهم بعبارة الحج المعروفة "لبيك اللهم لبيك"، وإرشادهم إلى

الأماكن التي ينزلون بها، ومساعدتهم في نقل أمتعتهم من القطار إلى الفندق، ثم إلى الباخرة، ودعوتهم إلى الغداء أو العشاء في بيوتهم، إكراما لهم، وتبركا بهم، ورغبة في أن يدعوا لهم عند "شباك النبي". وتشارك في هذه المظاهر كل الفئات من أهل المدينة، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، تقيهم وفاسقهم[601]

وفي هذا الجو الاحتفالي البهيج نتعرف على إبراهيم بطل الرواية، لكن في وضع يتناقض كليا وجو المناسبة هذه، فقد كان في ظهيرة ذلك اليوم الذي وقف فيه مع جمهور الفضوليين من أمثاله في ساحة محطة القطار، للتفرج على وصول الحجاج، في حالة سكر متقدمة، بعد أن تناول وجبة دسمة، تشكل الوجبة الاعتيادية للفقراء من المدمنين على الخمر، وتتكون من كرش وكبد البقر والفلفل الحار، مع نبيذ أحمر ثقيل[602]. إلا أن المشهد المهيب للحجاج، وهتافات الناس معهم بالتلبية، وترديد عبارة "أنتم السابقون ونحن اللاحقون"، أثر في نفسه تأثيرا قويا، وأدخله في جو من الخشوع والرهبة جعله ينهر بشدة رفيقه الذي جاء يعرض عليه كأسا إضافية في الحانة القريبة: **((أتظنني كافرا مثلك، أنت الذي لا تعرف شيئا من دينك؟ لقد حفظت أنا الستين حزبا من القرآن، أما أنت فلست قادرا حتى على تلاوة ما تقيم به صلاتك))**[603].

2 ـ من السكر والعربدة إلى التوبة النصوح

ومنذ هذه اللحظة بدأ شيء ما يتحول في نفسه، دون أن يدرك كنهه على وجه التحديد، لكنه كان شعورا غامضا ومفاجئا، بحيث لم يحل دونه وإكمال

---

[601] << Lebbeik ..>>, p17 à 19.

[602] Ibid, p17.

[603] Ibid, p18.

يومه على الوتيرة التي اعتاد عليها من سكر وعربدة طوال النهار، إلى أن يؤوي إلى دكانه في وقت متأخر من الليل، هذا الدكان الذي كان يبيع فيه الفحم في بعض ساعات النهار، وفي الليل يتخذ منه مأوى يبيت فيه، وذلك بعد أن طلق القاضي منه زوجته، ورفض جيرانه أن يسكن إلى جوارهم رجل غير متزوج، إلى جانب كونه سكيرا [604].

في تلك الليلة رأى إبراهيم في نومه حلما مدهشا أطار النوم من عينيه، رغم سكره الشديد، رأى نفسه أنه يطوف بالكعبة المشرّفة، ويلبس لباس الإحرام الذي يلبسه الحجاج والمعتمرون، لكن ذلك حدث بسرعة كبيرة لم يتمكن معها بالاحتفاظ منه في ذاكرته المتعبة إلا بصورة باهتة. وحاول أن يعود إلى النوم لعله يرى حلمه من جديد، فمنعه من ذلك تفكيره في معنى ذلك الحلم، ولكنه استطاع مع ذلك أن يرى نفسه بعين الخيال وهو ما بين النوم واليقظة: **((كأنه يغادر ميناء عنابة على ظهر الباخرة التي تنقل الحجيج، وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية، واختلط بها صوت بوق الباخرة وهي تغادر الميناء، كأنه توقيعات على آلة "الأرغن"، وارتفع صوت إبراهيم لاشعوريا، مشخصا المشهد: لبيك اللهم لبيك))** [605].

---

[604] وقد وقع له حادث عجل بإخراجه من البيت، وذلك عندما عاد ذات ليلة متأخرا كعادته في آخر الليل، فتفاجأت به إحدى بنات الجيران كانت قد خرجت قبل الفجر "تستطلع فألها" وهو يتسلل في العتمة، فصرخت، وجمعت عليه الجيران، وكانت فضيحة كبيرة له. راجع: << Lebbeik ..>>, p 46 .

[605] << Lebbeik ..>>, p 19.

وظل على هذه الحال إلى أن ارتفع صوت أذان الفجر الذي لا يتذكر أنه سمعه منذ زمن بعيد، ووجد نفسه يردد مع المؤذن "حي على الفلاح، حي على الفلاح:

((ولخصت هذه العبارة في تلك اللحظة تيقظه الذهني، العبارة التي كانت تأتيه كرجع صدى لنقاش داخل نفسه يعزب على فهمه. وأحس بروحه أكثر خفة، كأنها تحررت من قيودها الثقيلة التي كان يظن أنها ستظل تكبلها إلى الأبد))[606].

وهبَّ إبراهيم من نومه ملبيا النداء، قاصدا المسجد، كأنما كانت هناك قوة خفية تدفع به نحوه، وعند باب المسجد وقف، وكأن تلك القوة نفسها كانت ترده إلى الخلف، وتذكر أنه لا يمكنه دخول المسجد دون أن يكون طاهر البدن والثوب، وعندها جلس عند الباب، واكتفى بالاستماع إلى همهمات المصلين وهم يؤدون النافلة، أو يذكرون، أو يتلون القرآن بصوت خفيض. وعندما أقيمت الصلاة تابع قراءة الإمام و ترديدات القيم بكل مشاعره، وعند الانتهاء من الصلاة رفع يده مع المصلين إلى السماء، وراح يدعو الله بقلب خاشع وعينين دامعتين من شدة التأثر: **((يارب، اشفني من دائي فأنا مريض، و اهدني فأنا ضال..))**[607].

---

606 << Lebbeik ..>>, p 26.
607 Ibid, p 28.

وعند خروج المصلين ـ وكان إبراهيم ما يزال قابعا في مكانه بجانب الباب ـ بلغ سمعه بعضا من أحاديثهم، ومن جملته أن باخرة الحجيج سوف ترفع مرساتها في العاشرة من ذلك اليوم. وفي هذه اللحظة التمعت في ذهنه فكرة : ((لما لا أذهب... وفكر أنه وجد المفتاح الذي يحقق به حلم ليلته)) [608].

ومنذ تلك اللحظة بدا إبراهيم كأنه آلة موجهة، له برنامج محدد ودقيق، عليه أن ينفذه قبل إقلاع الباخرة.

توجه أولا إلى حمام قريب، وتوضأ الوضوء الأكبر، ومن هناك أسرع الخطو عائدا إلى الشارع الذي يوجد به دكانه وبيته السابق، وهناك دق باب الشيخ محمد الذي كان قد رجع لتوه من صلاة الصبح، وروى له حلمه، وأبلغه عزمه على الذهاب إلى الحج، وطلب منه مساعدته في ذلك. وكان قد رتب الأمور في ذهنه بكل وضوح، بحيث طلب منه أن يقترض له مبلغا من المال يكفيه للسفر وتأدية المناسك، وأن يتكفل أثناء غيابه ببيع بيته ويرد به دينه، وأوضح له أن الأمر ينبغي أن يتم بسرعة، أي قبل إقلاع باخرة الحجاج في الساعة العاشرة من صبيحة ذلك اليوم[609].

وكان لابد من بعض الوقت للشيخ محمد حتى يستوعب ما جاء يعرضه عليه جاره وابن صديقه القديم، وراح يتفحص ملامحه، ويحاول أن يتأكد من أنه

---

[608] Ibid,p 29.

[609] << Lebbeik ..>>, p30,31.

كان في وعيه الكامل، وسأله في لهجة لا تخلو من الشك ولا من السخرية: **"أهو كلام سكير؟"** ولكن إبراهيم قابل الشك والسخرية بكل تسامح، وأجابه: **بل هو كلام حاج**[610]. ولاحظ الشيخ صدق اللهجة التي كان يتحدث بها، وتصميمه على إنجاز مشروعه، فلم يجد بعد ذلك ما يدعوه إلى الاستمرار في شكه أو يمنعه من مساعدته، وقال محدثا نفسه: **((بلى، إن بين يدي الله كل القدرة، يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم))** [611]

غير أن الشيخ محمد، وإن كان على يقين من قدرته، فيما يخصه هو شخصيا، على تدبير ما طلبه منه في الوقت المناسب، إلا انه أبدى تخوُّفه من قدرة إبراهيم على القيام ببقية المستلزمات الأخرى التي يتطلبها الحج، وأولها الحصول على الأوراق الإدارية اللازمة، لكن إبراهيم طمأنه من هذه الناحية، بأنه يعرف أحد المنتخبين المحلين، وهو واثق انه سيساعده في الحصول على تلك الأوراق. وافترق الرجلان بعد أن ضربا موعدا، واتجه كل واحد منهما لإنجاز مهمته.

ويسهب المؤلف هنا في تقديم التفاصيل عن كل الخطوات التي قام بها إبراهيم، من شرائه لثوب لائق بسفره إلى الحج، إلى ثوب الإحرام، إلى أخذه صورا شمسية لجواز السفر، إلى توجهه إلى بيت الرجل المنتخب قبل خروجه

---

[610] Ibid, p30.
[611] Ibid, p31

من بيته، إلى ذهابه معه إلى مقر العمالة (الولاية)، إلى حصوله أخيرا على ترخيص بالذهاب إلى الحج، ومروره على المحكمة لإمضاء توكيل للشيخ محمد ببيع بيته. كل هذا مع وصف مشاعر البطل، وخلجات نفسه، ومخاوفه من أن يرفض طلبه في آخر لحظة، أو يتعطل لسبب ما، فيدركه الوقت، وتنطلق الباخرة قبل إتمام الإجراءات اللازمة.

وتحقق لإبراهيم في ظرف ساعات معدودة ما كان يبدو مستحيل التحقيق، أو ما هو مستحيل التحقيق فعلا في الظروف العادية، وكأن المؤلف أبى إلا أن يضيف إلى المعجزة المفاجئة التي حدثت للبطل وقلبت حياته رأسا على عقب، من الضلال إلى الهداية، ومن الإدمان إلى التوبة النصوح، هذه المعجزة التي جعلت كل الصعاب سهلة أمامه، وكل العقبات ميسورة، حتى بالنسبة للإدارة الاستعمارية التي لم تكن أبدا تسهل إجراءات السفر للجزائريين بهذا الشكل الذي تم مع البطل، لاسيما إذا كان السفر إلى البلاد العربية، ولو لأداء فريضة الحج، ولأجل ذلك، كان يفرض على كل حاج - كإجراء احتياطي - دفع ضمان مالي لسلطات الاحتلال، يضيع عليه بصفة آلية في حالة ما إذا لم يعد بعد انقضاء مناسك الحج، وقد وردت الإشارة إلى هذا الضمان في صلب الرواية[612]، وكأن المؤلف أراد بهذا أن يقول إن الله كافأ إبراهيم على إخلاصه وصدق نيته، فسهل له كل صعب، وقيَّض له أناسا خيِّرين من أمثال العم

---

[612] << Lebbeik ..>>, p 41.

محمد، والمندوب المالي في المجلس المحلي، والمصور الذي فتح دكانه قبل موعده المعتاد من أجل أن ينجز له الصور المطلوبة للجواز، ليكونوا له جميعا عونا وسندًا.

المعاني والقيم الاسلامية في هذه الرواية

والحقيقة أن المتأمل في المعاني الكبرى للرواية ككل، يلاحظ أن المؤلف قد عمد عن قصد إلى إبراز هذا الجانب الروحي في الإنسان وفي محيطه الذي يتجاوز التفسير الظاهري للأشياء، ولا يخضع لمنطق السببية المعتاد. ويبدو هذا جليا من فكرة "التوبة" نفسها، التي جاءت بشكل مفاجئ، وبدون مقدمات أو أسباب مباشرة بالنسبة لرجل كان يبدو ميؤوسا منه، بدليل تلك الدهشة التي كان يقابل بها خبر توبته كل شخص كان يعرفه من قبل، والأكثر من ذلك خبر عزمه على الذهاب إلى الحج، فهي فكرة لا تخضع إلا للمنطق الروحي - إن صح التعبير - الذي اتخذ منه المؤلف النواة الأساسية التي بني عليها روايته، وهذا المنطق يتلخص في "أن الله يهدي من يشاء من عباده"، دون أسباب ظاهرة، وهذا المنطق نفسه هو ما يفسر ذلك اليسر الذي تمت به إجراءات الحج بالنسبة لإبراهيم، وهو ما يفسر حادثة الرؤيا التي شاهدها في المنام، فهي تنسجم بدورها مع هذا المنطق.

ولا يعزب عن أذهاننا ما للأحلام والرؤى من مكانة في العقيدة الإسلامية، فقد كانت إحدى قنوات الوحي لدى الأنبياء، وفي قصص القرآن الكريم العديد من قصص الأحلام والرؤى، لعل أشهرها رؤيا يوسف[613] وقدرته على تأويل الأحلام والرؤى[614]، ورؤيا إبراهيم حين رأى أنه يذبح ولده إسماعيل[615]. وقد ورد في الحديث النبوي "أن للرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزء من النبوة"[616] وهناك كتب كثيرة في التراث العربي الإسلامي تتناول الأحلام والرؤى بالدراسة والتأويل، لعل أشهرها كتاب "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" لمحمد بن سيرين، الذي جاء فيه شيء من تأويل من رأى الكعبة في حلمه، أو رأى أنه ذاهب إلى الحج، مثل ما رأى إبراهيم بطل رواية "لبيك" في حلمه[617].

---

613 {إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين} سورة يوسف الآيتان4 و5.

614 { ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا و قال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين } يوسف، الآية 36. {يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا و أما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان} يوسف الآية 41، وكذا الآيات من 36 إلى 49 من السورة نفسها التي تروي حلم العزيز و تأويل يوسف له، عن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر و أخرى يابسات.

615 {فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما اذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين }، سورة الصافات، الآية 102.

616 صحيح مسلم، الحديث 4205، وسنن بن ماجة، الحديث 3887. موسوعة الحديث الشريف، الكتب التسعة، قرص ليزر من إنتاج مؤسسة صخر الكويتية.

617 "ومن رأى كأنه خارج إلى الحج في وقته فإن كان صرورة (لم يحج من قبل) رزق الحج... و إن كان ضالا هدي... ورؤية الكعبة في المنام بشارة بخير قدمه، أو نذارة من شر قد هم به". مختارات من تفسير الأحلام لابن سيرين و النابلسي. تحقيق إبراهيم محمد الجمل، نشر دار الهدى، الجزائر ، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1992، ص 76 و77.

وفكرة "المكتوب" نفسها، أو الاستسلام لمرض الإدمان لدى البطل، **على أنه ابتلاء من الله، ينطلق من المنطلق نفسه الذي يرى أن البلاء من الله والشفاء منه** أيضا. يقول ابراهيم للعم محمد الذي خرج إليه ذات ليلة لينهره عن الضجيج الذي أحدثه و الناس نيام : **((معذرة، يا عمي محمد، إنه مكتوب على الجبين، والله مكتوب، معذرة..))**[618].

ومن هذا المنطلق أيضا يبدي الناس شيئا من التسامح مع المدمنين، وينظرون إليهم على أنهم مبتلون من الله، كما يستقبلون توبة التائبين منهم بالترحاب، وبالإسراع في إعادة الاعتبار لهم، كنوع من التشجيع، حتى لا ينتكسوا، وهذا ما أبداه جيران إبراهيم نحوه عندما علموا بتوبته، فقد دعوه إلى النزول في البيت الذي طردوه منه، وكانت العادة تقتضي أن يخرج قاصد الحج من بيته[619]. ورحبوا به، وأظهروا له الكثير من التقدير والاحترام، وشيعوه عند خروجه حتى الباب الخارجي، وفوق هذا زودوه بما يلزمه من الزاد على ظهر الباخرة[620].

ومن عبارات التقدير والاحترام التي سمعها وأثلجت صدره، عبارة "يا سي بْرَاهيم" التي نطقت بها العمة فاطمة زوجة الشيخ محمد عندما دخل بيتهما

---

618 << Lebbeik ..>>, p 14.

619 Ibid, p. 36.

620 Ibid, p 39.

لتناول الغذاء المبكر في صبيحة ذلك اليوم[621]، وهي عبارة تقدير وتشريف لا تقال عادة إلا لمن يتمتعون بمكانة محترمة بين الناس. وحتى زهراء، زوجته السابقة، التي ظلت على وفائها له، ولم تتزوج من جديد - رغم كل ما سببه لها من آلام - فرحت حينما علمت بالخبر، وبعثت له مع العجوز فاطمة بهدية هي عبارة عن سبحة احتفظت بها كذكرى من المرحومة أمه. وقد تأثر كثيرا بهديتها، ودمعت عيناه من فرط التأثر[622].

4 - ما يجمع الروايات الثلاث

ومن هنا تشترك رواية "لبيك" مع روايتي "زهراء" و"مامون" في معالجة ظاهرة الإدمان على الخمر، بإبراز الجانب اللاإرادي في إدمان الأبطال، من منطق الإيمان بـ "القدر" أو "المكتوب"، الذي لا راد له، من جهة، وإبراز الظروف الاجتماعية المحيطة التي تشجع على انتشار الظاهرة واستفحالها، من جهة أخرى، ولكن يظل هذا الجانب الأخير أكثر حضورا، وأكثر إقناعا من الناحية الفنية في روايتي "زهراء" و "مامون" منه في رواية "لبيك" حتى ولو جاءت هذه الأخيرة متأخرة زمنيا عنهما، إن من حيث زمن القصة، أو من حيث زمن كتابتها.

---

[621] Ibid, p 38.
[622] Ibid, p 40.

الفصل الخامس



الهوية الهجينة والاندماج المستحيل

رواية - الأطروحة- الاندماجية

نتناول بالتحليل في هذا الفصل مجموعة من الروايات ظهرت في الفترة ما بين 1929 و1948، وهي على حسب تواليها في الظهور: "العلج " لشكري خوجة، و"مريم في النخيل" لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار الفتى الجزائري " لرابح زناتي، و"ليلى فتاة من الجزائر" لجميلة دباش، وهي روايات تنتمي من الناحية الفنية، بلا استثناء، إلى الرواية الإثنولوجية التي ظهرت في الجزائر في عقد العشرينيات، كما أشرنا في بداية الفصل السابق، ومن حيث مضمونها إلى ما يطلق عليه بعض الباحثين مصطلح "رواية الأطروحة " [621]. وما يهمنا هنا هو هذا الجانب، فهي تعالج كلها موضوع "الاندماج" أو ما يمكن أن نعبر عنه بالتخلي عن الهوية الأصلية (الجزائرية) والتحول إلى هوية الآخر (المستعمر الفرنسي)، وهي المسألة التي شغلت أغلبية المثقفين الجزائريين بجميع اتجاهاتهم ومشاربهم لمدة تزيد عن ثلاثة عقود، وأسالوا بشأنها الكثير من الحبر بين مؤيد ومتحفظ ومعارض [622]. فلا غرو إذن أن تنعكس هذه المسألة في الإبداع الروائي وتشكل موضوعه الرئيسي.

---

621 Cf . S.R Suleiman « Le roman à thèse, ou l'autorité fictive » , cité par A. Lanasri in «Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente »,O.P.U Alger 1986, p43, 63, 71.

622 راجع الفصل السابق من هذا الباب ، من ص17 إلى 20 .

وبالطبع، فمثل ما اختلف المثقفون عامة بشأن هذه المسألة، اختلف الروائيون بشأنها وتباينت مواقفهم منها، على أساس أنهم يمثلون أولئك المثقفين بمختلف مشاربهم، وانعكس ذلك الاختلاف في أعمالهم الروائية، غير أن ذلك الاختلاف بينهم لا يصل إلى حد التعارض الكلي كقبول "الاندماج" بلا قيد أو شرط، أو رفضه بشكل صريح وواضح، لأنهم في نهاية الأمر متشبعون كلهم بالثقافة الفرنسية، ويحملون إعجابا شديدا بمنجزات العصر التي أدخلها الفرنسيون إلى الجزائر، ولديهم قناعة كاملة بأن تقدم الجزائريين ودخولهم عصر الحضارة الحديثة يمر لا محالة عبر هذا الطريق، أي طريق القبول بـ"الاندماج" للحصول على الحقوق السياسية، وتبني "العصرنة" بالتفتح على الثقافة الفرنسية، التي تشكل في نظرهم السبيل الموصل إلى الحضارة الحديثة.

غير أنهم، وعلى اختلاف تصوراتهم للمسألة، ودرجة الحماس للفكرة، كانوا يتفقون جميعا على ضرورة الحفاظ على الهوية الشخصية للجزائريين، التي تتجسد أساسا في الدين واللغة والتقاليد، ولا يعترض على ذلك حتى من تجنس منهم بالجنسية الفرنسية، مع أنه يفترض فيهم أن يكونوا ـ بحكم وضعهم كمتجنسين ـ من دعاة الاندماج الكلي[623].

ومع ذلك، فإن هؤلاء الكتاب لم يكونوا جميعا بالقدر نفسه من الإيمان بفكرة الاندماج، ولا بالقدر نفسه من التحمس لها، ويأتي شكري خوجة في مقدمة من كانوا يظهرون شكهم في جدوى الاندماج، بسبب رفض المحيط

---

623 مثل رابح زناتي صاحب رواية "بولنوار الفتى الجزائري" الذي تجنس بالجنسية الفرنسية، سنة 1903.
Cf. Jean Déjeux « Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », p212.

الاجتماعي له، سواء من قبل الجزائريين أوالأوروبيين، وعدم استعداد هؤلاء على الخصوص بقبول من يحاول الاندماج فيهم من الجزائريين[624]. وقد عبر خوجة عن ذلك من خلال وقائع وأحداث في رواية "مامون.." سبق لنا أن تناولناها بشيء من التفصيل في الفصل السابق من هذا الباب، ولكنه أكده في رواية "العلج ، أسير بربروسيا " بشكل أقوى وأعمق، حينما عالج المسألة في إطار يتجاوز مجرد تغيير الانتماء من مجتمع إلى آخر، إلى تغيير العقيدة الدينية مقابل حصول الفرد على حريته.

ويشارك الكتاب الآخرون شكري خوجة انشغاله الكبير بعامل الرفض الاجتماعي للاندماج دون أن يذهبوا معه إلى آخر الشوط في تشاؤمه من مستقبل الاندماج، إذ كان هذا الرفض يشكل بالفعل تحديا حقيقيا لكل من يحاول خرقه، وأولهم أبطال رواياتهم الذين كانوا يمثلون في مجملهم نموذج المثقف الجزائري (أو المثقفة)، الذي نال حظا وافرا من الثقافة الفرنسية، ويمتلك وعيا عاليا، وكفاءة مهنية ممتازة، وقدرا من الأفكار الجديدة، وحماسا للتطور بالمفهوم الذي كان شائعا في ذلك الوقت، فيصطدم من جهة مجتمعه الأصلي بجدار الجهل والتخلف الاجتماعي والفكري، وعدم القدرة على التجاوب مع الأفكار الجديدة التي يحملها البطل، ويصطدم من جهة مجتمع المستوطنين الأوروبيين بالتجاهل الكلي، وعدم الاستعداد لأي تفهم لظروفه، أو تعاون

---

624 وقد بينا من قبل أن هذا الرفض لا يرجع للاختلاف بين الجاليتين في العرق أو اللون أو العقيدة الدينية فحسب ، ولكن يرجع أيضا إلى الحفاظ على الامتيازات التي كان يتمتع بها الأوروبيون من دون المسلمين ، فإذا فتح المجال واسعا للاندماج ، وتساوى الجميع في الحقوق والواجبات ضاعت منهم تلك الامتيازات ، أما رفض المسلمين للاندماج فبدافع المحافظة على الهوية الوطنية بكل أبعادها . راجع الفصل السابق ، الباب الثاني من ص17 إلى 19.

معه، أو تقدير لمواهبه، أو تثمين لمؤهلاته، هذا إذا لم يقابل بالمواقف المعادية، والتصرفات العنصرية السافرة.

تلك هي حال أبطال هذه الروايات، التي برع بعض الكتاب في تصوير ملابساتها إلى درجة المأساة، ويتجلى ذلك بشكل خاص في ما كتبه شكري خوجة عن بطلي روايتيه "مامون.." و"العلج.."، وما كتبه رابح زناتي عن بطل روايته "بولنوار..". أما محمد ولد الشيخ وجميلة دباش فقد كانا حريصين دائما على إنهاء رواياتهما بنهاية سعيدة ومتفائلة، رغم الصعوبات والعراقيل التي يصادفها أبطالهما في كفاحهم من أجل تحقيق المثل الأعلى في الحياة.

بين الزواج بالاجنبيات والزواج التقليدي

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر نراها تتكرر في معظم الروايات المذكورة، وتشكل فيها جميعا المحرك الرئيسي للأحداث من الناحية العاطفية، ألا وهي ظاهرة الزواج المختلط، الذي يتم دائما ـ كما نتوقع ـ بين بطل الرواية (الجزائري) وبين بطلتها (الفرنسية) التي تنتمي بالطبع إلى المجتمع الاستيطاني الأوروبي، وهذه الظاهرة، وإن شكلت متكأ فنيا للروائيين يساعدهم على تلطيف الأجواء التي ينقلونها للقارئ، ويدفع بالأحداث نحو التطور، فإن لها أيضا دلائل عديدة من الناحية الاجتماعية والفكرية، نستطيع أن نلحظها من خلال السياق الروائي في العديد من الحالات التي صورها هؤلاء الكتاب، منها أولا، تكافؤ المستوى الثقافي بين البطل وشريكة حياته، بحيث يندر أن يجد البطل شريكة له تكافئه في مستواها التعليمي والثقافي إلا من الوسط

الأوروبي، ثانيا تشبعه بالأفكار "الجديدة" التي تعلمها في المدرسة الفرنسية وفي الثانوية والجامعة عن معنى الحياة العصرية، والتطور الحضاري، والحياة الزوجية التي تختلف تماما عن مفهوم الحياة الزوجية في مجتمعه الأصلي، وهو ما يخلق تباعدا وعدم فهم وانسجام ـ في حالة ما إذا تزوج زواجا تقليديا ـ بينه وبين شريكة حياته، وثالثا أن الزواج من أوروبية يعبر عن رفض البطل المثقف، المتطور، للزواج التقليدي الذي تحركه في الغالب ـ حسب النماذج التي قدموها ـ المصالح المشتركة بين الوالدين، أوالعائلتين، ولا يقام فيه أي وزن لمعاني الحب، والتفاهم، والانسجام الضروري الذي يحقق سعادة الزوجين.

ذلك هو المعنى الذي عبر عنه مثلا رفض "مامون" للزواج الذي عرضه عليه والده من ابنة أحد أصدقائه "القياد"، رغم أنها كانت على قدر من التعليم والثقافة الموسيقية ((.. إنه لم يعد يريد نظرة الريف الهمجية (Barbare)، ولا عادات العرب الخشنة هذه)) [625]. وذلك هو المعنى الذي عبر عنه الراوي في "بولنوار" حين وصف حال البطل، بعد أن أرغم على الزواج من قبل والده بابنة أحد أصدقائه، ولما يبلغ سن الرشد، بأنه ((حال كل المثقفين المسلمين، أو على الأقل حال خريجي المدرسة الفرنسية الذين لا يجرأون على الزواج المختلط، الصعب التحقيق، فينكفئون على بنات ملتهم اللائي يبقين محرومات، وبعيدات عن صورة رفيقة العمر التي يحلمون بها)) [626]. وفي أول فرصة يمتلك فيها زمام أموره بنفسه، يطلق زوجته هذه التي وجد العيش معها مستحيلا

625 Chukri Khodja « Mamoun.. » , p88.
626 Rabah Zénati « Bou-El-Nouar, le jeune algérien » , p132.

بسبب فارق الثقافة، ليتزوج بأوروبية تعرف عليها في الشمال الفرنسي، وأحبها، ووجد فيها الزوجة المناسبة له في مستواه الثقافي وفي تفكيره المتحرر[627]

هذا على مستوى النص، لكن، هناك تفسيرات أخرى وتأويلات للزواج المختلط تتعدى حدود النص إلى ما وراءه، ومن ذلك ما يسميه ألبير ميمي: "حب المستعمِر والحقد على الذات"، حيث ((تكون أولى محاولات المستعمَر في تغيير وضعه بتغيير جلده)) [628]. ونفسرعبارة "تغيير الجلد" هنا بمحاولة التحاق الاندماجي بالمستعمر، عن طريق الزواج بامرأة أوروبية، بدافع "رفض الذات وحب الآخر": ((وهما صفتان مشتركتان في كل مرشح إلى "الاندماج"، وشديدتا الارتباط ببعضهما في هذه المحاولة التحررية، بحيث يبرز حب المستعمِر في شكل مشاعر مركبة تتراوح بين الخجل من الذات والحقد عليها)) [629].

ويمكننا أيضا أن نؤول هذا الإلحاح الشديد على الزواج المختلط، الذي يصوره هؤلاء الكتاب في صورة تحرر شخصي، وتفتح ثقافي، وتسامح ديني، ونزعة إنسانية - وإن كانت دائما في اتجاه واحد - على أنه تصور منهم لحل معضلة ما كان يسمى بـ "مشكلة تعايش الأعراق" في المجتمع الاستعماري، وهو تصور جد مبسط، وجد طوباوي إن لم يكن جد ساذج على الصعيد السياسي، لأنه يقفز على حقائق سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وتاريخية،

627 « Bou-El-Nouar, le jeune algérien », p202.
628 Albert Memmi « Portrait du colonisé » , p156.
629 Albert Memmi « Portrait du colonisé » , p157.

ودينية، أكبر بكثير من مجرد بعث مجتمع هجين تختلط فيه دماء الأعراق، فتنتهي معه التناقضات، وتزول أسباب الصراع في المجتمع الاستعماري. إن هذا الطرح يتناقض أصلا مع وجود النظام الاستعماري نفسه، لأنه نظام قائم أساسا على مبدإ الصراع، وقهر الشعوب، واحتلال أراضيها، والهيمنة على مقدراتها، عن طريق القوة، فكيف يطلب من نظام قائم على هذا الأساس الظالم أن يحقق العدالة والمساواة بين من ينتمون إلى جنسيته ويجسدون مبادئه في الميدان، وبين من يناصبونه العداء، ويهددون نظامه بالزوال؟ .

على أية حال. هذا هو المشروع الاجتماعي السياسي الذي تقدمه هذه الروايات ذات "الأطروحة " الاندماجية في نهاية الأمر، وهذا هو المجتمع المثالي الذي كان يتطلع كتابها إلى إيجاده، ويرون مستقبل الجزائر مرهونا ببعثه إلى الوجود، رغم ما كانوا يبدونه من شك، أو تشاؤم، أو يأس، ذلك الشك والتشاؤم واليأس الذي لا نرى باعثا له في الواقع إلا الشعور بالضعف والضآلة لدى هذه النخبة، أمام ضخامة القوى المضادة، وليس قلة الإيمان بالفكرة، وعدم الاقتناع بها، وإلا ما جدوى استمرارهم طيلة ثلاثة عقود من الزمن في الدعوة بكل إصرار إليها لو كانوا لا يؤمنون بها ؟

إن تحليلنا للروايات التي ذكرناها في بداية الفصل سيسمح لنا باستعراض مختلف التصورات الفكرية التي أعطتها النخبة لمضمون "الاندماج"، والأغراض التي كانت تنتظرها من الاندماج، والمراحل التي مرت بها الفكرة ، والإشكالات التي طرحتها، والمعوقات التي كانت تعترض سبيل تجسيدها في الواقع، وأخيرا النتائج التي أسفرت عنها. وسنتبع في ذلك التسلسل الزمني لظهور الروايات من سنة 1929 إلى 1948.

-العلج، أسير بلاد البرابر - [630] لشكري خوجة:

اختار المؤلف أن ينقل القارئ في هذه الرواية إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أيام حكم الباشا خير الدين بربروس للجزائر، ليجري حوادثها بمدينة الجزائر في تلك الفترة ومن خلال ذلك، حاول أن يرسم صورة للمدينة، ولحياة الناس آنذاك فيها.

وهذه هي الرواية التاريخية الوحيدة، فيما نعلم، التي كتبها جزائري باللغة الفرنسية، وستظل حتى عهد قريب الرواية التاريخية الوحيدة، أو بعبارة أدق: الرواية التي وظف فيها كاتبها التاريخ كمادة روائية [631]. لأن المؤلف لم يكن غرضه - بالطبع - تقديم درس تاريخي للقارئ عن الفترة المذكورة، ولكنه كان يهدف إلى أخذ درس من التاريخ، أو استخلاص العبرة من حوادثه. وبالفعل، فإن هناك أدلة عديدة في الرواية - ستتضح لنا فيما بعد - تشير إلى أن المؤلف قد وجد تشابها كبيرا بين الأوضاع السياسية في جزائر منتصف القرن الخامس عشر وجزائر العشرينيات من القرن الحالي، فأغراه ذلك بكتابة هذه الرواية، وبإجراء نوع من المقارنة غير المباشرة، سمحت له، بفضل التباعد الزمني، أن يعبر بشكل أفضل، من خلال ماض تولى وانتهى، عن أوضاع حية كان يعيشها الناس في زمانه، بالإضافة إلى أن الحديث عن الماضي

---

630 Chukri Khodja « El-Euldj, Captif des Barbaresques ». Ed. I.N.S.A.P , Algerv1929. Réédité par l'O.P.U . Coll. Textes anciens. Alger 1992.

631ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث (ص28) عناوين بعض الروايات التاريخية باللغة الفرنسية، مثل "أسوار الحرية" لرشيد قاهار، التي صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1985، و "الموتة الثانية لحسين داي" ل م . ك . بوقرة الصادرة عن المؤسسة الجزائرية للطباعة بالجزائر سنة 1990 . وعلى العموم فإن كتابة الرواية التاريخية في الجزائر نادرة الوجود، سواء بالفرنسية أو بالعربية.

يعطيه حرية أكبر، ليقول ما لا يستطيع قوله لو تحدث بشكل مباشر عن عصره الحاضر.

وقد عمد المؤلف في بداية الرواية إلى استعمال أسلوب التهجم على الحكام الأتراك الذين كانوا يحكمون الجزائر، ووصفهم بأسوإ النعوت وأشنع الأعمال، بما يرضي القارئ الفرنسي عموما، والمستوطن في الجزائر بصفة خاصة، ويتفق والصورة التقليدية التي يحملها عنهم، فهم بصفة عامة: برابرة ، غلاظ القلوب، جفاة الطبع، دمويون، يعيشون على القرصنة البحرية ويعترضون سبيل السفن التجارية الأوروبية في عرض البحر، فيجردونها مما تحمل، ويبيعون ركابها كعبيد أو يبقونهم كرهائن إلى أن يفتديهم أهاليهم أو حكوماتهم بالذهب.

وكنوع من الإثارة وشد الانتباه لدى القارئ. افتتح روايته بمشهد السفينة الفرنسية "الرجاء" وهي تدخل ميناء الجزائر، مخفورة من قبل الرايس "كاتشاديابلو" ورجاله، الذين هاجموها في عرض البحر، بالقرب من جزيرة مايوركا، وقادوها ببحارتها عنوة إلى الجزائر. وإمعانا في الإثارة، وإكمالا للصورة الفظيعة التي أراد رسمها في ذهن القارئ عن هؤلاء "القراصنة" الأتراك، يبدأ بعرض مشاهد من معاملتهم الخشنة للأسرى الجدد الذين شرعوا في مغادرة السفينة المخطوفة، والأسرى القدامى الذين جيء بهم ليفرغوا حمولتها، قبل أن ينتقل إلى قصر خير الدين الذي كان ـ كما صوره ـ أشدهم فظاظة وقسوة، حيث

كان ينزل العقوبات القاسية حتى بأقرب المقربين إليه، لمجرد خطإ تافه أو كلمة تفوه بها دون قصد سيء أو نقد لشخص الحاكم أو لنظام حكمه.

وفي هذا السياق، يعرض حادثتين وقعتا في مساء ذلك اليوم، يؤكد فيها دموية هذا الحاكم وقسوته، وانتهت كلتاهما بإصداره أمرا بإعدام الشخص المعني. الأولى تتعلق بالرايس "كاتشا ديابلو" نفسه، الذي عاد في الصباح يجر السفينة الفرنسية إلى ميناء الجزائر كما سبقت الإشارة، فأقام له الباشا خير الدين بهذه المناسبة حفل عشاء في قصره، تكريما له على هذا الانتصار، لكنه، وفي لحظة من لحظات ذلك الجو البهيج ثارت ثائرة الباشا، وانقلب فجأة على الرايس المحتفى به، وأمر الحراس بتقييده، لإعدامه في صبيحة اليوم التالي، والسبب هو أنه تجاوز حدود اللياقة، وتفوه في حضرة الباشا، وهو سكران، بكلمة نابية باللغة الإيطالية، على سبيل المزاح، أتبعها بحركة من يده تدل على معناها.

ويأبى المؤلف إلا أن يسوق على لسان خير الدين ما يؤكد همجيته، وتلذذه بسفك الدماء، فيقول موجها كلامه لوزيره ((إنني متعطش إلى الدماء، فمنذ خمسة عشر يوما والخازوق معطل عن العمل، ولابد له أن يعمل، و"كاتشاديابلو" يعرض نفسه لتغذية منبع الموت، فنفذ بلا مماطلة))[632]

ولأن الرايس "كاتشاديابلو" كان من طينة خير الدين، كما يصوره الكاتب[633]. ولا يشعر نحو رئيسه بأي احترام، فإنه، وقبل أن يسوقه الحرس

---

632 Chukri Khodja « El-Euldj , Captif des Barbaresques », p17.

633 لا يقصد بالطينة هنا الأصل، لأن اسمه يدل على أن أصله إيطالي، ويؤكد ذلك كلامه باللغة الإيطالية.

إلى جناح الإعدام، رد على الباشا بسيل من الشتائم، وذكره بجرائم عديدة اتهمه بارتكابها هو وأخوه عروج، وفي مقدمتها الاستيلاء على عرش إمارة الجزائر عن طريق الجريمة والغدر [634]، غير أن الباشا ظل هادئا، ولم يصدر عنه بعد أن أعطى أمره وانتهى الأمر، ما يدل على أنه تأثر بشيء من كلامه، أو فكر لحظة واحدة في مراجعة قراره.

والحادثة الثانية تتعلق بمصطفى لوعيل، أحد المفاوضين التجاريين الكبار، الذي تجرأ بدوره وانتقد المعاملة السيئة للأسرى المسيحيين، حينما كان على رصيف الميناء يتابع بصحبة خوجة باش أحمد المكلف بتوزيع العبيد إنزال حمولة السفينة الفرنسية، فكان جزاؤه أن أمر الباشا، بعد أن بلغه انتقاده، بإعدامه بدوره، وبالبساطة نفسها التي أمر بإعدام الرايس "كاتشاديابلو" بها. ونفذ أمر الإعدام في الرجلين معا في صبيحة اليوم التالي بالخازوق الذي مزق أحشاءهما في وقت واحد[635]. غير أننا نعتقد أن الكاتب قد لجأ في البداية إلى استعمال هذا الأسلوب المبالغ فيه والمتحامل على الأتراك، من أجل كسب ثقة القارئ، وتنويم يقظة الرقابة، والدليل على ذلك أن هذا التهجم سيختفي بعد قليل، ليقدم لنا حياة عادية يسودها النظام والأمن، وتنعم بالرخاء والهناء. فقد صور أسواق المدينة نشطة، ومتاجرها مليئة بالسلع، ومدارسها مشرعة

---

634 يتهمه أنه وأخاه قد غدرا بسالم بن التومي رأس أعيان مدينة الجزائر، وقتلاه في حمام ليستوليا على عرش الإمارة. راجع: « El-Euldj.. », p16، لكن المؤرخين لا يشيرون إلى هذا الاغتيال، ويذهبون إلى القول بأن أعيان مدينة الجزائر، وعلى رأسهم سالم بن التومي قد بايعوا عروج بالإجماع على إمارة الجزائر، فرفض في المرة الأولى، وبايعوه ثانية فقبل بها راجع الفصل الأول من من الباب الأول من هذا البحث ص10.

635 « El-Euldj.. », p26.

الأبواب، ومساجدها عامرة بالمصلين، والحقول المحيطة بها تعج بالفلاحين والعبيد المنهمكين في أعمال الزرع والقلع، ولا شيء فيها يثير الريبة، أو يبعث على الخوف، أو يفسد على الناس حياتهم، أو يعكر صفوها.

1 ـ التاريخ يعيد نفسه بالمعكوس

وبعد هذا المدخل المثير والمتحامل على الأتراك، يغتنم الفرصة ليمرر رسالة ـ ما نظن أنها جاءت عفو الخاطر ـ وذلك حينما أثار في ثنايا الحوار الذي أشرنا إليه آنفا بين خوجة باش أحمد ومصطفى لوعيل، على لسان هذا الأخير، موضوع نشأة القرصنة البحرية ليشير إلى ما يفيد أن القرصنة نشأت في فرنسا سنة 1400م، وأنها كانت شائعة في كامل أنحاء أوروبا، بتشجيع من حكوماتها. واستفحل أمرها بعد اكتشاف القارة الأمريكية، حيث كان القراصنة الأوروبيون يهاجمون السفن المحملة بالذهب العائدة من العالم الجديد[636]، وهو الكلام الذي يفهم منه أن القرصنة أصلا اختراع أوروبي[637]

والحقيقة أن هذا النهج المراوغ، إن صح التعبير، قد اتبعه الكاتب في كامل الرواية، وهو نهج مقصود منه، استعمله كنوع من التقية والتمويه من جهة، وكوسيلة تمكنه من إيصال وجهة نظره في مختلف القضايا التي يعرض لها في روايته، من جهة أخرى، وهو في الواقع نهج مقبول من الناحية الفنية، ومتداول بين الروائيين، كما أن له أحيانا أسبابا سياسية خارجة عن الفن،

---

636 El-Euldj.. »,, p22.

637 تجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة Corsaire الفرنسية التي تعني رجل عصابات بحرية ، هي من الأصل الإيطالي Corsa التي تعني الملاحقة تعود إلى القرن 12 الميلادي ، (راجع قاموس Petit Robert ، مادة Corsaire) ، وقد يكون أصلها مشتقا من اسم جزيرة الكورس (كورسيكا) الفرنسية .

كتلك الظروف التي كتب فيه شكري خوجة روايته، وهي ظروف أقل ما يقال فيها أنها تعطيه مبررا لانتهاج هذا الأسلوب.

ونستطيع أن نجد أدلة عديدة في الرواية تؤكد هذا الأسلوب المموه، وتثبت عكس ما يحاول الكاتب أن يعبر عنه في الظاهر، حتى بالنسبة للأتراك الذين كنا نظن أن الكاتب قد اتخذ منهم، منذ البداية، موقفا معاديا واضحا ونهائيا، إذ يتبين لنا فيما بعد أن ذلك يدخل في أسلوب التمويه الذي أشرنا إليه، والدليل على ذلك شخصية إسماعيل حاجي نقيب الصَّاغة، وهو شخصية مهمة وفاعلة في أحداث الرواية، الذي أعطاه المؤلف صورة لا غبار عليها في معاملته للأسير (البطل) " برنار لوديو "، إن لم نقل صورة مشرفة لرجل يتمتع بكل المقومات التي يفترض أن تجعل منه رجلا جبارا متكبرا، كالأصل التركي الذي يضعه في طبقة الأشراف، والمال الكثير، والنفوذ لدى الحكام وأصحاب القرار، والمكانة الاجتماعية المرموقة لدى الخاصة والعامة من الناس، ومع ذلك كله، فإنه كان في غاية الإنسانية والمعاملة الحسنة لأسيره وعبده "لوديو"، معاملة خليقة برجل مسلم مثله، يحرص على التعامل مع الآخرين حسب قواعد الشرع والدين. وانطلاقا من واجبه كمسلم - كما قال لأسيره - عمل على ترغيبه في الدخول في الإسلام، وواعده أن يمنحه حريته إن هو أسلم، وأن يجعل منه مساعدا له في أعماله، وذكر له العديد من المزايا التي سيحصل عليها بإسلامه.

ويتضح لنا من كلام إسماعيل حاجي مع أسيره، أن تلك المزايا التي كان يحاول أن يغريه بها ليدخل في الإسلام، هي في الواقع مزايا كان يتمتع بها كل الأسرى المسيحيين الذين دخلوا قبله في الإسلام. يقول له ((انظر حواليك، ألا ترى المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام أكثر مني سعادة ؟ الكل يقدرهم ويحترمهم، ولا أحد يستطيع أن يعتدي على كرامتهم)) [638] وهذا يعني أن الحكام الأتراك، كانوا في هذا الإجراء منصفين، وهم بهذا يطبقون مع عبيدهم وأسراهم، بموازة من أفراد الشعب وتأييدهم، تعاليم الإسلام الصحيح الذي لا يميز في المعاملة بين مسلم وآخر، ويجعل جميع الناس سواسية كأسنان المشط، فإذا دخل شخص في الإسلام صار واحدا من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم.

وحين علم إسماعيل حاجي من زوجته ، بتعلق ابنته زينب بأسيره "لوديو"، ثار في أول الأمر، وهدد بقتل الأسير، ولكنه بعد أن استشار صديقه لطيف أفندي، هدأت نفسه بعض الشيء، وعاد من جديد يدعو "لوديو" إلى الإسلام، مدفوعا في هذه المرة، ليس من واجبه كمسلم فحسب، ولكن تجنبا للفضيحة أيضا، وتكفيرا عن ذنبه إزاء ابنته الوحيدة، التي أحس أن له ضلعا في افتتانها بهذا الأسير المكتمل الرجولة. حين وضعه في خدمته داخل داره [639] ومن ثمة راح يمارس عليه ضغوطا مختلفة عن طريق ناظر عماله، إلى أن أسلم في الأخير، فأعتقه فعلا ، وزوجه بابنته عملا بنصيحة لطيف أفندي.

---

638 « El-Euldj.. », p44.
639 Ibid, p54.

ولطيف أفندي هذا نفسه، كان نموذجا آخر يقدمه لنا المؤلف للتركي المتحضر، فقد بدا لنا من حواره مع صديقه إسماعيل حاجي، ذا عقل متفتح، ورأي متحرر وصريح، وصاحب نظر بعيد[640]. يتجلى ذلك في هذا الموقف الإنساني من الأسير، والرأي الصائب الذي أشار به على صديقه إسماعيل، بدفعه إلى الدخول في الإسلام، وتزويجه بابنته، ولو كان على شاكلة الأتراك الذين تحدث عنهم المؤلف في البداية لحرَّضه على قتل "العبد"، أو جلده بالسياط حتى الموت، أو أي عقاب آخر يتفق ووضع الأسير والعبد على السواء، اللذين كانا مجردين من أية حقوق في ذلك المجتمع.

وكان المؤلف قد عرض علينا من قبل شخصية مثالية أخرى هي شخصية مصطفى لوعيل الذي أمر الحاكم بإعدامه، فقد كان يتمتع بكل مميزات الرجل المتحضر، من ضمير حي، وعقل مثقف، وشجاعة أدبية كبيرة جعلته يجهر بالحق في دولة سلطان جائر. ولئن كنا لا ندري أهو تركي أم جزائري الأصل، فإن ذلك لا أهمية له في نظرنا، ما دام يعيش بين الأتراك كواحد منهم، ويتمتع في دولتهم بصفة المفاوض التجاري الكبير.

2 ـ غزو " شارل كان للجزائر"

وهناك حادثة تاريخية مهمة تعرض لها المؤلف في ثنايا الرواية، وفيها يبدو جليا كيف أخفق في محاولة إخفاء عاطفته الدينية والوطنية بأسلوب التمويه الذي أشرنا إليه، وذلك حين تحدث عن الحملة البحرية الضخمة التي

---

640 Ibid, p53,54.

قادها "شارل كان " امبراطور إسبانيا على الجزائر سنة 1541، وهي الحملة التي تتزامن والفترة التي تجري فيها أحداث الرواية، فوصف أسباب تلك الحملة بعبارات واضحة لا تقبل التأويل، إنها غزو مقنّع، ورغبة من "شارل كان" في التوسع والاستعمار، حتى وإن حاول أن يبرر غزوه ببعض الحقائق التي لا يمكن نكرانها لكنها في الوقت نفسه ليست هي الأسباب الحقيقية، يقول: ((بدعوى أن حكومات بربروسيا تتعاطى القرصنة بلا عقاب - وهذا صحيح - ولكن، وعلى الخصوص، برغبة غير معلنة في غزو العالم، أعدَّ شارل كان سنة 1541 حملته الشهيرة على الجزائر)) [641].

3-ذرائع الغزاة هي نفسها دائما

ونلاحظ هنا أن الذرائع التي برر بها "شارل كان" غزوه للجزائر سنة 1541، هي الذرائع ذاتها التي برر بها حكام فرنسا غزوهم للجزائر سنة 1830، كما كانت نواياهم الحقيقية هي نواياه نفسها، لكن المؤلف لا يذكر ذلك صراحة وإنما يتركها لتفهم ضمنيا عن طريق التداعي والمقارنة الذهنية، لأن مجرد التطرق إلى حملة شارل كان على الجزائر تستدعي في ذهن القارئ بصفة آلية حملة الفرنسيين عليها سنة 1830.

ولا يكتفي المؤلف بهذه التلميحات، أو الإسقاطات التي تتحدث عن شيء وتشير من طرف خفي إلى شيء آخر، فقد حرص المؤلف على إظهار رد الفعل الشعبي إزاء غزو شارل كان، حيث يشير لأول مرة إلى "الشعب" الذي

---

641 « El-Euldj.. », p118.

أخرج السلاح، وهب للدفاع عن نفسه وأرضه في تكاتف مع الحكام الأتراك ضد العدوان الخارجي لا سيما أن مدافع شارل كان كانت تـزرع المـوت في الشـوارع بلا تمييز بين التركي وغير التركي، ولم يتخلـف عـن تلبيـة نـداء الجهـاد إلا الشيوخ والعجزة ، الذين لجؤوا إلى المساجد، يحتمون بها ويقيمون الصلوات ، ويرفعون الدعوات إلى الله ليرد عن البلد عدوان المعتدين [642].

ونلاحظ أن الكاتب، حينما يتحدث عن المقاومة الشعبية ، فإنه يستعمل لفظ "الشعب" (Le peuple)، ولا يجاري المستوطنين الأوربـيين في اسـتعمال لفـظ (La population)، الـتي يحرصـون علـى اسـتعمالها دائمـا كلمـا تعلـق الأمـر بالجزائريين، وهي تعني التجمعات السكانية، ويتعمدون استعمالها بقصد واضح وهو إنكارهم الضمني أن يكون الجزائريون يشكلون شعبا.

ولا يفـوت الكاتـب أن يـبرز جانبـا مـن فعـل المقاومـة الشـعبية للجنـود الإسبان، التي كانت ترهقهم بمناوشـاتها الجانبيـة أثنـاء زحفهـم نحـو أعـالي الجزائر، وعند انسحابهم منها، وتحرشها بهم طوال النهـار، وطـوال سـاعات الليل ((فبعد تعب رحلة بحرية طويلة لم يتمكنوا حتى من أخذ بعض الراحة ، فقد كان المور (الجزائريون) يتحرشون بهم، ويطلقون النار من بنـادقهم القويـة ليمنعوهم من النوم)) [643].

وعلى لسان حسن آغا قائد الجيش يشيد الكاتـب بـدور هـذه المقاومـة، ويؤكد التكـاتف الـذي أشـرنا إليـه آنفـا بـين الشـعب وبـين القيـادة التركيـة،

642 « El-Euldj.. »,,, p119.
643 Ibid, p123.

ويستعمل القائد بدوره عبارة "الشعب" وعبارات أخرى تعبر كلها عن روح وطنية حقيقية، بعيدة تماما عن صورة "القراصنة " التي ألصقها بهم أعداؤهم الأوروبيون، يقول: ((بلى، إنني أريد لهؤلاء الجنود المتهورين أن يتمكنوا من عبور الحراش والحميز، ويذهبوا وراء البحار ليقولوا أن بلدنا ليس محميا بقدرة الله فحسب، ولا بتكوين سهوله الجافية، ووديانه الموبوءة ، ولكنه محمي أيضا بشعب شجاع لا يهاب الخطر ولا الموت))[644]

وكان الكاتب قد أعطانا في البداية ما يشبه الخلاصة في حملة شارلكان هذه، التي يرى لا يتردد في وصفها بالحملة الفاشلة على جميع المستويات، مثلها مثل حملته على تونس سنة 1535((التي لم يخرج منها إلا بنتيجة واحدة إيجابية بقيت عالقة في ذاكرة الناس، وهي أنه تمكن من تحرير عشرين ألفا من الأسرى المسيحيين))[645]، وهي نتيجة إيجابية لأنها عملت على تحرير الإنسان. وكأني بالمؤلف يريد أن يقول: إن كل أعمال الغزو والعدوان مآلها الزوال والنسيان، ولا يبقى عالقا في الذاكرة إلا العمل الخيِّر الذي يحرر الإنسان من العبودية والأسر، مهما كان جنسه أو دينه، ويرتقي به نحو ما يحقق إنسانيته بشكل أقوى.

4 ـ راحة الضمير في العودة إلى الأصل

ويبقى الخط الرئيسي الموجه لرواية "العلج" هو قبل كل شيء موضوع "التجنس" الذي كان يشكل وموضوع"الاندماج" قضية الساعة على عهد

---

644 Ibid,p126.
645 Ibid p118.

الكاتب، ويجسد إشكاليته الأسير الفرنسي "برنار لوديو"، الذي أصبح يدعى"عمر لوديوس" بعد إسلامه، وأصبح بحكم وضعه الجديد، وزواجه من ابنة اسماعيل حاجي، واحدا من أهالي مدينة الجزائر ، وواحدا من عامة المسلمين . لكن ، هل يمكن أن يحدث هذا حقا من الناحية العملية ؟ وهل يستطيع شخص في ظروف "برنار لو ديو"، وهو العبد الأسير ، أن يدخل الإسلام بكامل إرادته ، وعن اقتناع تام بما أقدم عليه ؟ وهل يكفي حقا أن يدخل الشخص في ديانة قوم غير قومه، ويتزوج منهم ، ويعيش بين ظهرانيهم فترة من الزمن ليصبح واحدا منهم ؟ هل يستطيع فعلا أن ينسى عقيدته الأولى التي نشأ عليها، وبلده الذي رأى فيه النور لأول مرة، وذكرياته فيه ، وأسرته ، وأهله، ويقطع صلته بكل ذلك الماضي حلوه ومره، كأن شيئا لم يكن؟ إن ذلك مستحيل، هذا ما أراد الكاتب ببساطة أن يقوله في رواية "العلج أسير بربروسيا" .

إن "برنار لوديو" لم يدخل الإسلام بإرادته الحرة، فوضعه كأسير وعبد يتناقض والإرادة الحرة، ثم إنه تعرض لضغوط عديدة، يأتي في مقدمتها - بالطبع - وضعه كأسير وعبد، الذي كان يدفعه إلى البحث عن أية وسيلة تخرجه من جحيم الأسر والعبودية ، ولم تكن أمامه وسائل كثيرة لتحقيق ذلك، فقد كان أمامه ثلاثة خيارات لا أكثر: إما المغامرة بالهرب عن طريق البحر وهي وسيلة خطرة وغير مضمونة العواقب وقد جربها بعض الأسرى وعادت عليهم بنتائج وخيمة، أو دفع فدية لحكومة الباشا خير الدين، وهي باهظة القيمة لا يقدر عليها إلا قلة من الناس، أو الدخول في الإسلام وهو الأمر الوحيد

المتاح له. كما تعرض أيضا لضغط قوي من قبل إسماعيل حاجي - كما بينا آنفا - اتخذ في الأول طابع الترغيب، ثم تحول إلى ترهيب، بعد أن علم حاجي بتعلق ابنته بأسيره، ويتجلى لنا مدى ذلك الضغط النفسي الذي مارسه عليه سيده من خلال شكواه لصديقه وشريكه السابق في الزنزانة "ألبير كويزينيي"، الذي صادفه في باب عزون، وهو في طريقه إلى الحقل، حيث بادره بهذه العبارة اليائسة: ((لقد حوصرت يا صديقي..))، وفهم صديقه أنه يحاول أن يختلق مبررا لاعتناق الإسلام، ويبحث له عن تأييد معنوي منه يتغلب به على تردده، وكان "لوديو" قد لَمَّح له في أحاديث سابقة بمثل هذا الاحتمال، وكان يرفض هذه الفكرة حتى ولو على سبيل المزاح، ولذلك رد عليه في حسم: ((إنك تطلب مني المحال..)) [646].

وبالرغم من هذا الرد الحاسم من "كويزينيي" الذي بدا كأنه يضع حدا مسبقا لأي نقاش في الموضوع، إلا أن الحوار تواصل بينهما، وجاء في جزء منه ما يلي:

- أقسم لك أنني ما اعتزمت هذا العزم إلا من أجل أن أنهي ألوان العذاب والمذلة التي يعاني منها الأسرى.

- إنه جبن .

---

646 ينبغي أن يكون الفرق واضحا لنا بين "الاندماج" L'assimilation ، و"التجنس" La naturalisation ، فالأول يعني أن يندمج الشخص (أو الجالية) في مجتمع ما غير مجتمعه الأصلي مع الاحتفاظ بعقيدته ومقومات هويته الأساسية ، أما الثاني فيقصد به التخلي عن كل مقومات شخصيته بما في ذلك الإسم والعقيدة الدينية ، وقد كان كلا الخيارين مطروحين على الجزائريين .

ـ إنني لا أخاف الأتراك ولكن أخاف من الشقاء الذي يسببونه[647].

ومن هنا يتضح لنا جانب آخر من الضغوط التي كان يعاني منها البطل، وهي في هذه المرة ضغوط مضادة آتية من الأسرى الآخرين، ولا سيما من أولئك الذين كانوا يجاورونه في السجن، وظلوا على صلة به بعد أن غادره، حيث كانوا يلتقون به أثناء قيامهم بأعمال السخرة في الأسواق وفي الحقول، من أمثال صديقه وابن بلده "كويزينيي"، ومثل الإسبانيين "فرانكو كاسبيرو"، والقس "سابليرو". ومن هذا الحوار أيضا يتضح لنا أن اعتناق "لوديو" للإسلام لم يكن عن شك وارتياب في عقيدته المسيحية، أو لأنه وجد في الإسلام ما يستجيب لحاجات ما روحية لم يجدها في النصرانية، ولكنه كان بالدرجة الأولى هروبا من الأسر والعبودية، وبالدرجة الثانية نتيجة للضغوط التي مارسها عليه إسماعيل حاجي بصفة خاصة، والمحيط الاجتماعي المسلم الذي كان يعيش فيه بصفة عامة. وسنجد فيما بعد وقائع وتصريحات عديدة تثبت أن إسلامه لم يكن إلا إسلاما شكليا قصد به التخلص من ربقة الأسر والعبودية أما في دخيلة نفسه فقد ظل على إخلاصه لعقيدته الأولى، المسيحية.

وهذا ما يفسر من ناحية أخرى جزء كبيرا من صراعه المرير مع نفسه، وتردده الكبير في الإقدام على تلك الخطوة التي نوى أن يخطوها ، وهي الدخول في الإسلام، فقد كان مشغولا طوال الوقت بالتفكير من جهة في بارقة الأمل هذه التي سيستعيد بها حريته ويتخلص من ذل الأسر والعبودية ،

647« El-Euldj.. », p56.

وبالتفكير من جهة أخرى في بلده، وفي زوجته وأطفاله، وفي أهله ومعارفه، الذين سيكون اعتناقه للإسلام معناه قطع الصلة بينه وبينهم نهائيا، كما كان يفكر أيضا في رد الفعل لدى أصدقائه ومعارفه من الأسرى الآخرين، الذين لا يتوقع منهم إلا أن يحتقروه وينبذوه ويرموه بالجبن والخيانة مثل ما فعل صديقه "كويزينيي".

وقد ظل في هذه الدوامة من التفكير أياما وليالي، لا يهدأ له بال، ولا يغمض له جفن ولا يرتاح له جنب، إلى أن وضع ذات يوم حدا لتردده وصراعه مع نفسه، حين قصد جامع كتشاوة، وأشهر إسلامه أمام جمع غفير من المسلمين جاؤوا لأداء الصلاة [648]

وبالطبع، فقد سر إسماعيل حاجي كثيرا عندما بلغه خبر إسلام أسيره "لوديو"، وأعتقه كما واعده، وزوجه بابنته بعد عملية الختان التي أجريت له طبقا للشرع الإسلامي[649]. واتخذه مساعدا له في إدارة أعماله، ولم يساوره أدنى شك في صحة إسلامه. وهو هنا يتصرف وفق القاعدة الشرعية المعروفة التي تقول بأن الحكم على العباد يكون على الظواهر، والله وحده هو الذي يتولى السرائر.

وقد تعزز مركز "عمر لوديوس" عند صهره حينما ولد له ولد ذكر اختار له إسم يوسف، وحينما بلغ سن الدراسة تولى الجد الإشراف بنفسه على تعليمه وتنشئته بالصورة التي أرادها له، وهي أن يجعل منه عالما متبحرا في العلوم الشرعية، ومفتيا يفتي الناس في أمور دينهم. وكان له ما أراد رغم معارضة

---

648 Ibid p57.
649 « El-Euldj.. », »,,, p70.

"لوديوس" ((الذي خشي أن يرى ولده يضيع منه إلى الأبد وسط الأمواج الملاطمة للمحيط الإسلامي)) [650]، ولكنه برر معارضته بعدم رضاه عن الصورة التي كان عليها "الطلبة " في ذلك الزمان، فقد كانوا في نظره ((يضيعون وقتهم " في قضم أشعار لا جدوى منها"، ويبدون في تجمعاتهم "وكأنهم ينمّون..")) [651].

غير أن "لوديو" وإن تخلص من حالة الأسر والعبودية المادية التي كان يعيشها بجسده، فإنه لم يتمكن من التخلص من حالة الأسر المعنوي والعبودية الروحية، فقد ظل دائما يحس بعذاب الضمير، وبالندم على تخليه عن عقيدته المسيحية. وقد صرح بذلك في العديد من المرات لصديقه "ألبير كويزينيي"، ومن ذلك قوله له ذات مرة: ((إنك تعرف جيدا أنني نادم على كل ما فعلت، ولحسن الحظ أنني وجدت فيك الشخص الذي أبوح له بسري، وأخلص نفسي من تأنيب الضمير الذي لم أعد قادرا على كتمه في دخيلة نفسي دون ألم)) [652]، كما صارح زوجته بحقيقة ما يشعر به عندما لاحظت اكتئابه ووجومه، وسألته سؤالا استنكاريا " إن كان قد ارتكب جريمة قتل ؟ " فأجابها بقوله: ((إن ضميري يعذبني، يا زينب (...) لقد ارتكبت ذنبا أكبر من جريمة القتل ، لقد قتلت دينا هو ديني)) [653]

وقد افتضح أمره يوم أن غزت جيوش "شارل كان" مدينة الجزائر، فظن أن ساعة الخلاص قد أزفت بالنسبة إليه وبالنسبة لكل الأسرى المسيحيين،

650Ibid p83.
651 Ibid p81.
652 Ibid, p83.
653 Ibid, p85.

ولكنه عندما شاهد انسحاب الجنود الإسبان وهم يجرون وراءهم أذيال الخيبة والخذلان أصابته صدمة قوية فقد على إثرها أعصابه، وفي مسجد كتشاوة الذي شهد نطقه بالشهادتين منذ أكثر من عشرين عاما، معلنا إسلامه، قام - وسط دهشة المصلين الذين تجمعوا فيه لإقامة صلاة الخوف - يرسم علامة الصليب، ويؤدي الصلاة المسيحية. وقد أبى الكاتب - وكأنه يمعن في إظهار سخرية الأقدار - إلا أن يجعل إمام المصلين بالجامع في ذلك اليوم هو إبنه يوسف، الذي أصبح مفتيا [654].

والشيء المؤكد، أن الكاتب يحاول هنا أن يسقط حال هذا الأسير الفرنسي، وحال الأسرى المسيحيين الآخرين - سواء منهم أولئك الذين استسلموا للإغراءات والضغوط، أو أولئك الذين ضلوا صامدين ومتمسكين بعقيدتهم - على حال الجزائريين في ظل الاستعمار الفرنسي، ويقارن بطريقة غير مباشرة، محنته بمحنتهم، حين طلب إليهم بدورهم أن يتخلوا عن دينهم وعن مقومات شخصيتهم، ليكونوا فرنسيين ومسيحيين، وتعرضوا بسبب ذلك لمختلف أنواع الضغوط، وسياسات الترغيب والترهيب، بالتبشير المسيحي المباشر تارة، وبإغراءات الحصول على حق المواطنة الفرنسية تارة أخرى، والحصول على الحقوق المدنية والسياسية مرة ثالثة، وهكذا.

وفعلا، فإننا إذا تأملنا أوضاع هؤلاء الأسرى على عهد الحكم التركي في الجزائر وأوضاع الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنسي، فإننا نجد تشابها قويا

654 Ibid p120.

على أكثر من صعيد، فهناك الحكم التركي الأجنبي - من وجهة نظر المؤلف على الأقل - الذي يقابله حكم الاحتلال الفرنسي، وهناك طبقة تتحلق حول الحاكم وتتكون من كبار موظفي الدولة، وضباط الجيش، ورؤساء البحر، ومعظم هؤلاء من الأتراك، يضاف إليهم الوسطاء، والمضاربون، والتجار الكبار الذين ترتبط مصالحهم جميعا بالنظام القائم، تقابلها بدورها طبقة مماثلة في نظام الحكم الاستعماري من كبار موظفي الدولة، وجنرالات الجيش، وبقية المستفيدين الآخرين من سماسرة ومضاربين، وملاك الأراضي، وأصحاب المال والأعمال، وكلهم أوروبيون، وتأتي في الدرجة الدنيا طبقة العبيد من الأسرى الأوروبيين الذين ازداد عددهم مع مرور الوقت، بسبب الحرب البحرية التي اتسعت دائرتها بعد خروج المسلمين من الأندلس، فأصبحوا يشكلون احتياطيا كبيرا من اليد العاملة، يقومون بأعمال السخرة في الميناء، وفي الأسواق والمحلات التجارية، وفي البساتين والحقول، وفي المنازل، وكان هذا بالضبط هو وضع الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنسي، حيث أصبحوا يقومون بكل تلك الأعمال مثل العبيد، وكانوا في حكم أسرى الحرب الذين لا يتمتعون بأية حقوق مدنية أوسياسية، مع وجود فارق وحيد هو أن عدد العبيد قد تضخم في هذه المرة ليصبح بضعة ملايين من البشر عوض بضعة آلاف مثل ما كان في عهد الأتراك، كما انعكس الوضع بالنسبة للسيد والمسود، بحيث أصبح الأوروبيون هم السادة وأهل البلد هم العبيد.

ومن هنا نرى أن الكاتب حينما طرح في روايته هذه إشكالية "الاندماج" و"التجنس" إنما كان يطرح في الواقع إشكالية الحرية والعبودية كوضع إنساني،

بصرف النظر عن الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان، أو الدين الذي يعتنقه، أو الزمان أو المكان الذي يعيش فيه، ومن ثمة فهو يطرح سؤالا فلسفيا دقيقا ومحددا هو: هل في إمكان العبد أو الأسير أن يختار حقا بكامل إرادته، وأن يكون له رأي فيما يختاره، في حين أن وضعه كعبد يتناقض أصلا مع فكرة الاختيار وحرية الرأي واتخاذ القرار ؟

والجواب العملي عن هذا السؤال أعطاه الكاتب من خلال شخصية "برنار لوديو"، الذي اضطرته ظروفه القاهرة أن يتظاهر بما ليس فيه، وأن يعيش ما ينوف عن العشرين عاما حياة مزدوجة، معلقة بين عقيدتين، ومجتمعين، وبلدين، وحضارتين، وزوجتين، وأسرتين، يعاني من جهة من القلق النفسي ومن الخوف أن يفتضح أمره ويظهر في أعين من احتضنوه، وأحسنوا إليه، وجعلوه واحدا منهم، مخادعا، ومنافقا، وناكرا للجميل، ويكون بذلك عرضة لإقامة الحد عليه. وهو القتل في هذه الحال، باعتباره مرتدا عن الدين، ويعاني من جهة أخرى من تأنيب الضمير إزاء دينه الأصلي، وبلده، وأهله، والأسرى الآخرين، وبني قومه بصفة عامة، بالإضافة إلى شعوره بالدونية والعجز من احتقار هؤلاء له، وإنكارهم لما فعله، ونبذهم إياه.

وهذا بالضبط هو واقع الحال بالنسبة للجزائري الذي تستهويه الإغراءات أو يستسلم للضغوط ويقدم على "التجنس". هذا ما يريد أن يقوله الكاتب ضمنيا، لن يكون إلا "برنار لوديو" معكوسا، يعاني من نبذ مجتمعه الأصلي، ومن رفض مجتمعه الجديد، ومن القلق النفسي، والعزلة، وعذاب الضمير، وينتهي به الأمر إلى الانهيار النفسي والجنون. لماذا ؟ لأنه يفتقر إلى الشرط

الرئيسي للوجود الإنساني وهو الحرية، فبدون الحرية لا يستطيع الإنسان أن يختار حقا بكامل وعيه وإرادته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإنسان لا يمكن له أن يكون شيئا آخر غير ذاته، مهما طرأ على حياته من جديد، ومهما غير من تفكيره ومعتقداته، ونمط عيشه، إذ لا يعقل أبدا أن يمسح ذاكرته نهائيا، كأنما ولد من جديد، ويتخلص من كل أفكاره السابقة، وعواطفه، وتجاربه في الحياة، وروابطه العائلية، وعاداته التي نشأ عليها، ومعتقداته الدينية وغير الدينية التي كان يعتنقها. إن ذلك في نظر الكاتب هو المستحيل بعينه.

* * *

- رواية "مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ [655]:

موضوع هذه الرواية هو أساسا قصة حب جد عادية - إذا نحن جردناها من الجانب المغامراتي فيها - تنشأ بين شاب جزائري مثقف هو أحمد المسعودي، الذي يصفه الكاتب بأنه جزائري "متطور"، وبين فتاة فرنسية هي "مريم ديبيسي" التي جاءت نتيجة لزواج مختلط بين ضابط فرنسي يدعى "ليون ديبيسي" النقيب في جيش الاحتلال، وامرأة جزائرية تدعى خديجة، وتنتهي

---

655 محمد ولد الشيخ (1906 . 1938) ، ينتمي إلى قبيلة أولاد سيدي الشيخ التي اشتهرت بمقاومتها للاستعمار الفرنسي في الجهة الجنوبية الغربية من الجزائر ، ولد في مدينة بشار ، في 1906/02/23 وبها تابع دروسه الابتدائية في المدرسة الفرنسية ، ثم بعث به والده الآغا الشيخ بن عبد الله إلى وهران لمواصلة الدراسة الثانوية ، لكن جو المدينة المشبع بالرطوبة لم يلائم صحته ، وكان يعاني من مرض السل ، الذي تمكن منه بسرعة ، ولم تفده كثيرا تلك الرحلات الاستشفائية التي قام إلى أماكن عديدة داخل الجزائر وخارجها ، وخاصة إلى حمام بوحنيفية الطبيعي ، وحمامات "فيشي" بفرنسا ، حيث توفي بتاريخ 30/01/ 1938 عن عمر يناهز الثانية والثلاثين . أعماله المنشورة : "أغنيات لياسمينة" (شعر) 1930 ، و"مريم بين النخيل" (رواية) 1936 ، ومسرحية "شمشون الجزائري" التي نقلها محي باش تارزي إلى العامية ، وقدمها على خشبة المسرح سنة 1937 . وله بعض القصص القصيرة التي نشرها في منتصف العشرينيات مع بداية عهده بالكتابة في الصحافة المحلية

الرواية في الأخير بالزواج، مثل ما يتوقع القارئ في مثل هذا النوع من قصص الغرام التقليدية، وذلك بعد سلسلة من المغامرات والجهود المضنية التي يقوم بها الأبطال، فتكون هذه النهاية السعيدة تتويجا لجهودهم وتضحياتهم، بالرغم من شدة المعاناة وقوة الخصم.

1- بين التاريخ والخيال الروائي

وقد ربط الكاتب بين هذه القصة الغرامية وبين "قصة" أخرى[656] واقعية تاريخية حقيقية معاصرة، هي قصة احتلال القوات الفرنسية لواحة "تافيلالت"، الواقعة في الجنوب الشرقي للقطر المراكشي، في منتصف يناير من سنة 1932. وقد لخص الكاتب بنفسه موضوع الرواية، وربط بين القصتين على النحو التالي: ((إنها قصة شعب عاش القمع طويلا، من طغاة برابرة، وقصة شابين جزائريين من شباب القرن العشرين، عربي متطور وفرنسية. فعلى الرغم من الأحكام العرقية المسبقة، فإن الصداقة قربتهما من بعضهما، والحب وحّد بينهما)) [657].

والواقع أن هذا الربط بين القصتين قد جاء من الناحية الفنية مفتعلا ومتعسفا، لأن المصادفة تلعب فيه دورا رئيسيا، وذلك حينما جعل الكاتب طائرة البطلة - التي كانت تهوى الطيران وتمارسه - تتعطل في سماء " تافيلالت "، وتنزل نزولا اضطراريا على أرضها، فيقبض عليها وعلى مرافقها الميكانيكي

---

656 يسميها الكاتب بدورها قصة كما سيأتي في النص الذي سنورده بعد قليل.

657 Mohammed Ould Cheikh « Myriem dans les palmes », en guise de prologue sous le titre interieur du roman.

رجال "بلقاسم نقادي"، الذي كان يسيطر على الواحة، ويتزعم الثورة ضد الفرنسيين وسلطان مراكش معا.

ومن هنا تبدأ مغامرة أبطال الرواية: مريم الأسيرة، وحبيبها أحمد مسعودي، وأخوها "جان حفيظ"، الضابط في مخابرات جيش الاحتلال، وكذا زهراء زوجته، الذين التحقوا خفية بتافيلالت بعد أن بلغهم خبر وقوع مريم في الأسر، وراحوا يعملون، كل من جهته، ثم بالتعاون بعد ذلك فيما بينهم، من أجل إطلاق سراح الأسيرة، من بين أيدي القوى المضادة التي تتمثل أساسا في "الطاغية" بلقاسم ورجاله، ومعهم منافس أحمد مسعودي على حب مريم، المرتزق الروسي الأصل، ومهرب السلاح "إيباطوف"، الذي وجد فرصة سانحة للانتقام من مريم بعد أن نبذته وفضلت عليه "بيكو" عربي - على حد تعبيره -[658].

غير أن الربط بين القصتين قد جاء على الأرجح ربطا اضطراريا بالنسبة للكاتب، تماما مثل هبوط الطائرة في أرض الواحة، وإلا لكان قد قدم لنا قصة حب عادية جدا، وهزيلة، لا إثارة فيها ولا جاذبية، من جهة، وسردا جافا، من جهة أخرى، لوقائع تاريخية لا علاقة لها بالفن الروائي لو اقتصر ما كتبه على غزو القوات الفرنسية للواحة لا غير. والظاهر أن دافعه لكتابة الرواية، كما

---

658 هذه اللفظة "بيكو" يقصد بها التحقير، ومعناها الأصلي (الإيطالي): "التيس"، وينعت بها العربي عامة لسواد شعره وسمرة بشرته، بالإضافة إلى الدلالات الأخرى التي تلصق بهذا الحيوان.

يصرح في المقدة ((إنما من أجل أن يسر به رواد دعاة التقارب الفرنسي الإسلامي (...) دون الإضرار بالحقيقة التاريخية، أو بعادات تافيلالت)) [659].

2 ـ حقائق مزيفة

وعلى الرغم من التفاصيل التاريخية الكثيرة التي ضمنها الكاتب في صلب الرواية عن واحة تافيلالت، وعن هجوم القوات الفرنسية عليها، فقد أبى إلا أن يقدم في الأول مدخلا منفصلا عن الرواية من تسع صفحات، عن تاريخ الواحة منذ تأسيسها عام 140 هجرية، من قبل الخوارج الصفرية، الذين أطلقوا عليها اسم "سجلماسة"، وهو الاسم الذي عرفت به في القديم[660]، مرورا بمختلف أطوار تاريخها، تحت حكم المرابطين، فالموحدين، فالمرينيين، فالزيانيين، وصولا إلى العصر الحديث، حين صارت تابعة لحكم "الشرفاء" أو أسرة العلويين، مع إيراد تفاصيل عن الثورات التي وقعت فيها ومختلف الاضطرابات التي شهدتها حديثا، إلى أن احتلها الفرنسيون في آخر الأمر[661].

---

659 « Myriem dans les palmes », Avant-propos, pIV.

660 يشير المؤلف في الهامش إلى مصدر معلوماته بهذا الشأن، فيذكر مقالا للسيدة "مارت كوفيون" بعنوان "التافيلالت وجبل سارهرو" نشر في مجلة "الرحالة"، عدد مارس. أبريل 1933، كما يذكر أيضا أنه استفاد من المعلومات الشفوية التي زوده بها بعض أهل الواحة أنفسهم. راجع مقدمة الرواية: « Myriem dans les palmes », pV.

661 ولا ينسى المؤلف أن يسوق ضمن هذه المعلومات تأويلا يتناقله الناس عن الاسم الحديث للواحة، الذي يتركب من كلمتين: هما "توفوا" و"لا، لا" وهو خلاصة الحوار الذي دار بين الرجل الصالح الحسن بن قاسم رأس الشرفاء، الذي جاء به سكان الواحة من البقاع المقدسة، وبنوا له "زاوية"، وزوجوه منهم، وواعدوه بربع غلتهم من التمر إن هو خلصهم من مرض البيوض الذي أصاب نخيلهم فدعا لهم، ولما استجاب الله لدعائه وخلصهم من مرض النخل أخلفوا وعدهم له، فقال لهم "توفوا" فأجابوه "لا،لا"، فسميت الواحة منذ ذلك الحين "توفولالا" أو "تافيلالت"، وهي رواية مهلهلة وغير مقنعة كما هو واضح في سياقها.

وفي هذا المدخل التمهيدي الطويل يأتي المؤلف على ذكر العديد من الحكام الذين تعاقبوا على حكم الواحة، وزعماء الثورات والانقلابات التي حدثت فيها، ويركز بشكل خاص على شخصية بلقاسم نكادي الذي سيكون له دور رئيسي في أحداث الرواية، لكونه آخر حكام الواحة، وهو الذي سيجابه بجيشه في مطلع سنة 1932 قوات الفرنسيين التي جاءت للاستيلاء على الواحة، وكان بلقاسم قبل استيلائه على الحكم يتولى قيادة جيش زعيم آخر ثورة قامت في تلك المنطقة قبل استيلاء الفرنسيين على الواحة، وهو المدعو "مبارك أو شتو" من قبيلة آيت سملال، الذي ثار على حكم العلويين، وادعى أن روح الولي "محمد نفروتن" قد حلت فيه ، فاتبعه الناس، ولقبوه باسم "مولاي محمد نفروتن"، وحقق انتصارات سريعة على حاميات السلطة المركزية، لكنه سرعان ما فقد الثقة في قائد جيشه "بلقاسم" ((الذي لم يكن ينتظر إلا مبررا للتخلص من رئيسه الرهيب، فقتله برصاصة في الرأس)) [662]

وينسب المؤلف لبلقاسم جرائم أخرى قام بها بعد ذلك، منها اغتياله لمنافسه الآخر على زعامة الثورة وقيادة الجيش "علي أوماما"، وقتله أيضا لمولاي لحسن ممثل المخزن (الحكم المركزي) ولحبر وتاجر يهوديين، وحكمه بالإعدام على أناس أبرياء والاستيلاء على أموالهم[663]

3 ـ مبررات الاحتلال هي نفسها:

وبهذا يكون المؤلف قد رسم مسبقا في ذهن القارئ صورة في غاية السوء عن هذه الشخصية، وقدمها على أنها شخصية دموية، تثير الرعب في قلوب سكان الواحة، وتحكمهم بقبضة من حديد، وبهذا أيضا يكون المؤلف قد وجه

662 « Myriem dans les palmes », pXI.
663 Ibid, pXII.

القارئ إلى الاستنتاج الممكن والوحيد في هذه الحالة، وهو أن استيلاء القوات الفرنسية على الواحة، إنما جاء ليخلص أهلها من ظلم هذا الطاغية، ويشيع السلام في ربوعها، ويؤمن أهلها على أرواحهم وأرزاقهم.

مع العلم أن المؤلف قد قالها صريحة في أكثر من مناسبة في ثنايا الرواية، ومنها قوله على سبيل المثا ل في معرض حديثه عن تافيلالت بعد أن احتلالها ((إن الأهالي يتمتعون اليوم بأمن لم يعرفوه من قبل أبدا، أما عن "القصوريين" الأغنياء فإنه ليس في إمكانهم إلا أن يباركوا الهيمنة الفرنسية التي خلصتهم من اعتباط الطغاة)) [664]. وكان قد ردد هذا المعنى نفسه عند حديثه من قبل عن مدينة "بشار" بالجنوب الغربي الجزائري، التي قال عنها بدورها إنها لم تكن قبل دخول الفرنسيين إليها إلا " موقعا مميزا لقطاع الطرق " [665]. لكنها بعد احتلالها من قبل الجنود الفرنسيين سنة 1903 بقيادة العقيد بيارون، فإن مجيئهم ـ كما يصفه المؤلف ـ ((لم يعلن عن دمار جديد، ولا عن قامع جديد، بل على العكس من ذلك فإن مجيئهم قد فتح عهدا جديدا للعدالة والسلم والرفاهية بالنسبة للسكان الذين كانوا مندهشين عندما أعلموهم أنهم يستطيعون من الآن فصاعدا أن يعملوا دون خوف من أعمال السلب أو الغارات والاستعباد، وأن وجود فرنسا النبيلة والعادلة يضع حدا لتجاوزات الطغاة الذين تسلطوا عليهم قرونا)) [666] .

664Ibid, p66.
665 Ibid, p42.
666 Ibid, p42.

ويكرر المؤلف هذا المعنى أيضا على لسان قائد الجيش الفرنسي الذي دخل واحة تافيلالت حين يقول: ((لقد بدأ اليوم عهد جديد بالنسبة إليكم، عهد العدالة والسلام والسعادة. وستعرفون الأمن، والرفاهية التي كنتم تجهلونها تحت الحكم الاعتباطي. فبرعاية فرنسا سوف تتمكنون من الآن، من التنقل بحرية في البلد، ومن التجارة)) [667]

والغريب أن هذه الحجة نفسها هي التي قدمها المستعمرون الفرنسيون في بيان لهم موجه للجزائريين غداة احتلالهم للبلد [668]. وهاهي الحجة نفسها تتكرر بعد أكثر من قرن، مما يعني أنها كانت جزء أساسيا من أيديولوجية الاستعمار، يقدمها دائما كمبرر لاحتلال الأرض، ولاستمرار وجوده ولا يفعل الكاتب هنا شيئا سوى أنه يكرر هذه الحجة ويرددها، انطلاقا من قناعته الشخصية بأن الاستعمار جاء فعلا لينشر الحرية والعدالة، وليخلص الشعوب من الظلم والعبودية والفقر، ويهيء لها أسباب الحضارة والتقدم والرفاهية.

(*) ويجدر بنا أن نوضح ونصحح هنا بأن قطاع الطرق الذين يشير إليهم المؤلف ليسوا في الحقيقة إلا أبناء تلك المناطق من قبائل أولاد جرير، والبرابر، وبني قيل، والشعانبة، وبني منيع، الذين كانوا يقاومون الاستعمار ويمنعونه من دخولها، وقد قطعوا بالفعل طريق قوافل تموين الجيش الفرنسي الذي كان قد استولى على عين صالح سنة 1902، وتوغل نحو الجنوب، ووقعت بين هذه القبائل والجيش الفرنسي عدة معارك أهمها معركتا 20 أوت، و2 سبتمبر 1903 في منقار بمنطقة بشار، واستولى المقاومون فعلا على قافلة التموين الفرنسية .راجع: محمد بن حمو "دور التبشير والاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر" رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية، سنة 1989، ص123.

667 « Myriem dans les palmes », p248.

668 فقد جاء في البيان المذكور: ((أن الفرنسيين "سيحررون" الجزائر من الطغيان التركي)). راجع: د.أبو القاسم سعد الله "الحركة الوطنيةالجزائرية، ج2 (1900-1930)، ص17.

هذا على المستوى الأيديولوجي، أما على المستوى الفني، فإن الصورة التي قدمها المؤلف لبلقاسم تجعل القارئ يتوقع للبطلة التي وقعت في قبضة رجال هذا الحاكم الطاغية أسوأ الاحتمالات، ويجعله يتعاطف معها ومع بقية الشخصيات الأخرى التي جاءت لتخلصها من قبضته.

والحقيقة أن هذه الرواية بسبب نهجها المؤيد لسياسة التوسع الاستعماري تمثل أكثر النماذج الروائية التي ظهرت في هذه الفترة تطابقا مع الطروحات الأيديولوجية الاستعمارية، كما تعد أكثرها تبشيرا بفكرة الاندماج عن طريق الزواج المختلط الذي يبدو أن المؤلف يقدمه كوصفة سحرية لحل مشكلة اختلاف الأعراق . ومن هنا، فإن الكاتب يقدم، حسب رأي أحد الباحثين، "رواية أطروحة: Roman à thèse "[669]. وهي كما يعرفها باحث آخر: ((رواية واقعية (تقوم على أساس جمالية الشبيه بالواقع، وعلى العرض) تتوجه للقارئ خصوصا كحاملة لرسالة تعليمية، وتنزع نحوتبيين حقيقة مذهب سياسي، أوفلسفي، أو علمي، أو ديني)) [670]

ويضيف الباحث نفسه في مكان آخر ((أن الاستقطاب الأيديولوجي في هذا النوع من الروايات يتمظهر كموضوع أساسي، وفي الوقت نفسه كمبدأ بنوي منظّم)) [671]

---

669 A. Lanasri «Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente »,O.P.U Alger 1986, p43.
670 S.R Suleiman « Le roman à thèse, ou l'autorité fictive » , cité par A. Lanasri, p63.
671 Ibid, p71.

ويستنتج من هذا التعريف، أن كاتب هذا النوع من الروايات يأتي بأفكار جاهزة ليضعها في قالب فني معين مثل الفن الروائي، لإبلاغها عن طريق ذلك الفن إلى القارئ، ومن هنا يصبح الفن مجرد وسيلة لا أكثر، لإيصال تلك الأفكار إلى المتلقي، ويحتل لأجل ذلك الدرجة الثانية من حيث الأهمية. ولأجل ذلك، وحرصا من الكاتب على إيصال أفكاره بكل وضوح، نراه يلجأ إلى الاستعانة بمختلف الشروح، والمقدمات، والتوضيحات وما إلى ذلك، مما يعد خارجا تماما عن أصول الفن. مثل الاستهلال الذي أشرنا إليه في مطلع هذه الرواية، وذلك المدخل التاريخي الطويل، والتوضيح الذي وضعه في الأول بعنوان "قبل البدء".

4 ـ تناقضات فكرية وفنية

ومن هذا الحرص أيضا، ونظرا للصفة الإلزامية التي يفرضها الكاتب على الفن الروائي، بحيث يتصرف في تطور الأحدث بما يجعلها تتطابق مع التصور الذهني المسبق الذي يحمله، تأتي الأخطاء في مثل هذه الأعمال، وتبرز التناقضات بين منطق الكاتب ومنطق الأحداث الروائية، أو بين ما يقال أو يتصور ذهنيا، وبين ما تسفر عنه تطورات الأحداث في الرواية، وهذا ما نلمسه في رواية "مريم بين النخيل". ويمكن أن نقف عند مظهرين لهذا التناقض الرئيسي، الأول يتعلق بوقائع التاريخ المحض، والثاني بأحداث الرواية نفسها.

فعلى مستوى التاريخ، نستطيع أن نلمس من خلال العرض الذي قدمه الكاتب نفسه تحيزه لصف المستعمرين، وتحامله على كل من قاوم أطماعهم

التوسعية، وأولهم بلقاسم الذي صوره في صورة وحش كاسر، لا يتردد في الفتك حتى برئيسه وأقرب المقربين إليه (مبارك زعيم الثورة)، ولا في قتل الأبرياء ليستولي على أموالهم، وحرص على إلصاق صفة المجرم به كلما أورد اسمه تقريبا، وعلى نعته بما كان ينعته به أعداؤه، كتلك العيوب الجسمية التي عرف بها، مثل وصفه بالأعرج، والأخن[672].

والواقع أن المؤلف لا يقدم الأسباب التي من أجلها قتل بلقاسم ضحاياه، أو الأسباب التي جعلته يستولي على أموالهم، والحالة الوحيدة التي تحدث فيها عن الظروف التي قتل فيها بلقاسم رئيسه مبارك تبين أن الدافع كان بسبب الوشاة الذين أوغروا صدر زعيم الثورة على قائد جيشه، كما تبين أنه لم يقتله غيلة ولكنه قتله دفاعا عن نفسه: ((فمن أجل النيل من مكانة بلقاسم لدى رئيسه، أبلغ حساده نفروتن أن نكادي (بلقاسم) يمتلك الواحة بأكملها تقريبا (...) فالتحق نفروتن حينئذ ببلقاسم ووبخه توبيخا شديدا، ثم مد يده إلى مسدسه، وحين رأى بلقاسم حياته في خطر، وهو الذي لم يكن ينتظر إلا مبررا للتخلص من رئيسه الرهيب، قتله برصاصة في الرأس)) [673].

وعن المبررات التي جعلت الفرنسيين يقررون احتلال الواحة، يتحدث المؤلف عن ثلاثة أسباب رئيسية، الأول هو ثورة مبارك نفروتن وإعلانه الجهاد (؟)، وتأييد بعض القبائل البربرية له وبعض سكان القصور من أهل سفلات

672 الأخن هو الذي يصدر غنة من أنفه أثناء الكلام.

673 « Myriem dans les palmes », pXI.

والثاني هو قتل الثوار للجنرال "كلافيري" وأربعة من مرافقيه في جبل[674] أرال سنة 1928 [675]، والثالث هو انعدام الأمن في المناطق المتاخمة لتافيلالت، ووقوع غارات على القوافل التجارية التي تعبر المنطقة[676].

غير أن حديث المؤلف نفسه عن تلك المبررات، وذكره لبعض التفاصيل المتعلقة بها تجعله يكشف - دون قصد منه - الدوافع الحقيقية للغزو، فإذا كان مبارك قد أعلن الجهاد فضد من أعلنه إن لم يكن ضد المحتلين الفرنسيين؟ [677]، وكانوا قد أقاموا قاعدة عسكرية في بشار، ومركزا متقدما للمراقبة في تيغمارت[678]، فبأي غرض أقيمت مثل هذه القاعدة ؟، وهذا المركز كان متقدما بالنسبة لمن ولأي شيء ؟ لا سيما إذا علمنا أن قوات من هذا الجيش كانت قد عبرت الحدود سنة 1916 لتشارك إلى جانب قوات السلطة المركزية في قمع الثورة في تافيلالت في السنة المذكورة، وهو ما دفع بقبائل آيت حمو، وآيت عطة، وأهل "الريق" إلى اعتراض سبيل هذه القوات[679].

أما بخصوص الجنرال "كلافيري" المقتول، أليس غريبا وجود رجل بالصفة العسكرية والرتبة التي يحملها في أرض أجنبية بالنسبة إليه، وفي مناطق جبلية معزولة ؟ ماذا كان يفعل هناك إن لم يكن في مهمة تجسسية، ولأغراض

---

674 « Myriem dans les palmes »,, pIX.
675 Ibid, pXIII.
676 Ibid, pXII.
677 علما أنهم كانوا قد فرضوا حمايتهم على القطر المراكشي قبل ثلاثين عاما من هذا التاريخ (في 1912).
678 « Myriem dans les palmes », pIX.
679 Ibid pIX.

عدوانية ؛ [680]. أليس في هذا كله أدلة على أن مصدر التهديد كان في حقيقة الأمر كان من الجيش الفرنسي على سكان تافيلالت والجنوب المغربي كله، وليس العكس كما حاول المؤلف أن يوهمنا ؟ وقد اتضحت النوايا الحقيقية، وتجسدت في الميدان باحتلال القوات الفرنسية للواحة في 15 يناير 1932، وباحتلالها تمكنت تلك القوات من السيطرة على كامل الجنوب المغربي، نظرا لموقع الواحة الاستراتيجي الممتاز.

وأما عن السبب الثالث الذي ذكره المؤلف وهو اعتراض طريق القوافل من قبل عصابات مسلحة واستيلاء بلقاسم ورجاله على أموال التجار الذين كانوا يأتون إلى تافيلالت، فإنه يبدو أمرا غريبا حقا، ووجه الغرابة فيه يأتي من أن الواحة وما جاورها كانت تتزود عن طريق تلك القوافل بما تحتاج إليه من سلع لا تنتج محليا، وكانت السلطة تأخذ حقها من المكوس والأتاوات، كما كانت القبائل الجبلية تفرض بدورها أتاوة على القوافل العابرة مقابل حمايتها لها، وقد ذكر المؤلف أن السلطة المركزية نفسها كانت تدفع لتلك القبائل حق العبور[681]. فكيف يكون إذن بلقاسم ورجاله، أو القبائل الجبلية مصدر تهديد لتلك القوافل ؟

---

680 في "مريم في النخيل"، نجد أيضا أن النقيب "ديبيسي" قد قتل في حرب الريف بالمغرب، وابنه جان ديبيسي، أحد أبطال الرواية كان مسافرا في مهمة سرية في بلد الشلوح، وهو ما يؤكد النشاط التجسسي للقوات الاحتلال في المنطقة. راجع : « Myriem dans les palmes », p18.

681 « Myriem dans les palmes », pVI.

فإذا أتينا إلى الجانب الفني في الرواية، فإننا نقف فيه على تناقض رئيسي، أساسه فكري، ولكنه انعكس سلبا على الناحية الفنية فيها، كما سيتضح لنا ذلك، ويتعلق بمسألة الزواج المختلط الذي تم في نهاية الرواية بين مريم "الفرنسية"، وأحمد "العربي"، والذي يقدمه الكاتب كنموذج "مثالي" لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع "الجديد" المتكون من الأجيال الجديدة من الفرنسيين والجزائريين، من المحبة والوئام والانسجام، وهذا - حسب رأيه - بفضل التعليم العصري، الذي وفرته المدرسة الفرنسية: ((فقد جاء على عكس الأجيال السابقة، التي ظلت زمنا طويلا تعادي بعضها البعض، فبدأوا يفهمون بعضهم البعض، ويحب بعضهم البعض، وهذا بفضل التعليم، هذا النور العزيز الذي يفتح عقول البشر، ويقربهم من بعضهم البعض، ويقودهم نحو السلام، والحياة، والسعادة))[682].

والواقع أن المؤلف يقفز هنا على حقائق كثيرة، أهمها أن التعليم العصري الذي توفره المدرسة الفرنسية - حسب زعمه - لم يكن ميسورا إلا للقليل من الجزائريين كما بينا ذلك فيالسابق من خلال إحصائيات رسمية، في فترات مختلفة من عمر الاحتلال، وثانيها، أن الأجيال الجديدة التي تحدث عنها ظلت على عدائها المستحكم لبعضها البعض مثلها مثل الأجيال التي سبقتها، لأنه لم يتغير شيء في الواقع يساعد على مثل ذلك التحول الذي يتحدث عنه الكاتب. وقد أوضحنا أيضا، أن الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين على السواء كانوا يرفضون "الاندماج" - إلا فئة قليلة منهم -، الأوائل حفاظا منهم على

682 L'avant-propos , pIV.

هــويتهم العربيــة الإســلامية، والمســتوطنون حفاظــا علــى امتيــازاتهم الاقتصادية والسياسية[683].

وبناء عليه، فإن الأمر لا يتعلق بجيل بأكمله كما يقول الكاتـب، ولكـن بفئة قليلة من الناس، وهم في الغالب من أولئك المحظوظين، ممن كان وضعهم الاجتماعي جيدا، وظروفهم الاقتصادية حسـنة، ومـن ثمـة فهـم يتطلعـون إلى وضع اجتماعي واقتصادي أفضل، ويعد الزواج المختلط بالنسبة إليهم[684]، ولعب دور الأهلي "المتطور"، الذي يقبل بالاندماج في الآخر، أقصر طريق إلى الحصول على مثل هذا الوضع المتميز، ولكنهم يـأبون أن يعـبروا علـى مثـل هـذا المطمح بشكل صريح وواضح، ويتطوعون، عوضا عن ذلك ـ ودون أن يطلب ذلك منهم ـ للعب دور الوسطاء بين الجاليتين، ودعـاة للتسـامح الـديني والمـذهبي والأخـوة الإنسانية، وما إلى ذلك من الشعارات البراقة التي كـانوا يرفعونهـا، وعنـدما لا يجدون آذانا صاغية لدعوتهم، لا من هؤلاء ولا من أولئك، يتخذون من أنفسهم ضـحايا لــ"لمتعصبين" مـن كـلا الطـرفين، الـذين لا يريـدون أن يفهمـوهم، أو يستجيبوا لدعوتهم.

هذا هو نموذج الشخصيات الرئيسية الذي نراه يـنعكس في روايـات هـذه المرحلة، وهو النموذج الذي نراه يتكرر فيهـا باسـتمرار، وغالبـا مـا نلاحـظ أن موقف الشخصية يتطابق مع موقف الكاتب تمامـا، بحيـث يتحـول كـل واحـد منهما إلى ناطق بلسان الآخر، ويصبح من الصـعب علـى الـدارس أن يميـز بـين

683 راجع بداية هذا الفصل.

684 الذي يتخذ في معظم الأحيان اتجاها واحدا، وهو أن يتزوج الجزائري من الأوروبية، أما العكس فهو غير وارد.

الموقفين[685]. ويعد هذا التطابق عيبا فنيا في حد ذاته، أدى إليه الموقف الفكري المسبق للكاتب، الذي يدفعه إلى الحيلولة دون تطور الشخصية الروائية تطورا طبيعيا، ويجعلها أسيرة لقناعاته الفكرية.

ولا تقتصر رواية "مريم في النخيل" لمحمد ولد الشيخ على هذا العيب وحده، إذ نجد فيها أيضا ذلك التناقض الذي أشرنا إليه من قبل، ويتمثل في تقديمه من جهة لأطروحة الزواج المختلط كنموذج مثالي لتقريب الفرنسيين والجزائريين من الجيل الجديد من بعضهم البعض، وإزالة الفوارق العنصرية التي تؤدي إلى الكراهية والصراع بينهم، لكنه من جهة أخرى، يكشف لنا، حين يشرع في التعريف بالشخصيات الرئيسية للرواية عن حالة - لم يقصدها، دون شك - تتناقض تماما مع النموذج المثالي الذي أراد أن يقنعنا به، ونعني بها حالة الزواج المختلط الذي تم في يوم من الأيام بين خديجة الجزائرية المسلمة، والنقيب "ديبيسي" الفرنسي المسيحي، وكانت مريم بطلة الرواية، وجان حفيظ أخوها ثمرة لذلك الزواج [686]. فالراوي يعلمنا منذ البداية: ((أن ارتباط خديجة بالنقيب ديبيسي كان في لحظة جنون، دون أن تفكر في المنغصات التي كان يخبئها لها اختلافهما في المشاعر والذوق والمعتقد، ولم

---

685 هذا هو حال "مامون" لشكري خوجة، كما مر معنا، وهذا حال "بولنوار" عند رابح زناتي، كما سيأتي، وكذا حال "ليلى" و"عزيزة" عند جميلة دباش.

686 لن نتناول الموضوع هنا من جانبه الديني، على أساس أن الشرع لا يبيح للمسلمة الزواج من غير المسلم، فهذا ليس من اختصاصنا، ولكننا نتناوله كأمر واقع.

تدرك غلطتها إلا عند ولادة جان. لقد أدركت غلطتها حينئذ ولكن كان الأوان قد فات.. وبعد خمس سنوات ولدت بنتا هي مريم))[687].

وبالطبع، فقد كان الاختلاف بين الزوجين قبل ولادة الأطفال يأخذ طابع اختلاف شخصي لا يؤثر بشكل مباشر على الشريك الآخر، ولذلك ظلت خديجة بعد زواجها من النقيب "ديبيسي" تمارس حياتها الدينية العادية كمسلمة، وتلبس اللباس الجزائري التقليدي[688]. لكن، بعد مجيء الأطفال بدأ الاختلاف بينهما يأخذ شكل خلاف، حول اختيار أسماء المولودين، وهذا ما يفسر وجود اسمين للإبن "جان - حفيظ"، واسم توفيقي للبنت: مريم، الذي هو اسم مشترك بين المسلمين والمسيحيين. وتفاقم الخلاف بينهما، وتحول مع الوقت إلى صراع حقيقي حينما بدأ الطفلان يكبران، فقد أخذ كل واحد من الأبوين يرغب في أن يجعلهما على دينه، وبالطبع كانت الكلمة الفصل للرجل، ((فقد كان يكره أن يرى زوجته تفرط في التحدث بالعرية مع طفليه، وتعلمهما "عادات بدائية"، كما كان لا يتسامح في أن تصحبهما معها عند "المرابط"))[689]، وكان يقول لها: ((لا يمكنني أن أنشِّيء أطفالي على التعصب، لقد قلت لك هذا مرات عديدة. إنني أحب أن أنشِّئهم كما يحلو لي، وبناء عليه فإنني لن أعلمهم لا العقيدة المسيحية ولا القرآن.. فأنا صاحب فكر حر))[690]...((وهكذا، لم تكن (خديجة) إلا امرأة غريبة في البيت، لايحق لها أن تشرف على تعليم

687 « Myriem dans les palmes », p19.
688« Ibid p19.
689 « Myriem dans les palmes »,, p19.
690 Ibid, p21.

صغيريها، أو على مراقبة سلوكهما، سواء أكان حسنا أو سيئا، فوالدهما وحده الذي كان يتولى هذه المهمة، ويعد نفسه الكفيل الوحيد بهذا الواجب الحساس))[691]

لكن خديجة لم تسلم بالأمر الواقع ولم تستسلم، ومن ذلك أنها اغتنمت فرصة غياب زوجها في إحدى المهمات العسكرية في الجنوب لتختن ولدها وتطلق عليه اسمه الثاني "حفيظ" [692]، تأكيدا منها لرغبتها في أن ترى ولدها ينشأ على التقاليد العربية الإسلامية.

ويمكن القول أن مقتل زوجها في ثورة الريف بالقطر المراكشي هو الذي وضع حدا لذلك الصراع الذي كان قائما بينها وبينه، وأتاح لها الفرصة لكي تربي طفليها بالطريقة التي تعجبها، ((فمنذ أن توفي النقيب ديبيسي وهي تحاول أن تنقذ "جان" ومريم من هذا الخطر الذي لا ينجو منه الأطفال المولودون من الزواج المختلط إلا نادرا، وكانت لا ترى الخلاص إلا في الدين، الذي ينير عقول البشر ويهذب أخلاقهم، وكانت ترغب بقوة في أن توجه طفليها نحو اعتناق الإسلام، ولكن بدون الضغط عليهما حتى لا تصدم مشاعرهما))[693]

وكانت الخطوات العملية التي قامت بها، بعد أن استشارت أحد الشيوخ المعروفين بعلمهم وتقاهم، هو أن خصصت لطفليها دروسا لتعليمهما اللغة

691Ibid, p20.
692Ibid, p22.
693 Ibid, p23.

العربية والقرآن الكريم[694]، وبهذا التدبير مكنتهما من الحصول على تعليم مزدوج يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تربطهما بأمهما، من جهة، والثقافة الفرنسية التي تربطهما بوالدهما من جهة أخرى .

والتناقض بيِّن على المستوى الفكري بين ما يدعو إليه الكاتب وبين ما قدمه من خلال هذا النموذج من الزواج المختلط الذي كان الصراع فيه على أشده بين الزوجين، وكان الأطفال فيه هم الضحايا ، والتناقض بيِّن أيضا على المستوى الفني بين ما يمكن أن يكون هذان الطفلان قد تعرضا له من الحيرة والتمزق النفسي بسبب صراع الأبوين، وبين الصورة التي رسمها لهما كبطلين مثاليين لا يعانيان من أية عقد، ولا من أي صراع نفسي، أو أية تناقضات في السلوك نتيجة التربية والثقافة المزدوجة التي نشآ عليها[695].

إن اعتماد الكاتب على التصور المثالي المسبق لأبطاله جعله يقدم نماذج "كاملة" خالية من العيوب، و"ثابتة" لا تعرف التغير أو التطور، فجان حفيظ مثلا الذي سار على خطوات والده وأصبح عسكريا يصفه بأنه ((جندي باسل، يستحق كل التشريف.. كان يحسن العربية والشلحية، ويعرف عادات البربر وطرائق عيشهم))[696]. كل هذا جاء به الكاتب كتمهيد في بداية الفصل الثاني من الرواية، من أجل الاضطلاع بالمهمة التي سيقوم بها البطل في الأخير، حينما

---

694 Ibid, p24,25.

695 (3) لقد أهمل الكاتب الحديث عن حالة التمزق والحيرة التي لا شك أن هذين الطفلين كانا يعانيان منها بسبب الصراع الذي كان قائما بين الأم والأب ، ويعد إهمال هذا الجانب النفسي في الرواية من قبل المؤلف عيبا فنيا آخر يضاف إلى عيوبها الأخرى .

696 « Myriem dans les palmes », p29.

يستغل بطله صفاته ومعارفه هذه في التسلسل إلى واحة تافيلالت لإنقاذ أخته مريم عندما تقع أسيرة في يد بلقاسم، ولا ندري من أين جاءته كل تلك المعارف بلهجات البربر وعاداتهم وطرائق عيشهم التي يتحدث عنها الكاتب، إذا علمنا أن جان حفيظ نشأ في وهران، وعاش في وسط معظمه من الأوربيين؟

ولا شيء بعد هذا يفاجئنا في هذه الشخصية التي نجدها شخصية مثالية في كل شيء، في قيامها بواجبها العسكري على الوجه الأكمل ، وفي حبها وولائها لفرنسا، وفي دفاعها عن التوسع الاستعماري في المنطقة إلى غير ذلك: ((فرنسا التي تحمي المسلمين ، وتعطيهم بلا حساب، وتحمل إليهم طرائق التقدم (...) لقد استفاد العرب كثيرا من اتصالهم بالفرنسيين، ومن بين كل البلدان، فرنسا هي الوحيدة التي تبعث إليهم بالمربين وتعرض عليهم حمايتها)) [697]

وعلى العموم، نجد هذه الشخصية مسطحة وموغلة في النمطية. ولاتختلف شخصية مريم عن شخصية أخيها في نمطيتها وسطحيتها، وثباتها، بحيث لا نعرف شيئا عنها إلا ما نراه في الظاهر. كل ما نعرفه عنها أنها فتاة بورجوازية تحي حياة مترفة، وتعيش لهوايتها الغريبة بالنظر إلى جنسها وإلى زمانها الذي عاشت فيه (بداية الثلاثينيات)، ألا وهي حبها لرياضة الطيران، وقيادتها للطائرات، وهذه الهواية الغريبة هي التي قادتها إلى تافيلالت، وإلى وقوعها في الأسر. أما أحاسيسها ومشاعرها وأحلامها فتظل مجهولة بالنسبة

---

697 Ibid p164.

للقارئ، حتى قطعها لعلاقتها بخطيبها الأول "إيفان إيباطوف" جاءت مفتعلة وغير مقنعة، كما جاء تعلقها بأحمد مسعودي بدوره وقبولها بالزواج منه غير مقنع، لأنه باستثناء دوره في تخليصها من الأسر - كما سنبين بعد قليل - فاستحق به أن يثير إعجابها، ولا نقول حبها، فإنه لم يكن هناك من الناحية العملية شيء مشترك بينهما، كالهواية مثلا، أو الثقافة (كانت ثقافته عربية، وثقافتها غربية في الأساس) أو حتى في المظهر الخارجي (كان يلبس برنسا وثيابا جزائرية تقليدية) [698]، ناهيك عن الأصول الاجتماعية المختلفة، والمستوى المادي غير المتكافيء، وكل ما ربط بينهما أنه كان يأتي بين الحين والآخر ليعطيها دروسا في اللغة العربية[699]، ويحفظها بعض السور القصيرة من القرآن الكريم[700].

ومن الإشارات السابقة التي سقناها عن أحمد مسعودي في علاقته بالبطلة، نكون قد لاحظنا أيضا أن شخصيته أيضا جاءت باهتة، وغير مكتملة فنيا، وقد جاء تخليصه للبطلة من الأسر غير مقنع بدوره، وفيه افتعال شديد، فبعد الجهود الكبيرة التي بذلها جان حفيظ وزوجته زهراء في التعرف على مكان الأسيرة، والحيل التي احتالوا بها، وكانوا على وشك أن تثمر جهودهم بإطلاق سراحها، يأتي أحمد مسعودي في آخر لحظة، متنكرا في زي فارس مغربي، ليصادف تنظيم حلبة مبارزة بين الفرسان، نظمها بلقاسم حاكم

698« Myriem dans les palmes », p28,29.
699 Ibid, p25.
700 Ibid, p31.

الواحة، وجعل جائزتها للفائز الظفر بالأسيرة الفرنسية، ويصادف أيضا أن يبارز غريمه "إيباطوف" - الذي كان يأمل أن يظفر بها، وينتقم منها لرفضها الزواج منه - ويتغلب عليه، وتكون مريم من نصيبه هو، وهكذا خلصها من الأسر، واستحق الزواج منها. علما أنه لم يسبق للمؤلف أن أشار من قريب أو بعيد أن أحمد مسعودي كان فارسا، أو أنه كان مدربا على استعمال السيف، إلى جانب ثقافته الواسعة التي أشار إليها من قبل ووصفه له بأنه كان "متطورًا".

وعليه، نستنتج من هذا الاستدراك الذي أتى به المؤلف في الأخير، أنه إنما لجأ إليه من أجل أن يسند للمسعودي دورا بطوليا يليق به كبطل، ويجعله مستحقا في نظر القارئ للفوز بالبطلة في نهاية الرواية، تماما مثل ما كان يفعل الروائيون الكلاسيكيون حينما ينهون رواياتهم نهايات من هذا القبيل، تتسم بالمبالغة والإثارة.

وبهذا يكون الكاتب قد قدم لنا رواية غير مقنعة من الناحية الفنية، مثل ما كانت غير مقنعة من حيث الطروحات الفكرية، وقد تضافرت الناحيتان - كما أوضحنا آنفا - في التأثير السلبي المتبادل فيما بينهما لتأتي على هذه الصورة الفجة.

رواية "بولنوار، الفتى الجزائري" [701] لرابع زناتي (*) .

مع رواية "بولنوار الفتى الجزائري" نلتقي مرة أخرى بهذا النوع الذي يطلق عليه مصطلح "رواية الأطروحة " [702]. بل، لعل فكرة "الأطروحة" تتجلى فيها أكثر من أية رواية أخرى في هذه المرحلة، نظرا للبراعة التي جسد بها الكاتب أفكاره، وللقدرة التي أبداها في ربط تلك الأفكار بتطور الأحداث والشخصيات في الرواية، رغم التكلف الواضح في نسج تلك الأحداث، بسبب الطروحات الجاهزة، وإخضاع تطور الأحداث للتصور المسبق الذي أشرنا إليه آنفا. فهي إذن على غرار ما رأينا في روايات شكري خوجة ومحمد ولد الشيخ، تحمل رسالة اجتماعية وسياسية معينة تريد تبليغها، وتطرح مثلها مسألة "الاندماج" كرهان سياسي، وكمشروع مجتمع لمستقبل الجزائر، وهي كما رأينا

---

701 R et A. Zénati «Bou-el-Nouar le jeun algérien ». Ed. «La Maison des livres », Alger 1945.

* رابح زناتي (1877 . 1952) ولد بتاوريرت الحجاج (العزازقة) ، تجنس بالجنسية الفرنسية سنة 1903. تخرج من مدرسة المعلمين ببوزريعة وعمل مدرسا . شارك كجندي في الحرب العالمية الأولى، وكان أحد مؤسسي جريدة "صوت المستضعفين" (La voix des humbles) سنة 1922 ، ثم أسس جريدة "الصوت الأهلي " (La voix Indigène) بقسنطينة سنة 1929 . نشر، إلى جانب روايته "بولنوار" كتاب "المشكلة الجزائرية كما يراها أحد الأهالي: «Le Problème algérien vu par un indigène » (في 182 صفحة) سنة 1938 ، وكتاب "كيف ستموت الجزائر الفرنسية" « (Comment périra l'Algérie française) (في 140 صفحة) سنة 1938 أيضا، تحت إسم مستعار هو "حسان " . توفي بتاريخ 15 أكتوبر 1952.

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن رواية بولنوار موقعة بحرفي R و A زناتي، حيث يذكر المؤرخ "جان ديجو" أن A هو الحرف الأول من اسم ابنه "أكلي" المحامي ، مما يفهم منه أنه تأليف مشترك بين الوالد والإبن، ولكن "ديجو » لا يعطي أية معلومات أخرى عن هذا الاشتراك، راجع: J. Déjeux « Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », p212.

702 Jean Déjeux « Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », p212.

في الروايات السابقة لا تناقش الاندماج في حد ذاته، ولا تطرح أية تساؤلات أو بدائل بشأنه، كبديل الاستقلال الوطني مثلا، وكأنما حالة الاحتلال هي الوضع النهائي والأبدي للجزائر، ولذلك فهي لا تبحث إلا في الوسائل التي تحقق الاندماج، ومن ثمة تبحث في المعوقات التي تقف حجر عثرة في طريقه.

ومن هنا ينطلق الكاتب في تقديم "أطروحة " تحقق في نظره الاندماج بين المجتمعين الجزائري والاستيطاني، وترتقي بالإنسان "الأهلي" إلى مستوى "المستوطن" الأوروبي، أو الفرنسي عامة، ولا يحدث هذا ـ كما يتصور ـ إلا بالتبني الكامل لمناهج العصر الحديث: ((إن مستقبلنا هو التبني الكامل لمناهج العلم الحديث والتقنيات الجديدة... فالحداثة ضرورة))[703] وبالتعليم العصري الذي يحرر العقول ويرفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي للجميع: ((فلو اتيحت للأهالي فرصة التعليم بشكل عادي لكانوا اليوم على هيئة أخرى مختلفة، ولشكلوا وحدات اجتماعية تضمن لهم الرفاهية الذاتية وتزيد من قوة فرنسا))[704].

لكن، التعليم ليس أي تعليم، وإنما "التعليم المزدوج" الذي يكون حلقة وصل بين الثقافتين: العربية الإسلامية، والفرنسية الغربية، وبين المجتمعين: المسلم والأوروبي[705]. ولا يقتصر الغرض من التعليم على الحصول على التقنية

703 «Bou-el-Nouar le jeun algérien », p157.
704 Ibid, p149.
705 Ibid, p162,163.

والعلوم، وتقارب الثقافتين والشعبين، ولكن أيضا من أجل ترقية المجتمع المسلم وتطويره، وتخليصه من الجهل والقدرية، والتقوقع والجمود.

هذه باختصار هي "الأطروحة" التي يقدمها المؤلف على الصعيد النظري، ثم يعمد إلى تجسيدها عمليا من خلال أحداث الرواية وتطورها، التي سمحت له بعرض مختلف المواقف الفكرية، وتصوير التقاليد الاجتماعية، والممارسات اليومية لمختلف أوجه الحياة ومن ثمة أعطته الفرصة لبلورة التناقضات، وإبراز العيوب، ونقد الممارسات الخاطئة، ومعالجتها.

وفي هذا المستوى، قدم الكاتب نموذجا روائيا في غاية البساطة والنمطية، بحيث اتخذ من حياة البطل إطارا عاما لروايته تتبّعه فيها منذ ولادته إلى دخوله المدرسة القرآنية فالمدرسة الابتدائية الفرنسية، فالثانوية، فالتعليم العالي، إلى أن أصبح مثقفا كبيرا، وكاتبا صحفيا، وزعيما سياسيا.

والحقيقة أن الكاتب نجح إلى حد بعيد في التعبير عن أطروحته التي جعل التعليم فيها الشرط الأساسي للتطور الاجتماعي الحضاري، وذلك بالربط المحكم بين التقلبات التي عرفتها حياة بطله وبين مراحل تعليمه المختلفة ونضوجه الفكري، بحيث كان تأثير العملية التعليمية حاسما ومباشرا على حياة البطل، رغم أنه لم يتمكن دائما، بل لم يتمكن في معظم الحالات من تكييف حياته بحسب أفكاره.

يبدأ من ميلاد البطل "بولنوار" في أحد الأرياف الجزائرية، لأحد المزارعين الكبار بناحية "عين الروينة" يدعى بوضياف، الذي يقيم بهذه

المناسبة في اليوم السابع حفلا كبيرا يدعو إليه الوجهاء وكبارالقوم، ولا يستثني من الدعوة حتى المستوطنين الأوروبيين الذين كانوا يمتلكون أراضي في تلك الناحية، أو يعملون في الإدارة المحلية، ويجد في هذا الاحتفال مناسبة لنقد العادات الجزائرية التي تحتفل بالمولود الذكر، وتقيم له الولائم، ويعمل الأهل على إخفائه خوفا عليه من أعين الحساد، ويكتبون له التمائم حتى لا تتعرض له الجن بالأذى[706] في حين أنهم لا يحتفلون بميلاد البنت، ولا يخشون عليها من العين أو الجان[707]. وهذا ما حدث حين ولدت "وريدة " أخت بولنوار بعد عامين من ذلك، حيث مرت المناسبة في صمت، دون أن تطلق زغرودة واحدة، أو يسمع طلق ناري واحد[708].

1 ـ حال المدرسة القرآنية البائس

وحينما يدخل بولنوار المدرسة القرآنية تكون مناسبة للكاتب لكي يستعرض فيها حال تلك المدارس البائسة المظلمة والمعرضة للبرد شتاء والحرارة الشديدة صيفا[709]. وطرق التعليم البدائية التي كانت متبعة في تلقين القرآن، بحيث لا يعوَّل فيها إلا على الذاكرة وحدها دون فهم، ويتحول الأطفال معها إلى آلات مسجلة [710]. وطرق العقاب الفظة التي يمارسها المعلمون على التلاميذ،

---

706 «Bou-el-Nouar.. », p19.
707 Ibid, p21.
708 Ibid, p23.
709 Ibid, p34.
710 «Bou-el-Nouar.. », , p45.

وهي كلها مقصورة على العقوبات البدنية، وأشدها قسوة تلك الآلة الرهيبة التي تدعى "الفلقة"[711].

ولا ينسى الكاتب أن يعرض حال الفقر التي يعاني منها المعلمون، فهم يعيشون أساسا على زكاة "العشور" والصدقات والهبات التي يتكرم بها عليهم الأهالي الميسورون، وهم قلة [712]. أما أجرتهم التي يدفعها أولياء التلاميذ فهي من الزهد بحيث لا تنفعهم في شيء، ولذلك يلجأون إلى القيام بأعمال جانبية أخرى تعينهم على صعوبات العيش، مثل كتابة التمائم والرقى، وقراءة القرآن في الجنائز والمقابر، والقيام بمهمة الطبيب في غياب الطبيب الحقيقي، إلى غير ذلك من المهمات[713].

هذا وضع معلمي القرآن، بالرغم من التقدير والاحترام الذي يحظون به لدى الأهالي، لأنهم يعلمون كلام الله، والعلم الشريف[714]. ولكن الأهالي لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم الفقر، لأنهم هم أنفسهم يعانون الفقر والحاجة، وما يدفعونه لهم إنما هو تضحية منهم ينتزعونها من لقمة عيشهم.

ويتجلى احترام الناس وتقديرهم للتعليم القرآني في العديد من المظاهر، كالثقة الكبيرة التي يضعونها في معلمي القرآن، وتقديمهم لهم على غيرهم في المناسبات ، واستشارتهم في مختلف شؤون الحياة، بما في ذلك الاستشفاء على أيديهم، لكن يتميز الاحتفال بختم القرآن عن كل تلك المظاهر، بما يخصون به

711 Ibid, p35.
712 Ibid, p36
713. Ibid p36.
714 Inid, p41.

المعلم والتلميذ من التكريم والتبجيل، وبما يقدمونه من البذل والعطاء، لا سيما إذا كانوا ميسورين، وهذا ما فعله بوضياف، حين ختم ابنه بولنوار حفظ القرآن الكريم، فقد أقام حفلا كبيرا دعا إليه كل وجهاء عين الروينة، ولم يستثن منهم المستوطنين الأوروبيين، مثل ما رأينا في الاحتفال بميلاد بولنوار، وقد أثنى صديقه قاضي البلدة على تلك المبادرة منه، حتى وإن كان بوضياف قد فاته جانبها الاجتماعي ـ السياسي الذي رآه القاضي وهو ((أنه جمع تحت سقف واحد، وحول مائدة مشتركة، في تضامن محلي كامل، الفرنسيين والأهالي، مما يمكن اعتباره بداية لوفاق ودي أوسع))[715].

وعندما يدخل الفتى بولنوار إلى المدرسة الفرنسية، بعد أن أبدي الولد نفسه رغبته في الدخول إليها، وضيقه بطرق التعليم الفظة في المدرسة القرآنية[716]. وبتشجيع من القاضي لبوضياف، يستعرض المؤلف تخوفات والد بولنوار من المدرسة الفرنسية، وهي تخوفات تذكرنا بتلك التي أبداها والد "مامون" في رواية شكري خوجة ـ كما مر معنا ـ من أن يرى ابنه ينساق وراء شرب الخمر، أو يمرق عن الدين[717]. لكن تشجيعات صديقه القاضي ونصائحه له، تبدد في الأخير مخاوفه، وتجعله يقدم على إرسال ابنه إلى المدرسة الفرنسية.

2 ـ مقارنة بين المدرستين القرآنية والفرنسية

ويحلو للمؤلف هنا أن يجري مقارنة غير مباشرة بين المدرسة القرآنية البئيسة، والمدرسة الفرنسية المبنية على طراز عصري، والمجهزة بالكراسي

715Ibid., p87.

716 Ibid, p40.

717 «Bou-el-Nouar.. », , p53, 59.

والطاولات، والمضاءة بالكهرباء، والمزينة بالصور، مما يبعث الانشراح في نفوس الأطفال ويجعلهم يقبلون على التعليم بكل سرور ((كانت مدرسة عين الروينة تتشكل من بناية أنيقة، يضم جناحاها الفصول الدراسية، ومركزها سكنات المعلمين، وهي بعيدة بما فيه الكفاية عن الشارع وهو ما سمح بتهيئة فناء فسيح غرست به أشجار دلب رائعة (...) وكانت مساحة الفناء تمنح الأطفال حرية الألعاب الكبيرة، وألعاب المجموعات بكل راحة في الفصول الجميلة، ويحميهم سقف كبير، بني مستندا للجناح الأيمن، من تقلبات الشتاء وحرارة الصيف. وكانت الفصول الدراسية واسعة ومضيئة من الجانبين، ومزينة بذوق روعي فيه أن يسهل المهمة التربوية للمعلمين)) [718]. ويضاف إلى هذا طرق التعليم الحديثة، وتكوين المعلمين الجيد، ومعاملتهم الحسنة للتلاميذ ((.. ويلتقي مع هذا الجو البهيج لطف وبراعة الزوجين " فونتان " البيداغوجية، اللذين جعلا من مدرسة القرية هذه، مكانا يدخله التلاميذ بثقة. إنهم يحبون السيدة والسيد "فونتان" ويستمتعان باللقاء بهما كل صباح)) [719] (*) .

وفي المدرسة الفرنسية يجد المؤلف فرصة لعرض مشكلة الاحتكاك العنصري بين أطفال المستوطنين وأطفال الأهالي، وهنا يبرز الدور الإيجابي

718Ibid, p66.2

719. Ibid p66

(*) ولا ينبغي أن تفوتنا هنا ملاحظة أن المدرسة القرآنية كانت لا تتمتع بأي دعم من السلطات الاستعمارية، وأنها كانت محاربة، ومضيق عليها من الأجهزة الإدارية والأمنية، في حين أن المدرسة الفرنسية كانت إحدى أسلحة الاستعمار، ووسيلته للتغلغل داخل أوساط الأهالي، ولذلك كانت تعطى لها كل المساعدة، كما أوضحنا سابقا (راجع الفصل الأول من الباب الأول مبحث "الإبادة المعنوية" ص 32 وما بعدها . إلا أن هذا كله يغفله المؤلف هنا ولا يشير إليه من قريب أو بعيد، كان البؤس الذي كانت تعاني منه المدرسة القرآنية جزء من تكوينها الأصلي، وبؤس معلميها برغبة منهم .

الذي يستطيع أن يضطلع به المعلم في تربية الأطفال منذ الصغر على التسامح والتعايش مع الذين يختلفون عنهم في الدين أو العرق، أو اللون، وهذا هو الدور الإيجابي الذي كان يقوم به السيد "فونتان" ليس مع التلاميذ في المدرسة فحسب، ولكن في مجتمع القرية الصغيرة ككل، المكوّن من الجزائريين والمستوطنين[720].

وهذا الدور الإيجابي للمعلم نجده يتكرر مع أساتذة الثانوية ، ممثلا بشكل خاص في شخصية الأستاذ "دورتان"، وذلك عندما ينتقل البطل إلى الدراسة الثانوية في المدينة، فقد وجد بولنوار في شخص الأستاذ "دورتان" الأب الموجه، والصديق المؤتمن على الأسرار، والمتفهم للمشكلات التي يعرضها عليه تليمذه، والمحاور المقنع له في القضايا الاجتماعية والفكرية ، لاسيما أنهما كانا يلتقيان خارج الثانوية، وكان الأستاذ يستضيف تلميذه في بيته، ويتحاور معه في مختلف القضايا التي تشغل باله.

ويذكرنا هذا مرة أخرى بشخصية الأستاذ "رودومسكي" بالنسبة لـ"مامون"، كما يذكرنا بالاثنين معا تلك الحوارات والمناقشات المطولة، التي كانت تجري بين الأستاذ والتلميذ، وهي حوارات كان المؤلفون يستغلونها لطرح مختلف المشكلات الاجتماعية والسياسية التي كانت تشكل موضوع الساعة في ذلك الوقت، وإبداء آرائهم فيها على لسان الأستاذ، الذي يمثل وجهة نظر المستوطنين الأوروبيين المعتدلة ، وتلميذه، الذي يمثل وجهة نظر "المتطورين"

---

720 «Bou-el-Nouar.. », p70, 71.

من الأهالي، وهي طريقة، وإن حققت الغرض من الناحية الفكرية، وأوصلت رسالة المؤلف إلى القارئ، إلا أنها من الناحية الفنية تعد نوعا من الحشو، وضعفا كبيرا في تصوير الشخصيات، لا سيما أن المشكلات التي كان يطرحها التلميذ، والمستوى الناضج الذي كان يناقش به، تعد بكل المقاييس أكبر من سنه بكثير، مهما كان الذكاء الذي يتمتع به، ومستوى التعليم الذي تلقاه.

وفيما يلي نسوق مثالا من تلك المناقشات بين بولنوار والأستاذ "دورتان"، وسوف نلاحظ فيها كيف يتحول التلميذ المراهق، الذي مازال يدرس في التعليم الثانوي، إلى محلل اجتماعي، ومفكر في شؤون السياسة والاقتصاد:

بولنوار: لكن يا سيدي، كيف يمكن أن تتم مساواة اقتصادية في الجزائر، والأهالي يتقوقعون في روتينهم، ويزدادون فقرا في كل يوم، مستسلمين لقدر يحرمهم من أية روح مبادرة، وأية نية في النهوض؟

الأستاذ: مع أن مستقبلهم كله مرهون بالنهوض الاقتصادي...

بولنوار: كيف تريدهم أن يحسِّنوا وضعهم ؟ إنهم لا يملكون شيئا، ويصطدمون بكل أنواع الصعوبات المادية. فمن أجل إصلاح شعب لابد من مخطط إصلاحي، ولابد من جهود مالية وتعليمية...

الأستاذ: لماذا لا يعمل الأهالي مثل الأوروبيين، الذين غالبا ما كانوا يصلون إلى الجزائر وهم يلبسون أحذية "الخيش"، ولا يملكون سنتيما واحدا في الجيب.

بولنوار: معذرة يا سيدي، لقد تلقوا المساعدات ومازالوا - بشكل ما - يتلقونها[721].

إن هذا النموذج من النقاش، على قصره، يدل دلالة واضحة أن الأفكار والآراء التي يتحدث بها البطل إنما هي أفكار وآراء المؤلف، لا أفكار وآراء الشخصية، وكان في إمكان المؤلف أن يقدمها في عرض مقبول فنيا لو جاءت في شكل ردود أفعال غير ناضجة من البطل، أو حيرة لديه وإحساسات مبهمة إزاء أوضاع معينة، أو في شبه تساؤلات لا يجد لها جوابا، إلا أن مؤلفي هذه المرحلة، حرصا منهم على إيصال آرائهم إلى القراء، يأبون إلا أن يجعلوا من أبطالهم فلاسفة ومفكرين اجتماعيين وسياسيين.

ويتزوج بوضياف (والد البطل) من امرأة ثانية، فينتقل المؤلف لمعالجة ظاهرة تعدد الزوجات لدى المسلمين، ويحاول أن يظهر الآثار السلبية التي تترتب على مثل هذا الزواج، وأولها من ناحية أفراد الأسرة، فقد تأثرت الزوجة الأولى فاطمة (أم بولنوار) بهذا الزواج وتألمت ألما نفسيا شديدا، كما تأثر بولنوار بآلام أمه وأصيب بانكسار نفسي[722]. وبوضياف نفسه ((تنبه، بعد أن أشبع رغبته، إلى الخندق الذي حفره بينه وبين أهله. كانت حال ابنه على الخصوص تقلقه، كما كانت لياليه مع فاطمة مؤلمة، لا لأنه لم يعد يرغب فيها، ولكن لأن ضميره يروح في تلك اللحظات يؤنبه على خطئه في

721 «Bou-el-Nouar.. », p146.
722 «Bou-el-Nouar.. », p73.

حقها))[723]. وحتى أصدقاء بوضياف، والناس البعيدون عنه لم يستقبلوا زوجه ذاك استقبالا حسنا، وقد علق عليه صديقه القاضي، وهو ينصرف من عنده، بعد أن أنهى تسجيل العقد، قائلا: ((ها هو ذا بئيس قد حطم عائلة رائعة))[724].

وهناك مساوىء أخرى لتعدد الزوجات حاول أن يبرزها الكاتب، منها الفارق الكبير في السن بين الزوج والزوجة الثانية، والحرب التي تتبع مثل هذا الزواج بين المرأة الأولى والثانية، لا سيما إذا كانا يعيشان تحت سقف واحد مثل ما هو حال زوجتي بوضياف والأحقاد التي يحملها الأطفال في قلوبهم نحو والدهم، ونحو الزوجة الثانية، ونحو أولادها فيما بعد، إلى آخره [725]. ولكن هناك ما هو أسوأ من هذا كله إذا هدد مثل هذا الزواج بحدوث ما يمس الأسرة في الصميم، مثل زنا المحارم ، وهذا ما كاد يحدث بين زوجة الأب التي انجذبت نحو ابن زوجها الشاب بولنوار، الذي كان يماثلها في السن، فقد تحرشت به عدة مرات، وراودته عن نفسه[726]. لولا أنه كان أكثر وعيا منها، ولولا أن أم بولنوار فاجأت الزوجة الشابة وهي في موقف مريب مع ابنها، فسارعت إلى معالجة الأمر، بأن طلبت من بوضياف تزويج ابنهما، تحصينا له من إغراءات ضرتها[727].

---

723 يتوعد بولنوار أنه سينتقم من والده عندما يكبر : .Cf. «Bou-el-Nouar », p80

724 Ibid, p82, 108 et 122.

725Ibid p109.

726 Ibid p81.

727 Ibid p80.

ويستجيب بوضياف بسرعة إلى طلب زوجته، كأنه أحس بحدوث شيء ما، مع أن الزوجة لم تطلعه ـ بالطبع ـ على دافعها الحقيقي من وراء رغبتها المفاجئة في تزويج ابنهما، غير أن تزويج الإبن في سن مبكرة، ودون رغبة منه، يتيح المجال للمؤلف كي ينقد هذه الظاهرة أيضا لدى المسلمين، ويتطرق إلى النتائج التي تترتب عنها.

3 ـ نقد الزواج التقليدي

لقد كانت العادة لدى المسلمين الجزائريين أن يزوجوا أبناءهم وبناتهم في سن مبكرة، ودون مشورتهم ((فليس من عادة الأوساط المسلمة (الجزائرية) أن يتحدث الأب مع أولاده، حتى ولو كانوا معنيين بالأمر بشكل مباشر))[728]. والزواج غالبا ما يتم ـ حسب ما يذهب إليه المؤلف ـ لاعتبارات نفعية لا علاقة لها بالغرض الحقيقي من الزواج، بل تكون في معظم الأحيان على حساب سعادة الولد أو البنت، أو دراسته، إلخ .. فقد عولج الخطأ بالنسبة لبولنوار (زواج الأب من زوجة ثانية في سن ابنه) بخطإ آخر وهو تزويجه بدون رغبة منه، في سن مبكرة، وعلى حساب دراسته، بزوجة لم يعرفها من قبل، بحيث أنه: ((عندما دخل ليلة الزفاف وجد على سريره دمية))[729]، وكان زواجا غير متكافئ من حيث الثقافة. قالت له البنت زينة: ((إنني لا أفهم دائما ما تقوله، لست متعلمة مثلك))[730] والبنت نفسها كانت ضحية، فهي من حيث السن

---

728 «Bou-el-Nouar.. », p121.
729Ibid p125.
730 Ibid, p127.

ما تزال طفلة تقريبا، وكانت يتيمة الأم فعجل والدها بتزويجها، نزولا عند رغبة زوجته، التي أرادت أن تتخلص من ربيبتها عن طريق الزواج[731] وقد زوجت بدورها لشخص لم تره من قبل.

ومن وضعية زينة يتخذ المؤلف منطلقا للدفاع عن وضع المرأة التي كانت تتحمل عبء التقاليد، وتعاني من الجهل وعدم التقدير، وتربّى تربية القهر، بحيث تعوَّد منذ الصغر على تلقي الأوامر، من الأب والأم، ثم من الزوج، وتنشّأ على الطاعة العمياء التي تقتل فيها شخصيتها، وتجعل منها عبدا مسلوب الإرادة، يقول بولنوار معبرا عن هذا المعنى: ((إن لزوجتي روح العبد))[732].

ويحس البطل بعد حصوله على شهادة البكالوريا أنه مازال في حاجة إلى مزيد من العلم والمعرفة ، فيقرر السفر لهذا الغرض ـ وعلى غير المتوقع ـ إلى تونس، وكان من المفروض أن يسافر إلى فرنسا، فهذا هو الشيء المنطقي، على أساس أن تعليمه كان فرنسيا في مختلف مراحله، أما تحصيله بالعربية، فباستثناء حفظه للقرآن في الكتّاب، لا نعثر في ثنايا الرواية على أية إشارة إلى مزاولته التعليم بالعربية في أية مؤسسة تعليمية، مما يجعلنا نستنتج أن ما حصل عليه بهذه اللغة إنما كان اجتهادا وجهدا شخصيا منه.

4 ـ نقد الفكر الاصلاحي والتعليم الزيتوني

ولا نفهم الداعي الحقيقي لهذه الرحلة إلى تونس إلا بعد أن نقرأ تلك المناقشات الطويلة التي يجريها البطل مع القاضي قبل توجهه إلى تونس، ونقده المسهب للتعليم الزيتوني ولفكر الحركة الإصلاحية الدينية عندما ينتقل بعد

---

731 يفهم هذا كله من شكوى زينة لبولنوار في ليلة زفافهما، التي تختمه بقولها: ((لقد كنت دائما غير سعيدة في بيتنا، وكنت آمل أن أجد الخلاص هنا، ولكن أرى أن حظي هو أن أستمر في المعاناة)) راجع: « ..Bou-el-Nouar» p126.

732 «Bou-el-Nouar.. », p132.

ذلك إلى تونس، فحينئذ فقط نكتشف أن المؤلف إنما حوّل توجه بطله إلى تونس من أجل أن يجد ذريعة لنقد التعليم الزيتوني وفكر الحركة الإصلاحية. ويبين المؤلف ثقافة واسعة، واطلاعا دقيقا على الفكر الديني الإصلاحي الحديث في المشرق العربي وفي الشمال الإفريقي، ابتداء من جمال الدين الأفغاني الذي يصفه بأنه ((بالرغم من نزعته الثورية، فقد كان مفكرا، وكاتبا موهوبا، وبارعا في العمل الذكي)) [733]، إلى محمد عبده الذي يرى فيه ((الرجل المعتدل، الذي كان له الفضل الأكبر في تقديم علاقات الإسلام بالغرب تقديما سليما)) [734]. إلى رشيد رضا ((..الذي لعب دورا تحضيريا لتوليد الأفكار التي هزت وتهز مصر ومجموع البلاد الإسلامية "؟")) [735]، ولكنه لا يذكر بالاسم أي مصلح ممن تأثروا بهم في الجزائر أو تونس.

وعلى الرغم من المديح الذي يكيله المؤلف لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا، إلى حد ما، إلا أنه يبدي على لسان القاضي (المُحاور لبولنوار) اختلافا كليا مع توجههم الفكري، باختلافه الجذري مع السلفية (باعتبارهم زعماء لها)، لأنها في نظره منغلقة على نفسها، ولا تقبل التغيير إلا من داخل الإسلام نفسه: ((فالسلفية تستبعد كل علاقة بالغرب، خشية أن تفسد الأيديولوجيات الأوروبية صفاء الدين))[736]، وهي تحمل في داخلها" تناقضا " أساسيا يمنعها من الاحتكاك بالعالم المحيط بها، ومن النظر إلى

---

733 «Bou-el-Nouar.. », p 161.
734Ibid,., p161.
735Ibid,, p161.
736Ibid,,p163.

المستقبل ((يتمثل هذا التناقض في أنها تريد أن تتحضّر برجوعها نحو ماض قدره أربعة عشر قرنا))[737].

ويجد المؤلف مناسبة لنقد التعليم الديني بأساتذته وطلبته في الزيتونة عن طريق بطله الذي ينتقل بالفعل لمواصلة دراسته بها، فالتعليم كما رآه ((ليس إلا نتفا من كل شيء وتفسيرا للنصوص القرآنية، مع استطرادات لا حصر لها)) [738] أما الأساتذة أنفسهم ((فلم يكونوا يفعلون شيئا سوى أنهم يعيدون " تسخين " ما كان قد قيل طيلة قرون)) [739]، وأما الطلبة ((فقد اعتادوا على إجراء مناظرات فارغة، وعلى خصومات في مسائل لاهوتية، مطبوعة بطابع مذهبي)) [740].

وكما هو متوقع، فإن بولنوار، الذي تعود على نوع مختلف تماما من التعليم، لم يستطع أن ينسجم مع هذا الجو، وقد بدا شاذا في كل شيء في أعين طلبة الزيونة وأساتذتها، في لباسه، وفي ثقافته، وفي أسئلته المحرجة للأساتذة ((فقد ترك في أنفسهم انطباعا سيئا ببدلته الإفرنجية، وأربطة عنقه الجميلة، وشعره المسرح بعناية، وهيئته الواثقة التي كانت تشبه محققا رسميا)) [741]. وقد

---

737 Ibid, p164.
738 Ibid, p183.
739 «Bou-el-Nouar.. », , p183.
740 Ibid, p183.
741Ibid, p182.

ظنه زملاؤه "جاسوسا فرنسيا" ، وأخذ الأساتذة حذرهم منه "بمجرد أن علموا بأنه يحمل شهادة بكالوريا التعليم الفرنسي " [742].

وبالطبع ، فإن البديل المثالي الذي يقدمه المؤلف، بطريقة غير مباشرة، من وراء كل هذا النقد للتعليم الزيتوني، وللفكر السلفي الإصلاحي، إنما هو فكر "المتطورين" من حاملي الثقافة المزدوجة من أمثال القاضي صديق والده، خريج المدرسة الفرنسية العربية، والموظف الرسمي في الإدارة الفرنسية، الذي كان يحاور بولنوار ويدهشه بأفكاره المتطورة، وكذا المفتي التونسي الثائر على التعليم الزيتوني وأفكار السلفية، الذي يشبه في ذلك القاضي إلى حد بعيد، وأمثال بولنوار نفسه، الذي يقول له المفتي في إحدى زياراته له: ((إنك ثمرة ثقافتك المزدوجة، ولن تستطيع أن تكون غيرها))[743].

وبالطبع ، فإن المؤلف يقدمهم كبديل لأنهم يشكلون، في رأيه، حلقة وصل بين الشرق والغرب، ويجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية من جهة، والثقافة الغربية المعاصرة من جهة أخرى (ألا وهي الثقافة الفرنسية)، التي تفتح لهم آفاق العصر، وتزودهم بفكر نقدي يعيد إلى الثقافة العربية الإسلامية وجهها المشرق، كما كان على عهد الكندي، والفارابي، والغزالي وبن رشد، الذين يشيد بهم المؤلف في الصفحات اللاحقة، ويثني على جهودهم العلمية،

---

742 Ibid, p182.
743 Ibid p185.

وفكرهم المستنير، وتفتحهم على ثقافات ولغات الشعوب الأخرى، التي لولا تفتحهم عليها لما كانت لهم كل تلك الإنجازات العظيمة[744].

6ـ معاناة البطل من عدم التجارب مع أفكاره

غير أن المؤلف لا يخفي تشاؤمه من مشكلة "المتطورين" وعقبتهم الكأداء التي وقفت دائما في طريقهم وحطمت أحلامهم وآمالهم، ألا وهي مشكلة عدم التجاوب معهم على جميع المستويات، والشك في نواياهم، سواء من فئة المثقفين ثقافة عربية خالصة، كما رأينا مع طلبة وأساتذة الزيتونة، أو من قبل المستوطنين الأوروبيين، أو من الإدارة الاستعمارية التي لم تكن تقدم لهم أية مساعدة [745]، أو من الأوساط الشعبية التي كانت من جهتها تشك في نواياهم، ولا تثق في دعوتهم، بل إنها تشك حتى في إسلامهم. يقول بولنوار ((فبمجرد أن تدعو إلى مناهج الغرب تصبح مشكوكا في إسلامك)) [746]. ولا يجد تفسيرا لذلك إلا في أنها ـ حسب رأيه ـ " استسلمت للقدرية طيلة قرون"، ولنوع من "اللامبالاة أفقدتها الوعي" [747].

هذا ما يفسر خيبة الأمل، وحالة اليأس التي وصل إليها بولنوار في نهاية المطاف، فقد فشل في كل شيئ، سواء في حياته الشخصية، أو في علاقته بالمجتمع والناس، فقد كان يكتب المقالات في الصحف حتى لفتت إليه النظر،

---

744 p188 à 190.
745 Ibid, p162 ,.
746 Ibid, p159.
747 Ibid, p157.

وقابل رؤساء الأحزاب وأنشأ صحيفة وقام بجهود مضنية لإقناع الناس بأفكاره، ولكنه فشل في ذلك على جميع الأصعدة [748]. حتى زوجته الفرنسية التي تزوجها بعد أن طلق زوجته الأولى (زينة)، وكان يظن أنه عثر في شخصها على المرأة المثالية التي كان يحلم بها، هي أيضا تغيرت نحوه بعد عام من الزواج ، واضطر إلى تطليقها [749].

لقد وصل في الأخير إلى اقتناع تام بأن كل ما قام به في حياته كان عبثا ونوعا من الغرور والخيلاء: ((إن كل شيئ يتوارى من تحت قدمي، كل شيء يناصبني العداء، كل شيء يقف ضدي، أين هي أوهام أيامي الخالية ؟ ماذا بقي من العمل العظيم الذي كنت أود القيام به ؟ إنه في الحقيقة درس جيد لخيلائي. إن كل شيء ينتهى إلى العدم، وكل ما صنعته كبرياء الإنسان هو بلا قيمة، حيث أنه زائل)) [750]

هكذا فقد بولنوار الأمل في كل شيء ،في الأهل، وفي الزوجة، وفي المجتمع، وفي كل القيم والمباديء: الحداثة، والحرية، والعدالة، والأخوة الإنسانية، وكل ما كان يؤمن به ويدعو إليه[751]

---

748 Ibid, p193,194.

749 Ibid p1205.

750 «Bou-el-Nouar.. »,, p209.

751 Ibid p208,209.

رواية "ليلى فتاة من الجزائر" [752] لجميلة دباش (*).

تسير رواية "ليلى" هذه في الاتجاه الفكري والفني نفسه الذي سارت فيه الروايات السابقة التي تعرضنا لها بالتحليل من قبل، وعرفت بمصطلح "رواية الأطروحة " [753]. ولكن الجديد فيها أن مؤلفتها امرأة، والبطولة فيها أيضا لامرأة، ولذلك فإن محورها الرئيسي يدور حول المرأة ووضعها في المجتمع، على خلاف ما رأينا في الأعمال السابقة، التي وإن عالجت بدورها وضع المرأة، إلا أنها لم تجعل منه المحور الرئيسي فيها، ولم تسند للمرأة إلا أدوارا ثانوية [754]. ومهما يكن، فإن الخلفية الفكرية في جميع هذه الروايات هي واحدة، سواء أكان البطل رجلا أم امرأة، لأن نموذج البطل الذي تقدمه هو نفسه في جميع الحالات، وإن اختلف الجنس أو تباينت الأسماء والأماكن، إنه نموذج المثقف الجزائري الذي تعرفنا عليه من قبل، خريج المدرسة الفرنسية، الذي ينتمي إلى مستوى اجتماعي معين، ويحمل صفات معينة، وأفكارا معروفة مسبقا، تتمثل

---

752 Djamila Débèche « Leila , jeune fille d'Algérie », Imprimerie Charras, Alger 1948.

(*) جميلة دباش من مواليد بلدية غيراس بنواحي سطيف (تاريخ ميلادها مغفل في كل المراجع التي تعرّف بها) تقدمها بعض الكتابات كـ"أول روائية جزائرية " ، اهتمت منذ سنة 1943 بالمسائل الاجتماعية والتربوية مثل وضع المرأة الاجتماعي ومسألة تعليم الجزائريين ، أنشأت سنة 1947 مجلة نسوية بعنوان "Action " ، ونشرت روايتين ، الأولى بعنوان "ليلى فتاة من الجزائر" سنة 1948 (حسب النسخة التي بين أيدينا ، أو سنة 1947 حسب ما يذكر جان ديجو وكريستيان أشور) والثانية بعنوان "عزيزة" سنة 1955 ، كما نشرت ثلاثة أبحاث عن التعليم والمرأة ، وهي على التوالي : "المسلمون الجزائريون والتمدرس" سنة 1950، و"تعليم اللغة العربية في الجزائر" ، و"حق المرأة الجزائرية في التصويت" سنة 1951 .

753 وكذا سارت في الاتجاه نفسه رواية "عزيزة" التي نشرتها المؤلفة سنة 1955 ، بالرغم من أن قيام ثورة أول نوفمبر قبل عام من هذا التاريخ كان يعني أن الأطروحة التي تحملها قد تجاوزها الزمن ، وهذا ما جعلنا نسقط الرواية الثانية من حسابنا ، فضلا عن كونها تكرر الطرح السابق في رواية "ليلى" .

754 (6) حتى بالنسبة لتلك التي حمل عنوانها اسم امرأة مثل "زهراء امرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، إذ يكتشف القارئ بعد أن يطلع عليها أن زهراء لا تحتل إلا دورا ثانويا جدا .

في إعجابه بالحضارة الأوروبية الحديثة، وإيمانه بفكرة"الاندماج" كخيار وحيد للشعب الجزائري للخروج من حالة التخلف، والحصول على حقوقه المشروعة في العدالة والمساواة مع المستوطنين الأوروبيين، مع الحفاظ في الوقت نفسه على هويته العربية الإسلامية، ومن هذا المنطلق تراه يناضل بكل ما أوتي من قوة الحجة لإقناع هؤلاء وأولئك بحتمية هذا الحل، ويجابه كل أنواع الصعوبات، والعراقيل، والجحود، وعدم الثقة، وسوء الفهم، بسبب تحجر العقليات في نظره، وتحكم التقاليد والعادات، وانتشار الجهل والتخلف، والفهم الخاطئ للإسلام من جهة أبناء جلدته من الجزائريين، وبسبب الأحكام المسبقة، والتعصب العرقي، وانعدام الثقة في المثقف الأهلي من جهة المستوطنين والإدارة الاستعمارية.

هذه هي صورة البطل "المتطور" كما تبدو في هذه الروايات بصفة عامة، حتى وإن اختلفت في التفاصيل، وهي صورة تنطبق تماما على شخصية "ليلى" بطلة رواية جميلة دباش، حيث تتكرر صورة مامون وبولنوار بصيغة المؤنث، وبالطبع ، فإن كونها امرأة يزيد من تعقيد المسألة أكثر فأكثر، ويجعل وضعها في المجتمع أسوأ من وضع الرجل، بسبب تحكم التقاليد، التي تفرض قيودا أكثر على المرأة، في وسط متخلف، تسوده الأمية، وتحكمه الممارسات الإقطاعية. تقول ليلى شارحة أسباب سوء الفهم بينها وبين أفراد أسرتها: ((إنني لا أستطيع أن ألوم أسرتي، إنها تظن نفسها على صواب. إن الداء جاء

من كوني أنا تطورت، في حين أنهم هم ظلوا على هامش الحياة المعاصرة))[755].

إن ليلى هي ابنة أحد كبار ملاك النخيل في منطقة أولاد نايل بالجنوب الجزائري، كانت لها، بفضل هذا الوضع الاجتماعي المتميز لوالدها، فرصة الدخول إلى المدرسة الفرنسية، كما كان لها الحظ، بفضل قدرة والدها من الناحية المالية وتفتحه الفكري من ناحية أخرى - بإعطائه الفرصة في التعليم للبنت مثل الولد - في مواصلة دراستها بالجزائر العاصمة في معهد فرنسي للبنات ذي نظام داخلي، حيث قضت في هذا المعهد ثماني سنوات من الدراسة، وكانت تنتظر مستقبلا واعدا، يتناسب وثقافتها ووضعها الاجتماعي، إلا أن وفاة والدها المفاجئة جاءت لتقلب حياتها رأسا على عقب، وتجعلها في مواجهة عم متزمت ومتسلط، أصبح بحكم التقاليد الوصي عليها وعلى أملاكها بعد وفاة والدها.

استغل هذا العم صفته كوصي ليفرض عليها قيودا، ويلزمها بأمور تجردها من أية مزية اكتسبتها بفضل تعليمها وثقافتها، لتعيدها إلى حياة القرية الصغيرة المعزولة التي تتحكم فيها التقاليد البالية، وتسيطر فيها علاقات الإقطاع التي تنبني على الاستغلال والاستعباد، وتهمش المرأة في المجتمع، وتقلص من دورها في الحياة النشطة، لتجعل مهمتها لا تتعدى إنجاب الأطفال، والعناية بهم وخدمة زوجها، والقيام بشؤون بيتها الأخرى، أما ما يجري

755 « Leila , jeune fille d'Algérie », p130.

خارج البيت فيعد من شؤون الرجال وحدهم، ولا دخل للمرأة فيه من قريب أو بعيد.

سارع العم بعد وفاة أخيه، وبعث من يحضرها على جناح السرعة من العاصمة، مستغلا في آن واحد حادث وفاة والدها من ناحية، وانتهاء السنة الدراسية من جهة ثانية، وكان غرضه من إرجاعها إلى بيت العائلة بأولاد نايل أن يضرب عصفورين بحجر واحد، الأول أن يصحح وضعا كان يعده خطأ من البداية، ألا وهو خروج أخيه على التقاليد المتوارثة، وإقدامه على إرسال ابنته لتواصل تعليمها في العاصمة، والثاني أن يزوجها بابنه ليضمن بقاء إرثها تحت يده فلا يذهب إلى الأغراب إن هي تزوجت من خارج الأسرة.

ومنذ اليوم الأول لعودتها، فرض عليها نظاما صارما، يلزمها بطاعة من عبر عنهم بقوله لها: ((من حلوا بالنسبة إليك محل أمك ومحل المأسوف عليه، أخي العزيز والدك، الشيخ بن عبد الله))[756]. وهو يقصد بصيغة الجمع نفسه ثم زوجته وزوجة أخيه الثانية، علما أن هاتين المرأتين لم تكونا في الواقع إلا ظلا له، وامتدادا لنفوذه، لأنهما كانتا تخافانه، ولا تجرآن على مخالفة أمره في أي شيء. كما ألزمها بضرورة التقيد بالتقاليد الموروثة عن الأجداد، في اللباس، وفي السلوك، وفي كل شيء: ((...لابد أن يعوض الحايك والحجاب الألبسة التي كنت ترتدينها في مدينة الجزائر... وعليه، فلابد لك أن تنسي ما تعودت عليه، لتتعودي من جديد على عاداتنا، عادات أجدادك))[757].

756 « Leila , jeune fille d'Algérie »,, p29.
757 « Leila , jeune fille d'Algérie »,, p29, 30.

كل هذه الإجراءات لم تكن إلا مجرد تمهيد للغرض الأساسي الذي عزم عليه العم ألا وهو تزويجها من ابنه "حمزة "، بناء ـ كما أخبرها ـ على اتفاق تم بينه وبين أخيه المتوفى [758]، منذ أن كانت طفلة. قال لها: ((إنني سأتكفل بضمان مستقبلك. سأزوجك حسب تقاليدنا بالزوج الذي يسعدك. وقد فكرت منذ زمن بعيد، عندما كنت ما تزالين طفلة بعد، فيمن سيكون من نصيبك في يوم ما، وأظن أنه أصبح في إمكاني أن أقول لك أن ما كان مجرد مشروع غائم سيكون إن شاء الله حقيقة، إنه ابن عمك حمزة ، إبني العزيز، إنه الزوج الذي يناسبك)) [759]

وبالطبع، كان من المستحيل أن تقبل بهذا الوضع، وهي الفتاة المتعلمة التي تسلحت بسلاح العلم، واكتسبت ثقافة وخبرة، واحتكت بالحياة الأوربية في العاصمة داخل معهد البنات وخارجه، كما لم تكن بمعزل عن الحياة العربية في المدينة، التي كانت أكثر تحررا من قبضة التقاليد، وأكثر تطورا وتفتحا على العصر من المدن والقرى الأخرى، حيث كانت تقضي أيام العطل والأعياد في بيت عمة لها كانت تسكن القصبة، وأرادت أن ترد على عمها وتناقشه، ولكنه منعها، على أساس أن ما عرضه عليها لم يكن على سبيل الاستشارة وإبداء الرأي، ولكن على سبيل الإعلام ، وبغرض التنفيذ لا غير. وأنهى مقابلته معها

758 « Leila.. »,, p34.
759 Ibid, p29.

بقول مبطن بالتهديد والوعيد: ((.. إن رضاي عنك ومقدار الهدايا التي سأغدقها عليك سيكون بقدر ما تبدين من الطاعة نحونا))[760].

إلا أن ليلى لم تقبل بالأمر الواقع، ولم تستسلم لإرادة عمها، بل، إنها طلبت منه أن تعرف مقدار ما تركه لها والدها من الإرث، وعرضت عليه، في آخر محاولة منها، مساعدته في تسيير ممتلكات العائلة، بفضل ما لديها من تكوين علمي يسمح لها بذلك [761]، وهو ما عده العم نوعا من التحدي له، وخروجا عن الدين والتقاليد، فتصدت له، محاولة إقناعه بحجة الدين نفسه، فأوضحت له أن التقاليد هي التي تقول ببقاء المرأة في بيتها، وعلى الرجل أن يقوم بشؤونها [762]، أما الشريعة فإنها تسوي بين المرأة والرجل، وأن لا شيء يمنع المرأة من أن تسيِّر شؤونها بنفسها، وقد أعطاها التشريع الإسلامي حرية كاملة في مراقبة مالها، وبناء عليه، فإن المرأة يجب أن تكون بجانب الرجل لا قابعة في البيت [763].

لكن عمها لم يكن مستعدا لقبول حجة العقل ولا حجة الدين، بل إنه لم يكن، في الحقيقة، قادرا على الجدال لا بمنطق العقل ولا بمنطق الدين، ولذلك رد عليها بضحكة استهزاء تلخص تعنته واحتقاره لآرائها، قبل أن ينهي كلامه معها بقوله: ((لا مجال لتطور المرأة هنا)) [764].

---

760 Ibid, p30.
761Ibid, p31.
762 Ibid, p33.
763 « Leila , jeune fille d'Algérie »,, p34.
764 Ibid, p36.

والواقع أن البطلة قد فوجئت بمثل هذا الوضع الذي لم يكن ليخطر لها على البال، ولذ لك لم تتهيأ له، ووجدت نفسها في ما يشبه المصيدة، لا تدري ما ذا تفعل ولا كيف تتصرف لتخرج منها، غير أن عجزها عن الفعل لم يمنعها من أن تعلن رفضها لمشروع عمها بشكل صريح وواضح، قالت لزوجة أبيها التي جاءت تحاول أن تقنعها بضرورة الانصياع إلى أوامر عمها: ((لا أحد يستطيع أن يرغمني على قبول قران لا أريده)) [765]، بل إنها تحينت ذات مرة فرصة اجتماع عمها وابنه، أو العريس الموعود، لتقتحم عليهما الغرفة، على غير العادة المتبعة، وتعلن لابن عمها بصريح العبارة أنها لا تريده زوجا لها [766]. وهو ما أغضب عمها غضبا شديدا، وزاد من إصراره على تنفيذ ما عزم عليه، قال لها: ((إن الحِلم الذي أبديته نحوك قد كافأتني عليه بالعقوق ، ولذلك سنقيم حفل زفافك في الشهر القادم، وحينئذ سيتولى حمزة أمرك))[767].

وأثناء ذلك كتبت رسالة مطولة لصديقتها "مادلين لورمون" شرحت لها فيها وضعيتها الصعبة، وخلافها مع عمها، وقد تمكنت من إيصال الرسالة خفية إلى مصلحة البريد عن طريق أخيها الصغير محمد [768]. وهي الرسالة التي حركت صديقتها التي كانت تكن لها إعجابا وحبا كبيرا ، لتعمل على إنقاذها من ورطتها، وتدفع والدها، الصناعي "أندري لورمون"، ليكلف نفسه عناء

765 « Leila.. »,, p78.
766 Ibid, p83.
767 Ibid, p86.
768 Ibid, p61.

السفر إلى أولاد جلال، ويقابل الشيخ علي، ليفاوضه بشأن اصطحاب ليلى معه إلى بجاية.

وتحاول المؤلفة في هذه المقابلة المتوترة بين العم والسيد لورمون" أن تبين أن العم لم تكن تعنيه التقاليد في حد ذاتها بقدر ما كان يعنيه إرث ابنة أخيه، وما تمسكه بالتقاليد إلا لأنها تحقق له أغراضه المادية، فهو لا يريد لإرث ابنة أخيه أن يذهب إلى الأغراب، ومن أجل ذلك خطط لتزويجها من ابنه، وقد عبر عن هذا صراحة لـ"أندري لورمون" والد "مادلين"، قال له: ((إن ابنة أخي ليلى لها بالفعل بعض الأملاك، ولكن هذه الأملاك يجب أن تبقى في العائلة، ومشروع الزواج الذي خططنا له يضمن لنا تراثنا))[769].

- الدين والتقاليد دريعة لحماية مصالح الاقطاع

ومعنى هذا أن مسألة الحفاظ على التقاليد وتماسك الأسرة لم تكن إلا ذريعة بالنسبة للشيخ علي للاستيلاء على إرث ابنة أخيه، بدليل أنه وافق بسهولة غير منتظرة على رحيل ليلى مع السيد "لورمون" بمجرد أن أعلنت له عن استعدادها للتنازل عن حقوقها في الإرث مقابل إعطائها حريتها في الذهاب [770]. وقد عجل باستدعاء الموثّق ليكتب عقدا بذلك، حتى لا يكون أمامها أي مجال للتراجع في المستقبل[771]. ولو كان حريصا فعلا على حماية

769« Leila , jeune fille d'Algérie »,, p116.
770 Ibid, p117.
771 Ibid, p119.

العائلة وتقاليدها، والحفاظ على تماسكها، وعلى العمل بوصية أخيه كما كان يتظاهر، لظل متمسكا ببقائها في البيت.

وكانت ليلى قبل ذلك، قد تمكنت من الاتصال، بالسلطات الفرنسية المحلية في أولاد نايل، ظنا منها أن السلطات ستنصفها من عمها، وتمنعه بالخصوص من تزويجها رغما عنها لشخص لا ترغب في الزواج منه، ولكن ظنها خاب في السلطات المحلية، وتبين لها أنها كانت متواطئة مع عمها. هذا ما يفهم من قولها في رسالتها لصديقتها "لورمون":

((قال الشخص الذي شرحت له وضعيتي: إننا لا نستطيع، يا إبنتي، أن نفعل لك شيئا. إنك مسلمة، وعليك أن تعيشي حسب تقاليد أسلافك.. ثم إن عمك قال لنا بأنه قد أعد لك مستقبلا جيدا وزيجة سعيدة مع بن عمك))[772]

وهذا ما يؤكد لنا أيضا ما ذكرناه آنفا من الشكوى المتكررة للبطل "المتطور" من عدم تجاوب أبناء جلدته معه من جهة، وعدم تفهم وتعاون السلطات معه من جهة أخرى.

- الشريعة الإسلامية لا تمنع تطوير المرأة

وفي محاولة مستميتة من البطلة في إظهار حقها، ومقاومة ظلم عمها - قبل أن ترحل مع السيد لورمون - حاولت أن تستفيد من زادها المعرفي، وراحت تبحث لها عما يؤيد حقها ويسقط وصاية عمها عنها من خلال النصوص التشريعية، ووجدت ضالتها في "المختصر الأساسي للشريعة الإسلامية"

772 ,Ibid, p59.

لـ"مارسيل ديكلـو"، ومنـه نقلـت الفقـرة 291 الخاصـة بـالولي، بكاملـها، ومما جاء فيها:

((إن القاضي يسقط حق الوصاية عن الولي الطبيعي والشـرعي، وهـو أب الأسرة أو الوصي إذا قصَّر تقصيرا خطيرا في واجبه، أو كان تسييره ككل سيئا، أوضيع جزء من المال، أو بذَّر مال القاصر، أو قام بعمل فيه احتيال، أولأن الأم الوصية عُرفت بسلوك غير طيب..))[773]

ويبدو من إيراد النصوص الرسمية هكذا بحذافيرها داخل النص الروائي، أن الكاتبـة تتجـاوز في الكـثير مـن الأحيـان مجـرد الاسـتجابة لمتطلبـات الفـن الروائي، لتتحدث إلى القارئ حـديثا مباشـرا، يـدفعها إلى ذلـك حرصـها علـى إيصال أطروحتها إليـه بكـل الوسـائل، ومضـمونها هنـا: أن الشـرع الإسـلامي يحمي حقوق الموصى لهم، ويسقط عن الوصـي حـق الوصـاية إذا ظهـر منـه مـا يطعن في أهليته، كالتصرف السيئ في المال، أو السلوك الأخلاقي السـيئ حتـى ولو كانت درجة قرابته منهم تصل إلى درجة الأبوة أو الأمومة.

3 ـ المستوطنون يمكنهم تطوير مجتمع الاهالي

وفي الحقيقة أن الكاتبة قد استعملت مختلف الأساليب لإيصال أطروحتها إلى القارئ، وأهمها إجـراء الحـوارات المطولـة بـين شخصـيات الروايـة، وهـي تشترك بهذا مع من مروا معنا من كتاب الرواية في هذه المرحلة، كمـا اسـتغلت بشكل خاص أسلوب الرسالة كأداة لتوصيل الأفكار، إلى حد المبالغـة والإفـراط.

---

773 « Ibid, p36

ونذكر هنا رسالتين منها على الخصوص، الأولى كتبتها ليلى لإحدى السيدات الفرنسيات جاءت في زيارة إلى الجزائر، وتعرفت على البطلة في بيت آل "لورمون"، ودار بينهما حديث مطول عن الأوضاع في الجزائر، ولا سيما عن وضع المرأة "المسلمة"، التي لا حظت السيدة الفرنسية أنها لا تشارك في الحياة الاجتماعية [774]، فجاءت الرسالة بعد أن عادت السيدة الفرنسية إلى بلدها، لتكون تتمة لذلك الحوار، والرسالة الثانية، كتبتها البطلة بناء على طلب من وزير فرنسي (لم تحدد المؤلفة القطاع الذي يمثله) جاء في زيارة استطلاعية إلى الجزائر، وزار مصنع السيد "لورمون" في بجاية حيث أصبحت ليلى مسؤولة عن مصلحة المستخدمين فيه، وقد أعجب الوزير بحديثها، وبأجوبتها عن أسئلته التي كانت تتعلق بالأوضاع الاجتماعية للأهالي، بحيث كانت لها وجهة نظر واضحة ومحددة في مختلف القضايا والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تطرق إليها الحديث، وحرصا من الوزير على تلك الأفكار والمقترحات التي بدت له جديدة ومفيدة عن واقع الأهالي، طلب منها أن تبعثها له مكتوبة، حتى يرى ما يمكن أن يدرجه منها ضمن برنامج وزارته الذي كان في طور الإعداد[775].

ملأت الرسالة الأولى صفحات عدة من الرواية، ناقشت فيها المؤلفة مرة أخرى موضوع الإسلام والتقاليد، فحاولت أن تقدم على لسان البطلة الدليل على أن الإسلام لا يمنع المرأة من المشاركة في الحياة الاجتماعية، ولا من العلم،

774« Leila.. », , p146.

775 Ibid p156.

ولا من العمل وممارسة التجارة، ولا من التطور بشكل عام، مثلها مثل الرجل، ثم راحت تسرد أمثلة من التاريخ الإسلامي في مختلف عصوره المزدهرة، وتذكر أسماء وأعمال نساء شهيرات، بدء من نساء النبي، وبناته وحفيداته، فتحدثت عن نساء النبي، وخصت زوجتيه خديجة وعائشة بالذكر، حيث تقول عنهما: إنه وجد من الأولى المساندة والعون في بداية الدعوة، وواصلت الثانية مهمته التربوية بعد وفاته[776]. وبعدهما اشتهرت نساء أخريات، مثل ابنته فاطمة الزهراء التي اشتهرت بعلمها، وأسماء بنت أبي بكر، وعاتكة بنت زيد الأنصاري، وزبيدة زوجة هارون الرشيد، وبوران زوجة المنصور، وعائشة بنت المعتصم، الخليفة العباسي، وأم السعد بنت هيثم الحميرية في قرطبة بالأندلس، وقطر الندى في مصر المملوكية، اللائي ساهمن كلهن في صنع الحضارة العربية الإسلامية ووصلن بها إلى قمة التطور[777].

وتشير البطلة أيضا إلى نهضة المرأة في العصر الحاضر في تركيا ومصر (*)، لتتخلص من كل ذلك إلى أن التقاليد البالية التي تراكمت عبر العصور، مع ما رافقها من جهل وانحراف عن الإسلام الصحيح، هي المسؤولة عن وضع المرأة المتخلف اليوم: ((... فأنت ترين يا سيدتي العزيزة أنه كان لدينا أيضا نساؤنا الشهيرات، اللائي ساهمن في ازدهار الحضارة الإسلامية، غير أنه،

776« Leila.. »,, p150.

777Ibid, p150, 152.

(*) ولكنها لا تذكر أي إسم لهن، مما يعني أن المؤلفة كانت تسمع عن وجود نهضة نسوية في هذين البلدين ولكنها لا تعرف أسماء النساء اللائي يمثلنها، ولا قرأت لهن.

وعلى مر القرون تعرضت روح الشريعة القرآنية إلى التحريف، فأبعدت المرأة شيئا فشيئا عن الحياة العامة))[778].

وتنهي رسالتها إلى الصديقة الفرنسية برأي تقول فيه ما معناه: إن نهوض المرأة المسلمة في شمال إفريقيا عامة، لن يكون إلا بتلاقي الحضارتين الشرقية والغربية: ((فمن أجل ميلاد عالم أفضل، لابد أن تتكيء كل واحدة منهما على الأخرى))[779].

والرسالة الثانية كانت أطول بكثير من الأولى، حيث شكلت بموضوعاتها المتعددة برنامجا اجتماعيا سياسيا كاملا، احتل مساحة من الرواية زادت عن اثني عشر صفحة [780]، وهو البرنامج الذي ترى أنه يسمح بالمساهمة ـ في حالة تنفيذه ـ للجزائريين بكل فئاتهم في "النهضة" التي تشهدها البلاد، وفي "جو الثقة " ((الذي يجب أن تسهم في صنعه كل العناصر السكانية، دون تمييز في الرأي، أو العرق، أو الدين))[781].

أوضحت في مستهل الرسالة مرة أخرى أن الإسلام لا يقف عائقا أمام تطور المرأة، وإنما المسؤول عن ذلك هو الجهل والتقاليد البالية[782]، ولا يمكن القضاء على هذين العاملين المعوقين للتطور إلا بالتعليم والتكوين، ومن هنا راحت تدعو إلى ضرورة العناية ببناء المدارس، ونشر التعليم على نطاق واسع،

---

778 « Leila.. »,, p153.
779 Ibid, p153.
780 Ibid, p158.
781Ibid, p157 à 169
782« Leila.. », p160.

وتعليم البنت على الخصوص، والإكثار من إنشاء المدارس المهنية الخاصة بالبنات، وتشجيع كل مبادرة تهدف إلى تطوير المرأة وترقيتها، وتلاحظ هنا أنه يمكن الاستفادة في هذا الصدد من التجربتين المصرية والتركية [783]، وخاصة في معالجة بعض المسائل الاجتماعية الحساسة كمسألة الحجاب [784]. ثم تتطرق بعد ذلك إلى موضوعات أخرى كتطوير الفلاحة والريف بشكل عام، نظرا إلى طبيعة البلد الفلاحية، وكون معظم السكان يقطنون المناطق الريفية، وكذا العناية بالصحة وبالطفل حتى لا يكون عرضة للتشرد، وبالسكن الاجتماعي "لأنه لا يمكن بناء شيء صحيح على مدن الصفيح"، وما إلى ذلك من الميادين الاجتماعية التي ترى أنه لا يمكن إحراز أي تقدم اجتماعي إلا بالعناية بها وتطويرها[785].

ونلاحظ أن كلا الرسالتين موجهة إلى ما وراء البحر، أي إلى الرأي العام الفرنسي في فرنسا، وهو تقليد جرى به العرف في روايات هذه الفترة الأولى، حيث كان هناك اعتقاد سائد أن فرنسيي المتروبول يختلفون عن المستوطنين المقيمين في الجزائر، فهم أكثر تفهما وإنصافا للجزائريين، وأكثرهم نزاهة وموضوعية وتمسكا بمبادئ العدالة والحرية والديمقراطية[786].

---

783 Ibid, p165.

784 وهي ترى أنه ليس من الإسلام في شيء : Cf. « Leila.. »,, p165

785 « Leila.. », p169.

786 نجد نموذج فرنسي المتروبول المتفهم ، النزيه، المنصف في شخصية مدير المنجم في "زهراء زوجة المنجمي"، وفي شخصيتي الأستاذ "رودومسكي " وزميل الدراسة "دو ليساك"، في رواية "مامون"، وفي شخصيتي الزوجين "فونتان" والأستاذ "ديرتان" في رواية "بولنوار".

ومع ذلك، فإن السيد "لورمون" يشكل من جهته استثناء، فهو يؤمن بضرورة المساهمة في تطوير اقتصاد المنطقة التي أقام بها مصنع الزيت الذي يملكه، مع التطوير الذي ينوي القيام به للصناعة التحويلية الغذائية (مربى، خضر، لحم إلخ..)، ففتح أبوابه مصنعه للعمال والعاملات الجزائريين بدون تمييز، وكان مصنعه من الأهمية بحيث يشغِّل أكثر من ألف عامل وعاملة، وقد حاول أن يلعب دورا أكبر من مجرد دور اقتصادي، فشجع عمل المرأة على الخصوص، وأقام، باقتراح من ليلى، مصلحة خاصة بالخدمات الاجتماعية والصحية [787]، وعين فيها طبيبا جزائريا شابا، وسبق لنا أن رأينا موقفه الشهم إزاء ليلى، حين لعب دور "المنقذ" لها من ظلم عمها، ومن قهر التقاليد التي كان يمثلها ذلك العم، فكان ـ كما صورته الروائية ـ نموذجا للمستوطن المثالي الذي يؤمن بضرورة التعايش والتعاون بين جميع السكان، وقد عبر عن ذلك ذات مرة بقوله: ((إن هناك أناسا طيبين في هذا البلد، وسيأتي يوم يكون فيه الطيبون من المسلمين، والطيبون من الفرنسيين في وفاق تام.)) [788]

وتلتقي البطلة، التي ليست هي في الواقع إلا ترجمانا لأفكار وآراء المؤلفة، في هذه النظرة مع السيد لورمون حين تعبر عن ضرورة نسيان التاريخ الدامي للاستعمار، والنظر إلى المستقبل وحده، والتعاون على بنائه. تقول

787 «Leila.. », p131,132.
788« Leila.. », p99.

لصديقتها "مادلين لورمون": ((لابد من الضرب صفحا على الماضي، والمشي معا، اليد في اليد نحو مستقبل أكثر صفاء.. صفاء يصنعه اتحاد حضارتين))[789]

ونلاحظ هنا من جهة أخرى، أن المؤلفة تتبع طريقة الروائيين السابقين عنها، حين تسخِّر شخصياتها الروائية لإيصال أفكارها الخاصة، وتجري على ألسنتهم حوارات، أو تكتب بأيديهم رسائل مطولة، تبث فيها آراءها في مختلف القضايا التي كانت تشغل المجتمع في زمنها، وهو الشيء الذي يقتل الشخصيات الروائية ويحولها إلى دمى خشبية يحركها المؤلف من وراء الستار، دون مراعاة للسن، أو التجربة الحقيقية، أو النضج الفكري للشخصية.

لقد سبق أن لاحظنا تلك الظاهرة في روايات شكري خوجة ورابح زناتي على الخصوص، بالنسبة لشخصيتي مامون وبولنوار، وهاهي الظاهرة نفسها تتكرر مع جميلة دباش ممثلة في شخصية ليلى. والوقع أنه، لا مستواها الثقافي (كانت طالبة في مدرسة ثانوية) ولا سنها (كانت في الثامنة عشر من عمرها) يسمحان لها باكتساب كل ذلك النضج الفكري الذي أظهرته في حواراتها، وفي رسائلها، ولا كل تلك القدرة غير العادية على تحليل الأوضاع الاجتماعية في جزائر تلك الحقبة.

وتختلف رواية جميلة دباش نوعا ما عن الروايات السابقة في في نهايتها السعيدة، والمتفائلة بالمستقبل، حيث تتزوج ليلى من زميلها الطبيب الشاب يحي بن ادريس، المشرف على مصحة المصنع، الذي كان بالمناسبة من أنصار

---

789 Ibid,, p65

"تطور" المسلمين الجزائريين[790]، وتعود بصحبته إلى أولاد جلال، بعد أن تلقت رسالة من أهلها أعلمتها بوفاة عمها الشيخ علي، الذي ندم على معاملته لها وهو على فراش الموت ، وأعلن على رؤوس الأشهاد، قبل أن يسلم الروح، أحقيتها في ميراثها الذي تركه لها والدها [791]. وفي أولاد جلال بنت ليلى مستوصفا لزوجها ليقوم فيه بمهمته الإنسانية، في الوقت الذي تفرغت فيه هي للإشراف على إدارة أملاكها.

790 Ibid p179.
791 Ibid p190,191.

الفصل السادس

من وعي الذات إلى التمرد

1 ـ الحرب العالمية الثانية وتأثيراتها على الوضع في الجزائر

عقب كل حرب عظمى تتحرك السواكن على مستوى العالم كله، ويحدث تغير عميق في الخريطة الجيوسياسية الدولية، يكون له انعكاساته الإيجابية أو السلبية على الدول الكبرى والصغرى على السواء، وفيما يخص الجزائر ، فإنه مثل ما أحدثت الحرب العالمية الأولى تأثيرها على الأوضاع الداخلية، بحيث أدت بالخصوص إلى ظهور ما سمي بقوانين 4 فبراير 1919، التي ألغت قانون "الأهالي"، وسمحت للجزائريين بإنشاء الأحزاب وممارسة النشاط السياسي، ومن ثمة سمحت لهم بحق التصويت والترشح للانتخابات المحلية[792]، فإن الحرب العالمية الثانية أحدثت بدورها تأثيرات كبرى في الوضع السياسي الجزائري، فقد أفرزت واقعا آخر جديدا كان أكثر ملاءمة لمطالبة الجزائريين بحقوقهم المشروعة في الحرية وتقرير المصير، وقد ساعد على إيجاد مثل هذا الواقع عدة عوامل، أهمها:

أولا: تراجع قوة ونفوذ القوى العظمى التقليدية في العالم، المثلة في الدولتين الاستعماريتين الرئيسيتين بريطانيا وفرنسا، بعد حربين عالميتين أنهكت قواهما، وزحزحتهما إلى الخلف في اتخاذ القرارات الدولية، وراء قوى

---

792 راجع الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 4 .

عظمى جديدة أصبحت تقود العالم، تأتي على رأسها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

ثانيا: التوجهات السياسة للقوى العظمى الجديدة، المؤيدة لحق الشعوب المستضعفة في الحرية وتقرير المصير. وقد جاء في تصريح للرئيس الأمريكي "فرانكلين روزفلت"، إبان الحرب، باسم كل الحلفاء، ما يعبر عن هذا التوجه بوضوح حين قال: ((إن حقوق كل الشعوب، صغيرة كانت أم كبيرة، ستحترم عند تنظيم العالم الجديد)) [793]. ومثل هذا التوجه الجديد بعث أملا كبيرا في نفوس الجزائريين، في التخلص من عبودية الاستعمار، والحصول على حق تقرير المصير.

ثالثا: مساهمة الجزائريين في الحرب بما يساوي تقريبا عدد الجنود الفرنسيين أنفسهم الذين جندوا في الحرب لتحرير فرنسا [794]. وهو الشيء الذي خلق وضعا شاذا ومتناقضا بالنسبة إليهم، عبر عنه حالهم قبل أن تعبر عنه ألسنتهم، إذ كيف يطلبون الحرية للآخرين، ويدافعون بدمائهم وأنفسهم عن أوروبا عامة، وفرنسا خاصة، ضد تسلط الفاشية والنازية، في الوقت الذي كان يعيش فيه بلدهم وشعبهم تحت عبودية الاستعمار وتسلطه ؟ وبالفعل، فقد اكتشف الجزائريون قوة الأمريكان عند نزولهم بالجزائر في 8 نوفمبر 1942 وعرفوا

---

793 من "بيان الشعب الجزائري" الموجه للسلطات الفرنسية ولقادة القوات الأمريكية والإنكليزية بعد نزولها بالجزائر في 8 نوفمبر 1942. راجع: راجع: د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه " ص84.

794 يذكر د. يحي بوعزيز استنادا إلى الأرقام المقدمة من أركان الحرب العامة الفرنسية أن نسبة الجنود الجزائريين المسلمين في الجيوش الفرنسية ، قبل نزولهم بفرنسا كانت حوالي 54%. كما يذكر أن عدد الجزائريين الذين استدعوا إلى الخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي من شهر ديسمبر 1942 إلى نهاية الحرب قد بلغ 140 ألف مجند. المرجع السابق ص 123.

كيف يستفيدون منها ومن دبلوماسيتهم، فاتصلوا بقادتهم، وطلبوا منهم تأييدهم في إقامة حكم فدرالي بالجزائر يجمع المستوطنين الأوروبيين والجزائريين [795]. وهو المطلب الذي بلوروه فيما بعد في شكل وثيقة سياسية، اقتصادية، اجتماعية تشكل تصورا للمستقبل السياسي للجزائر بعد الحرب، تقدموا بها للسلطات الفرنسية، بعد أن كلفوا فرحات عباس بصياغتها كتابيا [796]. وعرفت باسم "بيان الشعب الجزائري"، وسلموا نسخة منها للقيادة العسكرية الأمريكية والإنكليزية بالجزائر، وبعثوا بنسخة إلى الجنرال "ديغول" في لندن ، وبنسخة مماثلة للحكومة المصرية [797].

وجاء هذا "البيان" كرد على الحاكم العام "دارلان" والجنرال "جيرو" من بعده، اللذين ظلا يلحان على ضرورة مساهمة "المسلمين الجزائريين" في التعبئة العامة، وتجنيدهم في الحرب إلى جانب الحلفاء [798]. فكان هذا "البيان"، بالنظر إلى الظرف الذي قدم فيه، ولأهمية المطالب السياسية التي جاءت فيه، بمثابة شروط مقابل العمل على تعبئة الجزائريين في جهود الحرب.

وقد لقي "البيان" المذكور تأييدا واسعا من مختلف الأحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية بمختلف انتماءاتها السياسية، وشكل شبه إجماع لمختلف

---

795 Charles Robert Ageron " Histoire de l'Algérie contemporaine", Col. Que-sais-je , p92.

796 د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه" ص66.

797 نفسه ص 69.

798 C. R. Ageron " Histoire de l'Algérie contemporaine", p92.

القوى السياسية في البلاد [799]. مما اضطر الحاكم العام "مارسيل بيرتون"، الذي خلف الجنرال "جيرو" في منصب الحاكم العام، وتحت ضغط متطلبات الحرب، إلى الموافقة على ما جاء في "البيان"، بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات [800].

لكن الجنرال "كاترو"، الذي خلف "بيرتون" في منصبه بعد أشهر قليلة، سرعان ما تنكر لما التزم به سلفه، وزاد على ذلك أن ألغى "القسم الأهلي" من "النيابات المالية" عندما رفض النواب المسلمون حضور اجتماع عام كان مقررا في 23 سبتمبر 1943، احتجاجا على تنكر الحاكم لما جاء في "البيان"، كما نفى فرحات عباس وعبد القادر السايح إلى الجنوب الوهراني[801].

ونظرا لما أحدثته مواقف "كاترو" من غليان في الأوساط الشعبية الجزائرية، فقد عاد وتراجع عن قراراته السابقة، فأعاد "القسم الأهلي" الذي ألغاه من النيابات المالية، وأصدر عفوا عن المنفيين، وأعد إصلاحات "تافهة" * لا يوجد فيها أي شيء من تلك المطالب التي ورد ذكرها في "البيان"، وعلى ضوء "إصلاحات" كاترو أصدر الجنرال "ديغول"، القائد الأعلى لقوات "فرنسا الحرة" في 7 مارس 1944 مرسوما يمنح الجنسية الفرنسية لحوالي 60 ألفا من

---

799 باستثناء "حزب الشعب الجزائري" بقيادة الحاج مصالي الذي كان يطالب بالاستقلال التام للجزائر عن فرنسا، و"الحزب الشيوعي الجزائري " الذي أنشأ حركة مستقلة سماها "أصحاب الديمقراطية والحرية"، دافع فيها عن سياسة الاندماج. راجع: يحي بوعزيز " الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية.." ص97 ، 98 .

800 راجع نص الوثيقة وتعديلها في المرجع السابق الذكر، من ص 63 إلى 86.

801 د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه " ، ص96 .

* حسب تعبير الدكتور يحي بوعزيز في "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية.."

الجزائريين، دون مطالبتهم بالتخلي عن عقيدتهم الإسلامية، ويقضي برفع تمثيل الجزائريين في المجالس المنتخبة بنسبة 1 إلى 3[802].

وبالطبع لم يرض هذا الإجراء الأحزاب السياسية الجزائرية، وقابلته بالرفض والاستنكار وعدَّته دليلا قاطعا على عدم وفاء فرنسا بالتزاماتها تجاه الجزائر[803]. ومن هذا الرفض والاستنكار نشأت حركة سياسية جديدة بزعامة فرحات عباس، انضم إليها أعضاء من "جمعية العلماء المسلمين"، وأطلقت على نفسها اسم "أحباب البيان والحرية"، وجعلت برنامجها السياسي هو الدفاع عما جاء في "بيان الشعب الجزائري"، والنضال من أجل تحقيق الإصلاحات التي جاءت فيه[804].

وبقدر ما خاب ظن "المعتدلين" الجزائريين من أمثال فرحات عباس في قيادة فرنسا الحرة التي ظنوا أنها ستنصفهم، بعد ما جربت عبودية الاحتلال الألماني لبلدها، وذاقت مرارة القهر على يد النازية، بقدر ما أحس التيار الوطني المطالب بالاستقلال التام عن فرنسا، بصحة موقفه وصواب رأيه في عدم مجاراة "البيانيين" في حسن ظنهم بقادة فرنسا، سواء منهم أولئك الذين كانوا يحكمون فرنسا قبل الحرب، أو الذين أصبحوا يحكمونها بعد الحرب[805].

---

802 د. عمار بوحوش "العمال الجزائريون في فرنسا"، ص110، 111.

803 المرجع نفسه، ص111.

804 راجع أهداف حركة "أحباب البيان" في "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية.." ص97.

805 يمثلهم خصوصا الزعيم مصالي الحاج الذي قال لفرحات عباس عندما عرض عليه تأييد "البيان": ((إنني لا أثق البتة في فرنسا لأنها لا تذعن إلا للقوة)) المرجع السابق الذكر ص 98.

2 ـ مجازر مايو 1945 والقطيعة مع الاستعمار

وجاءت مجازر أول وثامن مايو من سنة 1945 لتؤيد وجهة نظر الاستقلاليين، تلك المجازر التي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين على يد المستوطنين الأوروبيين، في سطيف وقالمة وخراطة، وقد اختار المستوطنون عن قصد أن تبدأ المجازر من مدينة سطيف التي شهدت ميلاد "بيان حزب الشعب الجزائري"، وصارت بذلك رمزا للمطالبة بالحقوق المشروعة للشعب الجزائري في تقرير مصيره، ليرهبوا الجماهير الشعبية، ويسكتوها عن المطالبة بأية حقوق.

وبتلك الأعمال الفظيعة التي ارتكبوها، بدد المستوطنون كل أمل في إمكانية التفاهم والتعايش بينهم وبين الجزائريين، وقدموا لهؤلاء الدليل القاطع بأن لا أمل في الحصول على حقوقهم المشروعة عن طريق العمل السياسي السلمي، وبذلك دفعوهم نحو الحل الجذري الوحيد الذي بقي أمامهم، ألا وهو اللجوء إلى العنف، واستعمال القوة للحصول على تلك الحقوق ، طبقا للمقولة الشهيرة: "ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة "، ومنذ ذلك التاريخ شرع الوطنيون الجزائريون بالفعل في الإعداد الجدي للثورة المسلحة [806]، التي اندلعت بعد أقل من تسع سنوات من تلك الأحداث المأساوية، أي في الفاتح من نوفمبر 1954.

* * *

806 د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه " ، ص103.

حقا، لقد شكلت تلك المجازر بوحشيتها قطيعة حقيقية مع المستعمر، على جميع المستويات، ومنها على مستوى الإبداع الفكري والأدبي، ففي السنوات اللاحقة التي أعقبت الحرب، تبددت من أذهان الجزائريين كل أوهام التعايش مع المستعمرين، ولم يعد هناك مجال لمثل تلك الكتابات المداهنة للمحتل، التي كانت تحاول استرضاء السلطات الاستعمارية، والتقرب من المستوطنين، والعزف على نغم "الأخوة والمساواة بين الجميع"، على أمل الحصول على مقعد إضافي (Strapontin) في النظام الاستعماري، والقبول، مقابل ذلك، وعن طيب خاطر، بالذوبان في كيان المستعمر، والتحول إلى مجرد ظل له، أو تابع. لقد أصبح مثل هذا الخطاب بعد الحرب، وبعد حدوث تلك المجازر خطابا لاغيا لا يقنع أحدا، وظهرت في مقابل ذلك كتابات أخرى جديدة لجيل جديد من الكتّاب الجزائريين، بلهجة جديدة مغايرة لما كان عليه الحال في السابق، بحيث لم تعد تجامل المحتلين أو تداريهم، أو تخطب ودهم، بل على العكس من ذلك كانت تنتقد النظام الاستعماري بشدة، وتندد بطبيعته الاستبدادية والاستغلالية والعنصرية، وتقدم كشاهد على ذلك ما وصلت إليه أوضاع الشعب الجزائري من تردٍّ كامل على جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتشكل أعمال محمد ديب، ومولود معمري، وكاتب ياسين في مجال الأدب الروائي نماذج حية لهذا النوع الجديد من الكتابة، كما تُعدُّ كتابات محمد الشريف ساحلي في مجال التاريخ [807]، ومالك بن نبي في

807 نشر في هذه الفترة "رسالة يوغرطة" سنة 1947، و"الجزائر تتهم" (1949)، و"التآمر على شعوب إفريقيا" (1950)، و"عبد القادر فارس العقيدة" (1953). وصدرت كلها عن دار "النهضة" بالجزائر.

مجال الفكر الاجتماعي الإسلامي[808]، مثالا آخر حيا عن هذه الروح الجديدة التي شاعت في مختلف الميادين الفكرية.

لقد كشفت الأعمال الروائية بالخصوص - كما ألمحنا آنفا - عن حالة البؤس الاجتماعي التي وصل إليها الشعب الجزائري، لا سيما في فترة الحرب الكبرى، التي طحنت معظم فئات الشعب، ووصلت بهم إلى حافة الكارثة من الناحية الاقتصادية، كما عبرت هذه الأعمال عن وعي جديد، ونفس غير معهود في الكتابة، يتغلغل إلى أعماق الشعب، ويسجل نبض الحياة اليومية في صفوف الجماهير، ويصور معاناة الفلاحين والحرفيين في القرى والأرياف خاصة، وفي المدن، ويعبر عن صراعهم اليومي مع شظف العيش، وقسوة الطبيعة، وظلم السلطات، واستغلال المستوطنين لجهدهم وعرقهم.

عبرت عن ذلك كله، وبكثير من البراعة والصدق الفني: "الدار الكبيرة" و"الحريق" و"النول" لمحمد ديب، و"الربوة المنسية" و"نوم العدل" لمولود معمري، و" نجمة " و"المضلع النجمي" لكاتب ياسين*، وقد جاءت في نفس ملحمي قوي، ينسجم وعمق المأساة الإنسانية التي عبرت عنها، وجمعت إلى عمق التحليل براعة التصوير وجمال العبارة، مع ما هنالك بالطبع، من فروق

---

808 نشر "الظاهرة القرآنية" (1947)، وخطاب عن شروط النهضة الجزائرية" (1949) ، وصدرا بدوريهما عن دار "النهضة" باجزائر، و"دعوة الإسلام" (1954) عن دار "لوسوي" بباريس.

* مع العلم أن هذه الرواية الأخيرة قد نشرت بعد الاستقلال (سنة 1965) ، وبفارق زمني قدره تسع سنوات من تاريخ صدور "نجمة "، وبالرغم من ذلك فإنه لا يمكننا فصلها عنها ، إذ تمثل رواية "المضلع النجمي" الجزء الثاني المكمل ل "نجمة" بشخصياتها وأحداثها .

واضحة في كيفية التعبير بين كاتب وآخر، تعود إلى طبيعة كل واحد منهم، وإلى مواهبه الشخصية التي تميزه عن غيره.

وسنحاول في هذا الفصل أن نرصد من خلال الروايات المذكورة، مظاهر ذلك التطور الذي حدث في الوعي، وتجلى في الكتابة، وتدرج مع تطور الأحداث السياسية التي عرفتها الجزائر في الفترة المتحدث عنها، من الإفاقة من الصدمة، ومداواة الجراح، وكفكفة الدموع إلى محاولة تجاوز الواقع الأليم، برفضه، ثم بالثورة عليه، وكيف عبرت تلك الروايات عن ذلك كله. وسنركز أساسا - وتقيدا منا بإطار البحث - على العناصر التي تبرز الوعي بالذات القومية، وتعبر عن مقومات الهوية بشكل ما، باعتبار ذلك ملاذا كان الشعب يحتمي به، ووسيلة دفاعية في الوقت نفسه.

رواية "الربوة المنسية" لمولود معمري**

التي صدرت سنة 1952، مع رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب، التي ظهرت بعدها بأيام قليلة [809]، حدثا أدبيا متميزا في أوساط المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية، بما حملتا من مضمون جديد، وبجرأتهما في طرح مسائل سياسية واجتماعية لم يتعود الروائيون على طرحها من قبل، ومن ذلك مثلا نقد رواية "الربوة المنسية" للعادات والتقاليد المتشددة في المجتمع القبائلي، والتحدث عن قيام علاقات عاطفية غير شرعية، في مجتمع مثل ذلك المجتمع، بين رجل أعزب وامرأة متزوجة، بل تعدى الأمر ذلك إلى الحديث عن قيام علاقة شاذة

** ولد مولود معمري في 28 ديسمبر 1917 في بني ينّي، بقرية تاوريرت ميمون، بمنطقة تيزي وزو، فزاول دراسته الابتدائية بمسقط رأسه، والدراسة التكميلية في الرباط بالمغرب، حيث انتقل هناك وهو في سن الحادية عشر ليعيش عند عمه، ومكث هناك أربع سنوات ليعود بعدها إلى الجزائر ويدخل ثانوية "بيجو" بالجزائر العاصمة (الأمير عبد القادر حاليا)، ومنها انتقل لمواصلة الدراسة في ثانوية "لوي لوكران" بباريس، حيث كان ينوي الدخول إلى المدرسة العليا لتخريج الأساتذة، وهناك أدركته الحرب العالمية الثانية، فجند سنة 1939 في صفوف الجيش الفرنسي، وزاول تدريباته العسكرية بمدرسة الضباط بشرشال، ليحصل على رتبة مرشح. وأطلق سراحه في أكتوبر 1940 بعد احتلال الألمان لباريس، ثم أعيد تجنيده سنة 1942 عند نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، وشارك في حملاتهم على إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، دون أن يشارك في العمليات العسكرية بشكل مباشر. وعاد إلى الجزائر سنة 1947 ليعين أستاذا بمدينة المدية، ثم في بن عكنون بالعاصمة. وبعد اندلاع ثورة التحرير غادر الجزائر سنة 1957 ليقيم مجددا في المغرب، ولم يعد إلا سنة 1962 بعد أن استعادت البلاد استقلالها، ، فعين في تلك السنة أستاذا بالمدية، ثم أستاذا بجامعة الجزائر، ومديرا للبحوث الأنتروبولوجية لما قبل التاريخ والإثنوغرافية، وهو المنصب الذي ظل فيه إلى غاية 1980 (حيث أحيل على التقاعد فيما يبدو)، وفي سنة 1985 أسس بباريس دورية بعنوان "أوال" ومعناها بالأمازيغية "الكلمة"، وهي مختصة في الدراسات البربرية، وأصدر منها إلى غاية وفاته حوالي خمسة أعداد، ومازالت تصدر حتى اليوم. توفي في 26 فبراير 1989، في حادث سير بعين الدفلى، حيث اصطدمت سيارته بشجرة أسقطتها العاصفة في الطريق، وكان حينها عائدا من المغرب، بعد أن شارك هناك في ملتقي حول اللغة الأمازيغية. أصدر أربع روايات هي: "الربوة المنسية" (1952) و"نوم العدل" (1955)، و"الأفيون والعصا" (1965)، و"العبور (1982)، ومجموعة قصص بعنوان "توقفات" صدرت بعد وفاته (1998)، ومسرحيتين هما: "المأدبة" (1973) و"ريح الجنوب" (1982)، وله دراسات وأبحاث حول الأمازيغية، وترجمات عديدة للأدب الشعبي القبائلي.

809 محمد الصالح دمبري "مجادلات حول الربوة المنسية " مجلة "الثقافة" (الجزائر)، العدد 102 ، 1989، ص43.

بين رجل وآخر[810]، ومن ذلك أيضا التطرق، لأول مرة في روايات الجزائريين، إلى موضوع النضال السياسي والنقابي للوطنيين الجزائريين في رواية "الدار الكبيرة"، من خلال شخصية "حميد سراج"، والتشهير بالقمع الذي كانت تمارسه الشرطة الفرنسية ضدهم.

لذلك أثارت الروايتان ردود فعل متباينة ومتناقضة، بحسب مواقع الأشخاص وانتماءاتهم السياسية والعرقية، ففي الوقت الذي احتفت فيه الصحافة اليسارية الفرنسية والوطنية الجزائرية برواية "الدار الكبيرة " لتنديدها بالاستغلال الاستعماري، والتزامها بالخط السياسي الوطني، هاجمتها الصحافة اليمينية، وصحافة المستوطنين على الخصوص، وعدتها مجرد "مقالة هجائية" [811]

1 ـ تلقي النقد لرواية " الربوة المنسية"

وكانت الأدوار مقلوبة بالنسبة للموقف من "الربوة المنسية"، فقد رحبت بها الصحافة اليمينية المعبرة عن وجهة نظر المستوطنين ، وركزت في الإشادة بها على خصوصيتها المحلية، فوصفتها بـ "القصة القبائلية الجميلة"، وبـ "القصة المعبرة عن الروح القبائلية"[812]، وذهب بعض النقاد إلى أبعد من ذلك في

---

810 العلاقة بين "مناك " و"دافدا" زوجة آكلي من جهة، والعلاقة بين مناك والراعي "موح" من جهة أخرى، وقد أثارت هذه العلاقة الأخيرة بالخصوص سخط سكان قرية "بني ينّي" مسقط رأس المؤلف ، ونفوا أن تقوم مثل هذه العلاقة الشاذة في قريتهم. راجع: محمد الصالح دمبري "مجادلات حول الربوة المنسية " مجلة "الثقافة" (الجزائر)، العدد 102 ، 1989، ص40.

811 محمد الصالح دمبري "مجادلات حول الربوة المنسية "، ص43.

812 نفسه ، ص41 .

إشادتهم بالرواية وكاتبها، حين عدُّوا ظهور كاتبها "الأهلي": "نجاحا كبيرا لرسالة التعمير" الفرنسية في الجزائر، وذلك بالنظر إلى المستوى الراقي للغة الفرنسية التي كتب بها روايته [813]. في الوقت الذي هاجم فيه الرواية مثقفو التيار الوطني الجزائري هجوما عنيفا، فوصفها محمد الشريف ساحلي بـ "ربوة التنكر" [814]. وأدان محفوظ قداش مواقف الكاتب "الغامضة " فيها، و"تجاهله لمشاكل الساعة"، و" صمته عن الأوضاع التي تعيشها الجزائر" [815]، ووصفها مصطفى الأشرف بأنها " رواية فولكلورية " "أقرب إلى الأدب الموسوم بالصبغة الاستعمارية " [816]. في حين رأى بشير حاج علي أن كاتب الرواية نفسه كان ضحية لألاعيب النظام الاستعماري الذي عمل على " فصل المثقفين عن الشعب، وجعلهم ينسون دورهم داخل الحركة الوطنية في المرحلة الحالية (1953)" [817].

- "الربوة المنسية": ثورة على التقاليد و على التخلف.

والواقع أن "الربوة المنسية " [818]كانت بعيدة فعلا عن الانشغالات السياسية للجزائريين في مرحلة ما بعد الحرب العظمى الثانية، غير أنها من

---

813 نفسه ، ص42 .

814 نفسه ، ص44 .

815 نفسه ، ص44 .

816 نفسه ، ص44 .

817 Cité par Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française » , p150.

818 Mouloud Mammeri «La colline oubliée» , Ed. Plon , Paris 1952, reéd. Bouchène, Alger, (s.d.e).

الناحية الاجتماعية لم تكن بعيدة أبدا عن الأوضاع الاجتماعية المتردية لحياة الأغلبية من الشعب الجزائري، ولا عن معاناة الناس من الفقر المدقع والحاجة الشديدة التي ازدادت سوء بفعل الحرب، حتى أصبح همُّ الناس الأول هو الحصول على ما يسد الرمق ويحفظ النفس، وقد صور الكاتب ببراعة كبيرة أوجها عديدة من تلك الأوضاع المتردية، مما يجعل من قرية " تازغا " التي تجري فيها الأحداث نموذجا مصغَّرا يمثل معظم القرى والأرياف الجزائرية في تلك الحقبة، بل ويمثل المدن أيضا في تلك الظروف الصعبة، إذ أنه عندما نقارن الأوضاع البائسة لسكان قرية "تازغا" بتلك التي وصفها محمد ديب في "الدار الكبيرة" بمدينة تلمسان، حيث كانت تدور أحداثها هناك في الفترة نفسها - فترة الحرب العالمية الثانية - نجد أنها تتشابه كثيرا مع بعضها البعض، ولا فرق بين هذه وتلك، من حيث معاناة الشعب، وقسوة الحصول على رغيف العيش، وكل ما يمكن أن نجده من اختلاف إنما يرجع أساسا إلى طبيعة النشاط الحياتي الذي يمارسه الناس في القرية وفي المدينة.

لقد ضيَّقت الحرب على أهل القرية معيشتهم، وجعلتها أصعب بكثير مما كانت عليه، وحرمتهم من القوة العضلية لشبابهم الذي جنِّد في صفوف الجيش الفرنسي بصفة إجبارية، وهو ما أثر سلبا على خدمة الأرض التي هي مصدر رزقهم الرئيسي[819]. كما حرمتهم أيضا من تلك المساعدات المالية التي كان يبعث بها مهاجرو القرية لأهاليهم[820]. الشيء الذي جعل همَّهم الأول هو العمل

819 « La colline oubliée » , Ed. Bouchène, Alger, (s.d.e) , p32.
820 Ibid, p56.

على تأمين القوت اليومي للأفواه الجائعة، وهـذا مـا يقـربهم كـثيرا مـن سـكان "دارسبيطار" في "الدار الكبيرة" *.

ومع هذا كله، فإن الكاتب في نهاية الأمر لم يقصد إلا كتابة قصة حب مأساوية، مستوحاة من البيئة المحلية القبائلية، وملتصقة بها أشد الالتصاق، نشأت بين شابين، هما "مقران" و"عزي"، في تلك الظروف الصعبة من فترة الحرب العالمية الثانية، وفي ذلك الإطار الاجتماعي المتزمِّت لقرية " تازغا "، حيث ركز المؤلف على إبراز صراع الرجال والنساء في علاقاتهم العاطفية، بشكليها المشروع والمحرم على السواء، مع التقاليد المتشددة، التي لم تكن لتسمح بقيام تلك العلاقات إلا في حدود ضيقة، وضمن الشرعية الزوجية لا غير.

وحتى في هذه الحالة الأخيرة، لم يكـن للعواطـف مكـان إلا بمـا يحققـه الزواج من الغرض النفعي المباشـر منـه، وهـو إنجـاب الأطفـال، للحفـاظ علـى النسب العائلي، وللمساعدة في الوقت نفسه في توفير رغيـف العـيش للأسـرة، فإذا لم يحقق هذا الغرض فإن التقاليد، ممثلة هنا في الأهل والأقـارب، تتـدخل لإنهاء هذه العلاقـة، وهـذه هـي الإشـكالية الـتي يطرحهـا المؤلـف في روايتـه، ويجعل منها الأساس الذي تقوم عليه. ومن هنا انتقده منتقدوه، وعدُّوا روايتـه،

---

* يجسد مشكلة الجوع في رواية "الربوة المنسية" إبراهيم وزوجته سكورة وأطفالهما الخمسة، وإلى حد ما الراعي "موح" وأمه "تاسعديت"، وتذكرنا سكورة وأطفالها بشخصية لالا عيني وأولادها عمر وعويشة ومريم في "الدار الكبيرة "، حيث تكون سكورة مضطرة إلى القيام بالخدمة في بيوت الأقارب مقابل لقمة العيش التي يقدمونها لها ولأطفالها، وقليلا ما يقدمون لها نقودا مقابل ذلك، غير أن مشكلة الجوع لا تحظى لدى معمري في "الربوة المنسية" بالأهمية التي أولاها لها محمد ديب في "الدار الكبيرة ".

لأجل ذلك، غير مناسبة للمرحلة التي ظهرت فيها، وقال بعضهم عنها إنها لا تختلف عن تلك الروايات الإثنوغرافية التي ظهرت بين الحربين.

والحقيقة أنه يمكن لنا أن نتفهم مثل هذا النقد الذي وُجه لـ" الربوة المنسية " حين نضعه في سياقه التاريخي الذي قيل فيه، ولكننا إذا صرفنا النظر عن تلك الظروف الخاصة، فإننا نعُدُّه نقدا قاسيا ومبالغا فيه، لأن هذه الرواية ،حتى وإن تشابهت مع الروايات الإثنوغرافية في بعض السمات العامة ـ وخاصة مع روايات مولود فرعون، التي تدور في البيئة القبائلية نفسها[821]ـ فإنها تختلف عنها اختلافا كليا من حيث المنطلق الفكري، ومن حيث الأهداف التي قصد إليها صاحبها.

إن تركيز الروايات الإثنوغرافية على وصف العادات والتقاليد ـ وهي أبرز السمات المشتركة فيها ـ يعد لدى كتابها هدفا في حد ذاته، انطلاقا من الغرض المحدد لها سلفا، ألا وهو جعل مختلف الإثنيات السكانية في البلد تتعرف على بعضها البعض، وتتحاور، وتتفاهم، وتتعايش، ومن ثمة فقد كان كتّابها يحرصون، حين يصورون الحياة الاجتماعية لمجموعة إثنية معينة ـ ولاسيما الكتّاب " الأهلانيين "،حين يتعلق الأمر بالمجموعة السكانية المسلمة ـ أن

---

821 تعد روايات مولود فرعون بدورها روايات إثنوغرافية، حتى وإن جاءت متأخرة زمنيا عن موجة هذا النوع من الروايات، حيث يحتفي فيها الكتاب كثيرا بوصف العادات والتقاليد من منظور اندماجي بحت، يهدف إلى تعريف المجموعات السكانية المختلفة بعضها ببعض، بغرض التقارب والتفاهم، لتحقيق التعايش بينها في ظل النظام الاستعماري . وقد عبر مولود فرعون نفسه عن معنى قريب من هذا التوجه الفكري، حين بعث برسالة إلى صديقه الكاتب المستوطن "إيمانويل روبلس" بقوله: ((لقد كنتم أول من بادر بالقول: هانحن من نكون، ومن جهتنا ها نحن نرد عليكم قائلين: ها نحن من نكون، وهكذا بدأ الحوار بينكم وبيننا)) راجع: Mouloud Feraoun « Lettres à ses amis », Editions du Seuil, Paris 1969, p154.

يعرضوا أفكارها ومعتقداتها بقدر كبير من الموضوعية والحياد، وبكثير من الدقة والأمانة، وكثير من الاحترام، تحاشيا منهم لإثارة أي نوع من الحساسية لدى المجموعة المتحدث عنها، وتحقيقا للغرض الذي كتبوا من أجله[822]. في حين أن عناية كاتب "الربوة المنسية" بوصف العادات والتقاليد كان بغرض معاكس تماما لهذا الاتجاه، أي أنه كان يكتب عنها بغرض نقدها، وإظهار ما فيها من تزمت، وما تنطوي عليه من أفكار ومعتقدات خرافية خاطئة ومتخلفة، تؤثر بشكل مباشر على الأفراد في المجتمع، وتقضي على سعادتهم ومستقبلهم. إن ذلك هو ما نستخلصه من "مأساة" مقران وعزِّي بطلي "الربوة المنسية"، اللذين كانا يعيشان حياة زوجية سعيدة، ثم تتدخل التقاليد، ممثلة في الأهل والأقارب، لتدوس بقسوة على عواطفهما، وتفرق بينهما.

لقد بدأت مشكلة الزوجين الشابين، بعد أن مر على زواجهما مدة زمنية كافية عادة لأن تحبل فيها المرأة، فأصبح وضعهما محرجا مع الأهل والأقارب، الذين راحوا يمارسون ضغوطا قوية عليهما، لأن هؤلاء الأهل والأقارب - بحكم العرف والتقاليد الموروثة - لم يكونوا قادرين على أن يتصوروا قيام حياة زوجية واستمرارها بدون أطفال، فكان على الزوجين - من وجهة النظر هذه - أن يجدا حلا لمشكلتهما، إما بالسعي لإنجاب الأطفال، وهذا هو المطلوب والمرغوب، أو بالانفصال عن بعضهما إذا فشلا في ذلك، ولم يكن أمامهما أي خيار آخر*.

---

822 وقد سموا لأجل ذلك باسم بـ "محبي الأهالي" (Les indigénophiles) كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل.

* هذا بالنسبة لحالة هذين الزوجين، لأن والد مقران أصر على ضرورة طلاق ابنه من زوجته، لكن هناك حل ثالث معمول به أيضا في مثل هذا الوسط الريفي، وهو أن يقدم الرجل على الزواج من امرأة أخرى مع الإبقاء على الأول.

وحفاظا منهما على حبهما، نزل مقران وعزّي عند رغبة الأهل والأقارب، وأخضعا نفسيهما لعمليات علاجية تقليدية غريبة ومرهقة، وغير مجدية في نهاية الأمر، ولا سيما بالنسبة للمرأة، فهي التي تتحمل العبء الأكبر من هذه العمليات، سواء من حيث الجهد الجسماني، أومن حيث الضغوط النفسية، إذ يعتقد في هذه الأوساط القروية، عادة، أن عدم الإنجاب سببه المرأة، وبسبب هذا الاعتقاد قد يتزوج الرجل بامرأة ثانية، وثالثة، وربما بأكثر من هذا العدد، قبل أن يكتشف في الأخير أنه هو العقيم وليس الزوجة. كما يعتقد في هذه الأوساط أيضا، أن المرأة التي لا تنجب إنما ذلك عقاب لها من الله على ما يمكن أن تكون قد اقترفته من ذنوب عظيمة، وهذا ما كانت أم مقران تردده صباحا ومساء على مسمع كنّتها، فتزيد بذلك من آلامها النفسية ومن مشاعر الإحساس بالدونية لديها [823].

لهذا راحت "عزّي" تتشبث بأي بصيص أمل، في سبيل إنقاذ حياتها الزوجية مع مقران، وتجرّب كل الوسائل التقليدية المعروفة ضد العقم، كما راحت تمارس طقوسا غريبة، عملا بـ "وصفات" من عجائز القرية، ولعل أغربها أنه كان يُحمل إليها كل مولود جديد في "تازغا"، وفي الأطراف المحيطة بها ، تيمُّنا به، ونوعا من الفأل الحسن[824] وفي هذا المنحى دائما، تَحتَّمَ عليها

823 «La colline oubliée », Ed. Plon, Paris 1952, reéd. Bouchène, Alger (s.d.e). p69.
824 «La colline oubliée », , p68.

ذات مرة ـ وعملا بنصائح العجائز ـ أن تحمل على ظهرها سلة كبيرة، وتطوف بها على الأبواب:

((لتطلب صدقة من كل الأمهات، لامرأة لم يشأ الله أن يمنحها فضله، عسى أن تنقل لـ"عزي" واحدة من تلك الصدقات الرمزية خصوبة من تصدّقت بها عليها)) [825]

وضمن هذا المسعى نفسه، يشد الزوجان الرحال إلى ضريح أحد الأولياء، ليتقربا إلى ساكن الضريح بالدعاء وتوزيع الهبات على خدم الضريح، والصدقات على الفقراء والمساكين. فتقف "عزّي" مرة أخرى موقفا ذليلا أمام ضريح الولي لتعترف له بـ" ذنوبها " ـ على طريقة الاعتراف الكاثوليكي تقريبا ـ وتتوجه إليه في تضرع ويأس. قائلة ((يا سيدي يا عبد الرحمن، إنك تخليت عني، عارية أمام إرادة الله..أغثني..امنحني ولدا،وسأعطيه اسمك: عبد الرحمان)) [826]

وانتظرت عزي "آثار بركة سيدي عبد الرحمان" ((ولكن مرت الأيام، ثم الأسابيع ، ثم شهور الشتاء كلها، وعندما حل الربيع لم يكن هنـاك أي شيء قد تغير بالنسبة إليها)) [827]

وأمام سلسلة المحاولات المتعددة والفشل الذريع في كـل مـرة، لم يبـق في جعبة العجوز "ناغني" قابلة القرية، إلا "حضرة سيدي عمار" الصـوفية، ألتي أشارت بها على الزوجين كآخر محاولة، ولم يكن أمامهما من خيـار إلا العمـل

---

825 Ibid, p69.
826Ibid p70.
827 Ibid, p80.

بمشورة العجوز، حتى وإن كانا، بسبب ما لقيا من الفشل في المرات السابقة، غير مقتنعين بجدوى المحاولة، وتنقلا إلى مكان الحضرة، وتعرضت عزي مرة أخرى لامتحان عسير من الناحية النفسية، وسط "ممارسات همجية " كما يصفها الراوي[828]. لكن النتيجة كانت سلبية كسابقاتها.

ومن الواضح أن المحاولات التي قام بها الزوجان كانت فاشلة، لأنها لم تكن، في الواقع، علاجا للعقم، وإنما كانت مجرد معتقدات خرافية، وشعوذة، و"ممارسات همجية "، وكان لابد للزوجين، بعد كل ذلك العناء، أن يدفعا ثمن ذلك الجهل والتخلف، وأن يقبلا بمصيرهما المحتوم والمحدد سلفا من قِبل العرف والتقاليد، مثل ما يحدث في التراجيديا اليونانية تماما، حيث يتم الفصل بينهما في الأخير بالطلاق.

ولم تتم إجراءات الطلاق على يد الزوج، كما يقتضي الشرع، ولا حتى بحضوره، فقد ناب عنه والده فيها، وقام إمام المسجد ببقية الإجراءات[829]. ولم يكن في استطاعة الابن أن يثور، أو يتمرد على إرادة الأب،الذي يستمد سيطرته على الأبناء من سطوة التقاليد والأعراف،وهي سيطرة مباشرة وكاملة في هذا المجتمع الأب(La société patriarcale) . وهذا في نظرنا هو ما أراد المؤلف أن يبرزه ويندده .

---

828 Ibid, p83.

829 Ibid, 80 et 113.

والحقيقة أن البطل "مقران" كان رافضا للطلاق، ولكن رفضه لم يتجاوز حدود التعبير عن ذلك في دفتر مذكراته الشخصية [830]، حيث يظل الرفض مجرد "حبر على ورق" وتنفيسا عن النفس، لا يتعدى إلى الرفض الفعلي. وقد وجد مقران في استدعائه مرة ثانية للخدمة العسكرية مهربا من المشكلة يعفيه من المواجهة، ويريحه إلى حد ما من تأنيب الضمير نحو زوجته التي عجز عن فعل أي شيء من أجلها [831] *.

وعلى أية حال، فلئن لم تعبر هذه الرواية عن انشغالات آنية مباشرة بالنسبة لمرحلة ما بعد الحرب، فإنها عبرت بالتأكيد عن حالة العزلة التي كانت تعيشها القرى والأرياف الجزائرية وعن تفشي الجهل، والتخلف، وعن انعدام الرعاية الصحية، وحملت في داخلها بذرة التمرد والثورة على ذلك الوضع الذي هو في النهاية من صنع السياسة الاستعمارية. فالاستعمار هو الذي فرض العزلة على تلك القرى والأرياف، وشجع على انتشار الجهل والأمية، بإبقائها على حالها كما كانت في القرن التاسع عشر، بلا طرق معبدة تربطها بالحضارة والمدنية، وبلا مدارس تنير للناس عقولهم، وبلا مراكز طبية تغنيهم عن اللجوء إلى الشعوذة والخرافة.

---

830 Ibid, p92 .

831 «La colline oubliée »,p 113

* ونلاحظ هنا أن المؤلف يكرر الموقف نفسه في رواية "نوم العادل" حين يجعل بطله الرزقي يجد في استدعاء التجنيد مهربا له من "واجب" الزواج بزوجة أخيه المريض "محند" بعد وفاته، كما تقتضي التقاليد.

غير أن تقصير المؤلف في هذا الصدد، جاء ـ حسب رأينا ـ من كونه لم يكشف بشكل واضح وصريح عن المتسبب الحقيقي في تلك الحالة المزرية التي كان عليها سكان القرى والأرياف، ألا وهو الاستعمار، كما أشرنا، وهو الأمر الذي سوف يتداركه في روايته الثانية "نوم العادل"، كما سنحاول أن نوضح ذلك بعد قليل.



• رواية نوم العادل: الوجه الآخر للاستعمار.

وبالفعل، فإن النقد الذي وجه إلى المؤلف عن روايته الأولى، واتهامه بالانغلاق على نفسه في حدود مجتمع القرية القبائلية، وعدم تعرضه لنقد النظام الاستعماري بشكل مباشر، قد كان له أثره الملموس في عمله على تجاوز كل ذلك في رواية "نوم العادل" [832] وذلك بتوسيع مجال رؤيته لكي تتجاوز حدود القرية الضيقة إلى البعد الوطني، وكذلك بتنديده بالنظام الاستعماري وسياسته الجائرة إزاء "الأهالي"، من خلال مواقف وأحداث في غاية البراعة من حيث دقة التصوير وقوة الإبلاغ.

ومع ذلك كله فقد ظل الحيز المكاني الرئيسي في هذه الرواية الجديدة هو القرية القبائلية، حتى وإن تغيرت أسماء الأماكن والشخصيات، كما ظل وصف العادات والتقاليد ونقدها هو ميدان الكاتب المفضل، وإن لم يعد ميدانه الوحيد*، وظل الحيز الزماني الأكثر حضورا فيها أيضا هو سنوات الحرب العالمية الثانية، بما أتت به من تأثيرات شديدة القسوة على الحياة الاجتماعية في الجزائر، مع العلم أن تصوير تلك المرحلة من تاريخ الجزائر في تلك الفترة، وفي السنوات التي تلتها، بكل ما تمخضت عنه من أحداث مأساوية، قد شكلت القاسم المشترك بين معظم الروائيين الجزائريين الذين ظهروا بعد

---

832 Mouloud Mammeri «Le sommeil du juste» Ed. Plon, Paris 1955. S.N.E.D in Col. 10-18, Paris-Alger 1978.

* وستكون معظم أحداث رواية الكاتب اللاحقة "الأفيون والعصا" « L'opium et le bâton » تجري أيضا في القرية القبائلية.

الحرب، وهي الظروف التي أدت بتفاعلاتها مع الواقع السياسي والاجتماعي إلى انفجار حرب التحرير الكبرى. وجدير بالملاحظة هنا أن رواية "نوم العدل"، قد كتبت قبل اندلاع الثورة، ولو أن صدورها قد جاء بعد اندلاعها بما يقارب سنة كاملة *.

- ثلاثة أنواع من الأبطال وثلاثة أنواع من الوعي.

ويلاحظ الدارس لهذه الرواية أن التطور الذي حدث لدى الكاتب على مستوى الرؤية الفكرية قد انعكس أيضا على مستوى البناء الروائي، بحيث قسم الرواية إلى ثلاثة أقسام أعطاها العناوين التالية: "الأب" و"الإبن" و"الملاك" **، ومن ثمة وزع البطولة على ثلاث شخصيات تتفق مع الترتيب المذكور، خلافا للقاعدة المتبعة في الرواية الكلاسيكية، التي تركز البطولة في شخصية محورية واحدة (كما فعل المؤلف نفسه في روايته الأولى)، وبهذه الطريقة أتاح لنا فرصة متابعة ثلاثة أنواع من البطولة ، وثلاثة أنواع من الوعي لدى الأبطال تتجلى لنا كما يلي:

1 - الأب: النظرة التقليدية

الأول: الأب، الذي يمثل الجيل القديم، وهو الرجل القروي البسيط، الفقير، الأمي، المحدود الأفق، الذي عاش ستين عاما، ومازال يعيش، وفقا

---

* لا ندري بالتحديد متى شرع الكاتب في تسويد روايته هذه ولا متى انتهى منها، ولكن أغلب الظن أنه شرع في كتابتها بعد صدور روايته الأولى "الربوة المنسية" ، بتأثير من الصدى الذي لقيته لدى القراء والنقاد، سواء من الذين أعجبوا بها أو ممن هاجموها، وحين صدرت سنة 1955، كان عمر الثورة لا يتجاوز أشهرا معدودة، وهي فترة يحتمل أن تكون الرواية قد قضتها لدى الناشر تنتظر دورها في النشر.

** رغم أن هذه العناوين تلفت النظر بكونها تتفق من حيث الأسماء وعددها وترتيبها مع الثالوث المسيحي المعروف فإنه لا شيء في مضمون الرواية يعطي لها أية دلالة خاصة بهذا المعنى.

لعادات القرية وتقاليدها، مثل ما عاش أبوه وأجداده من قبل، الذين ورث عنهم كل شيء، حتى تلك العداوات القديمة التي ظلت حزازاتها تحرك سلوك الأجيال المتأخرة وتؤثر على علاقتها ببعضها البعض ***، وليس له أي تصور آخر للحياة بشكل مغاير عن تلك التي عرفها وعاشها، ولذلك فهو وإن لم يكن راضيا عنها، بسبب الفقر الشديد الذي آل إليه، وشعوره بخيبة الأمل في أبنائه الذين كان يعوِّل عليهم كثيرا في تخفيف العبء عليه، إلا أنه يتقبلها في قدرية واستسلام، فهو من هذه الناحية راسخ الإيمان، لا يزعزع معتقداته أي شيء، ولا يؤثر عليه أي مؤثر.

2 ـ الإبن سليمان الذي لا يعترف با" الصفوف"

الثاني: الابن سليمان، وهو الابن الأصغر الذي يمثل الجيل الجديد، ويتمتع بحيوية كبيرة، وبميل طبيعي إلى الجد والعمل، وبحس وطني مبكر يدفعه إلى الانخراط في النشاط الحزبي. يحس سليمان بوطأة التقاليد وقسوتها، لا سيما إذا تعلق الأمر بالعلاقات العاطفية التي لا تعترف بالقيود والحدود، ولا بالعداوات القديمة و"الصفوف"، ولكنه لا يمتلك الجرأة على تجاوز ذلك الموروث، ولا على الثورة على التقاليد، بسبب نقص التجربة، وانعدام الخبرة بالحياة، وقلة الزاد العلمي والثقافي الذي يمتلكه، فيكبت مشاعره الشخصية،

*** هناك عداوة وثارات نشأت بين أسرة آيت وندلوس وأسرة حاند أوقاسي، وهما أخوان، تعود إلى ثلاثة قرون خلت، لكنها ظلت حية في ذاكرة الأجيال اللاحقة، تتوارثها جيلا عن جيل إلى أن وصلت إلى الأب الذي ينحدر من الأسرة الأولى، وتودارت الذي ينحدر من الأسرة الثانية، وقد انتقلت إلى الجيل الجديد مع أولادهما، وستكون فيما بعد سببا في مقتل "تودارت"، وهناك أيضا العداوة بين الصفوف (والصف هو بطن من بطون القبيلة يكون في حالة عداء مع صف آخر) التي تجعل الأب لا يكلم "رابح أوحملات" أمين القرية مدة خمس وثلاثين سنة.

ويذعن لقوانين العرف التي تجسدها إرادة الأب، وبهذا تظل شخصيته متماسكة ومنسجمة مع محيطه الذي يعيش فيه، ويظل النشاط الحزبي الذي يقوم به ملاذا له وخلاصا يستعيد به توازنه مع ذلك المحيط.

3 ـ الملاك: المثقف المتمرد على كل شئ

الثالث: "الملاك"، أو الابن الأوسط: الرزقي، وهو الابن الوحيد الذي كان له الحظ، من دون إخوته الآخرين، ومن دون الكثير من أطفال القرية وشبابها، في أن يتعلم ويتثقف في المدرسة الفرنسية، بل، وأن يتخرج من معهد المعلمين بغرض أن يسهم بدوره في تعليم الأجيال الصاعدة. وتتميز هذه الشخصية بوعي كبير، وحس نقدي عال، وقدرة على الملاحظة والتمييز، بدأ برفض عادات وتقاليد القرية، وسخر من طريقة تفكير الناس فيها، ومن معيشتهم البائسة. واستسلامهم للقدرية والتواكل، بتأثير مما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية من أفكار وقيم ومبادئ، وانتهى بالتمرد على هذه الأفكار والقيم والمبادئ نفسها، ورفضها هي أيضا بعد أن خبر الحياة العملية وتبين له مدى الفارق الكبير بين ما يقال نظريا وما هو موجود في الواقع.

وتعد شخصية الرزقي هذه أكثر الشخصيات حيوية وتطورا في الرواية. ولأجل ذلك أيضا، فهي أكثرها حيرة وتمزقا على مستوى الفكر، بسبب ثقافته أولا، التي كانت تمده بأدوات معرفية تساعده على التفكير والتحليل، ثم بسبب ثراء تجربته الحياتية التي اكتسبها بمشاركته كمجند في صفوف الجيش الفرنسي، حيث شارك في حملة الحلفاء على إيطاليا وألمانيا. وأقام بعض الوقت

في فرنسا بعد انتهاء الحرب، فمكنته تلك التجربة من التعرف على أمم وشعوب أخرى. وأكسبته خبرة ومعرفة بالحياة والناس، وهو بهذا يعكس، إلى حد ما، ملامح من حياة المؤلف نفسه، ويعبر عن أفكاره ومواقفه في فترة معينة من شبابه.

لقد أتاح لنا المؤلف من خلال تقديمه لثلاثة من الأبطال المختلفين تجربة وسنا وثقافة، أن نتبين ثلاثة أشكال من الوعي - كما سبقت الإشارة - هي الأشكال الأكثر شيوعا في الفترة التي تجري فيها أحداث الرواية، وتتجلى في ثلاثة أنواع من المواقف وردود الفعل، وهي أقوى وأظهر ما تكون إزاء ما يحدث لهؤلاء الأبطال مع السلطات الاستعمارية، بحيث يظهر الاحتكاك بالمستعمر مدى نضج ذلك الوعي، أو فجاجته، أو ضعفه، كما يظهر مدى تماسك الشخصية أو اهتزازها. ومدى قوة رسوخها في هويتها، أو تزعزع إيمانها بها. وسنقتصر فيما يلي على إظهار هذا الجانب دون غيره، لتفادي الإطناب والإطالة من جهة، ولأننا نعتقد أن الاقتصار على هذا الجانب يفي بالغرض المطلوب في البحث من جهة أخرى.

إن تلك السذاجة التي كان يفكر بها الأب. وهو في طريقه لمقابلة الحاكم (المتصرف الإداري للمنطقة)، لا يماثلها إلا تلك الدهشة التي استولت عليه حينما فهم السبب الحقيقي الذي استدعاه الحاكم من أجله. جاء وهو

* تنطبق حياة هذا البطل على الحياة الشخصية للمؤلف في العديد من الأوجه، ولا سيما في ثقافته، ثم في تجنيده في الحرب برتبة مرشح، ومشاركته في حملة الحلفاء على إيطاليا، ففرنسا، ثم ألمانيا، وقد بقي مثله في الأراضي الفرنسية بعد انتهاء الحرب بغرض العمل وإتمام الدراسة.

يعتقد أن الحاكم قد بلغه خبر العيار الناري الذي أطلقه على ابنه الرزقي، بعد أن خاض في كلام يمس الذات الإلهية على مسمع من شيوخ القرية، وقال في نفسه: إن الحاكم، سيتفهم المسألة بمجرد أن يشرح له بأن ذلك كان مجرد تخويف لابنه حتى لا يتجرأ مرة أخرى بمثل ذلك الكلام، وسيغتنم الفرصة ليشرح للحاكم وضعية ابنه الأكبر "محند "،الذي كان في السابق عاملا في مصانع"رونو" بفرنسا، وهو يقبع الآن في البيت طريح الفراش، بعد أن أكل مرض السل رئتيه، لعله يساعده بمنحة شهرية تخفف عليه مصابه، كما سيطلب منه أن يساعده في إدخال ابنه الأصغر سليمان إلى مدرسة مهنية لتخريج البنَّائين [833]

لكن سرعان ما تبدد كل شيء بمجرد أن دخل مكتب الحاكم، فقد اصطدم أولا بجدار اللغة، إذ كان مضطرا في كل مرة إلى المرور عن طريق المترجم، ثم إن كلام الحاكم لم يكن يسير في الاتجاه الذي كان يتوقعه، ولا كان يحمل أي ود يشجعه على أن يشكو له حاله، أو يفاتحه فيما كان قد فكر فيه. لقد وجد نفسه محل مساءلة واتهام، ثم محل تهديد ووعيد، بحيث أبلغه الحاكم ما خلاصته:

((أن أسرته كلها تحمل أفكارا سوداء ضد الإدارة، وخاصة ابنه سليمان، الذي انضم إلى حزب يقال له "حزب الشعب" يتكون من مجموعة من

---

[833] « Le Sommeil du juste », Ed. Plon , Paris 1955. S.N.E.D, in Col. 10-18, Paris-Alger 1978. pp 19,20.

الجائعين، يساعدون ثوارا يطلق عليهم صفة "وطنيين"، هم في الحقيقة ليسوا إلا قطاع طرق))[834].

وأفهمه: ((أنه كان في استطاعته أن يقبض عليه (أي على ابنه) ويزج به في السجن ليقضي بقية عمره فيه. ولكنه أشفق على شبابه الغض، وآثر، قبل أن يفعل ذلك، أن يلجأ إلى الأب، أليس الأب هو المسؤول الأول على العائلة ؟))[835].

ولم تتوقف تهديدات الحاكم ووعيده عند هذا الحد، ولكنه أبى إلا أن يذله ويذيقه بعض ما يمتلك من وسائل القهر، فانتزع منه بطاقات تموين الأسرة، وحرم كل أفرادها من الحصول على ما يسد رمقهم من الحاجات الضرورية [*]، وحينما سأله الأب عن الكيفية التي سيحصل بها في هذه الحال على الأكل، أجابه عن طريق المترجم: ((يقول لك: اذهب إلى رئيس الحزب الوطني واطلب منه الخبز))[836].

ولم يتركه ينصرف قبل أن يبعث في طلب سجلات الضرائب، ويطالبه بدفع دينه. فاعتذر الأب بعدم قدرته على الدفع، وواعد بأنه سيرهن أو يبيع قطعة أرض تمتلكها زوجته ليسدد بثمنها ما عليه لمصلحة الضرائب، وسأله الحاكم عن اسم قطعة الأرض ؟ فأجابه بأنها أرض "تيمزريت"، وحينها رد

834« Le Sommeil du juste »,, p23.
835 Ibid, p23.

* (*) لا يفوتنا أن هذا الجزء من الرواية كان يجري إبان الحرب العظمى، وكان التموين يوزع بالبطاقات.

836 « Le Sommeil du juste », p24.

عليه الحاكم بأنه "يكذب عليه"[837] ولم يكن أمام الأب إلا أن يتجاوز على الإهانة التي مسته في الصميم. لكن شعوره بالمهانة تضاعف، وعقدت لسانه الدهشة وهو يسمع سؤال الحاكم المحرج: ((كيف ترهن "تيمزيرت" وقد رهنتها لابن عمك تودارت ؟))[838]

وأبى الحاكم إلا أن يكشف له عن مصدر معلوماته، الذي لم يكن إلا ابن عمه تودارت نفسه. وأضاف سائلا:

- لِمَ لا ترهن بيتك ؟

- إنها بيت قديم متداع، لا أحد يريده.

- بلى . هناك من يريده . ابن عمك تودارت[839]

وكان الأب طوال المقابلة واقفا. وحين أحس بأن رجليه تؤلمانه من الوقوف طلب من الحاكم أن يسمح له بالجلوس فرفض طلبه. وختم المقابلة معه بهذه العبارات:

((إنك بالنسبة للإدارة لست إلا دودة يمكنني أن أسحقها، لولا خشية الرب. أما أبناؤك، أبناء صلبك الذين نشّأتهم على عداء فرنسا، فإنني أقول لك حذار))[840]

---

837 Ibid, p28.
838 Ibid, p28.
839 Ibid, p28.
840 Ibid, p29.

وخرج الأب من مكتب الحاكم مهموما، مكسور النفس، منشغل البال، يكاد صدره يتميز من الغيظ، لكن ليس من الحاكم الذي أمعن في إهانته وإذلاله، ولكن من أبنائه الذين تسببوا له في تلك الإهانة وذلك الإذلال، ومن ابن عمه تودارت الذي يأبى، كلما سنحت له الفرصة، وبدافع من العداء القديم، إلا أن يسيء إليه ويلحق به الأذى وبأولاده. ولم يخطر ببال الأب أن يتساءل مثلا لماذا يحمِّله الحاكم مسؤولية ابنه، وقد أصبح رجلا، ولماذا يهينه ويذله، ويعاقب إخوته الآخرين وباقي أفراد الأسرة بجريرته؟ ولماذا يعطي الحاكم كل تلك الأهمية لأولئك "الوطنيين" إذا كانوا كما يصفهم "قطاع طرق" ؟ بل لم يسأل نفسه لماذا أخبره الحاكم أن ابن عمه تودارت هو الذي وشى به إليه ؟ إن ثقافته المحدودة تمنعه من طرح تلك الأسئلة، وتكوينه العقلي والنفسي، المطبوع بطابع الأعراف والتقاليد، يجعل ذهنه ينصرف إلى النظر إلى الأمور وفق المنطق القبلي الذي نشأ عليه. ولذلك فهو لا يرفض أن يتحمل مسؤولية تصرفات ابنه مهما كان سنه، ومن المنطلق نفسه يحمِّل ابن عمه تودارت كامل المسؤولية في إدخال الغريب الأجنبي في الخلافات بين أبناء العمومة، ومن ثم تصبح المشكلة بالنسبة إليه أسرية من جهة، وقبلية من جهة أخرى، وينصرف ذهنه إلى تأديب ابنه، والانتقام من بن عمه. وهذا بالضبط ما أراده الحاكم، فهو يدرك جيدا آليات هذا المنطق. ويعرف كيف يوجهه لخدمة السلطة الاستعمارية التي يمثلها. إن قاعدة "فرق تسد " التي طبقها الرومان في شمال إفريقيا قديما هي التي أعاد الاستعمار استغلالها في العصر الحديث، وهذا ما يفسر دافع الحاكم في إخبار الأب بمن وشى به عنده.

أما الابن الأصغر سليمان، فإن وعيه القبلي - إن صح التعبير - قد تشكل وفق تقاليد القرية، وتشبع بقيمها وأخلاق أهلها، خاصة أنه لم يغادرها إلا مرة واحدة في حياته ولفترة محدودة، لم تؤثر عليه - رغم الشيء الكثير الذي تعلمه منها - بالقدر الذي يجعله يتمرد على تقاليد القرية، أو يرفض ما تقرره "الجماعة" فيها، ولذلك كان يمتثل دائما لما تقضي به تلك التقاليد وينزل عند رغبة الوالد بدون نقاش، وهذا ما جعله يتخلى مُكرها عن فكرة الزواج من "الياقوت" ابنة رابح أو حملات، التي كان يحبها، لأن "نظام الصفوف" كان يقف حائلا دون ذلك، ليقبل - تحت ضغوط الأب - بفكرة الزواج من ابنة تودارت الذي أصبح الأمين الجديد للقرية، وهذا أيضا ما جعله يذعن، مرة أخرى - بعد أن فشل مشروع الزواج الأول من ابنة تودارت - لفكرة الزواج بامرأة أخيه محند، حين اشتد عليه المرض، وباتت وفاته وشيكة، وذلك عملا بما يقتضيه العرف، حتى لا يتعرض، كما شرح إمام المسجد أطفال المتوفى لليتم[841]

ومن هنا نرى أن وعي سليمان، من ناحية الخضوع للتقاليد، ينسجم تماما والبيئة التي نشأ فيها، ولا يختلف كثيرا عن وعي والده، في حين نجد أن وعيه السياسي مختلف تماما، وقد تشكل على مرحلتين، الأولى كانت قبل خروجه من قرية إغزر، باحتكاكه بالنشاط السياسي الوطني في القرية، وانخراطه في "حزب الشعب" - كما جاء على لسان الحاكم عند استجوابه للأب

---

* لحاجة في نفسه، كما سيتضح لنا فيما بعد ، وهي أن يبعد عنه الشبهة، بعد أن بيّت في نفسه نية اغتيال تودارت، وقد لمح لابنه بذلك قائلا له : ((إن الزواج بالنسبة للعدالة يعد شهادة براءة ، إذ لا أحد يقدم على قتل والد كنّته ، ومن عمه الطيب تودارت، أمين القرية وثريّها)) . راجع : « Le Sommeil du juste », p85.

841 « Le Sommeil du juste », p210.

ـ وكذلك انضمامه إلى منظمة الكشافة الإسلامية، التي أسست فرعا لها في القرية باسم فرع "ابن خلدون"، وعن طريق هذا الفرع تعلم أبناء القرية ـ ومنهم سليمان ـ القراءة والكتابة، وتعلموا الأناشيد الوطنية [842]. والمرحلة الثانية كانت بخروجه من القرية إلى نواحي مدينة " البويرة "، وقادته المصادفات حتى نواحي سطيف، ومر في طريقه بعشرات القرى والأرياف، وعشرات الحقول الزراعية الشاسعة، حيث عمل في العديد منها كأجير زراعي، ومن ذلك استنتج كم هي الجزائر واسعة، وكان يظن من قبل أن قرية "إغزر" هي مركز العالم. وأثناء هذه الرحلة اكتشف أيضا حقيقة أخرى كان لها طعم العلقم في نفسه، وهي أن معظم الأراضي الفلاحية الواسعة التي مر بها، أو عمل فيها، كانت ملكا للمستوطنين الأوروبيين، يستغلونها، ويستمتعون بخيراتها على حساب أهلها الحقيقيين، الذين كانوا يملؤون تلك القرى والأرياف، ويعملون أجراء في حقول المستوطنين، ويعانون من كل ألوان الفقر والحرمان والاستغلال. ومن هنا توصل بطريقة عملية ـ وإن كان ذلك على نحو مبهم ـ إلى مفهوم الوطن الجزائري الواسع، بقراه وأريافه، بخيراته الكثيرة، وبأهله المحرومين من تلك الخيرات، وإلى حقيقة السيطرة الأجنبية التي يشكلها أولئك المستوطنون الغرباء عن البلد.

لقد عاش بنفسه أوضاع الفلاحين المزرية، وجرب العمل المرهق في حقول المستوطنين، الذي يمتد من الفجر إلى غياب الشمس، من أجل أجر زهيد لا يسمن ولا يغني من جوع، كما شاهد بعينه كيف يعامل الفلاحون من قبل

---

842 وقد حل هذا الفرع الكشفي من قبل السلطات بعد أن قدم تودارت وشاية بشأنه للحاكم تقول ((إن كل أفراده من المضادين للفرنسيين، وأنهم ينشدون أناشيد يقولون فيها: من جبالنا سيطلع النور)) راجع: « Le Sommeil du juste », p214.

المستوطنين ، وكيف يتلقون الإهانات من كل نوع، وكيف يصل الأمر بهم أحيانا إلى الضرب المبرح، أو السجن، أو النفي، أو ما إلى ذلك من أنواع الظلم. إذ تكفي مكالمة هاتفية من المستوطن ليحضر رجال الدرك في الحال، وينكلوا بأي فلاح ارتكب خطأ، أو تفوه بكلام لم يعجب المستوطن، أو بدر منه ما ينم على تبرم، أو تمرد، أو عصيان.

وقد حضر ذات مرة مشهدا من تلك الممارسات القمعية التي كان المستوطنون يعاملون بها الفلاحين الجزائريين وأبناءهم، فصدمه المشهد وأثار غضبه، ودفعه إلى التدخل، غير عابئ بنتائج تدخله. شاهد صاحب الأرض، السيد "إيستروفي" يضرب صبيا من أبناء الفلاحين بلا رحمة، عرف فيما بعد أنه ترك خروفه يرعى في حقله، وكان الطفل يتلقى الضربات من المستوطن، ويرتجف كالفرُّوج بين يدي رئيس العمال الذي أمسك به بقوة، ويستغيث بمن حوله ولا من مغيث. ولم يتحمل سليمان المشهد، فاندفع نحو الطفل ليخلصه من بين يدي جلاده، فانهالت عليه اللكمات بدوره من المستوطن، ومن رئيس العمال، وهو ما اضطره إلى الدفاع عن نفسه، بتوجيه لكمات قوية لخصميه جعلتهما يتراجعان، ثم فر هاربا بصحبة صديقه الوناس الذي دخل المعركة إلى جانبه، واستعجله في الفرار قبل أن يلحق بهما رجال الدرك [843]. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصطدم فيها سليمان بشكل مباشر بمستوطن، ويدخل معه في مواجهة.

843 « Le Sommeil du juste », p67,68.

وكان سليمان قد استفاد كثيرا في تعميق تجربته الحياتية، من صديقه الوناس هذا، في الفترة التي قضياها معا، وكان الوناس يكبره سنا وتجربة، وكان مناضلا في الحركة الوطنية، يعيش معظم الوقت متنقلا من مكان إلى آخر، متخذا من عمله كمزارعٍ أجير غطاءً لنشاطه السياسي، وكانا قد التقيا بمحض المصادفة، وعملا معا في مزارع المستوطنين، فتوطدت بينهما الصداقة، وأصبح الوناس بالنسبة لسليمان، بمثابة الأستاذ الذي يجيبه على أسئلته الكثيرة الحائرة، والساذجة أحيانا، وقد جعله الوناس يغيِّر الكثير من أفكاره التي يحملها في ذهنه عن العداوات القبلية، وعن الصفوف، وأفهمه ما معناه أن الصفوف موجودة حقا، ولكن بشكل مخالف لتصوره، فهناك صف المستوطنين الأوروبيين من جهة، وصف الجزائريين، كل الجزائريين، من الجهة الأخرى، بمن فيهم رابح أوحملات نفسه، الذي يصنفه عادة في الصف المنافس، وابن عمه تودارت رغم ما بينهما من عداوة، وأخوه الرزقي رغم ما تفوَّه به من كلام عن الذات الإلهية جعلت ناس القرية يعدُّونه "روميا" كافرا [844]

وكانت للوناس طريقة فريدة في الإقناع، تتلخص في البساطة واستعمال السخرية، وهي طريقة لم تكن تتطلب منه أي جهد في الشرح والتحليل، وبها علَّم سليمان عدة أمور في غاية الأهمية، منها مثلا - إضافة إلى ما ذكرناه آنفا - فكرة الانتماء إلى الجزائر، بدل الانتماء إلى العائلة أو القبيلة، فقد سأله سليمان ذات مرة - وقد طالت بهما العشرة - عن أسرته وقبيلته، فأجابه: "أنا

844 Ibid, p74.

جزائري" [845]. ولم يضف شيئا آخر، وظل سليمان يجهل اسم أسرته أو قبيلته إلى أن افترقا. ومنها أنه سأله ذات مرة عن الحرب، بعد أن تلقى رسالة من والده يدعوه فيها للعودة إلى "إغزر"، ويشكو من الظروف الصعبة التي أوجدتها الحرب، والتغير الذي أحدثته في سلوك الناس، وكان في سؤال سليمان ما يوحي بأنه عثر لصديقه الوناس على خطأ فادح، لأنه نسي في كل أحاديثه السابقة أن يدخل في حسبانه عامل الحرب فيما يعانيه الناس من الصعاب:

ـ أرأيت ؟ لقد نسيت الحرب في كل تعليلاتك.

ـ الحرب ؟ أي حرب ؟

ـ نعم، لأنه عليك أن تتصور أن العالم، كل العالم، في حرب منذ أكثر من عامين، ولا أدري إذا بلغك ذلك ؟

ـ منذ عامين يا رضيعي ؟ لقد ولدت منذ ثلاثين عاما، ومنذ ثلاثين عاما بالنسبة إلي وأنا في حرب، ولا أحد فكر أن يأتي لمساعدتي، فكان علي أن أحارب بمفردي . وعليه إذن، فهي حرب الآخرين أتفهم ؟ [846].

بهذا الأسلوب الساخر، وهذه البساطة، كان الوناس يعبر عن آرائه، فتصل إلى سليمان بسهولة ووضوح، وقد حفظ منه كل هذه الدروس، فقرر أن يعود إلى القرية، لا سيما أن والده كان قد قد سهل عليه المهمة حين طلب منه أن يعود، وكان في ذهن سليمان تصور جديد لما ستكون عليه حياته في القرية،

845 Ibid, p71.
846Ibid, p77.

ومخطط واضح لما سيفعله: ((سينخرط في خلية الحزب بإغزر، وسيتزوج الياقوت ابنة رابح أوحملات، من صف"الإشاين"، وسيعمل في حقول آبائه، وسيسعى لتحقيق الأمل الكبير)) [847].

غير أنه يمكن القول أن وعي سليمان ظل من هذه الناحية وعيا نظريا، أو لنقل إنه ظل وعيا بسيطا، بحكم ثقافته المحدودة، فلم يرقَ بصاحبه إلى الدرجة التي تجعل منه رجلا ثوريا، في استطاعته تغيير واقع القرية وذهنية أهلها، ولذلك، فعوض أن يضع أفكاره الجديدة موضع التطبيق، ويترجمها إلى واقع ملموس، وجد نفسه ينساق من جديد، وبكيفية لا إرادية تقريبا، إلى قانون العشيرة ومنطق القبيلة، ويتحول إلى مجرد منفذ لمشيئة والده الذي كان قد أعد مخططا لاغتيال بن عمه "تودارت"،أو حسب تعبيره هو: "لكي يعيد إليه إحسانه" [848].

وكان الأب قد اتخذ قرار الانتقام بعد أن أصبح تودارت الأمين الجديد للقرية، وازداد بذلك نفوذه أكثر فأكثر، وأصبح في إمكانه التحكم في كل شيء، وفي أي شخص في القرية، وفيه هو بالذات، خاصة بعد أن اضطره إلى أن يرهن له بيته، عملا بما "اقترحه" عليه الحاكم ليدفع ما عليه من الضرائب، وبذلك أصبح في إمكانه، إذا شاء، أن يلقي به وبجميع أفراد أسرته في العراء. ولم يكشف الأب لابنه صراحة عن مخططه ، ولكنه اضطر، حين أحس بامتعاض الابن من فكرة الزواج بابنة عدوِّه، أن يفهمه أنه إنما يريد التقرب إليه

847 Ibid , p79.

848 « Le Sommeil du juste », p59.

بالمصاهرة لذر الرماد في العيون، وصرف الأنظار عنه " في حالة ما إذا جرى له مكروه". قال له موضحا:

((إن ابن العم تودارت هو "الأمين"، وأصبح في إمكانه الآن أن يسحقنا ويسحق أبناء أبنائنا، لقد انتهى كل شيء بالنسبة إلينا، إنه لم يعد في استطاعتنا أن نتنفس في المكان الذي يحيا فيه تودارت لقد اشترى مؤخرا ضيعة في "البويرة"، وأغناما في "سيدي عيسى"، وأسند إليه المتصرف الإداري توزيع التموين في البلدية، وبهذا أصبحت مسألة أن نطعم أو نجوع، نُكسى أو نعرى، مرتبطة به ولكن ابن العم تودارت هو "الأمين"، وسيأتي يوم يعرف فيه، إن لم يكن قد عرف بعد، أنني أفكر في موته، وعليه فلا بد من تنويمه، ولابد من ابني سليمان أن يتزوج من ابنته "الياقوت"، وإنني لأعلم أنها دميمة، وأن والدها تودارت كلب، ولكن، ومع ذلك، فإن اليد التي لا تستطيع أن تعضها عليك أن تقبلها)) [849].

ونسي سليمان في هذه اللحظة كل ما كان قد فكر فيه وعزم على تنفيذه وهو في طريق عودته إلى القرية، كما نسي كل ما تعلمه عن الوناس من دروس في الوطنية، وقبل بكل بساطة أن ينساق إلى صراع هامشي، ويتحول إلى أداة في مخطط الانتقام الذي وضعه والده، أي أنه بتعبير آخر، تحول عن الطريق الصحيح الذي هو النضال ضد المستعمر، إلى الانسياق في طريق الصراعات القبلية، التي يؤجج نارها المحتل الأجنبي نفسه، ولا يستفيد منها إلا هو.

---

[849] Ibid, p84.

ومع هذا، فإن سليمان، حتى وإن انقاد إلى مخطط والده، فإنه لم يكن متحمسا، ولا راغبا، مثل أخيه الأكبر محند، في السير حتى النهاية في طريق الانتقام، لذلك نراه يلجأ إلى الاستنجاد بأخيه الرزقي الذي كان قد سرح من الجيش، وأقام بعد انتهاء الحرب بباريس، حيث بعث إليه برسالة يشرح له فيها بإسهاب وضع الأسرة التي تدهورت معيشتها أكثر من أي وقت مضى، ويطلب منه بالمناسبة، أن يبحث له عن غرفة وعمل بفرنسا، يمكنه من مساعدة الأسرة، وأن يعجل هو بالعودة إلى القرية لـ"مراقبة" والده وأخيه، "ومنعهما من ارتكاب حماقات" (يقصد إقدامهما على اغتيال تودارت) [850]

ولا يخفى علينا ما في طلب سليمان من محاولة الهرب من المشكلة، والتخلص من المسؤولية، بالتخلص من ضغط الأب الذي يدفع به إلى السير في طريق لا يرغب فيه، من جهة، والأمل، من جهة أخرى، في أن يتمكن أخوه الرزقي من منع جريمة قتل يرى نفسه عاجزا عن منعها.

فإذا أتينا إلى "الملاك"، أو الابن الأوسط، الرزقي، فإننا نلاحظ أن أبرز ما يميزه هو ثقافته التي جعلته غريبا في أسرته وبين أهل قريته، لأن تفكيره لم يعد ينسجم مع تفكيرهم، ولا قناعاته مع معتقداتهم، وغريبا أيضا بالنسبة إلى مجتمع المستوطنين الأوروبيين، لأنه وجد أن القيم والمبادئ التي تعلمها على مقاعد الدراسة، وأسهب الأساتذة في الإشادة بها، لا وجود لها في الواقع، وأحس أنه كأنما كان مخدوعا في كل ما تعلّمه، فقاده ذلك إلى نوع من خيبة

850 Ibid, p189.

الأمل، وإلى الشك في كل شيء، والتمرد على كل شيء، وأصبح بلا هدف ولا هوية في الحياة، وانتهى به المطاف إلى العودة في الأخير إلى القرية، لكن لم تكن عودته عودة التائب النادم، ولكن عودة اليائس الذي لم يعد عنده خيار، وتساوت عنده الأنوار والظلم، ليجد نفسه منساقا مثل أخيه سليمان في طريق الجريمة، على خطى والده وأخيه. وسنحاول فيما يلي أن نرصد بإيجاز أبرز الأحداث التي أدت إلى كل هذا الانقلاب في حياته.

لقد بدأ وعي هذا البطل يتشكل على مقاعد المدرسة الفرنسية ـ كما سبقت الإشارة ـ على أيدي أساتذة، كان لهم الأثر القوي في نفسه، وفي تفكيره وسلوكه، وهو ما جعله يتنكر لأهل قريته، ويسخر من معتقداتهم، ويحتقر معيشتهم وطريقة تفكيرهم، نجد ذلك جليا منذ الصفحات الأولى في الرواية، أي من ذلك النقاش الذي جرى في المقهى، بينه وبين أخيه سليمان وابن عمهما تودارت، حول ما ينتظره الناس من تغير في أحوالهم السيئة بعد انتهاء الحرب، وقد انقسموا فريقين، فريق، وهم الأكثرية، يؤيدون الألمان، ويأملون أن يكون الانتصار لهم حتى يكسروا شوكة الفرنسيين ويخلصوهم منهم - حسب اعتقادهم ـ ، وفريق يؤيد ويأمل في انتصار الحلفاء، ويمثلهم تودارت بالخصوص، وحجته في ذلك أن للفرنسيين ـ حسب رأيه ـ أفضال كثيرة على الجزائريين، فقبل مجيئهم لم يكن هناك طبيب، ولا طريق معبد، ولا مدرسة.

وهنا يتدخل الرزقي في النقاش ليسخر من الجميع، ويضحك من سذاجة أفكارهم، كما يضحك من فكرة "الشرف القبائلي" الذي تحدث عنه سليمان

بشيء من الحماس، ويعلق عليه بقوله: "ما الشرف إلا مزحة "، وهو التعليق الذي أثار أحد الشيوخ الجالسين، وطلب من الرزقي أن يلعن الشيطان الذي يسكنه، فما كان من الرزقي إلا أن تمادى في سخريته وفي إثارة مشاعر السخط لدى الشيخ حين رد عليه ردا غير لائق، يهزأ فيه بالشيطان وبالله معا[851] وأظهر الجرأة نفسها في نقاشه مع والده حين فاتحه في الموضوع، وسخر من تفكيره، ومن معتقداته، وتفوه أمامه بكلام في الذات الإلهية جعل والده يغضب أشد الغضب ويطلق عليه عيارا ناريا من بندقية الصيد[852]

ويهرب الرزقي إثرها من إغزر إلى قرية "تازغا" عند إحدى عماته*، ومنها إلى الجزائر العاصمة، حيث يواصل دراسته في معهد المعلمين لمدة عامين. ويصادف تخرجه مباشرة نزول قوات الحلفاء في الجزائر في نوفمبر 1942، فيجند في صفوف الجيش الفرنسي.

ويتبين لنا فيما بعد أن الرزقي لم يندم على بدر منه، وأنه، على العكس من ذلك، كان سعيدا بتلك الطلقة النارية التي أطلقها عليه والده، لأنها -كما أوضح لصديقه مدُّور- كانت "هبة من السماء"، حررته من ربقة التقاليد، ويضيف قائلا له:

((كنت قد ضقت ذرعا في إغزر بما فيه الكفاية، وضقت بالموت البطيء يوما بعد يوم، وكان سيأتي علي يوم، لوبقيت على تلك الحال، أغادر فيه

---

851 « Le Sommeil du juste », p8, 9.

852 Ibid, p13.

* (*) نلاحظ هنا أن "تازغا" هي القرية التي تجري فيها حوادث روايته الأولى "الربوة المنسية" مما يعني أن كثيرا من الأماكن والشخصيات والوقائع التي تشكل عالم معمري الروائي لها وجود حقيقي.

الدنيا هكذا، دون أثر، ودون أن أكون قد لعبت ولو جزء يسيرا من دور، ونحن في عز القرن العشرين)) [853].

وهو يقصد أنه تحرر من التبعات التي كانت ستلقى على عاتقه، باسم الواجب الذي تفرضه عليه التقاليد والعادات نحو والده وإخوته، إذ أنه كان يتوقع أن يُقدِم والده على قتل تودارت، وهو ينفر من ذلك ولا يريده، كما كان ينتظر أن يموت أخوه الأكبر محند بمرض السل، ويكون محتما عليه الزواج من أرملته، كما تقضي التقاليد بذلك، باعتبار أنه سيصبح الابن الأكبر:

((تصور.. ما إن أكون قد تخرجت حينئذ من المعهد حتى أدخل معترك الحياة، فقد كان الأب يريد قتل تودارت (ومازال يريد قتله، فأنا على يقين من ذلك) وكنت سيلقى بي، تبعا لذلك، بالرغم مني وإلى الأبد، في المأساة، وهي مأساة بليدة، وبلا جدوى، وخاسرة بالنسبة للجميع، وليس فيها حتى ميزة الإثارة. وحتى تكتمل فصول المأساة، فإنه كان علي أن أنتظر بضعة أشهر أو ربما بضعة أسابيع، وفاة أخي الأكبر، لأتزوج أرملته، لأنه سيترك أطفالا صغارا. أي ما يعادل الانتحار في الحين..)) [854].

كان هذا الحديث بين الرزقي ومدُّور، قبل يوم واحد من التحاقهما بالثكنة العسكرية، وكانا عائدين لتوهما من ضاحية بوزريعة من زيارة لم تتم لأستاذهما السيد " كوستاف بواري" مدرس الفلسفة، الذي كان يكن له كلاهما

---

853 « Le Sommeil du juste », p116.
854 Ibid, p116, 117.

الكثير من التقدير والإعجاب، وذلك هو دافع الزيارة، حيث وجداه قد رحل مع أسرته خارج مدينة الجزائر، هربا من الغارات الألمانية.

وهنا تكون فرصة للمؤلف لكي يكشف للقارئ عن الجانب الآخر من شخصية الرزقي الذي يتمثل في تشبعه بالثقافة الفرنسية، وإعجابه الشديد ببعض أساتذته، الذين يأتي في مقدمتهم الأستاذ "كوستاف بواري". فقد كانت تربط الطالبين بأستاذهما علاقة قوية أشبه ما تكون بعلاقة الشيخ بمريديه، ويظهر ذلك جليا من الرسالة المطولة التي تركها لهما مع بواب منزله، فقد اشتملت على ثماني صفحات، وبدأها بعبارة "ابني العزيزين "، وهو ما يؤكد علاقة المحبة والتقدير التي كانت تجمع بين الأستاذ وتلميذيه.

في بداية رسالته حاول الأستاذ أن " يفلسف " سبب هروبه من غارات الألمان، وانطلاقا من تلك المبررات نفسها حاول أن يضفي على مسألة تجنيدهما ثوبا من الشرعية والعقلانية، وأن يجعل من مشاركتهما في الحرب ضرورة ملحة، من أجل تجاوز "المحنة"، يقول:

((ابنيَ العزيزين، إن العاقل لا يهرب من الأخطار ولكنه لا يواجهها بلا جدوى، إن هذه البديهية التي قمت أنا بتطبيقها، لَتحسان بها لا محالة وأنتما تستعدان للالتحاق بالثكنة، في صميم المحنة الكبرى التي لن تتحمّلا نتائجها فحسب، ولكن ستكونان مضطرينِ لمجابهتها أيضا...)) [855]

855 Ibid, p117.

ويسهب الأستاذ في تقديم المبررات "العقلانية" للحرب، بحيث يعطي في الأخير انطباعا لتلميذيه بأن مشاركتهما في الحرب إنما هي من أجل إنقاذ الإنسانية من الهمجية. يقول:

((... وستندهشان، لا شك ، وأنتما ترياني أدافع عن ضرورة خوضنا لهذه الحرب، أنا الذي كنت دائما داعية لشجب الحرب والوقوف ضد كل الحروب. حقا ، إنها ليست حربا مقدسة ، ولا توجد في اعتقادي أي حرب مقدسة، ولكنها على أية حال حرب لها مبرراتها، لأننا بشر، والبشر ليسوا ملائكة ولا وحوشا، والمحزن أن الوحش هو الذي يستيقظ في نفوسنا أثناء الحرب. وعليه فإن الرجل الجدير بحمل صفة الإنسان، هو الذي يعمل على إيقاظ الوحش في نفسه دون أن يدعه يفلت منه، ويعرف كيف يصغي، من وراء ضجيج الهول وصراخ الوحش، إلى صوت الملاك)) [856].

وقد أحدثت رسالة الأستاذ، كما كان متوقعا لها، أثرا كبيرا في نفسي التلميذين، وتلقيا كلماتها بكثير من الحب، والإعجاب، والحماس، أحسا معه أن الكلمات لا تستطيع أن تعبر عن مدى إعجابهما بحكمة الأستاذ وسحر بيانه، لأنه أعطى معنى لحياتهما، وارتفع بها إلى مستوى إنساني سام، وجعل مشاركتهما في الحرب لها دلالة ومعنى ترتقي إلى مستوى العالم [857].

ويأبى الرزقي وهو ما يزال واقعا تحت تأثير رسالة الأستاذ، إلا أن يسارع بالرد عليه وفي حانة "البار كولونيال" التي قرآ فيها رسالة الأستاذ، راح

---

856 « Le Sommeil du juste » p117,118.

857 Ibid, p118, 119.

يخط له الرد، ليشكره على نصائحه الغالية له ولزميله، ويعبر لـه عـن مشـاعر التقدير والإعجاب التي يكنانها لـه، وعـن الفضـل والامتنـان الـذي يشـعر بـه الرزقي شخصيا نحوه، ومما جاء في رده قوله:

((أستاذي العزيز، إنني مدين لك بميلادي في هذه الحياة، لأنني قبل أن ألتقي بك لم أكن موجودا (...) لقد حطمتَ أبـواب سـجني، فولـدتُ في هـذا العالم، هذا العالم الذي لولاك لأفلت مني)) [858].

وبعد أن يبدي إعجابه بجمال العبارة، وبلاغة الخطاب التي صاغ بهـا الأستاذ رسالته، ويثني على قوة الحجة التي تحدث بها عن الحـرب، ويبـدي تأييده له في كل ما قاله، يكرر له في الأخير شكره وشكر زميلـه، عـن الشحنة المعنوية التي زودهما بها في وقت كانا في أمس الحاجة إليهـا، ويخـتم رسـالته بقوله: ((إنني أعدك يا أستاذي العزيز، أنني سأقاتل دون أن تفـتر لـي همـة، من أجل انتصار قضية، أعلم أنها، رغما عنك، هي قضيتك)) [859]

غير أن هذا الحماس الزائد، والـروح المعنويـة العاليـة الـتي دخـل بهـا الرزقي إلى الثكنة، لم تدم طويلا، إذ سرعان ما بدأت تتلقى الضربات، وتتجـه نحو الفتور والاضمحلال، وذلك بفعل اصطدامه بالواقع اليومي داخل المعسكر، الذي وجده مختلفا تماما عن التصور الذي كان يحمله عنه في ذهنه، وعن تلـك المثاليات التي تحدث عنها الأستاذ، بل وجده لا يساعد من يحمـل مثـل تلـك القناعات على الاحتفاظ بها طويلا.

---

858 Ibid , p119,120.
859 Ibid , p121.

لقد اكتشف، بكثير من الاندهاش وخيبة الأمل، أن النظم والقوانين المطبقة داخل مؤسسة الجيش الفرنسي تقوم على أسس عنصرية مفضوحة، تميز بشكل صريح بين المجند المنحدر من أصل أوروبي، وبين المجند الأهلي (الجزائري)، بحيث تجعل الامتياز والأسبقية للأول في كل شيء، من الأشياء العادية، كالأسبقية في دخول المطعم، إلى إسناد المسؤوليات وتوزيع المهام العسكرية، بحيث يكون الأهلي تابعا دائما للأوروبي، إلى تفاوت الراتب الشهري بينهما تفاوتا كبيرا، حتى وإن تساوت رتبة الاثنين العسكرية، إلى غير ذلك من التمييز الذي لا اسم له في نهاية الأمر سوى أنه تمييز عنصري.

كانت بداية اكتشاف الرزقي لذلك الواقع، في اليوم الذي توجه فيه إلى مطعم الثكنة لتناول الغداء مبكرا بنصف ساعة، وكان يظن أنه سيكون أول من يدخل المطعم، لأنه كان يقف في أول الصف، غير أنه فوجئ، حين فتح المطعم، بالرقيب المسؤول ينادي على الأوربيين ليكونوا أول من يدخل، مع أن الأوروبيين لم يكونا قد حضروا بعد، فطلب منه الرزقي بكل عفوية أن يبدأ بمن حضر، غير أن الرقيب رد عليه في جفاء أن "لا يتدخل فيما لا يعنيه"، ثم بعث بمن يبحث عن الأوروبيين.

واحتج الرزقي على هذا السلوك، ورفض أن يسبقه أي كان في الدخول إلى المطعم، وانضم إليه في احتجاجه المجندون الجزائريون الآخرون، وكاد الاحتجاج أن يتحول إلى معركة حامية، لكن الرقيب أوضح للجميع، في لهجة

لا تخلو من غطرسة ((أن اللوائح تقول بأسبقية الأوروبيين)) وأنه، ببساطة ((لايفعل شيئا سوى أنه يطبق اللوائح)) [860]

وفي الأيام اللاحقة اكتشف الرزقي حقيقة أخرى، حين التحق بكتيبته مجند أوروبي يدعى "لومارشان" يحمل رتبة "مرشح" مثله. وحين حضر النقيب "ريكاردو" تقدم الرزقي ليقدم له الكتيبة كما جرت العادة في الأيام الماضية، لكن النقيب أمره في هذه المرة أن يعود إلى الصف وطلب من "لومارشان" أن يقدم له الكتيبة، وفي المساء استدعاه النقيب، ووبخه على مخالفته للّوائح، وذكره بالمادة التي تقول: ((في حالة وجود ضابطين يحملان رتبة عسكرية متساوية، فإن على الضابط الأهلي أن يطيع أوامر الضابط الأوروبي)) [861]

واحتج له الرزقي بالأمر الذي أصدرته حكومة الجنرال "ديكول" المؤقتة، الذي يعُدُّ بعض الفئات من الجزائريين - ومنهم الضباط في الجيش - فرنسيين، على قدم المساواة مع الفرنسيين الآخرين، ولكن رد النقيب عليه كان في غاية البرود والتجاهل. قال له: ((ديكول ؟ لا أعرفه..)) [862]

وهو الرد نفسه الذي أجابه به ضابط الإدارة حين سأله: لماذا يقل راتبه عن زملائه الأوروبيين بمقدار الثلث ؟ [863] وقد كلفه احتجاجه المتكرر دخول الحبس في كل مرة، بحجة عدم الطاعة لرؤسائه المباشرين في الجيش، غير أن

---

860 « Le Sommeil du juste », p125.
861 Ibid , p128.
862Ibid p128.
863 Ibid , p128.

حبسه كان يتيح له فرصة الخلو إلى نفسه داخل الزنزانة، ويعطيه الوقت الكافي للتأمل والتفكير، ومراجعة نفسه، ومحاسبتها أيضا. وقد كان اهتزاز ثقته في أقوال أساتذته أقسى على نفسه من تلك المعاملة السيئة والمهينة التي لقيها من رؤسائه في الجيش، وعز عليه أن يكتشف، بقدر غير يسير من المرارة، أن كل ما تعلمه في المدرسة الفرنسية مشكوك فيه، وأن كل ما حفظه من أساتذته عن المبادئ والقيم الإنسانية السامية، مثل الحرية، والمساواة، والأخوة الإنسانية، لم يكن إلا زيفا وكذبا. وأحس أنه كان مخدوعا، وساذجا، لأنه صدق تلك الأقوال. ومن هنا فقد إيمانه بكل القيم، وأصبح يشك في كل شيء، وتمرد على كل شيء، ومال في سلوكه إلى السخرية، وفي تفكيره إلى العدمية والسوداوية.

وقد وجد في الليلة التي سبقت رحيله إلى جبهة القتال طريقة فريدة من نوعها في التعبير عن سخطه وتمرده على الواقع، واحتقاره لكل ما تعلمه من قبل، وذلك حينما أقدم على حرق كتبه، وكانت تتشكل من مجموعة مؤلفات عظيمة لكتاب عباقرة، ومفكرين أجلاء من أمثال مونتيني ونيتشه وراسين وباسكال وروسو ودي ميسه وشكسبير وجوريس وغيرهم. وكان يتلذذ بمشهد النار وهي تلتهم الأوراق، كأنه كان ينتقم منها، ويرد الاعتبار لنفسه، بعد أن عاش مخدوعا ـ حسب تصوره ـ بما جاء فيها، ولم يكتف بحرقها فحسب، بل زاد على ذلك ـ وكان واقعا تحت تأثير الخمر ـ أن بال عليها، بعد أن أصبحت كومة من رماد:

- ما ذا تفعل هنا ؟ سألته صاحبة الحانة.

- إنني أبول على الأفكار، أجابها الرزقي [864]

ويجدر التنبيه هنا إلى أن البطل كان حريصا على تسجيل كل ما كان يخطر بباله من أفكار وتأملات وانطباعات في دفتر خاص، بناء على اقتراح من أستاذه "بواري" الذي أوصاه وزميله مدُّور بذلك. وكان من المفترض أن لا يستعملا دفتريهما إلا في جبهة القتال، أو "وسط الهمجية" حسب تعبير الأستاذ: ((.. ليكون لكما (دفتر المذكرات) ملاذا للضمير والإنسانية، ووميض اللهب وسط الظلمة)) [865]

غير أن البطل اصطدم بـ"الهمجية " قبل رحيله إلى جبهة القتال، وقد كانت همجية من نوع آخر، هي همجية الظلم والعنصرية، التي لا تسلب من الإنسان حياته، ولكنها تسلب منه إنسانيته وكرامته، وتقتله قتلا معنويا، فاتخذ الرزقي من دفتره "ملاذا " لتبديد وحشة السجن وظلمته، قبل تبديد ظلمة الخنادق في الجبهة وسط النار والدخان.

وكان خطابه، طوال الوقت، موجها إلى أستاذه "كوستاف بواري" وهو يعكس مدى المرارة التي كان يحس بها، وخيبة أمله فيما كان قد تعلمه منه، ويعبر إلى حد بعيد عن مدى غضبه من الأستاذ، وعتابه له. لأنه جعله يؤمن بقيم ومبادئ ينتفي وجودها في الواقع.

864 « Le Sommeil du juste »,, p147.
865 Ibid, p124.

إلا أنه وبالرغم من ظاهر الخطاب الموجه إلى الأستاذ، إلا أن المتأمل فيه، يجده في حقيقة أمره - ولكونه مذكرات شخصية - موجها إلى البطل نفسه، والغرض منه في النهاية هو مصارحة النفس، ومكاشفتها بالحقيقة، ومراجعة القناعات الشخصية السابقة، والوصول من وراء ذلك كله إلى أفكار واضحة ومحددة، يتخذ منها أساسا لمواقفه في المستقبل من الحياة والناس.

والواقع أن بطلنا ظل طوال الوقت يتجرع الخيبات المتكررة، ولم يستطع أن يحدد له هدفا في الحياة، أو على الأصح، لم ينجح في التخطيط لحياته، أو الخروج من أزمته، وقد جرب، حينما سرح من الجيش، بعد انتهاء الحرب، أن يواصل دراسته خلال الأشهر التي قضاها في باريس، كما انخرط في الوقت نفسه في النضال الحزبي، غير أنه لم يوفق لا في الدراسة ولا في السياسة، فقد أثر نشاطه الحزبي على دراسته ولم يتمكن من المواظبة على الدروس[866]. كما لم تؤهله جهوده المضنية التي بذلها طوال خمسة أشهر في النشاط الحزبي، من النجاح في الاختبار لكي يقبل نهائيا كعضو في صفوف الحزب [867]

غير أن خيبته في الحصول على عضوية الحزب لم تكن أكبر ولا أقوى من خيبة أمله في العمل الحزبي نفسه، الذي اهتدى إليه في الأخير، وظن أنه الطريق الصحيح والسليم لتغيير الواقع المأساوي لبلده. لقد فتحت الأشهر الخمسة من النضال عينيه على ممارسات غير أخلاقية كان يقوم بها أعضاء من

866Ibid p182.
867 Ibid, p181.

الحزب، كالتجسس على مناضلين آخرين معهم، والقيام بأعمال مخالفة للقانون، وقد ورطوه هو شخصيا في قضية تزوير خطيرة، كانت ستكلفه، فيما لو اكتشف أمره، خمسة أعوام سجنا على الأقل [868]. وهو ما أثار الشكوك في نفسه، وأضعف حماسه نحو العمل الحزبي، لينفض منه يديه نهائيا، بعد المقابلة الأولى والأخيرة له مع رئيس الحزب، المدعو "الدكتور بلخوجة "، الذي تبين له أنه من ذلك النوع الانتهازي، المنافق، الذي يتظاهر بالتضحية في سبيل القضية الوطنية، في حين أنه كان يحي في بحبوحة من العيش على حساب الحزب، ويدفع بالمناضلين البسطاء إلى ركوب المخاطر وارتكاب أعمال يعاقب عليها القانون[869].

ويمكن القول أن رسالة أخيه سليمان، التي أشرنا إليها آنفا، قد جاءت في الوقت المناسب، وسهلت له المهمة، فقرر فجأة أن يعود إلى قريته، ويلتحق بسلك التعليم، ومن ثمة يمكن له أن يقدم بالفعل مساعدة لأسرته، وأن يمنع بذلك أباه وأخاه من الإقدام على ارتكاب الجريمة التي كانا يدبران لها.

868 نظمت جريدة الحزب مسابقة يحصل الفائز فيها على مليون فرنك، غير أنه ، وحفاظا على أموال الحزب للحزب، كما أفهمه المسؤولون، قاموا بعملية تزوير يضمنون من ورائها عدم خروج تلك الأموال من بين أيديهم، وكان دوره هو في العملية أن يتقدم للجائزة، بعد ما أعطوه الجواب الصحيح الذي يضمن له الفوز، ليعيد الأموال إلى الحزب بعد استلامها، وقد قبل المهمة على مضض، بعد أن قدمت له على أنها تضحية في سبيل القضية الوطنية، وتبين له فيما بعد أن الجائزة قسمت مناصفة بين منظم المسابقة ورئيس الحزب، وهو الشيء الذي حز في نفسه، وخيب ظنه . راجع: « Le Sommeil du juste », p 187.

869 « Le Sommeil du juste », p 185 à187.

ولم يتردد كثيرا في تنفيذ ما عزم عليه، خصوصا أنه لم يكن هناك ما يشده إلى التريث أو التأجيل، فاستقل القطار إلى "مرسيليا" في تلك الليلة نفسها التي قرأ فيها رسالة أخيه، ومن هناك ركب البحر عائدا إلى الجزائر.

عاد إلى الجزائر إذن لينزل بقرية إغزر، ويجد نفسه مضطرا إلى الاندماج بسرعة في حياة القرية: ((كسباح ألقى بنفسه في الماء فجأة))[870]، ومعنيا بشكل مباشر ببعض المشكلات الأسرية، وأولها مسألة زواج امرأة محند، بعد وفاته، بأحد أخويه ـ لا سيما أن حال محند قد ساءت، وبات في حكم المحتضر ـ فقد استدعي الرزقي في الأمسية نفسها التي وصل فيها إلى إغزر لحضور اجتماع الأب في البيت مع إمام المسجد وأمين القرية الجديد (تودارت)، بحضور أخيه سليمان، للفصل في هذه المسألة.

كان طوال الاجتماع متوترا، ومتألما مما يحدث، لأن أخاه المريض كان يقبع في ركن مظلم من البيت القروي الكبير، ويسمع كل ما يقال عنه في الاجتماع، كاتما نوبات سعاله بسد فمه بطرف اللحاف الذي يتغطى به، كأنه كان خجلان من إسماع صوته [871]. وكان الرزقي يحاول بصعوبة من جهته كتمان مشاعره الثائرة، غير واثق مما سيكون عليه رد فعله فيما لو حاولوا أن يرغموه على الزواج من امرأة أخيه، وحينما سمع إمام المسجد ينطق باسم أخيه سليمان، أحس أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله، وخرج من الاجتماع وهو يقول لسليمان:

870Ibid p209.
871 Ibid, p210.

((رافقني إلى الخارج فإنني أشعر بالاختناق هنا)) [872]

عاد بطلنا إلى القرية إذن، ولكن كان يساوره إحساس يشبه إحساس من نزل على كوكب آخر [873]. لقد وجد نفسه وحيدا، معزولا. لا يشاركه في أفكاره أحد، بل إنه لم يكن يمتلك أفكارا أصلا، لأنه فقد الإيمان بكل شيء، بالأفكار التي قرأها في الكتب، وبالمبادئ والقيم الإنسانية التي تعلمها من أساتذته، وبالنضال الحزبي الوطني، ناهيك عن الأفكار والقيم التقليدية التي تعيش عليها القرية، والتي رفضها منذ زمان، ومازال يرفض منطقها بقوة.

ومن هنا كان حال والده وأخيه سليمان أفضل من حاله بكثير، لأن الوالد كان يتمسك بعادات وتقاليد الأجداد وهو مطمئن إليها تماما. وعلى ضوئها يعيش ويتخذ مواقفه في الحياة، وكذلك الشأن بالنسبة لسليمان الذي وإن كان لا يرتاح لسطوة التقاليد وقسوة أحكامها، إلا أنه لا يرفضها، ويعوض عنها بالنشاط السياسي الحزبي، الذي يجد فيه ملاذا، ويشعر معه أنه يعطي لحياته قيمة ومعنى. وبناء على هذا، فإن مشكلة الرزقي كانت تتجسد في ذلك الخواء الفكري الذي كان يعاني منه، بحيث فقد إيمانه بكل قناعاته السابقة، ولم يتمكن من تعويضها بقناعات أخرى، ومن هنا لم يستطع أن يعطي لحياته معنى، ولا أن يتخلص من أزمته النفسية.

ولسوء حظه فإن الظروف لم تمهله حتى يجد له مخرجا من أزمته، كما لم يكن لديه وقت كافٍ للعمل على منع وقوع الجريمة التي عاد إلى القرية من

872Ibid p211.

873 Ibid, p210.

أجل الحيلولة دون وقوعها، فقد قُتل تودارت بعد عودته بأيام قليلة. قتله محند غيلة ثم مات، لتلصق التهمة ببطلنا ومعه أبوه وأخوه. بل إن النائب العام - بفضل ما كان يتمتع به من قدرة على الإقناع - قد ألب المحلفين ضده. وجعله في نظرهم المتهم الأول، وركز في مرافعته على أمور تبدو مقنعة جدا، فقد حدثت الجريمة بعد أيام من عودته إلى القرية، وهو الوحيد من بين المتهمين الثلاثة الأقدر على استعمال السلاح وإصابة الهدف بدقة، لما اكتسبه من خبرة في الجيش على استعمال السلاح. يضاف إلى هذا كله دفتر يومياته الذي عثر عليه في جيبه، وكان يتضمن تفاصيل عن نشاطه الحزبي بباريس، وعن رسالة أخيه سليمان، التي وردت فيها إشارة إلى اغتيال "الأمين"، إلى غير ذلك مما جاء في يومياته، مما عُدَّ في نظر النيابة العامة اعترافات صريحة تدينه كلها.

حتى ثقافته، وملامح الذكاء على وجهه، والثقة بالنفس التي كانت تبدو عليه. عدها النائب العام من الصفات التي تثبت إدانته[874] والقاضي نفسه مال إلى الاقتناع بالحجج التي قدمها النائب العام، وزاد على ذلك أن عد ما جاء غامضا في اليوميات في غير صالحه، لأن الرزقي رفض شرحه، بحجة أنه يتعلق بأمور شخصية لا تعني العدالة في شيء[875]. وكان يفترض فيه، حسب ما جرت به العادة، أن يحسب الغموض لفائدة المتهم. وهكذا وجد الرزقي نفسه مرة أخرى وجها لوجه أمام القوانين الاستعمارية الجائرة. لكن المواجهة في هذه المرة كانت أخطر بكثير، لأن المسألة تتعلق بجريمة قتل يحاول جهاز العدالة

874 « Le Sommeil du juste », p251.
875Ibid, p252.

الاستعمارية أن يلصقها به بكل الوسائل، وأن يجمع لها أكبر قدر من الأدلة، حتى ولو كانت أدلة متعسفة وواهية، وحتى مزاياه التي كان يظن أنها تشفع له عندهم وتدفع عنه التهمة، كالثقافة والذكاء، والمشاركة في الحرب للدفاع عن العلم الفرنسي، رآها تنقلب في نظر العدالة الاستعمارية ضده، وتتحول إلى أمور تدينه، حيث حكم عليه في الأخير بعشرين عاما سجنا.

ويختتم الكاتب روايته بالعبارات التالية على لسان بطله، محاولا أن يلخص المشكلة في كلمات، وأن يتنبأ بما سيكون عليه المستقبل من إشراق، مهما بدا الحاضر مظلما ولا يبعث على التفاؤل، بل يحاول أن يوحي للقارئ بأن شدة الظلام ما هي إلا علامة على أن الصبح قريب، وأن ساعة الخلاص قد أزفت:

((إنه شيء جيد ، على أية حال. أن يتبع نوم العدل (Le juste) نوم العدالة (La justice). لكن ما أهمية نوم ليلة أو يوم بالنسبة إلي ،أو إلى الآخرين، بل ما أهمية نوم عام. إن الموت وحده هو الذي لا نستيقظ منه. إنني أسمع مفاتيح السجان الذي لابد أنه قادم لكي يفتح لي. إنه صاحبي.إنه يحب أن يموسق مشيته بقرقعة مفاتيحه. إن القافلة ستنطلق بعد قليل. هذا كل شيء على ما أعتقد)) [876]

---

876 Ibid, p254.

ونعتقد أن هذه هي قناعة الكاتب نفسه، ورسالته التي أراد أن يبلغها إلى القاريء، ومضمونها: "أن الظلم مهما طال فإن مرتعه وخيم، والعدل مهما غاب فإنه لابد أن يعود في يوم من الأيام إلى نصابه". إلا أن هذه القاعدة التي تبدو في ظاهرها معقولة من الوجهة المنطقية، على أساس أن لا شيء يدوم على حاله إلى الأبد، فإن وجود الظلم كحقيقة قائمة لا يعني أنه يتغير من تلقاء ذاته، ومن هنا يصبح من الصعب أن نجد مبررا لكل هذا التفاؤل الذي يبديه المؤلف، لاسيما أن وضع بطله لا يساعد على ذلك، فقد انتهى إلى وضع مأساوي فقد على إثره كل شيء: هويته، وحريته، وانتهى على الصعيد الفكري إلى عدمية كاملة لا تؤمن بشيء، ولا ترى أي أمل في المستقبل، وانتهى على الصعيد المادي سجينا، لا يستطيع أن يفعل شيئا، لا لنفسه ولا لغيره ؟ فمن أين يأتي التفاؤل والحال هذه إذن ؟

ثلاثية محمد ديب: وعي الذات، ومساءلة الآخر

في ثلاثية ديب * التي تشكل رواية "الدار الكبيرة " [877] جزءها الأول. يعيش الطفل عمر، ابن العاشرة مشكلتين رئيسيتن في حياته. إحداهما بيولوجية (حيوية) تتعلق بمتطلبات الجسم الضرورية، وهي مشكلة الجوع. الذي كان يعاني منه باستمرار. لأنه لا يجد في أغلب الأحيان ما يأكله في بيتهم، بسبب فقر أسرته الشديد، فيظل طوال الوقت منشغلا بهذه المشكلة المستديمة أما مشكلته الثانية فهي فكرية - إن صح التعبير - تتعلق بوعي العالم من حوله. ومحاولته فهم تصرفات الناس، ومعرفة الأشياء على وجهها الصحيح، من خلال أسئلة حائرة كان الواقع يدفعه إلى طرحها على نفسه. وقلّ ما كان يجد لها إجابة شافية، مثل سؤاله لنفسه، من واقع الجوع الذي

---

* (*) ولد محمد ديب في 14 جويلية 1920 بمدينة تلمسان، من أسرة عريقة لكنها فقدت امتيازاتها. زاول تعليمه بتلمسان ثم في وجدة بالمغرب. عين عند اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939 . 1940 كمعلم ابتدائي بمدرسة "زوج بغال" على الحدود الجزائرية المغربية، ثم اشتغل ابتداء من سنة 1941 مع جيوش الحلفاء كمحاسب، ثم كمترجم من الإنكليزية إلى الفرنسية. في سنة 1945 عاد إلى تلمسان ليعمل كمصمم زرابي. شارك في الأيام الثقافية التي انعقدت في الفترة ما بين 27 فبراير و13 مارس 1948 بسيدي مدني قرب مدينة البليدة، وهناك تعرف على بعض الأدباء المرموقين، أهمهم ألبير كامو الذي أصبح منذ ذلك اللقاء صديقا له. في بداية الخمسينيات عمل كصحفي في جريدة "الجزائر الجمهورية"، ونشر بها عدة تحقيقات في موضوعات متنوعة. في الفترة ما بين 1952و1958 نشر ثلاثيته: الدار الكبيرة ، والحريق، والنول، ومجموعته القصصية "في المقهى" (1955)، ورواية "صيف إفريقي" (1958)، التي تتناول موضوع الثورة المسلحة. وعلى إثرها نفي من الجزائر، فحل بموجان في منطقة الألب الفرنسية عند أصهاره، ومن هناك قام بزيارات لبعض البلدان الأوروبية الشرقية، ثم بزياة للمغرب سنة 1960، وبعد الاستقلال فضل البقاء خارج الجزائر، فأقام في مناطق عديدة في فرنسا، ثم رحل إلى فنلدة وأقام بها عدة سنوات، ومن وحيها ذلك البلد كتب ثلاثيته المسماة "ثلاثية الشمال"، كما قام بعدة رحلات إلى الولايات المتحدة، وقدم محاضرات عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بجامعات كاليفورنيا ولوس أنجلوس. وهو يقيم حاليا في فرنسا، وأصدر إلى حد اليوم 26 رواية (كانت آخرها "شجرة القول "(L'arbre à dire) التي صدرت سنة 1998عن منشورات "ألبان ميشال" بباريس) وما يقارب عشرة أعمال أخرى في الأنواع الأدبية الثلاثة: الشعر، والقصة والمسرحية.

877(2) Mohammed Dib «La grande maison» Ed. du Seuil. Paris 1952.

كان يعيشه يوميا مع أفراد أسرته: لماذا نحن فقراء؟ [878]. ويأتي ضمير الجمع "نحن" هنا في محله، لأن الجوع كان ظاهرة عامة، يعاني منه معظم تلاميذ المدرسة[879]، ومعظم سكان "دار سبيطار" أو "الدار الكبيرة"، ويعاني منه فلاحو "بني بوبلن" (في رواية "الحريق")، وسيتفاقم الجوع ويتخذ أبعادا خطيرة مع مرور الوقت واستمرار الحرب (رواية "النول")، لتصبح قوافل الجائعين والمشردين تجوب كل شوارع المدينة، ويتساقط الناس صرعى من الجوع في الشوارع.

وبالطبع، لم يكن عقل عمر ولا سنه يسمحان له بالإجابة على هذا السؤال المحير: لماذا نحن فقراء؟ ولا على غيره من الأسئلة الكثيرة التي كان يطرحها على نفسه، لكن الشيء المؤكد هو أن الأسئلة في حد ذاتها لم تكن بلا جدوى، فقد كانت تصنع وعيه يوميا، وتجعله يحس على نحو غامض، أن الأمور غير طبيعية، وأنه يجب أن تتغير. وعلى أية حال، وبالرغم من الأهمية الكبيرة التي أولاها الكاتب لإبراز مشكلة الجوع في الرواية، فإن اهتمامنا هنا - من منطلق الالتزام بخط البحث - سوف لن ينصب بالأساس إلا على المشكلة الثانية، التي سنحاول من خلال تتبعنا لمختلف تجلياتها، أن نتبين مسار تطور الوعي لدى البطل الصغير عمر.

1 - الطفل عمر الشخصية النموذجية لنمو الوعي

بادئ ذي بدء، يمكن القول أن الكاتب قد وجد في الطفل عمر شخصية نموذجية ممتازة للتعبير بشكل رمزي مناسب على العديد من الأفكار التي كانت

---

878 Ibid. P117.

879 مثل "صاحب السترة الكاكي" الذي كان عمر يعطف عليه وينتزع اللقمة من التلاميذ الآخرين ليقدمها له، راجع: « La grande maison » pp13-17.

تدور في ذهنه، وعن الأوضاع المزرية التي عاشها الشعب الجزائري في فترة من أحلك فترات تاريخه، ألا وهي فترة الحرب العالمية الثانية، فقد كانت حال الشعب أشبه ما تكون بحال الطفل عمر في يتمه وجوعه المزمن، وحيرته في فهم ما يجري حوله من صراع بين كبار العالم *، ثم إن شخصية عمر، من جهة أخرى، تستعيد في العديد من جوانبها ذكريات وتجارب مر بها الكاتب نفسه في سني طفولته ومراهقته الأولى، فقد جرب مثل عمر مرارة اليتم، حين فقد والده مثله وهو في سن الحادية عشر [880]، ومثله افتقد ذلك الوالد، حين كان في أمس الحاجة إليه ليجيبه، وهو في تلك السن الحرجة، عن الأسئلة الحائرة التي كانت تفرض نفسها عليه.

2 ـ المدرسة الفرنسية تعلم الكذب وتشجع عليه

إننا نتصور أن مشاعر الحيرة والشك التي راودت عمر أثناء درس الأخلاق، وهو يسمع زملاءه يرددون ما جاء في الكتاب الدراسي: "إن فرنسا هي وطننا الأم" [881]، إنما هي مشاعر الحيرة والشك التي تكون قد راودت المؤلف نفسه إزاء ذلك الدرس ذاته، حين كان تلميذا في المرحلة الابتدائية، وخاصة أن برامج الدراسة لم تكن تعرف تغييرا يذكر، كما أن هناك "ثوابت"

---

* (*) في الحوار الذي أجرته معه إذاعة فرنسا الثقافية في شهر مارس 1997. الذي سبق أن أشرنا إليه من قبل في الفصل الثالث من الباب الأول، ص14 و31. صرح الكاتب أن الشعب الجزائري لم يكن في يوم من الأيام يعاني من غياب "الأم"، أي الجزائر، ولكنه كان يعاني من غياب الأب، أي من غياب قيادة قادرة على تجنيد الشعب حولها والسير به نحو الحرية والاستقلال.

880 Jean Déjeux « Mohammed Dib, écrivain algérien » Ed. Naaman, Sherbrooke. Québec. Canada. 1977, p9.

881 « La grande maison » , p20.

فيها غير قابلة للتغيير، ومنها هذه المقولة في تعريف "الوطن" ، ومثلها مقولة "أجدادنا الغاليون" وغيرها، ويكون المؤلف قد احتفظ بها كذكرى لا تنمحي من ذهنه لما فيها من اللبس والمفارقة التي لا يمكن أن تنطلي حتى على الأطفال.

من منكم يعرف ماذا تعني كلمة وطن ؟.

هكذا سأل المعلم تلاميذه، الذين احتاروا في الإجابة عن هذا السؤال الصعب، ولم ينقذهم من حيرتهم إلا أحد التلاميذ القدامى الذي كان قد لقن الجواب على هذا السؤال من العام الماضي، لأنه أعاد السنة: ((- إن فرنسا هي وطننا الأم)).

وفي الوقت الذي راح التلاميذ يتبارون في ترديد العبارة، راح عمر ، وهو يعجن كرة صغيرة من الخبز في فمه، يدير السؤال في ذهنه ويعلق عليه بهدوء:

((فرنسا عاصمتها باريس. إنه يعرف ذلك، والفرنسيون الذين يرون في المدينة قد أتوا من ذلك البلد. وللذهاب إليه أو العودة منه لابد من عبور البحر، وركوب الباخرة.. عبور البحر المتوسط. ولم يكن قد شاهد البحر من قبل، ولا باخرة، ولكنه يعرف أن البحر هو امتداد واسع من الماء المالح، والباخرة هي ما يشبه خشبة عائمة. وفرنسا هي خريطة متعددة الألوان، فكيف تكون تلك البلاد البعيدة كل هذا البعد هي أمه ؟ إن أمه في البيت، وهي عيني، وليس له اثنتين))[882].

882 « La grande maison » , p20.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى، ولا المادة الوحيدة، التي يكتشف فيها عمر مثل هذه المفارقات التي لا اسم لها سوى اسمها الصريح، ألا وهو الكذب. فقد كان يطلب من التلاميذ في موضوعات الإنشاء أن يصفوا مثلا سهرة أمام الموقد، ويحاول المعلم أن يسهل عليهم المهمة، فيقرأ عليهم مقتطفات تصف سهرة عائلية: ((...تتحدث عن أطفال ينحنون باجتهاد على كتبهم، والمصباح يلقي ضوءه على الطاولة، والأب غارق في أريكة يقرأ الجريدة، والأم تشتغل بالتطريز...إلخ)) [883].

ولأن هذه الصورة المثالية عن جو البيت المريح لا تمت إلى واقع عمر بصلة، فإن عمر كان يجد نفسه "مضطرا إلى الكذب" [884]. فيواصل على منوال ذلك الوصف الذي سمعه: ((... والنار تشتعل في المدخنة، وتكتكات الساعة الجدارية، وجو البيت الهادئ، في حين يسقط المطر، وتعصف الريح، وينزل الليل في الخارج. آه، كم نشعر بالراحة في البيت بجانب الموقد.)) [885].

وهكذا كان عمر يكذب أيضا حين يصف البيت الريفي الذي يقضي فيه وأفراد أسرته عطلة الصيف الكبرى: ((اللبلاب يتسلق واجهة البناء، والساقية تغرد في المرج المجاور، والهواء نقي. أي سعادة في أن يتنشقه المرء بملء رئتيه)) [886].

883 Ibid , p21.
884 Ibid , p21.
885 Ibid , p21.
886 Ibid , p21.

وعليه إذن، فقد كان عمر يشعر في قرارة نفسه أن ما كان المعلمون يلقنونه لهم لم يكن إلا كذبا، وأسوأ من ذلك أن يشعر التلاميذ بأنهم يدفعون من قبل المعلمين إلى الكذب ويشجعون عليه. ولذلك كان التلاميذ مضطرين إلى الكذب، خوفا من عصا الزيتون ـ كما يقول الراوي ـ من جهة، وطمعا في الحصول على نقاط أفضل، من جهة أخرى: ((كان التلاميذ يقولون فيما بينهم: إن الذي يحسن الكذب أفضل من غيره، ومن يحسن ترتيب كذبه هو أفضل تلاميذ القسم))[887].

وعلى الرغم من البعد الشاسع بين موضوعات الإنشاء وواقع التلاميذ، فإنه يمكن أن ينظر إلى المسألة على أنها مثلا نوع من التدريب على استعمال الخيال، ولكن حين يتعلق الأمر بالدروس الأخرى كالأخلاق، والتاريخ، فإن ذلك لا يقبل أي تأويل سوى أنه نوع من الكذب المدروس والتزييف المنظم من قبل المنظومة المدرسية الاستعمارية، بهياكلها ومؤطريها على جميع المستويات، وهذه هي الرسالة التي أراد الكاتب أن يبلغها للقارئ.

ونلاحظ في الفقرة الأولى التي تحدث فيها المعلم عن "الوطن الأم"، كيف لعب الكاتب على معاني الألفاظ، واستغل عنصر المفارقة والغموض الناتج عن استعمال لفظ " الأم " بمعناه المجازي "الوطن"، الذي فهمه الطفل بمعناه الحقيقي، فاتخذه أداة للسخرية من مقولة " فرنسا الوطن الأم "، تستمد قوتها من حيرة الطفل واندهاشه أن تكون له أم أخرى غير "عيني"، وقد عاد الكاتب

887« La grande maison », , p21.

مرة أخرى إلى استعمال الأسلوب الساخر المبني على عنصر المفارقة، حين راح المعلم يتحدث عن واجب المواطنين إذا تعرض الوطن للخطر: ((حين يأتي من الخارج أجانب يزعمون أنهم السادة فإن الوطن يكون في خطر. إن هؤلاء الأجانب أعداء، وعلى جميع السكان أن يصدوهم، ويدافعوا عن الوطن المهدد، وحينئذ تكون المسألة مسألة حرب، وعلى السكان أن يدافعوا عن الوطن بحياتهم (...) وأولئك الذين يحبون وطنهم بقوة ويعملون من أجل خيره، يسمون وطنيين)) [888]

وبالطبع، فإن المفارقة هنا تبدو في التناقض الصارخ بين مضمون الكلام الذي يتحدث عن الشعوب التي تتمتع بالحرية والسيادة على أرضها، وبين واقع الجزائر وشعبها آنذاك اللذين كانا يرزحان تحت نير الاحتلال الفرنسي، وقد أثار المعلم بإلحاحه على الموضوع اهتمام التلاميذ، وراح عمر يسأل نفسه: ((وأين هم أولئك الأشرار الذين يعلنون أنفسهم سادة ؟ من هم أعداء بلده، أعداء وطنه ؟)) [889]

وكان المعلم نفسه، وهو جزائري، يهدف ـ كما يبدو من خلال السياق ـ إلى إثارة اهتمام تلاميذه، ولفت نظرهم إلى واقع بلدهم المحتل، حتى وإن بدا مترددا، وغير قادر على الإفصاح عن كل ما في نفسه.

ومع ذلك فقد أبى عليه ضميره أن يترك تلاميذه حيارى، وقرر أن يصارحهم ببعض الحقيقة، رغم ما يمكن أن يترتب عن ذلك من نتائج خطيرة

888Ibid p22.
889 Ibid, p22

بالنسبة إليه، فيما لوعلمت الإدارة بما قاله لتلاميذه، فتوجه إليهم موضحا بصوت خفيض، تمازجه نبرة غضب، ليقول لهم:

((- ليس صحيحا إن قيل لكم إن فرنسا هي وطنكم.)) [890]

قال ذلك باللغة العربية، وهي المرة الأولى التي يسمع فيها المعلم حسن يتحدث بالعربية، وفي ذلك دلالة، وأية دلالة، كأنه نزع عن وجهه القناع الذي كان يمثل به، ليظهر أمام تلاميذه بوجهه الحقيقي، ويضع حدا فاصلا بين كلام الكذب وكلام الصدق.

كان عمر يشعر دائما أنه في سجن، سواء في المدرسة أو خارجها، ويزداد هذا الشعور حدة لديه في "دارسبيطار" حيث تقيم أسرته، تلك "الدار الكبيرة" البائسة، التي تعج دائما بالضجيج والفوضى والخصومات التي لا تنتهي بين الجيران، وهي خصومات تعود أساسا إلى كثرة الأنفس التي تضمها الدار، وإلى مصاعب العيش التي يعاني منها كل ساكنيها: البطالة والجوع، والفقر، والمرض، وكل أشكال البؤس، وهو ما ينعكس على ساكنيها، ويجعل أعصابهم متوترة، وصدورهم ضيقة، ونفوسهم متحفزة لرد الفعل العنيف.

وهناك عامل قلق آخر زاد من توتر أعصاب سكان "دار سبيطار"، وضاعف من شعور عمر بجو السجن، ألا وهو مداهمات الشرطة الاستعمارية لـ" الدار الكبيرة "، التي تكررت في المدة الأخيرة، وفي كل مرة كانت الشرطة

---

890 « La grande maison », , p23.

تقبض على بعض رجال "الدار"، وبعض شبان الحي بتهم متفرقة، وتلقي بهم في غياهب السجون .

كان أول من بحثت عنه الشرطة هو حميد سراج، إلا أنهم لم يعثروا عليه في البيت [891]، ومع ذلك فقد تمكنوا من القبض عليه في مكان آخر، كما قبضوا على مجموعة من الفلاحين كان مجتمعا بهم [892]. ثم قبضوا على زوج الجارة "زينة"، وهو نقابي مثل حميد سراج ، لأنه احتج على غلاء المعيشة [893](3)، ومن بعده قبضوا على "بن ساري" ، لأنه رفض الامتثال أمام "عدالتهم"، وقال عنها:

((إنها تحكم علينا دون حاجة إلى قيامنا بالذنب)) [894]

وكانت الشرطة تلجأ في ذلك إلى ما تسميه الحبس الاحتياطي، أو السجن الوقائي، بحيث لا تنتظر أن يرتكب الأشخاص ما يبرر القبض عليهم، لتزج بهم في السجون [895](5)، وكان رجال الشرطة يمارسون التعذيب على ضحاياهم لانتزاع المعلومات منهم [896]. ولذلك كان بعض المقبوض عليهم يدخلون مركز الشرطة أصحاء، ويخرجون بعاهات مستديمة، وقد يسلمون الروح إلى بارئها

---

891 Ibid, p52.
892 « La grande maison », , p107.
893 Ibid, p60.
894 Ibid, p52 .
895 Ibid p52.
896Ibid, p108.

بين يدي جلاديهم، وهذا ما حدث لـ" الخال محمد"، الذي وصل مركز الشرطة في صحة جيدة، وبعد ثلاثة أيام أخرج ميتا [897].

من هذا الجو المشحون بالتوتر والخوف، بالإضافة إلى ضغط الجوع والفقر، انتهى عمر إلى ذلك الشعور الغريب الذي ظل يلح عليه دائما، ويجعله يمازج في ذهنه بين دار سبيطار والسجن[898]. لاسيما أن البيت العربي ببنائه المغلق نحو الداخل، وغرفه التي تتحلق حول الصحن الداخلي،حيث تؤوي كل غرفة أسرة بأكملها، يعطي الانطباع بشكل السجن وزنزاناته المصطفة إلى جانب بعضها البعض ((وكان يبدو له أن أهله، وكذلك كل من كانوا يتململون حوله بلا نهاية، لهم هم أيضا نصيبهم من هذا السجن. لقد كانوا يحاولون أن يختزلوا وجودهم على مستوى زنزانة سجن))[899].

3 وريف "بني بوبلن" المنفى المسيَّج بالفقر:

ولم يفارق عمر إحساسه بجو السجن هذا إلا حينما رحل إلى ريف "بني بوبلن"، الذي يبعد عن مدينة تلمسان ببضعة كيلومترات، بصحبة "زهور" ابنة الجيران التي قصدت "بني بوبلن" لزيارة أختها الكبرى المتزوجة هناك. لقد أحس عمر فعلا، في ذلك الفضاء الواسع، بسعادة غامرة، وبجو من الحرية والانطلاق لم يتعود عليه من قبل، لكنها مع ذلك كانت حرية ناقصة أشبه ما تكون بحرية المنفى، لأنها كانت حرية مسيَّجة بالفقر، ومطبوعة بطابع البؤس

---

897 Ibid, p108.
898 Ibid, p115.
899 Ibid, p116.

والحرمان الذي كان يطل من عيون أطفال الفلاحين، ويعلن عن نفسه من خلال هلاهيلهم التي كانوا يلبسونها، وهذا هو الشيء المشترك بين المدينة والقرية: ((لقد التقى عمر هناك بأطفال أكثر شقاء منه، أطفال كانت لهم هيئة الجراد من فرط ما يبدو عليهم من الهزال والنرفزة، لم تكن ملابسهم إلا خرقا ملفقة، وكانوا يحمون أقدامهم بنعال من جلود الأغنام مربوطة بسيور رقيقة من الحلفاء (...) في هذا العالم الحزين كان الأطفال يبدون مثل عمر مبكرين في نموهم، ولهم إدراك مماثل للشقاء كان يلمع في عيونهم، حتى وإن اختلف مصدر شقائهم عن مصدر شقائه)) [900].

وبالرغم من هذا المشهد الذي أفسد على عمر بهجته وإحساسه بالحرية والانطلاق، فإنه مع ذلك كان سعيدا ، لأنه تخلص على الأقل هنا من التفكير في مشكلة الجوع، فقد كان يأكل حتى يشبع في كل الوجبات، وبشكل منتظم، وأحيانا في أوقات غير أوقات الأكل العادية، لأن السيد " قاره علي" الذي نزل عنده، كان رجلا ميسور الحال، يعيش عيشا رغدا مما تدره عليه أرضه الواسعة من الغلال، ومشكلة الجوع غير مطروحة بالنسبة إليه مثل ما هو الحال بالنسبة لأغلبية الفلاحين الآخرين، الذين لم يكونوا يملكون أرضا، يضاف إلى ذلك أنه يعيش مع زوجته وحيدين، لأنه كان رجلا عقيما لا ينجب. وقد استغرب عمر أن تكون الحياة جميلة وسهلة على ذلك النحو، لا يعكر صفوها الفقر ولا الجوع [901].

900 Mohammed Dib «L'incendie » Ed. du Seuil. Paris 1954, p8,9.
901 Ibid, p25.

4 ـ " كومندار " التاريخ الحي

وبحكم ولادة عمر ونشأته في المدينة فإنه كان يجهل كل شيء عن حياة الريف، وعن تلك الأرض، إلى أن قابل ذلك الرجل المقعد الذي يقال له "كومندار"، حيث كشف له عما كان يجهله. وكان "كومندار" قد اكتسب اسمه هذا من خدمته الطويلة في الجيش الفرنسي*، وشارك في الحرب العالمية الأولى، وفيها بترت ساقاه [902]. وبسبب إعاقته هذه لم يعد قادرا إلا على التأمل أو الحديث. وبالطبع، كان حديثه ينبع من تجربته العميقة في الحياة، التي انتهت بمأساة بتر ساقيه، وكانت تجربة غنية جدا، تعلم أثناءها أشياء كثيرة ما كان ليتعلمها لو ظل في "بني بوبلن" يعيش كبقية الفلاحين الآخرين.

تحدث "كومندار" إلى عمر حديثا طويلا عن أرض "بني بوبلن" وعن أهلها الفقراء الذين تحاصر أكواخَهم حقولُ الكرم المسيجة [903]. وعن المستوطنين الذين ملكوا البلاد ويريدون بعد ذلك أن يملكوا رقاب العباد [904]، وعن نساء "بني بوبلن" اللائي يذبل جمالهن بسرعة [905]. وعن الجدة "أم الخير" التي عاشت "أيام الحرية قبل مجيء الفرنسيين" [906]. وعن البطالة التي يعاني منها

---

* لا يعني هذا اللقب الشعبي أي شيء، بالرغم من صيغته التي توحي أنه محرف من رتبة عسكرية في الجيش الفرنسي، مثل "كومندان Commandant" (رائد)، أو كوماندور Commandeur" (فارس) وهذه الكلمة الأخيرة تعود إلى أيام الحروب الصليبية، وكلاهما، بالطبع ، لا تنطبق على هذه الشخصية في الرواية.

902 «L'incendie », p14.

903 Ibid, p32.

904 «L'incendie »,, p32.

905 Ibid, p33.

906 Ibid, p34.

أغلبية الفلاحين، وعن الجوع الذي يلازمهم معظم الوقت [907]. إلا أن "كومندار" كان واثقا، رغم نبرة الحزن التي كانت تخالط صوته، أن الوضع سيتغير، وأنه سيأتي يوم يثور فيه ذلك الفلاح وينقلب على المستغلين الأجانب، يقول:

((قويا ورهيبا، لابد أن يكون ، ولابد له من يوم يحمي فيه بالسلاح بيته وحقوله)) [908].

وعلى الرغم مما كان في حديث "كومندار" من الإلغاز وعدم الوضوح، بالنسبة لعمر على الأقل، إلا أنه مع ذلك كان يفهمه على نحو ما، ويتجاوب معه، ويتابعه بلذة كبيرة، لكن أغرب ما جاء في حديث "كومندار" وأكثره إثارة، روايته عن ذلك " الحصان الطائر " الذي رآه الفلاحون يعبر سماء "بني بوبلن" في ليالي الصيف المقمرة ، ويطوف بآثار "المنصورة " * كأنه يذكّر الفلاحين بماضيها، بل كأنه كان يذكرهم بماضيهم هم ، وماضي أجدادهم:

((.. رأى بعضهم، ممن كانوا يجلسون أمام أكواخهم، تحت أسوار المنصورة حصانا أبيض، بلا سرج ولا لجام ، ولا فارس، ولا رحل، وعُرفُه يهتز بعدو جنوني، كان حصانا بلا لجام، ولا سرج، بياضه أبهر عيونهم، وغاص الحصان المدهش في الظلام. وما كادت تنقضي دقائق معدودات حتى عاد

---

907 Ibid, p33.
908 Ibid, p32 .

* مدينة المنصورة، بناها الخليفة المريني أبو يعقوب المنصور في القرن الرابع عشر الميلادي، تقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة تلمسان، وبها آثار عديدة أهمها أسوار القلعة ومنارة المسجد التي مايزال جزء منها قائما إلى يومنا هذا.

وقع أقدام الحصان يطرق الليل من جديد (...) كانت الأبـراج الإسـلامية الـتي قاومت الفناء تلقي بظلالها الكثيفة في وضح الليل)) [909].

وعلى عكس مـا كـان متوقعـا ـ كمـا أوضـح كومنـدار لعمـر ـ فـإن قلـوب الفلاحين لم تطر هلعا من ذلك الحصان العجيب، وإنما راحوا يتابعون جريه في شيء من الإجلال والخشوع، وتمكنـوا مـن فهـم الرسـالة الـتي حملـها إلـيهم، وراحـوا يخاطبونـه في دخيلـة أنفسـهم بهـذه العبـارات: ((اجـرِ، يـا حصـان الشعب، في ساعة النحس، وفي الطالع السيئ، اجر إلى الشمس وإلى القمر)) [910].

وهكذا تحول الحصان الطائر إلى حصان الشعب، وأصبح ظهوره في سمـاء "بني بوبلن" بشير خير، يترقب الفلاحون ظهوره في كل مساء، بقدر غير يسير من الشوق والفضول:

((.. ومنذ تلك الليلـة بـات الـذين يلتمسـون لأنفسـهم مخرجـا، والـذين يبحثون في تردد عن أرضهم، والذين يريدون أن يتحرروا، وأن يحرروا أرضهم، باتوا يستيقظون كل ليلة، ويمدون آذانهم منصتين. إن جنون الحريـة قـد صـعد في رؤوسهم، من ذا سـيحررك أيتهـا الجزائـر ؟ إن شـعبك يمشـي في الطرقـات ويبحث عنك)) [911].

وفي "بني بوبلن" فقـط تمكـن عمـر مـن أن يفهـم معنـى "الـوطن" بشـكل صحيح ومختلف تماما عما كان قد تعلمه في المدرسـة الفرنسـية، كمـا تمكـن أن

---

909 «L'incendie », p31.
910 Ibid, p31
911 «L'incendie »,, p31

يفهم معنى "الشعب"، ويفهم معاني أخرى، مثل وجود أغلبية جزائرية مضطهدة وفقيرة ومستغلة، وأقلية أجنبية تتسلط على الأرض، وتستغل عرق الفلاحين، وتستأثر بخيرات أرضهم. عرف ذلك على الطبيعة، وبشكل مباشر، من حياة الفلاحين الصعبة التي كان يشاهدها، ومن شكاواهم المرة التي كان يسمعها، ومن هيئتهم المزرية، ومن القمع المسلط عليهم من رجال الدرك، كما عرف ذلك من خلال حديث "كومندار" الذي شرح له ما يجري حوله، وفتح عينيه على أشياء كثيرة كان يجهلهاعن الفلاحين والأرض والمستوطنين *.
يضاف إلى هذا كله تلك العمليات الذهنية التي تجري في وعي عمر ولاوعيه على السواء ، وتتفاعل مع خبراته السابقة، وما يعرفه عن حياة أهل مدينة تلمسان وخاصة عن حياة سكان "دار سبيطار"، وبشكل خاص عن نشاط "حميد سراج" النقابي الذي كان عمر معجبا به كثيرا، وبشجاعته، ومراوغاته التي دوخ بها الشرطة الاستعمارية، ليترجَم كل ذلك في شكل نمو في وعيه، واتساع في خبرته الحياتية، وفهم للواقع المعيش الذي يحيط به. قال له "كومندار" في أحد أحاديثه: ((صدقني أو لا تصدق، هناك تحول قد حدث في هذا العالم، صدقني أو لا تصدق، لقد رأينا ما حدث، وما لا يمكن له أن يحدث مجددا، لم أذهب إلى كل مكان في الجزائر، ولم تطأ قدماي كل أرض الوطن حين كان ذلك في

* يذكرنا هذا باكتشاف سليمان في رواية "نوم العدل" لهذه الحقائق عندما خرج من قرية إغزر والتقى بالوناس الذي قام بدور مشابه لدور"كومندار مع عمر، مع الأخذ في الحسبان الفارق بين الطفل عمر والشاب اليافع سليمان.

إمكاني.. لكن قلبي زار كل البلد، كل المدن ، كل القرى، ثم عاد من بعيد ليعلمني أن ثمة جديدا في الأفق، فما أعظم صبرنا.)) [912]

وفهم عمر من قول "كومندار" هذا أن شيئا ما خطيرا سيحدث، ولكنه لم يفهم على وجه التحديد ما هو، ولا استطاع أن يتصور مدى خطورته، ولكنه فهم، على أية حال، ما أضافه هذا الرجل المحنك حين تحدث عن الكيفية التي انتزعت بها أرض "بني بوبلن" من أيدي أهلها، فقد كانت الأرض تنبت القمح ، والتين، والدرة ، والخضار، والزيتون، وعندما جاء المحتلون اتهموا الفلاحين بالكسل، وبإهمال الأرض، وتركها مرتعا للنباتات البرية وأشجار العناب والنخيل غير المثمر، وبهذه الحجة جردوهم من أرضهم، وكان تجريدهم يتم دائما باسم "القانون"، وباسم "الحضارة"، وتحت شعار "القانون يضمن حقوق الجميع "، وكان الناس الطيبون يتساءلون: ((كيف يمكن اللجوء إلى عدالة وُضعت لتجردنا من حقنا ؟)) [913]

ويختم "كومندار" حديثه بقوله: ((..هكذا تم الأمر، يا بني، وهكذا تحولت ملكية هذه الأرض من يد إلى يد، وهكذا طرد أصحاب الأرض من أرضهم، وأصبحوا غرباء عنها (...) وإنهم الآن يؤجرون أنفسهم لأولئك الذين جردوهم من أرضهم، ويرددون: " تلك كانت مشيئة الله، عسى، في يوم من الأيام، أن يهدينا إلى الطريق الصحيح)) [914]

---

912 «L'incendie », p75.
913 «L'incendie »,, p76.
914 Ibid, p77.

وكان لا بد أن ينتهي عمر في الأخير ـ بعد أن سمع الكثير من "كومندار" ، وفهم شيئا غير قليل منه ـ إلى مثل هذا السؤال: ((لكن، أتعرف ماذا يجب فعله من أجل أن نعيش حياة غير هذه ؟)) [915].

وأجابه "كومندار" على الفور، وكأنه كان يتوقع منه مثل هذا السؤال، وبكل بساطة:

((يجب تحطيم الظلم، ودفنه ..)) [916]

كان هذا هو خلاصة ما تعلمه عمر من "كومندار": يجب تحطيم الظلم ودفنه.

4 " النَّول": مدرسة الحياة العملية لعمر.

ومر الصيف ، وعاد التلاميذ إلى مدارسهم ، ولكن عمر لم يعد إلى مدرسته، والسبب الظاهر كان نزولا عند رغبة أمه التي طلبت منه أن يتعلم صنعة يعيش منها، لأن الدراسة والكتب ـ كما قالت له ـ لن تعود عليه بأي نفع [917]. ولكن لم يكن هذا بالتأكيد هو السبب الوحيد، فهناك مصاريف المدرسة التي لم تعد أم عمر قادرة على دفعها، كشراء الكتب والدفاتر والأقلام وغيرها مما لا يمكن تجنبه، وهناك أيضا مسألة أن عمر لم يعد يجد في دروس المدرسة أية جاذبية، ولا يحس نحوها بأية رغبة، خاصة بعد ما تبين له كذبها وزيف معلوماتها ـ كما مر معنا ـ إلا أن العثور على عمل، أي عمل، لم يكن

915 Ibid, p168.
916 Ibid, p168.
917« Le métier à tisser » Ed. du Seuil. Paris 1957. P9.

أيضا بالأمر السهل، ناهيك إذا كان صنعة من الصنائع، وقد ظل عمر عاما بأكمله يتسكع في الشوارع قبل أن تعثر له أمه على مهنة صبي متمرن في مشغل لنسج الصوف، وكانت صناعة النسيج قد نشطت في تلك الفترة من جديد، بعد أن احتل الألمان فرنسا ، فكانت الصوف تصدر إلى هذا البلد ليأخذها الألمان[918]

وبدخوله إلى ميدان الشغل دخل عمر إلى الحياة العامة، وإلى عالم الكبار، رغم أنه لم يكن قد تجاوز بعد سن الثالثة عشر، وفي مشغل النسيج بدأ تجربة حياتية جديدة وغنية، تعرف فيها على مجموعة من عمال النسيج، من أعمار مختلفة، بعضهم حديث عهد بالمشغل، وبعضهم أفنى شبابه وكهولته في ذلك المشغل، الذي كان عبارة عن قبو تحت الأرض، رطب وقليل الإنارة، يمتلكه رجل يدعى "ماحي بوعنان".

5 ـ طبقة كادحة واحدة وتيارات سياسية مختلفة

وكان هؤلاء العمال رغم انتمائهم جميعا إلى الطبقة الشعبية الكادحة، يختلفون كثيرا في الأفكار والأمزجة والأهواء، وينعكس هذا بالطبع في تعبيرهم عن وجهات نظرهم في مختلفا لقضايا الاجتماعية أو السياسية، ولكنهم لا يخرجون، على أية حال، عن اتجاهات سياسية ثلاثة كانت قوية الحضور على الساحة الجزائرية في فترة الثلاثينيات والأربعينيات، فهناك الاتجاه الديني السلفي الذي كانت تمثله "جمعية العلماء"، ونجده ممثلا بالخصوص في شخصية "غوثي الأمين"، وهناك اتجاه "حزب الشعب" الذي يمثله "عكاشة "

918 Ibid, p16.

إلى حد ما، وهناك الاتجاه الثوري اليساري الذي يمثله "حمزة "، ولكن يوجد أيضا من بين هؤلاء العمال من لا رأي له في أي شيء، ولا موقف له من أي شيء، مثل "صقالي" و" زبيش"، وهؤلاء قلة، ولا يمكن تصنيفهم في أي اتجاه.

ونستطيع أن نتلمس كل الاتجاهات السياسية المشار إليها أعلاه من خلال تصرفات هؤلاء العمال وحواراتهم التي لا تكاد تنقطع طوال اليوم، بحكم وجودهم معا في المشغل من الصباح إلى المساء، فقد كان غوثي الأمين حريصا على تأدية الصلوات في أوقاتها، ويستعمل خطابا دينيا واضحا في أقواله، وفي عرض وجهة نظره فيما يناقشه من الأمور، ومن هذا المنطلق ينكر مثلا على الشيوعيين قولهم بالمساواة بين جميع الناس، يقول: ((إنهم متساوون حقا أمام بارئهم ، أما في الحياة ـ وهز رأسه في حركة استنكار ـ فهذا مستحيل)) [919].

أما عكاشة فيستعمل في خطابه أدبيات حزب الشعب، فلا يتحدث باسم طبقة أوفئة معينة، ولكنه يتحدث باسم جماهير الشعب:

((ما من أحد علَّم الشعب، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره، وينشرها بكلتا يديه في سخاء)) [920].

في حين نرى حمزة، السجين السياسي السابق، يستعمل خطابا أقرب ما يكون إلى الخطاب اليساري الثوري، الذي لا يقبل الحلول الوسطى، ويرى أن

919 Ibid, P56.
920 Ibid, p147.

الثورة هي الحل، وأنها قادمة لا محالة: ((حينما يأتي اليوم الذي يحطم فيه كل شيء سيتبدل الأمر)) [921]

وبالرغم من هذا الاختلاف البيِّن في المنطلقات الأيديولوجية لهؤلاء العمال، إلا أنه لا أحد منهم كان يحاول أن يفرض وجهة نظره على الآخرين، كانوا يستمعون إلى بعضهم البعض في احترام كامل [*]، وكثيرا ما كانوا يتفقون في وجهات النظر إلى المسائل الكبرى، مثل ضرورة تغيير أوضاع الشعب التي بلغت حدا من التدهور لم يعد يطاق، ولكن كانوا يختلفون - من منطلق قناعاتهم الشخصية - على الكيفيات والوسائل. ونستطيع أن نتبين مثل هذا الاتفاق والاختلاف في آن واحد من خلال الحوار التالي ، الذي سنجرده - لطوله - من الوصف والشرح ونبقي على الحوار وحده: قال غوثي الأمين: ماذا يريدون ؟

وأجابه حمزة: يريدون أن يطعموا حتى الشبع، وأن يعاملوا أفضل قليلا مما تعامل به البهائم.

فسأل الأمين: لماذا تشتكون دائما إذا كنتم أنتم أنفسكم لا تفعلون شيئا من أجل أن تكون حياتكم على غير ما هي عليه ؟ لماذا لا تحترمون في أنفسكم آدميتكم ؟ إنه يمكن أن يُشتكَى منكم أيضا.

- هذا حق، قال حمزة .

---

921 Ibid, p150.

* الوحيد من بينهم الذي شذ عن هذه القاعدة، الشاب حمدوش. وهو أصغر العمال بعد عمر . حيث كان يثور لأتفه الأسباب ويسب ويشتم ، وقد تشاجر مع عمر نفسه ، ولكن زملاءه كانوا يتحملون ثوراته وطيشه بصبر، ويعملون على تهدئته ، والحيلولة بينه وبين خصمه.

ـ لماذا إذن لا تفعل شيئا ؟

ـ إذا كان الأمر متعلقا بي وحدي، يا أخي، فأنا على استعداد لكي أفعل كل ما يطلب مني.

وفتح حمزة يديه على اتساعهما وأضاف: ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل بمفردي ؟

ـ حاول .

وحرك حمزة رأسه بالنفي: لا أحد منا قادر بمفرده على أن يغير الواقع.

وتدخل عباس ليصحح لزميله ما يعتقده خطأ : بل قل، لا أحد قادر على أن يعارض قدره.

وحاول حمزة أن يناقش المسألة، ولكن بلا جدوى، فقد بدا له واضحا أن الحائكين الآخرين لا يكادون يختلفون في تفكيرهم عن زميلهم، حتى لكأن تصور حياة أقل شقاء يؤذي مشاعرهم كإهانة.

ـ نصيبك لابد أن تناله ، افهمني جيدا... شرح الأمين [922]

وقد وجد عمر في كل هذه الأفكار ، والتعليقات، والجدل، واختلاف الآراء، بين هؤلاء العمال ما شكل بالنسبة إليه مدرسة جديدة حقيقية تعلمه أشياء كثيرة في الحياة، وتجيب، بطريقة غير مباشرة، على العديد من الأسئلة التي تتبادر إلى ذهنه بين الحين والآخر، دون أن تلزمه بشيء، أو ترغمه على فعل شيء، أو تركه.

922« Le métier à tisser » , P153-154.

ومع ذلك، فقد وجد عمر نفسه ذات يوم طرفا مباشرا في الحوار، وذلك عندما سأله الغوثي الأمين عن اسم والده، وتردد في الأول، وشعر بالخجل لأنه لم يكن يتوقع أن يكون موضع مساءلة، ولكنه اضطر في المرة الثانية أن يجيبه حين كرر عليه السؤال، وتبيّن أن الأمين كان يعرف أباه وجده. وتطوع الأمين من تلقاء نفسه، فأثنى على الجد الذي وصفه بأنه كان حائكا ماهرا، وثنّى على أحمد دزيري (والد عمر) فوصفه بدوره بـ"الرجل الفاضل"، غير أنه لم يستطع أن يكتم رأيه الحقيقي فيه، أو على الأصح رأيه في أفكاره، إذ كان ينكر على "أحمد دزيري " دعوته إلى المساواة بين الناس، ويعتقد أن ذلك ضد التعاليم الإسلامية ، فأضاف موضحا ومعلقا على ذلك في أسف ظاهر: ((كان أبوك يقول كلاما لا يمكن لأذن رجل مسلم أن تسمعه، كان يدعي أن جميع الناس أشباه ومتساوون، فكيف يصح هذا الكلام ؟ إنهم متساوون أمام بارئهم، هذا حق.. أما في الحياة - وهز رأسه بحركة استنكار - هذا مستحيل)) [923]

ويبدو أن الأمين قد تنبه ، بعد لحظات، أنه ربما يكون قد جرح مشاعر الطفل بما قاله في والده فراح يلتمس له الأعذار: ((لقد كان والدك يعترض، دون أن يدري، على الشريعة الحنيفة، ماذا أقول ؟ لقد مات.. إنني أتحدث إليك، وأنت بلا ريب لا تفقه معنى ما أقول، لكن، ألست أنا نفسي إلا مذنبا بائسا، رباه، ارحم مخلوقاتك.. إن والدك لم يكن وحده الذي يفكر هذا

923 Ibid, p56.

التفكير، أنا نفسي آخذ في التفكير أحيانا، فيضل عقلي ولا أفهم من الأمور شيئا)) [924]

وعاد الأمين يسأله من جديد :

- *ماذا كنت تفعل قبل مجيئك هنا ؟*

- كنت أتعلم في المدرسة .

- آه.. إذن ، أنت تحسن القراءة والكتابة ؟

- نعم .

- أتحسن القراءة والكتابة بالعربية ؟

- لا ، أجاب عمر.

- ماذا ؟ ألا تعرف لغتك يا بني ؟ [925]

ولم يجد الطفل ما يجيب به الرجل العجوز ، ولم يفهم سبب الدهشة التي ارتسمت على وجهه، وعاد لينهمك في عمله ، وقد شغل باله كلامُ الأمين، وذكّره بالمدرسة والدراسة، لكن تفكيره لم يقده إلى أي شيء يستلزم كل تلك الدهشة، وذلك الأسف الذي ارتسم على وجه الأمين، وقال محدثا نفسه في غير أسف على مفارقة المدرسة: " وأية حاجة كانت بي إلى كل ذلك ؟" [926]

924 Ibid, P56.
925 « Le métier à tisser », p57.
926 Ibid, p57.

وعلى أية حال، كان كلام الغوثي الأمين غامضا بالنسبة لعمر، ومبطنا بعتاب لم يفهم على وجه التحديد دواعيه، سواء فيما يخصه هو أو فيما يخص والده، وهو ما أقلقه وشغل فكره.

كان هناك رجل من بين عمال المشغل يرتاح إليه عمر أكثر من غيره هو عكاشة، ذلك الرجل الرصين، الهادئ، المتخلق، الذي حباه الله بسطة في العقل والجسم. بدأ إعجاب عمر بعكاشة من خلال متابعته لما كان يقوله أثناء حواره الذي لا يكاد ينقطع في الأمور السياسية مع الغوثي الأمين وحمزة، كان حديثه عن الشعب والحرية يمس مشاعر عمر على نحو مبهم، ربما كان ذلك بسبب صوته الهادئ، ونبرته الحزينة التي تخالف نبرة الأمين الآسفة اليائسة، ونبرة حمزة المتوترة الحادة، يقول الراوي: ((إن عمر لم يشعر في يوم من الأيام بأنه قريب من هذا الشخص المحيِّر كما يشعر بذلك في هذه اللحظة، كلماته المرة، ولهجته التي تدل على المعاناة ..)) [927]

وبدافع من هذا الإعجاب اتخذ عمر من عكاشة صديقا له، رغم فارق السن الكبير بينهما، فقد كان عكاشة في الثلاثين من عمره، وكان عمر في الخامسة عشر، وقد وجد لديه تجاوبا معه وحنوا عليه. فكانا يجلسان معا في المقهى حول كأسين من الشاي، ويخوضان في أمور مختلفة. وقد وجد عمر في عكاشة شيئا ما من "كومندار" الذي كان يجيبه عن أسئلته الحائرة. غير أن عكاشة كان أكثر ميلا إلى الصمت، كما كان مترددا، وغير حاسم في اتخاذ

---

[927], Ibid, P149.

قراراته، ذلك ما استنتجه عمر من حديث عكاشة عن الرحيل الذي عقد عليه العزم منذ مدة، دون أن ينفذ قراره، ودون أن يحدد بالضبط وجهته، ولا الدافع الذي جعله يقرر الرحيل، سوى سوء الأوضاع ـ كما قال ـ التي أصبحت لا تطاق، وقد أصيب عمر بخيبة أمل أن يكون مثله الأعلى على هذا النحو من التردد وعدم الحسم: ((لقد اكتشف الصبي أن هذا الحائك لم يخلق للتحدي والمشاجرة، وآلمه أن يرى هذه القوة مُذلَّة ومغلوبة على أمرها..)) [928]

لكن عكاشة رحل في نهاية الأمر، كما اختفى حمزة على نحو غامض[929]

وينهي الكاتب روايته بمجيء الأمريكيين، وهو ما يعني أن أحداث ثلاثية ديب تقف بالتقريب في حدود ربيع 1943. وقد صور الكاتب الجنود الأمريكيين في صورة إيجابية، حين جعلهم ـ على عكس الجنود الفرنسيين ـ يظهرون المودة لأهل البلد، ويقدمون الهدايا للأطفال، وقد نال عمر بدوره نصيبه من هداياهم، حيث قدموا له لوح "شوكولاطة"، وعلما صغيرا عليه نجوم، وهو ما ترك في نفسه انطباعا حسنا نحو أولئك الأمريكيين [930]

---

928 « Le métier à tisser », p159.
929 Ibid, p171.
930 Ibid, p204.



٠رواية ٠نجمة٠ لكاتب ياسين : تلاحم التاريخ والجغرافيا.

_جاءت رواية "نجمة " [931] لكاتب ياسين * كآخر حلقة من الروايات الاحتجاجية ، التي ظهرت بداياتها مع مطلع الخمسينيات على يدي مولود معمري ومحمد ديب ، لتبدأ بعدها ما يمكن أن نطلق عليه الرواية الملتزمة ، أو رواية الثورة التحريرية ، التي ستكون موضوع الفصل التالي ، وقد جاءت "نجمة" كأقوى ما تكون عليه النهايات ، فأحدثت عند صدورها ضجة أدبية

---

931 Kateb Yacine « Nedjma », Editions du Seuil , Paris 1956 .

* ولد في 6 أوت 1929 ببلدة "السمندو" التي تحمل اليوم اسم الشهيد "زيغود يوسف"، التي تبعد عن مدينة قسنطينة بـ 29 كيلومتر، مع أن أصل والده من منطقة "الناظور" بالقرب من مدينة قالمة، لأن والده كان يشتغل وكيلا في المحاكم الشرعية الإسلامية، فكان بسبب هذه الوظيفة كثير التنقل بأسرته في أرجاء البلاد. نشأ ياسين في جو أسري ذي تقاليد شعرية، حيث كان كل من والده وأمه وجده يقرضون الشعر باللهجة العامية، ويتبارون فيه فيما بينهم، وقد تأثر ياسين بهذا الجو العائلي . دخل المدرسة القرآنية في مدينة "سدراتة" بأقصى الشرق الجزائري، ثم المدرسة الرسمية الفرنسية، وحينما بلغ مرحلة التعليم الثانوي كان والده قد انتقل للعمل في بوقاعة بولاية سطيف ، فأدخله الوالد إلى ثانوية سطيف، ليتابع فيها دراسته ضمن النظام الداخلي. وهناك شهد مظاهرات أول وثامن ماي 1945 وشارك فيها، فقبض عليه لمدة ثلاثة أيام، وطرد من الثانوية بسبب ذلك، وكان يتابع فيها آنذاك دروس السنة الثالثة من التعليم المتوسط . كتب أولى محاولاته الشعرية بعنوان "مناجاة" ونشرها في عنابة سنة 1946، كما نشر كتيبا بالعاصمة سنة 1948 بعنوان "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر". اشتغل صحفيا مراسلا لصحيفة "ألجي ريبيبليكان" المقربة من الحزب الشيوعي الجزائري لمدة عامين، من سنة 1948 إلى 1950، وكان في الوقت نفسه مناضلا في خلية "الأمير خالد" التابعة لـ"الجبهة الوطنية الديمقراطية الجزائرية"، وقادته مهنته الصحفية في رحلة إلى الاتحاد السوفياتي السابق، ووصل فيها حتى تاشقند. وفي سنة 1951 سافر إلى فرنسا، واشتغل بمختلف المهن، فاشتغل كعامل زراعي، فمساعد كهربائي، فعامل في البناء، إلخ... في نهاية سنة 1954 قابل في باريس الكاتب الألماني الشهير "برتولد بريخت" الذي كان معجبا بمسرحه ، ومتأثرا به في أعماله المسرحية التي سيكتبها فيما بعد. عاش أثناء الثورة التحريرية متنقلا في العديد من البلدان الأوروبية، وعاد سنة 1963 إلى الجزائر وكرس جهوده للمسرح. قام برحلة سنة 1967 إلى موسكو، وهانوي، وعين بعدها مديرا للمسرح الجهوي لمدينة سيدي بلعباس، وفي سنة 1980 استقال من مسرح سيدي بلعباس، وأنشأ مع مجموعة من الشباب فرقة مسرحية خاصة أطلق عليها اسم "فرقة العمال للعمل المسرحي"، استمر في الكتابة لها، والعمل معها إلى حين مرضه ووفاته. أشهر أعماله رواية "نجمة" (1956)، و"المضلع النجمي" (1965)، مسرحية "الجثة الطوقة" (1955)، و"الرجل صاحب النعل المطاطي" (1970)، محمد خذ حقيبتك" (1971) و"حرب الألفي سنة" (1974) و"فلسطين المخدوعة" (1977)، والثلاثة الأخيرة باللهجة العامية. توفي في 22 أكتوبر 1990.

كبيرة، لا سيما على مستوى الشكل الذي تجاوز فيه الكاتب الأسلوب الواقعي الذي عرف به كل من سبقوه من الروائيين الجزائريين، وتجاوز معه ذلك الشكل الكلاسيكي المعهود، الذي تعرض فيه الأحداث عادة في خط تطوري مستقيم ، وفق الترتيب الزمني المعتاد، ورأى النقاد أنه يتبع في عرض أحداث روايته شكلا دائريا [932]، وهو ما يجعل العثور على الترتيب الزمني فيها أمرا مستحيلا [933]

ولأجل هذا الشكل الجديد الذي أتى به، صنفه بعضهم ضمن كتاب مدرسة الرواية الجديدة في فرنسا [934]، بينما عده آخرون تابعا لمدرسة الكاتب الإرلندي "جيمس جويس"، والأمريكي "ويليام فولكنر"، لتأثره الواضح بهما في روايتيهما "يوليسيس"، و"الصخب والعنف"، على التوالي .

وفي الوقت الذي لم يرفض فيه ياسين تصنيفه ضمن الرواية الفرنسية الجديدة، ولم ينكر تأثره بـ"جويس" و"فولكنر" [935]، فإننا نجد ناشري الرواية (دار سوي) لا يقيمون كبير وزن لرأي من يقول بتأثر صاحب "نجمة " بالرواية الفرنسية الجديدة أو بروايات "جويس" و"فولكنر". ويرون أن "نجمة" هي في العمق رواية عربية محضة، سواء في شكلها أو محتواها، أو في سلوك شخصياتها، فهي تستمد شكلها الدائري من تعامل العربي مع الزمن - حسب

---

932 Cf : l'«Avertissement » des éditeurs in « Nedjma » p5.

933 Jacqueline Arnaud : Introduction in «Kateb Yacine, L'oeuvre en fragments » Ed. Sindbad, Paris 1986, p14.

934 Jean Ricardou « Le nouveau roman » in Col. Ecrivains de toujours. Seuil. 1973. p 6,7.

935 Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », p24.

رأيهم - وتستمد طبائع شخصياتها من ثقافته ومواقفه إزاء الحياة [936]. ويقولون إن القارئ الحصيف لا تخفى عليه هذه الحقيقة مهما حاول بعضهم تضليله بفكرة تأثر الكاتب بروائيين أوروبيين أو أمريكيين:

((أعط لشخصيات نجمة أسماء أخرى، وألبسها ألبسة أخرى، فإن القارئ النبيه سيتعرف بعد وقت قصير على العربي، من تحت "الساري" (قبعة قش مكسيكية)، أو "البونشو" (رداء هندي). إن رشيد أو مختار هما حتما جزائريان، وإن العالم الذي بناه المؤلف سينهار بدونهما، كما سيموتان هما أيضا بدون ذلك العالم))[937].

1 - هل كان ياسين متأثرا بتقاليد الشعر العربي؟

وقد ظل هذا الرأي لسنين طويلة مجرد فرضية نقدية، وإحساس لدى القارئ، يجده حينما يرجع إلى رواية "نجمة"، ولكن لا أحد حاول أن يقدم عليه الدليل. ومع تقدم مناهج البحث في سنوات السبعينيات. واتساع مجال البحث فيما عرف باسم منهج البحث في " حفريات الثقافة " (L'archiologie de la culture). أصبح من الممكن البحث في "تكوينية النص" (Le géno-texte)، والوصول من وراء ذلك إلى تحديد مكوناته الأساسية. وإعادة رسم خريطته التاريخية [938]. وهذا ما حاول أن يقوم به باحث جزائري مختص في أدب كاتب

936 l'«Avertissement » des éditeurs, p6.
937 Ibid, p6.

938 نجد أسس هذا المنهج في بحوث "ميخائيل باختين" في العشرينيات حول "مبدإ الحوارية" في الرواية، وقد طوره وأضاف إليه باحثون آخرون، لعل أهمهم الأستاذة "جوليا كريستيفا" في كتابها الموسوم بـ:
« Recherches pour une sémanalyse », Ed. du Seuil, Paris 1969.

ياسين، حيث رجع إلى تقاليد الشعر العربي القديم بحثا لـه عـن أصول روايـة "نجمة". ويقول هذا الباحث إنه وجدها في أقدم النصـوص الشـعرية العربيـة ، ألا وهي المعلقات [939]. وقد اعتمد فيما توصل إليه على ظاهرة التكـرار في الشـعر العربي القديم، التي كان المستعرب "جـاك بـيرك" قـد تناولهـا في أحـد كتبـه بالبحث *، وربطها بـ"الذكرى" لدى الشاعر الجاهلي التي يجسدها وقوفه على الأطلال، وعدّ "بيرك" هذه الظاهرة (التكرار) سمة أساسـية في الشـعر العربـي، ترتبط بالبنية الذهنية للمجتمع البدوي العربي، فتجعل الشـاعر يكـرر مـا قالـه أسلافه بكيفية مختلفة، بحيث يصبح الإبداع عند الشـاعر ((كأنمـا هـو تمـرين على الإعادة)) [940].

ومن السهل الاستنتاج هنا أن ظاهرة "التكرار" تلتقي مـع حركـة الشكل الدائري الذي قال به النقاد في رواية "نجمة"، كما تلتقي من جهة أخـرى مـع تقاليد الحكي في الأدب الشـعبـي العربـي. والأحـداث في "نجمـة" تلـف وتـدور

---

939 Mohamed-Lakhdar Maougal « Aux sources des mythes dans la parole Katébienne » in « Actes des Colloque International sur Kateb Yacine » qui s'etait organisé par l' I.L.E. Université d'Alger le 28,29 et 30 Octobre 1990. Ed. O.P.U. Alger (s.d.e) , p283.

* وكان "جاك بيرك" نفسه قد استعار من كريستيفا مصطلح "تكوينية النص" وذكرها بالإسم ، وذلك حين يبحث في "تكوينية" الشعر العربي القديم ويحاول أن يعلل ظاهرة التكرار فيه. راجع:
Jacques Berque « Langages arabes au présent » Ed. Gallimared/ Paris 1982, p141.

940 Jacques Berque « Langages arabes au présent », p140.

لتعود في النهاية إلى النقطة التي انطلقت منها أول مرة ** وهو ما يعطيها شكلا دائريا.

ويكتشف الباحث، من جهة أخرى، أثناء قراءاته، إشارة إلى أسطورة عربية قديمة أوردها الكاتب السوري المعاصر حيدر حيدر في روايته "الفيضان" ما يجعله يتساءل ما إذا لم تكن هذه الأسطورة هي الأصل غير المعروف لرواية "نجمة" ؟ [941] وبناء على كل هذا، وعلى أدلة أخرى [942]، يذهب الباحث في استنتاجاته إلى أبعد من هذا بكثير، حينما يخلص إلى القول:

** تبدأ الرواية بتمكن الأخضر من الهروب من سجنه، وعودته إلى الورشة، وكان قد دخل السجن بسبب شجار وقع بينه وبين السيد أرنيست رئيس الورشة، ليدور حوار مقتضب بينه وبين أفراد زمرته مصطفى ومراد ورشيد ، مفاده أنه سيقبض عليه من جديد، وتنتهي الرواية بالمشهد الحواري نفسه، ثم يفترق الأربعة ، كل واحد في طريق، بعد شجار بين مراد في هذه المرة وبين السيد ريكار صاحب الورشة، ليلة زفافه ، ينتهي بمقتل هذا الأخير.

941 يقدم الباحث ملخصا للأسطورة المشار إليها كما يلي: ((كان أحمد هلال وهو مسجون، يرى في حلمه، إن لم يكن يتذكر، عبوره العديد والمهلك، نحو الجزر، لبحار خطيرة، بمعية امرأة تربطه بها صلة الدم، وسيره الذي لا ينتهي عبر الصحارى القاحلة، حيث يصلان قرب مضرب القبيلة الضائعة، التي تنحدر من جد، كان قد رحل نحو الغرب، بعد أن شارك في معركة "النهروان"، حيث استقر بأولاده في مغارة. وبعودة ظهورهم من جديد عادت الحرب، كشرط من شروط استعادة القيم)). حيدر حيدر ، (الفيضان). راجع:
Mohamed-Lakhdar Maougal, « Aux sources des mythes dans la parole Katébienne », p294.

942 منها ما رواه الكاتب نفسه عن حياته في "المضلع النجمي" بأنه نشأ في أسرة شعراء وكان والده، وأمه، وأعمامه، وأجداده شعراء، فورث منهم التقاليد الشعرية العربية، ((فجاء نصه "معجونا" في الطينة العربية، حتى وإن كتب بلغة أخرى)). راجع:
Mohamed-Lakhdar Maougal « Aux sources des mythes dans la parole Katébienne », p282.

((إن كاتب ياسين يضع بكتابته مشكلة حاسمة بالنسبة للأدب الجزائري في مجمله، تتمثل في أن نصه ربما يكون أكثر عروبة من أية نصوص أدبية جزائرية أخرى، بما فيها تلك التي كتبت أصلا باللغة العربية)) [943]

ولا ننوي أن نناقش هنا صحة هذا الرأي أو بطلانه، لأنه لا يدخل في صميم بحثنا، ولكن لا يمعنا ذلك من أن نلاحظ أن ظاهرة التكرار لا تفسر - إن صحت - إلا شكل الرواية الدائري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التكرار هو ظاهرة عامة في الأدب الشفوي بوجه عام، وليس مقصورا على التراث العربي وحده *.

ثم إن هذا العمل الروائي شديد التعقيد إلى درجة يصعب معها أن نرجعه في أصله إلى ظاهرة معينة مثل التكرار في تقاليد الشعر العربي، أو تقاليد الحكي في القصص الشعبي، وتتجلى تعقيداته بشكل خاص في التنوع الشديد في أسلوب الكتابة، الذي جمع فيه المؤلف بين مختلف أساليب التعبير، من الكلام السوقي الهابط الذي يرد على لسان الشخصيات، إلى الحوار المطول في بعض المواقف، إلى السرد المسهب، إلى المشاهد التمثيلية الخالصة، إلى الشعر الموزون المقفى، إلى التحليق الخيالي الشعري الذي يصل فيه إلى درجة عالية من الشفافية الروحية والرمزية المغرقة، وهذا ما يزيل الحدود فيه بين كل الأنواع الأدبية ، ويجعل منه عملا فنيا متعدد الأوجه ، متنوع التأثيرات، ومن هنا،

---

943 Ibid., p295.

* مع العلم أن ظاهرة التكرار ليست مقصورة على تقاليد الشعر العربي القديم وحده، أو على أساليب القص الشعبي العربي، فهي ظاهرة عامة في الأدب الشفوي، ونجدها بشكل ملموس في الملاحم القديمة الشهيرة مثل "كلكامش"، و"الإلياذة" و"الأوديسا".

فإن أية محاولة لإرجاعه إلى أصل أو تأثير واحد وحيد تكون ـ حسب رأينا ـ عملية اختزال شديد، وتبسيط مضر بالقيمة الفنية لهذا العمل.

حقيقة أن ملامح البيئة العربية الجزائرية، البشرية والطبيعية، مرتسمة في هذا العمل بشكل لا تخطئه العين، وتتجلى من خلال العديد من المظاهر، وأولها المحيط الطبيعي الذي تجري فيه الأحداث، أو يتناوله الكاتب بالوصف، من مدن وقرى وجبال وغابات ووديان، وآثار، إلى غير ذلك، وثانيها الشخصيات، بأسمائها، وملامحها، وأخلاقها، وردود أفعالها، وثالثها ما تحمله الرواية من القيم الاجتماعية، والأفكار، والمعتقدات، والعواطف، والأخلاق، إنما كل هذا في نهاية الأمر ـ ومهما طبع بالطابع الشخصي للكاتب، وتلون بوجهة نظره الخاصة ـ إنما هو محصلة لتأثيرات هذه البيئة التي صنعت ثقافة الكاتب، وشكلت وعيه ولاوعيه في آن واحد، فانعكست في عمله الأدبي على هذا النحو أو ذاك*. لكن، هل يشكل هذا خاصية يتفرد بها ياسين عن غيره من الكتاب الجزائريين الآخرين؟ بالطبع لا، فقد رأينا فيما سبق أن تعرضنا إليه بالتحليل من النصوص الروائية، أنها تشكل سمة مشتركة لدى جميع الكتاب بلا استثناء، مع تفاوت فيما بينهم بالطبع، في درجة العناية بتلك البيئة، وفي القدرة على التصوير والتعبير، وهي مسألة تتعلق ـ في الواقع ـ بمدى تجذر الكاتب في بيئته، وبعبقريته الفردية الخاصة.

---

* وبناء عليه، يمكن أن يعكس الكاتب، بطريقة غير واعية، شكلا من أشكال هذا الإرث الثقافي الضارب بجذوره في أعماق المجتمع والتاريخ، ومن هنا تصبح فكرة أن يكون كاتب ياسين قد تأثر، دون وعي منه، بظاهرة التكرار في موروث الشعر العربي القديم، فكرة مقبولة، ولكن الاعتراض عليها يأتي من كونها لا تختص بالتراث العربي وحده، ولا تفسر إلا شكل الرواية وحسب.

والحقيقة أن كاتب ياسين - بشهادة معظم المتخصصين في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية - يعد من ألمع الكتاب الذين غاصوا في أعماق البيئة الجزائرية. وعبروا عنها أروع تعبير وأصدقه. وبالطبع، فإن الجزء الأكبر في هذه القدرة يعود إلى عبقريته الخاصة، التي لا تقبل أي تعليل، سوى أنها موهبة ربانية لا دخل له فيها، لكن، هناك جزء منها يرجع - في نظرنا - إلى أسلوبه المتنوع الذي اختاره في الكتابة ، كما أشرنا آنفا، فكوّن به، دون أن يقصد ذلك، مدرسة مغاربية جديدة في الكتابة باللغة الفرنسية [944]

ومن أهم ميزات تلك الكتابة ، توظيفه للأسطورة، التي جعلته يتخلص من رتابة السرد الواقعي، الذي رأيناه يثقل كاهل غيره من كتاب جيله، وحررته من رقابة الوعي الذاتي، ومنحته مجالا أوسع للتعبير المجازي، والانطلاق في الأجواء الرحبة للتصوير الرمزي [945]. ويتجلى ذلك على الخصوص في أسطرته لشخصية "كبلوت"، وهو الجد الأعلى للقبيلة، الذي جعل روحه

---

944 فسلك مسلكه في هذا الاتجاه رشيد بوجدرة، ونبيل فارس، ورشيد ميموني من الجزائر، ومحمد خير الدين، والطاهر بن جلون، وعبد الكبير الخطيبي من المغرب، وعبد الوهاب مدّب من تونس . راجع:

Rachid Bousta (Marrakech) « Potentiel de l'écriture Katébienne et son pouvoir d'engendrement d'autres écritures » in Colloque International sur Kateb Yacine , p178,179.

945 (2 الأسطورة (mythe) حسب ما جاء في قواميس اللغة مشتقة من الكلمة الإغريقية (muthos) التي تعني "حكاية خرافية" ، تجسد بشكل رمزي قوى الطبيعة من خلال كائنات حية مثل الحيوان أو الطيور أو الزواحف (قاموس Robert ، من معانيها في اليونانية أيضا حسب الباحث التونسي محمد عجينة: الحكاية (récit) والسرد (narration)، والكلام يحكى في الأسواق. وتتداخل الأسطورة في معناها مع الخرافة، والقصص العجيبة، والقصص البطولية ، حيث تغرق كلها في الخيال الذي يبعدها عن الواقع ، على الرغم من أن لها جميعا أصلا في الواقع، إلا أن ما يميز بين الأسطورة وبين هذه الأنواع من القص، أن الأسطورة يعتقد بها عند الشعوب البدائية، بينما لا يعتقد في لأنواع الأخرى، وتعد محض خيال، أو من "الأباطيل المستملحة ". راجع المدخل المطول الذي كتبه الدكتور محمد عجينة عن الأساطير في "موسوعة أساطير العرب" ج1 ، نشر "دار الفارابي" ، بيروت، الطبعة الأولى 1994، ولا سيما ص36 و63 إلى 65.

تخترق حدود الزمان والمكان، وتتجلى لأفراد القبيلة في مخلوقات شتى تشعرهم بحضوره الدائم، وشخصية "نجمة"، التي جعل منها امرأة خارقة للعادة، تشكل عنصر جذب وتجميع لأفراد القبيلة تارة، وعنصر فرقة وتناحر تارة أخرى، بما تتمتع به من سحر وجاذبية وقوة تأثير على كل رجال القبيلة. وسوف نحاول فيما يلي أن نحدد معالم هاتين الأسطورتين ، ونلم بمكوناتهما الرمزية .

أولا : أسطورة الجد "كبلوت":

في هذه الأسطورة، حاول الكاتب أن يعبر عن تشبث القبيلة، التي تمثل الشعب بشكل مصغر، بهويتها، وسعيها الدائب للحفاظ على مقوماتها الشخصية، عن طريق تقديسها لروح الجد "كبلوت"، مؤسسها الأول، والحفاظ على إرثه المادي والمعنوي، ونقله بأمانة إلى الأجيال اللاحقة، حتى تظل ذكراه حية دائما في العقول والقلوب، توحد شمل القبيلة في مواجهة الخطر الأجنبي، وتشد أزرها في محنتها، وتستنهض همة أبنائها، في مقاومة المحتل بالطرق السلبية، بعد أن فشلت في صده بالطرق الإيجابية عن طريق السلاح.

جاء الجد كبلوت مع أفراد من قبيلته، من "الشرق الأوسط"، وعبر بهم البحر إلى إسبانيا ثم عاد لينزل بهم في المغرب الأقصى، ومن هناك شدوا الرحال من جديد لينزلوا نهائيا بمنطقة "الناظور" بالشرق الجزائري. هذه خلاصة ما رواه سي مختار لرشيد عن أصل قبيلتهما وهما على ظهر الباخرة التي حملت الحجيج إلى البقاع المقدسة، وكانا متجهين في طريقهما من جدة نحو

"بورسودان" بعد أن عدل سي مختار عن إتمام الرحلة إلى مكة ، والقيام بشعائر الحج[946].

ونلاحظ عندما نتمعن في النص أن رواية سي مختار هذه تعاني من غموض شديد، ومن ثغرات عديدة، فقد روى أن كبلوت وأفراد قبيلته جاؤوا "من الشرق الأوسط "، دون أن يحدد من أي بلد في الشرق الأوسط (مع العلم أن عبارة "الشرق الأوسط" هي عبارة سياسية حديثة)، ولا من أي القبائل، ولا متى جاؤوا، ولا لأي سبب، ولا لماذا عادوا من إسبانيا، ولا لماذا نزحوا مجددا من المغرب الأقصى، ولا لماذا طاب لهم المقام أخيرا في "الناظور"، كما لم يذكر أي شيء آخر من صفات كبلوت إلا أنه رأس القبيلة وقائدها. كل هذه الأسئلة وغيرها تظل بلا جواب، ولا نجد في ثنايا الرواية فيما بعد إلا القليل، وغير المؤكد، الذي يمكن أن يفيدنا بشيء في الإجابة عنها، ومن ذلك بعض التخمينات وبعض التكهنات التي يوردها سي مختار نفسه، كشكه مثلا في أن يكون "كبلوت" الأول قائدا للجند، أو شيخ قبيلة له قوة ونفوذ، ويستدل على ذلك بقوله :

((فمن المعروف أن عدة أجيال من الكبلوتيين كانوا، ومازالوا إلى اليوم، يتعاطون ضروبا من النشاط كان منهم طلبة العلم ينتقلون من مدينة إلى أخرى، وكان منهم الموسيقيون والشعراء أبا عن جد، لا يمتلكون من متاع الدنيا إلا

946 كاتب ياسين "نجمة "، ترجمة محمد قوبعة (نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987) ص 130 ، 131. وقد اعتمدنا في الاستشهادات على هذه الترجمة، حتى لا نضطر للترجمة من الأصل، خاصة أنها أقرب في روحها إلى الأصل في رأينا . من أي ترجمة ظهرت لهذه الرواية حتى الآن. راجع الأصل أيضا في: "Nedjma", pp124, 125.

القليل ولكنهم يبنون لهم في كل جهة مساجد وزوايا، وفي بعض الأحيان مدارس إذا توفر عدد من المريدين والطلبة. ويحمل هذا على الاعتقاد بأن كبلوت الأول لم يكن قائدا للجند ولا وجيها، بل كان صاحب مذهب، وكان فنانا، ولن يكون في هذه الحال شيخ قبيلة له القوة والنفوذ)) [947].

لكن سي مختار يعود فيثير الشك في هذا التخمين نفسه، فيواصل كلامه قائلا:

((ويبدو هذا معقولا جدا لولا أن بعض الأحداث التي تبعت الاحتلال الفرنسي ترجعنا إلى ترجيح احتمال أن يكون كبلوت الأول ذا سلطان ونفوذ، شيخ قبيلة بدوية، أو عشيرة مسلحة تعيش منذ القرون الوسطى في جهة قسنطينة)) [948].

وتثير رواية سي مختار الشك حول أصل القبيلة نفسها، وذلك حينما يذكر أن بعض الرواة أخبروه أن اسم "كبلوت" تركي، ومعناه "الحبل المقطوع" [949]. مما قد يفهم منه أن أصل القبيلة تركي، لكنه لا يعطي أي تعليل لهذه التسمية أيضا، وينساق إلى البحث عن أصلها في اللغة العربية، ليجده في

---

947 نفسه، ص131 . .(Nedjma, p124)
948 نفسه، ص131 . (Nedjma, p124)
949 نفسه، ص 130(N, p124)

كلمة "حبل" التي يلاحظ أنها لا تختلف عن "كبل" - التي اشتقت منها لفظة "كبلوت" - إلا في الحرف الأول، وفي التحريف الواقع في آخر الكلمة*.

ولا يزيد سي مختار في ذهن القارئ إلا بلبلة حينما يحاول أن يبرر لمحدثه عدم إلمامه بكل تاريخ القبيلة ، فيقول:

((لقد كان كبلوت شيخ قبيلتنا في فترة متقدمة يصعب تحديدها في تعاقب الثلاثة عشر قرنا التي تلت وفاة الرسول)) [950].

ويضيف في مكان آخر قائلا: ((لقد مر من هنا بين مصر والجزيرة العربية آباء كبلوت، تتقاذفهم الأمواج مثلنا نحن الآن..)) [951].

وهذا ما يبعث على الاعتقاد أن القبيلة عربية الأصل، وأنها من المحتمل أن تكون قد جاءت مع الفاتحين المسلمين الأوائل، وخرجت معهم بعد خروجهم من الأندلس . ويؤكد هذا المعنى قول سي مختار، حسب رواية أخرى:

((يذهب أحد العلماء النسابة، الذين يعرفون تاريخ قبائلنا بالتفصيل، إلى أن كبلوت قد جاء من إسبانيا مع "أبناء الهلال" (بني هلال)، واستقر أولا بالمغرب، ثم قدم بعد ذلك إلى الجزائر)) [952].

---

* وواضح أن هذا البحث لا يفيد شيئا في أصل القبيلة، وإنما يضفي عليه مزيدا من الشك. كما ذكرنا. لأن المقارنة التي يجريها بين اللفظتين العربية والتركية تنطبق أيضا على لغات أخرى مثل الفرنسية والإنكليزية، حيث يستعمل اللفظ نفسه cable مع اختلاف في النطق، وتذكر القواميس أن أصل الكلمة في جميع هذه اللغات يعود إلى كلمة "حبل" بالعربية.

950 "نجمة"، ص 130.(N, p124)

951 نفسه ن ص 135. (N, p129).

952 "نجمة"، ص 130.(N, p124)

غير أننا نلاحظ كم هي مبهمة هذه العبارة الأخيرة، وكم هي مشحونة بالغموض، إذ يمكن أن تفهم على وجهين، الأول: أن كبلوت، ينحدر من بني هلال، ممن يكونون قد جاؤوا مع الفاتحين العرب الأوائل، وعاد مع أبناء عمومته من الهلاليين عندما سقطت الأندلس في يد الإسبان، والوجه الثاني أن عودة الجد من الأندلس، لسبب ما ، تزامنت مع زحف بني هلال على بلاد المغرب، مع منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي.

ولعلنا، إن نحن حاولنا أن نبحث عن السبب في هذا الخلط والغموض في معلومات سي مختار، أن نرجعه مثلا إلى الذاكرة المتعبة لهذا الرجل المسن، الذي تجاوز السبعين من عمره، كما يمكن أن نرجعه إلى طبيعة الثقافة الشفوية للقبيلة التي يختلط فيها التاريخ بالخيال، والحقيقة بالوهم، وتتعدد فيها الروايات، وتتضارب، وتتعرض مع مر الزمن للزيادة والنقصان، لأن ما رواه سي مختار كان قد سمعه من والده، وكان والده قد سمعه بدوره من والده، ووالده عن والده، وهكذا [953]

غير أننا نخشى، من ناحية أخرى، أن نخرج بالنص، بمثل هذه التعليلات والتأويلات، عن طبيعته التخيُّلية، فهو في نهاية الأمر نص إبداعي روائي، مع العلم أن هذا الشكل المشوَّش له، بما ينطوي عليه من تضارب في الرواية، وغموض في المعنى، ووجود نقص في التفاصيل، وثغرات في المعلومات، هو بالذات ما يقربه من طبيعة الأسطورة، التي تنطوي - كما هو معروف - على

---

953 نفسه، ص 130.(N, p124)

كل هذه المواصفات، فالأسطورة لها منطقها الخاص الذي لا يقبل دائما التعليل المنطقي، ولا يفهم مضمونها إلا على وجه التقريب، وفي إطار هذا المنطق الخاص بها. والظاهر أن هذا هو ما قصد إليه المؤلف، فهو على أية حال لا يروي تاريخ قبيلة كبلوت بقدر ما يتخيله، أو على الأصح، بقدر ما تتخيله الذاكرة الجماعية للقبيلة .

وعلى أية حال، ومهما كانت طبيعة الرواية التي نتحدث عنها، فإنه لا يفوتنا أن نلاحظهنا أن المؤلف يتحدث عن قبيلة حقيقية هي قبيلة "كبلوت" التي ينحدر منها هو شخصيا، والتي توجد مضاربها بالفعل حتى يومنا هذا في المنطقة التي تسمى الناظور، وبالتحديد في سهل يقال له "واد الملح"، وفي مكان يدعى " عين غرور" على بعد حوالي ثلاثين كيلومتر نحو الشرق من مدينة "قالمة" [954]. وهي، حسب أرجح الروايات، قبيلة عربية من بني هلال، وهناك جملة من الأدلة تثبت ذلك، منها موقعها الذي تنزل فيه[955]، وتقاليدها العربية التي احتفظت بها على مر الزمن، ومنها حفظها لأنسابها، وتوارثها لقول الشعر وحفظه والتباري فيه، وقد ظلت هذه التقاليد قائمة حتى عهد المؤلف نفسه الذي نشأ في أسرة مغرمة بالشعر، ترويه وتقوله [956].

954 Jacqueline Arnaud in «Actes du premier congrès d'études méditerranéennes d'influence arabo-berbères». S.N.E.D, Alger 1972. Citeé par Mohammed Ismail Abdoun in «Kateb Yacine», Col. Classiques du monde. SNED- Nathan, Alger-Paris 1983, p45.

955 راجع محمد المرزوقي "منازل الهلاليين في الشمال الإفريقي" في أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية التي عقدت في الحمامات بتونس في الفترة ما بين 26 و29 جوان 1980، نشر الدار التونسية للنشر، والمعهد القومي للآثار والفنون بتونس 1990 من ص19 إلى ص30، ولا سيما ص 27.

956 Cf: Kateb Yacine «Le polygone étoilé», Ed. du Seuil, Paris 1979, p179.

وقد تعرضت القبيلة فعلا للتقتيل والقمع والتشريد من قبل المستعمرين الفرنسيين، الذين وجدوا مبررا لفعلهم ذاك بعد أن عثر على رجل فرنسي وزوجته أو عشيقته مقتولين في مسجد القرية [957]. ويتناقل القوم رواية يفسرون بها لغز تلك الجريمة فيقولون إن أعداءهم من قبيلة "أولاد ذهان" هم الذين قتلوا الفرنسي وزوجته ونقلوه ليلا إلى مسجد كبلوت لإلصاق التهمة بهم، وهذا ما حدث حين جمعت السلطات الفرنسية ستة أو سبعة من أعيان قبيلة كبلوت، وأعدمتهم بالمقصلة في مدينة قالمة [958]. ولأن السلطات الاستعمارية كانت تتبع سياسة العصا والجزرة في آن واحد، فقد عمدت في مرحلة لاحقة إلى إظهار شيء من اللين، بغرض تسهيل إنجاز الجزء التالي من مخطط إضعاف القبيلة، وذلك بضرب بنيتها الاجتماعية، وتمزيق لحمتها البشرية. وللوصول إلى هذا الغرض تقدمت إلى القبيلة بتعويضات مادية عن دم الأعيان الذين أعدمتهم، فمنحت لبعضهم أراضي فلاحية في نواحي عنابة حتى تبعدهم عن أرض آبائهم وأجدادهم، وأسندت لبعضهم الآخر وظائف في سلك القضاء الإسلامي، وأصبحوا بحكم وظيفتهم يتنقلون في طول البلاد وعرضها، وقد رأينا، في النبذة التي قدمناها عن حياة المؤلف كيف أثرت وظيفة والده هذه، على حياته ودراسته، فكانت ولادته في مكان، ودراسته الابتدائية في مكان آخر، والثانوية في مكان ثالث، وهكذا، وقسمت القبيلة تبعا لهذه الهدية المسمومة إلى أربعة فروع، وأعطت لكل فرع لقبا اعتباطيا مخالفا للفروع الأخرى، وسجلت ذلك في

957 Jacqueline Arnaud, op. Cit, p45.
958 Ibid, p45.

سجلات الحالة المدنية، حتى يتخذ الأمر طابعا رسميا، ومن هنا جاء لقب " كاتب " الذي يحمله المؤلف، نسبة إلى الوظيفة الإدارية التي أسندت إلى الفرع الذي ينتمي إليه جده ووالده، ولم يبق إلا الفرع الرابع من القبيلة في منطقة الناظور، وهو الفرع الذي حرم من التعويض. حدث هذا في الفترة ما بين 1854 و1882 [959].

على هذا النحو تم التخطيط لإضعاف قبيلة كبلوت، والقضاء على وحدتها، لأن الدافع الحقيقي لوضع هذا المخطط وتنفيذه إنما كان بسبب أن القبيلة كانت تساند الأمير عبد القادر، وكان بعض رجالها من أمثال جد والد مراد (أحد أبطال الرواية) من المقاتلين في جيش الأمير[960]. وعلى هذا الأساس تكون عملية إعدام الأعيان نفسها مدبرة من قبل، وداخلة في هذا المخطط، وإنما كان يبحث لها عن ذريعة ، وقد جاءت الذريعة ممثلة في مقتل الزوجين الفرنسيين. لكن القبيلة لم تستسلم للأمر الواقع، وطورت أساليب مقاومتها لتتلاءم ووضعها الضعيف إزاء المحتل:

((فاستجمعت القبيلة المستأصلة أواصرها، وأكثرت من الزيجات بين الأقارب، واستعارت لها ألقابا أخرى لا تعرف بها حتى لا تقع تحت طائلة العمليات الانتقامية، وأبقت الجماعة بعض الشيوخ والأرامل والأطفال في أرض الأجداد التي دنست، كي تبقى آثار لقبيلة المقصومة قائمة)) [961].

---

959 Jacqueline Arnaud, «Actes du premier congrès d'études méditerranéennes ...» p 45.

960 راجع : نجمة ص80 (N, p77).

961 نجمة ، ص132 (N, p126) .

هـذه إذن، باختصـار شـديد، ملحمـة قبيلـة كبلـوت مـع المسـتعمرين الفرنسـيين، الـذين عملـوا علـى ضـرب القبيلـة في صـميم بنيتهـا الاجتماعيـة والبشرية، حتى لا تقوم لها قائمة في المستقبل تهدد وجودهم، فكان ذلك محنة كبيرة للقبيلة، حاولت بكل الطرق والوسائل للتغلب عليها، مـن أجـل الحفـاظ على كيانها ووجودها.

والواقع أن المؤلف لم يفعل شيئا آخر سوى أنـه حـاول أن يـروي مأسـاة قبيلة كبلوت، كمـا وقعـت في التـاريخ فعـلا، إلا أنـه اسـتعان في توصيلها إلى القارئ، بأساليب سردية شتى، وبطرق فنية جماليـة متنوعـة، ترتفـع بهـا إلى أقصى حدود قوة التعبير والتصوير والتأثير، وذلك بالتحديد هو ما خرج بها من حدود الواقع والتـاريخ إلى حـدود العمـل الفني، الـذي يتجـاوز حـدود المكـان والزمان، إلى الدائم والمستمر، ومـن الحالـة الخاصـة إلى النمـوذج العـام، الـذي ينطبق على عشرات القبائل الجزائرية التي حدث لها مع الاستعمار مـا حـدث لقبيلة كبلوت. ومن ثمـة تصـبح محنتهـا تعبر عـن محنـة الشـعب الجزائـري بأكمله، الذي تعرض على يد الاستعمار الفرنسي لأكـبر محاولـة تـدمير لهويتـه الوطنية في تاريخه الطويل*.

---

* هناك إشارات كثيرة متفرقة في الرواية إلى ماضي الجزائر في مختلف العهود، وتأملات في ذلك الماضي، ومحاولة الوقوف على القواسم المشتركة بين ممارسات الاستعمار القديم، وخاصة الاستعمار الروماني، والحديث ممثلا في الاستعمار الفرنسي، راجع على سبيل المثال لا الحصر الصفحات: 157 إلى 161 ومن الصفحات 187 ، 188 ، 191، أو ما يقابلها في الأصل:

Nedjma», pp151 à 155 et 180, 181, 183.

ولا يفوتنا أن نلاحظ، من جهة أخرى، الحضور الحقيقي للمؤلف في الرواية، ممثلا في شخصية "الأخضر"، فقد روى في "نجمة"، وفي "المضلع النجمي" تفاصيل كثيرة عن أطوار حياته المختلفة، من النشأة الأولى، إلى حياة الغربة والتشرد في أنحاء فرنسا مع مطلع عقد الخمسينيات، إلى ممارسته هناك لمختلف المهن، مرورا بحياة الدراسة، ومشاركته في مظاهرات مايو 1945، واعتقاله، وطرده من الثانوية إلخ ..**.

ومن هنا يتضح لنا أن المؤلف قد تعمد أن "يؤسطر" أحداثا حقيقية، ووقائع تاريخية، تتعلق به شخصيا وبأسرته وقبيلته، وبجده الأعلى "كبلوت"، وذلك لدواعي فنية في المقام الأول ـ كما أشرنا آنفا ـ ثم لدواعي فكرية بعد ذلك، بحيث سمح له جو الأسطورة الذي أسبغه على الأحداث بأن يختزل تفاصيل كثيرة في رموز قليلة، وأن يمنحه الحرية الكاملة في التنقل، دون حدود ولا قيود، عبر الزمان والمكان، حسب تداعيات الذاكرة، وهذا ما لمسناه في رواية سي مختار السالفة الذكر عن أصل قبيلته.

وتشيع روح الأسطورة في النص كلما تعلق الأمر بالجد "كبلوت" حيث يضفي عليه الراوي جملة من الصفات بغرض التعظيم من شأنه، ورسم صورة له تمجده في عيون أحفاده. وتتطابق صورة الجد هذه في الرواية مع صورة كبلوت

** وهكذا نلتقي مرة أخرى بالسيرة الذاتية للكاتب، التي رأيناها من قبل ترتسم في أجزاء عديدة من روايات مولود معمري ومحمد ديب وغيرهما، وكنا قد أشرنا إلى ذلك في حينه، غير أن ما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن السيرة الذاتية في "نجمة" بجزئيها هي أقوى وأظهر منها في أعمال معمري وديب المشار إليها، ومن هنا يمكن الاعتماد . حسب رأينا . في بعض المسائل المتعلقة بحياة الكاتب، ولا سيما نشأته الأولى، على نص الرواية نفسها، لا كنص متخيل، ولكن كشهادة من المؤلف عن نفسه.

في موروث القبيلة في الواقع الحي، حيث يعتبره المنحدرون من نسله شخصية غير عادية، وينسبون إليه بعض الخوارق، مثل قراءة الغيب، وشرب الماء المغلي، كما أن معرفته العميقة بالقرآن جعلته في عيونهم من القديسين [962].

ويشكل هذا الموروث الأسطوري ـ الذي يتكوَّن من الحكايات الخارقة للعادة، والأقوال المأثورة، والأشعار، والروايات المتفرقة ـ الذاكرة الجماعية التي يعرف بها أفراد القبيلة ماضيهم جيلا بعد جيل، والوسيلة المثلى التي يعبرون بها عن شخصيتهم الجماعية [963].

وتتخذ شخصية الجد في هذا الموروث مظهرا آخر للأسطورة حين تقرن في الغالب، على سبيل التشبيه، ببعض الحيوانات والطيور، وخاصة الأسد، والنمر، والنسر، ومن ذلك مثلا الصورة الخيالية التالية، التي يرسمها للجد حينما يظهر فجأة في زنزانة رشيد الذي كان يعاني القلق والوحدة في سجنه، في انتظار محاكمته عن هروبه من الجندية: ((وبدا له كبلوت، الجد الأسطوري، ذات ليلة في زنزانته، بشاربين كثين، وعيني نمر، وفي يده هراوة، وتجمعت القبيلة شيئا فشيئا في الزنزانة، وضاقت الزنزانة بالحضور المزدحمين بالمناكب ولكن لم يكن أحد منهم يجرؤ على الاقتراب من كبلوت، الجد الذي كان وجهه كوجه سبع)) [964].

---

962 Jacqueline Arnaud, op.cit, p 45.
963 Ibid, p 45.

964 نجمة، ص139.(N, p134)

لكن، تبقى الصورة الحية التي رسمها المؤلف للجد كبلوت في الرواية هي صورة النسر بما يحمل من دلالات قوية عن معنى القوة والمنعة والحرية، فقد جعل روح الجد تحل في هيئة نسر يحلق في أعالي الناظور، ويحوم باستمرار حول مضارب القبيلة، ليذكر أبناءه وأحفاده دوما بوجوده بينهم، وبأنه غير راض عن وضعهم المهين الذي انحدروا إليه: ((كان النسر الذي جاوز المائة من السنين قد تركته خليلته، وتركه أبناؤه منذ أمد بعيد (...) كان يجر نفسه خارج وكره، كأنما يريد تكذيب نبإ موته أمام القبيلة المنكوبة ، ليطير كل مرة فجأة بعد جهد جهيد شاق)) [965].

كان النسر، باعتباره رمزا لشرف القبيلة وأصالتها وسؤددها، ينتظر اليوم الذي يخلصه فيه أبناؤه وأحفاده من الحصار والأسر، وكان يعبر أحيانا عن سخطه عليهم، برجمه لهم بالحجارة والصخور، لعدم رضاه عن تباطئهم وتهاونهم في القيام بتلك المهمة النبيلة: ((كانت تلك الصخور تقع دون أن تلقى جوابا، ولكن وقوعها كان يعزي القبيلة عن هزيمتها، كما لو كان فألا ينبئ بقدوم قوة علوية لم يكن القدماء يعرفونها)) [966].

لكن الاستجابة لم تأت في نهاية الأمر من الأحفاد الذكور، وإنما جاءت من الإناث، فقد أثار النسر فضول أختي مصطفى (أحد أبطال الرواية الرئيسيين)اللتين لجأتا مع أمهما، بعد وفاة والدهما، إلى الناظور، فقد أثار النسر فضولهما، وقررتا الاستجابة لندائه: ((شاهدتا النسر المحاصر المأسور

---

965 نفسه ، ص 138. (N, p133)

966 نفسه، ص 138. (N, p133)

يرميهما من أعالي الجو بالحجارة، فصعدتا الجبل دون توان ولا تراجع، نحو الوكر المتسع التي تعصف الريح فيه بعنف)) [967]

وتطورت الأحداث بسرعة، حيث اختفت الأخت الصغرى ذات مساء صيف، وراحت البنت الكبرى تبحث عنها، ولكنها وجدت في اليوم التالي عند سفح الجبل، وقد فارقت الحياة [968]

وبعد هذه الحادثة اختفى النسر نهائيا، وكان ذلك علامة، حسب تأويل عجائز القبيلة، على أنه قبل القربان الذي دفعته له القبيلة، متمثلا في الفتاتين الضحيتين، وهدأت روحه القلقة، وأن الفرج قريب: ((وتوارى النسر إلى الأبد، فلم يعد يظهر، وانقضت عجائز القبيلة الثرثارات على اللغز يؤولنه: إن كان النسر قد مضى بفريسته، كان ذلك دليلا على أن اللعنة التي حلت بالقبيلة آذنت بالزوال، بفضل العذرائين اللتين قدمتا قربانا لتطمئن روح كبلوت في رقدتها)) [969]

والمقصود باللعنة هنا ـ كما سبقت الإشارة ـ هي لعنة الاستعمار الذي حل بالقبيلة، كعقاب إلهي لها على ما ارتكبه بعض أبنائها من معصية ـ لأن المسؤولية جماعية في القبيلة ـ مخالفين بذلك وصايا الجد، ومدنسين قيم القبيلة الأخلاقية والدينية. لقد ارتكبت بين ظهرانيهم جريمة مضاعفة هي الزنا والقتل في مسجد القرية، فاستوجب ذلك غضب الإله عليهم، فابتلاهم بالاستعمار الذي

---

967 نفسه، ص 138.(N, p133)

968 نفسه، ص 139(N, p133).

969 نجمة ، ص139.(N, p133).

عاث في القرية فسادا، وقتل من قتل من أبناء القبيلة، وحكم على من بقي منهم على قيد الحياة بالنفي والتشرد في أنحاء البلاد [970].

وبهذا التأويل الخرافي للأحداث لا يكون المؤلف قد وظف شكل الأسطورة وطرائقها في روايته وحسب، ولكنه يكون قد وظف مضمونها المأساوي أيضا، الذي يذكرنا كثيرا ببعض أساطير اليونان القديمة *. وقد أكدت إحدى الباحثات، في دراسة مستفيضة لرواية "نجمة"، هذه العلاقة الوطيدة بين مضمون الرواية ومضمون المأساة اليونانية، ولا سيما في توفر ما أسمته بـ "عنصري المتعة المأساوية"، المتمثلين في عاملي إثارة عاطفتي الخوف والشفقة لدى المشاهدين [971].

ثانيا : أسطورة " نجمة ":

لقد أضفى المؤلف على شخصية هذه المرأة من الظلال والأخيلة ما جعلها تخرج عن حدود الطبيعة البشرية للمرأة لتصبح أسطورة بأتم معنى الكلمة، وهي تتقاطع مع أسطورة "كبلوت" وتتكامل معها لتشكل الوجه الثاني المؤنث - إن صح التعبير - لهوية القبيلة، لأنه إذا كان كبلوت يرمز إلى العنصر البشري للقبيلة، وإلى تاريخها، فإن نجمة" ترمز للأرض التي لا يمكن أن يكون للقبيلة

---

970 نفسه ، ص139.(N, p133).

* يذكرنا هذا مثلا بأسطورة أوديب الشهيرة، حين غضبت الآلهة على أهل مدينة طيبة وأنزلت عليهم الوباء، عقابا لهم على ما وقع في مدينتهم من معصية، وذلك حين قتل أوديب والده (جريمة قتل الأب)، وتزوج أمه (جريمة زنا المحارم).

971 Zoubida Boutaleb «Réalité et symbole dans Nédjma», O.P.U Alger 1983, p174,175.

وجود بدونها، وهي بالتالي ترمز للجزائر في بعدها الجغرافي، ولكن في تلاحم كامل مع التاريخ.

ونظرا للحشد الهائل من الدلالات التي حاول المؤلف أن يحمّلها لبطلة روايته، فإنه يجدر بنا أن نبحث أولا في دلالة الاسم الذي أعطاه لها وهو "نجمة" من الناحية اللغوية، ثم نبحث في نواحي أخرى تسمح لنا بالكشف عن أسباب اختيار المؤلف لهذا الاسم، لأن كل الدلائل تشير إلى أنه لم يكن اختيارا اعتباطا.

إن اسم "نجمة"، في الواقع، هو من الأسماء المتداولة بكثرة، التي تسمى بها المرأة في بلاد المغرب عامة، والشرق الجزائري خاصة، ويستعمل كمؤنث "نجم"، جريا على القياس، وهو اسم جنس يدل، كما هو معروف، على كل جرم سماوي يضيء من نفسه، ويطلق على النساء كناية على الجمال والرفعة، ولم تستعمله العرب ـ حسب اطلاعنا ـ كاسم علم إلا مذكرا [972]. ولذلك كانوا يطلقونه على الرجال دون النساء. فإذا أرادوا تسمية المرأة بالنجم أطلقوا عليها اسم "الثريا"، وهي لفظة مرادفة لكلمة "نجم" أيضا [973].

---

972 وقد ورد في العديد من آي القرآن مذكرا أيضا، ومنها مطلع سورة "النجم" حيث جاء الاسم فيها مذكرا بشكل واضح وصريح: {والنجم إذا هوى }.

973 راجع: ابن منظور "لسان العرب" ،مادة "نجم "، طبعة دار صادر ودار بيروت، بيروت 1962.

* والنجمة في "لسان العرب" معناها "نوع من الشجر" وأيضا "النبتة الصغيرة "، ولها معنى ثالث هو "الكلمة"، وهي مشتقة من الفعل " نَجَمَ " بمعنى ظهر أو طلع، ولا نعتقد أن اسم "نجمة" أو "نجم" مستعار من هذه المعاني، راجع: لسان العرب مادة "نجم".

أما من الناحية الواقعية، فإن "نجمة" هي بالفعل "امرأة حقيقية كان يحبها الكاتب" ، وقد صرح هو نفسه بذلك، إلا أنه أوضح في التصريح نفسه قائلا: ((لم أكن أريد، وأنا أكتب الرواية، أن أحكي قصة هذا الحب، وإنما كنت أريد أن أقول كل شيء عن الجزائر، وأن أعطي عنها صورة فبرز ذلك في صورة امرأة)) [974].

ومعنى هذا أن الكاتب حينما كان يتحدث عن "نجمة" إنما كان يقصد الجزائر، وهذا ما يفسر ذلك الجانب الأسطوري في شخصية "نجمة" ويجعل منها لغزا محيرا، غير أن استحضار الكاتب لصورة الجزائر في ذهنه كان - على ما يبدو - يستدعي بشكل آلي صورة المرأة التي كان يحبها، ولذلك يلاحظ القارئ أن الصورتين كثيرا ما تتداخلان في ثنايا الرواية، ويختلط عليه الأمر فيما إذا كان الروائي يتحدث عن المرأة أم عن الجزائر، وهذا التداخل هو ما يفسر، في نظرنا، ذلك الطابع الأسطوري الملغز الذي يسبغه الكاتب أحيانا على شخصية "نجمة"، ويخرج بها من الطبيعة البشرية للمرأة، لتكتسي صورة خيالية غريبة وملغزة.

من ناحية أخرى، أصبح معروفا أن ياسين قد ربط في ذهنه بين اسم "نجمة" وبين الشكل الخماسي الذي تبدو به الجزائر على الخريطة الجغرافية، من جهة؛ وبين هذا الشكل وبين النجمة الخماسية التي تتصدر العَلم الجزائري

974 Jean Déjeux «Dictionnaire des auteurs maghrébins…» p138.

من جهة أخرى **، وتضيف إحدى الباحثات إلى هذا التأويل اسم "نجم شمال إفريقيا"، " لما له - كما تقول الباحثة - من قيمة لدى الوطنيين مثل كاتب ياسين" [975]

وقد برزت الاستعارة المشار إليها مرة أخرى في عنوان الجزء الثاني من رواية "نجمة" الذي أطلق عليه اسم: "المضلع النجمي"، حيث يبدو واضحا كيف يربط المؤلف بين شكل خريطة الجزائر والنجمة الخماسية، حتى وإن جاء الاسم هنا مذكرا، وفي هذا الجزء نجد المؤلف يشبه الجزائر بصريح العبارة في إحدى الفقرات بـ"نجمة المغرب" حيث يقول: ((...إفريقيا بأكملها ستتحرر من الشمال إلى الجنوب، وستجعل من الجزائر مقفزها، بيتها، مبدأها، نجمة مغربها)) [976]

ومن هنا - وبناء على هذه الدلالات والأدلة - يمكننا أن نستنتج بكل اطمئنان أن اختيار الكاتب لاسم بطلة روايته قد جاء عن قصد مسبق، ونتيجة لتفكير عميق، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نرجعه إلى الجانب غير الواعي من العملية الإبداعية، وإن كنا لا ننكر هذا الجانب فيه.

** (*) ولا يخفى علينا كذلك أن العلم الجزائري الحالي هو نفسه علم الأمير عبد القادر الذي كان كاتب ياسين معجبا به، باعتباره رائد المقاومة الجزائرية في العصر الحاضر، وكان محاضرته عنه التي تحمل عنوان: "عبد القادر واستقلال الجزائر" من كتاباته الأولى، ونشرت في شكل كتيب صغير سنة 1948 بمطبعة النهضة بالجزائر بعنوان: « Abdelkader et l'indépendance algérienne» راجع:

Jean Déjeux «Dictionnaire des auteurs maghrébins…» p137.

975 Denise Brahimi «Elan,brisure et résurgence» in Colloque International sur Kateb Yacine,p80.

976 "Le polygone étoilé», p142.

يحدثنا المؤلف في البداية عن "نجمة"، كما يحدثنا عن امرأة عادية، بل عن طفلة عاشت يتيمة الأبوين، حيث أنها لم تعرف لها أبا، وتخلت عنها أمها وهي في الثالثة من عمرها فتبنتها " للاً فاطمة " التي كانت عاقرا، واتخذتها ابنة لها [977]. وبعد هذه المعلومات العامة لا نجد في ثنايا الرواية أية تفاصيل أخرى عن طفولة نجمة وعن مرحلة المراهقة في حياتها، وينقلنا المؤلف مباشرة إلى مرحلة النضج والزواج.

وفي هذه المرحلة نجد أنها لم تكن سعيدة في حياتها الزوجية، فقد تزوجت دون رغبة منها زواجا غير متكافئ، تزوجت من كمال، وهو رجل ضعيف، مسالم، يحي حياة هادئة لا يعكر صفوها رغبة في التغيير أو التطوير، أو الطموح في الوصول إلى هدف معين في الحياة. تزوجها "لأن أمه أرادت له أن يتزوجها" [978]. وقبلت نجمة الزواج منه نزولا عند رغبة مربيتها "للاً فاطمة"، التي مارست عليها كل وسائل الضغط ، لأنها رأت في ضعفه حماية لها من ظلم الرجال وتجاوزاتهم، قالت لها: ((إنه رجل طيب، دمث الأخلاق، حلو المعاشرة، حتى يخيل للمرء أنه ليس بن أمه (؟)، من ذا تريدين بعلا ؟ أتريدين جلفا يبيع حليك ومصوغك ؟ أتريدين سكيرا ؟)) [979].

وواضح أن هذا الخطاب لا يوجد فيه أي شيء غريب أو غير عادي، ويمكن أن يؤخذ على ظاهره، ويفهم منه أن المؤلف يتحدث عن امرأة عادية لم

---

977 نجمة ، ص109 . (N, p104)

978 نفسه ، ص69 . (N, p67)

979 نفسه ، ص70،71 (N, p69)

تكن محظوظة لا في طفولتها ولا في زواجها، ومع هذا فإن النص هو من قوة الإيحاء بما يسمح لنا بتأويله بشكل أو بآخر، بالرجوع مثلا إلى تاريخ الجزائر، ومحاولة البحث عن هذا الرجل الضعيف الذي حكم الجزائر في يوم من الأيام، ولم تكن له همة ولا طموح يؤهلانه لحكم هذا البلد، الذي قد نراه في شخص الداي حسين، أو بلقين بن زيري، أو يوبا الثاني، أو ماسينيسا إلخ، وهذه القابلية الكبيرة للتأويل هي التي تعطي في نظري لهذا النص الروائي قيمته الأدبية .

ويمضي الكاتب في تصوير شخصية نجمة على هذا النحو الذي تبدو فيه امرأة عادية لا تختلف في شيء عن كثير من النساء، لكن سرعان ما تتغير هذه الصورة حين يروح الكاتب يكشف عن جوانب غير عادية فيها، فجمالها عادي ولكنه يحمل سحرا خاصا يفتن كل من يراها من الرجال، ويسلبه إرادته، ويجعله أسير هواها على نحو غامض لا يقبل التفسير. هذا ما يعبر عنه مثلا مصطفى، أحد أبطال الرواية ، في مذكراته، حين يتحدث عن افتتان "الكاتب" (وهو شخصية غامضة في الرواية) بنجمة، فيقول: ((روى الكاتب نفسه أنه يوم رأى نجمة للمرة الأولى عن كثب قد اهتز قلبه لها بعنف. إنك لتجد نساء قادرات على كهربة الجو من حولهن، وإثارة الحديث عنهن..))[980]

كأن مصطفى، وهو يسجل هذا الاعتراف في مذكراته، إنما يحاول أن يقنع نفسه بأنه ليس الوحيد الذي وقع في أسر "نجمة". ومن هنا يحدث نوع

---

980 نجمة ص87. ((N, p84)

من الانزياح تتجاوز فيه شخصية نجمة حدود الواقع والمألوف، وتتخطى صفة كونها امرأة يهيم في حبها الرجال، ويتنافسون من أجل الظفر بها، لتتخذ بعدا رمزيا وأسطوريا، تتلاشى فيه صورة المرأة شيئا فشيئا، لتحل محلها صورة الجزائر بجمالها وجلالها، بماضيها وحاضرها، بآلامها وآمالها، ويصبح الخطاب الروائي خطابا مزدوجا، أشبه ما يكون بالحديث الصوفي الذي يحمل ظاهرا وباطنا، فيتحدث عن نجمة المرأة، في الوقت الذي يعني فيه الجزائر الوطن، والعكس صحيح، وقد ساعد على تجسيد هذه الدلالة المزدوجة أن الروائي قد تعمد في حديثه عن البطلة أن يكون دائما بضمير الغائب، وأن يكون مبهما في معظم الأحيان، وبعيدا عن التعبير المباشر، لاسيما إذا تعلق الأمر بوصف جمالها، ومفاتنها الجسدية.

وهنا تتجلى لنا في شخصية " نجمة " ميزة أخرى غريبة ومتعارضة، تكسبها إحدى الصفات الأسطورية التي أشرنا إليها من قبل، ونعني بها ميزة الحضور والغياب في آن واحد، فهي غائبة في معظم فصول الرواية، لا تظهر إلا قليلا، ولا تتحدث إلا أقل من ذلك، ولا يأتي ذكرها، في غالب الأحيان، إلا بضمير الغائب، ولكنها مع ذلك دائمة الحضور، وبإلحاح قوي، مع أبطال الرواية: مراد والأخضر ومصطفى ورشيد، الذين كانوا يتنافسون في حبها، ويتشاجرون من أجلها، وقد يصل بهم التنافس ودوافع الغيرة في حبها إلى استعمال الخناجر أحيانا[981] لقد كان طيف نجمة يداعب أحلامهم دائما،

981 ذلك ما وقع بين رشيد ومراد اللذين تقابلا في السجن، فاغتنم الأول فرصة الظلام في الزنزانة ليطعن الثاني بخنجره؛ لأنه كان يعتقد أنه استمال نجمة واستأثر بحبها. راجع : نجمة، ص41. (N, p42)

ويملأ عليهم حياتهم، ويخفف وطأة المعاناة عليهم حتى في ظلمة السجن، وكان حبها عامل فرقة وتنافر وتناحر بينهم، كما كان في الوقت نفسه عامل توحيد يجمع بينهم على هدف واحد. وهذا نفسه يعد أحد مظاهر التعارض الذي أشرنا إليه في شخصية نجمة، فقد كان غيابها يوحدهم ، وحضورها يسبب الفرقة والاختلاف بينهم.

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن هؤلاء الأبطال، ومن ضمنهم نجمة، كانوا جميعا من أبناء قبيلة كبلوت، وتجمع بينهم صلة القرابة بشكل من الأشكال، فهم إما إخوة من الأب أو الأم، من زواج ثان، أو ثالث، مثل مراد والأخضر، وإما أبناء عمومة أو خؤولة مثل مصطفى ورشيد. غير أن بعضهم لا يعرف صلة القرابة هذه، أو لا يعرفها إلا على وجه التقريب، لأن تشتت أبناء القبيلة في كل مكان جعلهم لا يعرفون بعضهم البعض، والشخص الوحيد الذي كان يعرف بدقة أنسابهم وصلة القرابة بينهم على وجه التحديد، ويعرف حتى بعض الخفايا المتعلقة بصلات محرمة كانت بين آبائهم وأمهاتهم، هو سي مختار، لأنه كان هو نفسه أحد أبطال تلك المغامرات العاطفية المحرمة، وقد جاءت نجمة نفسها نتيجة تلك المغامرات المحرمة، حيث أنها بعثت إلى الوجود إثر عملية اغتصاب لأمها الفرنسية، من قبل أربعة رجال من قبيلة كبلوت كان أحدهم سي مختار نفسه، وكان الآخر هو "سيدي أحمد" والد رشيد، الذي وجد في الصباح مقتولا عند باب المغارة [982]. وإلى هذا يشير رشيد حين يقول عن

---

982 نجمة ، ص186. (N, p179)

نجمة : ((نجمة التي كان الرجال يتنازعون ، **لا حبها فحسب، بل** أبوتها أيضا)) [983].

وكان رشيد قد عرف بعض تلك الخفايا عن طريق سي مختار، الذي كشف له عن بعض الخفايا المتعلقة بالقبيلة ، بما في ذلك بعض الأمور المحرمة، وذلك بحكم مصاحبته لرشيد مدة طويلة ، وأيضا من منطلق أنه كان حريصا على إبقاء تاريخ القبيلة حيا في الأذهان، وكان يحاول أن يجمع شمل القبيلة ويقنع أبناءها بضرورة العودة إلى الناظور، أرض الآباء والأجداد.

وهناك صفة ثالثة ثنائية المظهر، ومتعارضة المضمون، نجدها لصيقة بشخصية نجمة ولها علاقة بالناحية الأسطورية والطابع المأساوي الذي أشرنا إليه آنفا، ألا وهي صفة يمكن أن نطلق عليها صفة الضحية/الجلاد في آن واحد بالنسبة لعشاقها [984]. وفي هذا الصدد يقول عنها مصطفى، معبرا عن خيبة أمله في حبها : ((إنها ليست سوى إرهاص الخيبة وأريج الليمون)) [985].

ويسوق عنها مصطفى نفسه ـ في موضع آخر ـ شهادة يحاول أن يعلل بها خيبته معها، بإلحاق صفة "الشؤم" بها، وذلك على لسان شخص يصفه بأنه

983 نفسه ، ص 186. (N, p179)

984 أو ما تسميه الباحثة زبيدة طالب "مظهر اللعنة: l'aspect maléfique "1. راجع:
Zoubida Boutaleb «Réalité et symbole dans Nédjma», p118.

985 نجمة، ص87. (N, p84)

"أحد الصعاليك الشرفاء ممن شاهدوا ميلاد نجمة" [986]، فيقول: ((نجمة التي ستهلكنا، نجمة طالع شؤم قبيلتنا)) [987].

وترجع صفة الضحية/الجلاد إلى معاناة "نجمة" التي عرفت منذ صغرها "اليتم"، وفقدان حنان الأب والأم، أما في شبابها فقد أرغمت على الزواج من رجل ضعيف، ولم تكن سعيدة بزواجها معه، ولذلك فقد كانت تتلذذ بتعذيبها لعشاقها وتقول عنهم: ((سأحبسهم في سجني ما داموا يحبونني، وسيكون القرار الفصل ـ بطول الزمن ـ في يد السجينة)) [988].

هذا بالنسبة لنجمة المرأة، لكن بالنسبة لنجمة الوطن، فإن الكاتب يؤكد على صفة الضحية/الجلاد في شخصها، ولكن بشكل أكثر تكثيفا، حيث يتخذ بعدا رمزيا قويا، يلخص فيه الراوي أطوارا من تاريخ الجزائر مع مغتصبيها الكثيرين عبر العصور، الذين وإن تمكنوا من قهرها في فترة من الفترات، إلا أنه لا أحد منهم استطاع أن يحتفظ بها: ((.. ذاك هو جمالها الغامض.. كانت كـ"صلامبو" [*]، فقدت عذريتها فغدت ثيبا، وعاشت أطوار مأساتها، كانت

---

986 نفسه، ص196. (N, p188)

987 نفسه، ص196. ((N, p188)

988 نفسه، ص69 . (N, p67)

* "صلامبو" هي ابنة الحاكم القرطاجني الذي حكم المدينة بعد الحرب البونيقية الأولى (241. 237 ق.م)، ووقعت على عهده ثورة المرتزقة الذين كان القرطاجنيون قد استعانوا بهم في حربهم ضد الرومان، وقد خلد الكاتب الفرنسي شخصية "صلامبو" في روايته الشهيرة التي أصدرها سنة 1862، وتحمل اسم "صلامبو"، وقد سلمت نفسها لزعيم المرتزقة "ماتو" من أن تستعيد منه ما أخذه من المعبد المقدس للآلهة "تانيت".

كراهبة أريق دمها.. كانت امرأة متزوجة، لم أعرف أحدا عاشرها واختلط بها دون أن يفقدها وبذلك كثر المتنافسون عليها)) [989]

بهذه الكيفية تأخذ نجمة بعدا أسطوريا في الرواية، وتنمحي الحدود فيها بين المرأة والوطن.

* * *

989 نجمة ص184. (N,p177)

الفصل السابع



من التمرد إلى الثورة

الموقف من الثورة يحدده الانتماء القومي

1 الروايات التي تناولت موضوع الثورة

قد يسبق الكاتب المبدع الأحداث الكبرى أحيانا فيتنبأ بحدوثها على نحو رمزي، قبل وقوعها بزمن، بفضل ما يتمتع به من إحساس مرهف، ودقة ملاحظة، وقدرة غير عادية على استشفاف الواقع، وهذا ما وقفنا عليه في الأعمال الروائية التي تعرضنا إليها في الفصل السابق، التي حملت كلها إشارات تحذير واضحة - حتى وإن تفاوتت قوة ووضوحا من عمل إلى آخر، ومن كاتب إلى آخر - من مغبة ما سوف يحدث في المستقبل، نتيجة للظلم الاجتماعي، والقهر السياسي، اللذين بلغا أقصى مداهما في فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلتها، وكانت مجازر شهر مايو 1945 بمثابة المؤشر الذي جعل حدوث تلك الثورة المرتقبة أمرا شبه محتوم.

ومع هذا، وحينما اندلعت الثورة فعلا في الفاتح من نوفمبر 1954، فإن أولئك الكتاب أنفسهم، الذين تنبؤا بالثورة، قد لاذوا بالصمت لسنوات عديدة، قبل أن ينتقلوا بعد ذلك إلى اتخاذ المواقف مما حدث ويحدث، عبر كتاباتهم الإبداعية واحتاج ذلك إلى ما يقارب الأربع سنوات لتظهر في سنة 1958 أولى الأعمال الروائية المتعلقة بالثورة المسلحة، ممثلة في رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد، ولم يصدر من هذه الأعمال في السنوات الأربع اللاحقة من عمر الثورة إلا عدد محدود، لا يتجاوز، في الواقع، عدد أصابع اليد الواحدة، ويأتي

مالك حداد في المقدمة بإصداره لروايات ثلاث أخرى هي: " سأهبك غزالة" سنة 1959، و"التلميذ والدرس" سنة 1960، و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب" سنة 1961، وبعده يأتي محمد ديب الذي أصدر رواية "صيف إفريقي" سنة 1959، و"من يتذكر البحر" سنة 1962. وأخيرا آسيا جبار بروايتها "أطفال العالم الجديد" التي كتبتها في صيف 1961، وصدرت بدورها سنة 1962.

والتزاما منا بالخطة التي وضعناها لهذا البحث، سوف نقصر حديثنا في هذا الفصل على الأعمال المذكورة، أي على الأعمال التي ظهرت في فترة الثورة، أو كتبت أثناءها، ونشرت على الأقل في السنة التي توقف فيها القتال، سنة 1962، وسنخص بالتحليل ثلاثة منها لا غير، وهي "الانطباع الأخير" لمالك حداد، و"صيف إفريقي" لمحمد ديب، و"أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار، لأن هذه الأعمال هي التي يمكن القول عنها إنها تناولت بالفعل أحداث الثورة المسلحة، وصورت جوانب مما كان يحدث فعلا في ثلاث مدن جزائرية، هي قسنطينة في شرق البلاد، وتلمسان في غربها، وشرشال في الوسط. أما الروايات الأخرى، فهي إما أنها تعالج مشكلات اجتماعية ولا علاقة لها بالثورة، مثل روايات آسيا جبار الأولى، وروايات مولود فرعون، وروايات لكتاب آخرين، وإما أن وقائعها لا تتناول الثورة إلا بشكل تجريدي رمزي، مثل رواية "من

* لاسيما أن مواقف الكتاب تغيرت مع الوقت، وأفكارهم تأثرت بالأحداث السياسية التي أتت بعد الثورة، وأصبح الموقف مما حدث بالأمس كثيرا ما تمليه ظروف الوقت الحاضر، ومن هنا رأينا أن نقتصر في هذا البحث على دراسة الروايات التي تناولت الثورة وصدرت أثناءها، على أن نخصص بحثا آخر في المستقبل للروايات التي كتبت عنها في فترة الاستقلال.

يتذكر البحر" لمحمد ديب، التي تشبه في أجوائها أجواء روايات الخيال العلمي، ومثل روايات مالك حداد الأخرى، التي تتناول الثورة بشكل جزئي، ولا تجري في الغالب بالجزائر، وما يتعلق منها بالجزائر يأتي في شكل ذكريات تكشف عن ماضي أبطاله، الذي يعود به في بعض الأحيان إلى زمن الحرب العالمية الثانية، بل إلى ما قبلها أحيانا (كما هو الحال في رواية "التلميذ والدرس") وهي من جهة أخرى شديدة الالتصاق بشخص الكاتب إلى درجة تجعل منها في بعض المواقف مذكرات شخصية للكاتب، تتعلق بإقامته القلقة أثناء سنوات الثورة بفرنسا، وتنقلاته بين المدن الفرنسية والسويسرية، وبمقابلاته لبعض أصدقائه القدامى. ولناشري أعماله الروائية، أما ما يتعلق منها بالثورة، فإن ذلك كان يأتي إما في شكل معاناة البطل (المؤلف)[*]، بسبب تفكيره الدائم فيما كان يجري في الجزائر، وقلقه على مصير أسرته هناك، وإما في شكل أخبار سيئة ، يقرأها في الصحافة، أو يسمعها في الراديو، أو تأتيه في شكل رسائل من الأهل، وهي أخبار تسبب له الكثير من الألم النفسي، وما يشبه الصداع المزمن - حسب تعبيره - [990] ومن هنا يصبح تصنيف هذه الأعمال، من الناحية المنهجية، ضمن روايات الثورة ، تصنيفا غير دقيق،

* (**) لا نجد في رواية "سأهبك غزالة" اسما آخر للبطل الراوي سوى اسم "المؤلف"، وهو بالفعل مولف روايات، أما في "رصيف الأزهار.." فالبطل يحمل اسم خالد بن طوبال، وهو نفسه كاتب روايات، ويرد ذكره أحيانا بهذه الصفة وحدها: المؤلف.

990 Malek Haddad "Le quai aux fleurs ne répond plus", Ed. Julliard, Col. 10-18. Paris 1961, 34.

ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها، كلما اقتضت الضرورة ذلك، دون أن نخصها بتحليل مستقل.

ونعود لنتساءل عن السبب الذي جعل هؤلاء الكتاب يصمتون كل تلك السنوات ؟ هل معنى ذلك أن الأحداث فاجأتهم، بالرغم من أنهم كانوا أول من توقع حدوثها ؟ أم كانوا في شك من أمرها ولم يكونوا يصدقون ما يحدث ؟ أم أنهم كانوا لا يؤمنون بها، ولا يتوقعون لها النجاح ؟ أم أُرتِج عليهم كما يحدث للشعراء حين يستغلق عليهم الكلام في بعض المواقف ويهجرهم شيطان الشعر ؟ أم أن صمتهم كان ببساطة تأملا وتفكيرا، إلى أن اتضحت لهم الأمور، واهتدوا في الأخير إلى الطريقة الملائمة للتعبير عن أفكارهم ومواقفهم ؟ ومهما يكن الجواب، ألا يكون صمتهم قد طال أكثر من اللازم ؟ الواقع أننا لم نعثر على إجابة شافية كافية عن هذه التساؤلات، لا من الكتاب أنفسهم ولا من دارسي أدبهم من المختصين، ولذلك يمكن لنا أن نفسر المسألة قياسا بما كتب عن الثورات الكبرى في العصر الحديث، التي عرفت بدورها مثل هذه الظاهرة، بحيث أن ما كتب مثلا عن الثورة الفرنسية من إبداعات روائية، إنما جاء قبلها في شكل تنبؤات وردت في أعمال "ديدرو" و"مونتسكيو"، أو جاء بعدها بعقود في أعمال روائية مطولة على يدي "فكتور هيجو" و"ألكسندر ديماس"، والشيء نفسه يقال عن الثورة الروسية، التي تنبأت بها أعمال "ماكسيم غوركي" القصصية والروائية قبل حدوثها بما يقارب عقدين من الزمن، وعبرت عن وقائعها أعمال "شولوخوف" و"باستيرناك" بعد وقوعها بما لا يقل عن عقدين من الزمن أيضا، أما في فترة الثورة نفسها، فلم تعرف إلا أعمال قليلة لا

ترقى بأي حال من الأحوال إلى مستوى تلك التي ظهرت قبلها أو بعدها. فالرواية بطبيعتها، إذن، تحتاج إلى وقت أطول من أي فن أدبي آخر لكي تتبلور أحداثها في ذهن الكاتب، وتصبح قابلة للإنجاز في شكل عمل إبداعي، وكتابة العمل الروائي في حد ذاتها قد تستغرق سنوات قبل أن يكتمل العمل، ونعتقد أن الروائيين الجزائريين لم يخرجوا عن هذه القاعدة، والدليل على ذلك أن صمت بعضهم قد اقتصر على مجال الإبداع الروائي وحده، في حين نجده قد عبر عن انحيازه بشكل أو بآخر للثورة منذ البداية تقريبا، مثل مالك حداد في ديوانه الأول "الشقاء في خطر"، ومحمد ديب في قصص مجموعته "في المقهى"

2 ـ الخصائص المشتركة بين روايات الثورة

* ومن خلال قراءتنا المتأملة لروايات هؤلاء الكتاب الصادرة في عهد الثورة، رحنا نبحث عن أهم الخصائص المشتركة التي تجمع بينها، سواء من حيث الخلفية الفكرية التي تنطلق منها، أو من حيث الكيفية التي جسدت بها تلك الأفكار من الناحية الفنية. وحاولنا أن نتبين ذلك من خلال الإجابة عن سؤالين أساسيين، الأول يتعلق بنوعية الخطاب الذي تتضمنه تلك الروايات، والرسالة التي يحملها الخطاب إلى القارئ، والثاني يتعلق بمواقف الأبطال من الثورة، التي اتضح لنا من القراءة أنها تعكس إلى حد كبير مواقف الكتّاب أنفسهم منها. وسوف نركز في الصفحات التالية على تتبع هذين الجانبين، من

* أصدر كلا الكاتبين عمله سنة 1956، غير أن أشعار مالك حداد كانت منحازة إلى الثورة بشكل صريح لا يقبل التأويل، في حين ظل محمد ديب متحفظا في إعلان موقفه منها، سواء في هذا العمل أو في أعماله اللاحقة.

أجل الإجابة عن السؤالين المطروحين أعلاه، لاسيما أن الجانب الأول، الذي هو نوعية الخطاب الروائي، يشكل ـ حسب ما تبيَّن لنا من النصوص ـ استراتيجية لدى جميع الروائيين بلا استثناء، تحكمها جملة من العوامل، سنبينها بعد حين، أما الجانب الثاني، الذي هو الموقف من الثورة، فلأن له علاقة مباشرة وقوية بمسألة الهوية والانتماء القومي بالنسبة للكتاب، وكذا بالنسبة للأبطال، حيث شكل الانتماء القومي في الروايات المدروسة حافزا كان يدفع الأبطال إلى التخلي عن حيادهم، واتخاذ مواقف إيجابية من الثورة.

3 ـ مضمون الخطاب في روايات الثورة :

لقد برهن الكتَّاب، الذين أتينا على ذكر أعمالهم، في الفترة التي سبقت قيام الثورة التحريرية على التزامهم بقضايا الشعب الجزائري، ومن ثمة برهنوا على انتمائهم لهذا الشعب، وذلك عن طريق الأدب الاحتجاجي الذي كتبوه، وعبروا فيه ـ كما مر معنا في الفصل السابق ـ عن الوضعية المزرية التي كان يعيشها الجزائريون، فكانوا لسان حال الشعب في تلك الفترة العصيبة التي شملت سنين الحرب العالمية الثانية وما بعدها، لكن، كان على هؤلاء الكتاب، بعد أن اندلعت ثورة التحرير، أن يبرهنوا مرة أخرى على قوة انتمائهم إلى الشعب، وأن يكونوا ترجمانه لدى الرأي العام الفرنسي والعالمي، وهذا ما حاولوا أن يقوموا به ـ بالرغم من أن ذلك جاء متأخرا ـ وذلك من خلال خطاب ذي خصائص مميزة، حكمته ظروف خاصة، لعل أبرزها وأهمها أنه يتوجه إلى الجمهور الفرنسي.

وسوف نحاول فيما يلي ـ وكما حاولنا أن نفعل في الفصول السابقة ـ أن نعتمد في تحديد أهم خصائص هذا الخطاب، بناء على رصدنا للجزئيات المتفرقة في النصوص نفسها، قبل أن نخرج بحوصلة في الأخير نأمل أن تكون معبرة ودقيقة. وسنبدأ من البداية، مع رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد، ثم نتفحص بعد ذلك بقية الروايات الأخرى ، في خط زمني تصاعدي ، بحسب تاريخ الصدور ، وهو ما سيسمح لنا برصد أي جديد في نصوص المدونة.

* * *

رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد

يتخذ مالك حداد *، في رواية "الانطباع الأخير" [991] من مدينة قسنطينة مسرحا رئيسيا لأحداث روايته، وهي المدينة التي ولد بها، وعاش طفولته وشبابه فيها، وأحبها كثيرا، وتغنى بها في أشعاره، ويبني الحدث الرئيسي فيها على عملية تفجير الثوار لأحد الجسور الذي بني حديثا في منطقة غير بعيدة عن المدينة، لمنع قوافل الجيش الفرنسي من استعماله لمرور الدبابات والأسلحة الثقيلة التي تستعمل لزرع الموت في القرى والأرياف [992].

---

* (*) ولد بتاريخ 5 جويلية 1927 بمدينة قسنطينة، حيث نشأ وزاول تعليمه الابتدائي والثانوي، ليلتحق بالتعليم الابتدائي كمعلم مثل والده، وفي سنة 1954 انتقل إلى التحق بجامعة "أيكس أون بروفانس" بالجنوب الفرنسي لدراسة الحقوق، غير أنه تخلى عن الدراسة عندما اندلعت الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، وأصبح مناضلا بقلمه في صفوفها، يكتب في مختلف الجرائد والمجلات في فرنسا وسويسرا على الخصوص، في سنة 1956 أصدر ديونه الشعري الأول: « Le malheur en danger » (الشقاء في خطر)، وفيه اتضح توجهه الثوري ، ووقوفه الكامل في صف الثورة. وقد مثل جبهة التحرير أثناء الثورة في العديد من التظاهرات الثقافية ومؤتمرات الكتاب، التي جرت هنا وهناك، في اليابان، والاتحاد السوفييتي والهند، ومصر وسوريا. وأصدر ما بين 1958 و1961 أربع روايات تباعا هي: الانطباع الأخير (1958)، سأهبك غزالة (1959)، التلميذ والدرس (1960)، رصيف الأزهار لم يعد يجيب (1961) . وختم أعماله الإبداعية بديوانه الشعري الثاني "اسمع وأناديك" مع مقال مطول، هو في الواقع عبارة = عن بيان مطبوع بطابع شعري بارز ، عبر فيه الكاتب عن وجهة نظره في الكثير من القضايا المصيرية المتعلقة بمرحلة ما بعد استعادة السلم والاستقلال في الجزائر، مثل مسألة اللغة والدين والهوية الوطنية. وبعد الاستقلال توقف عن الكتابة الإبداعية، ولكنه ظل يكتب المقالات التي نشر معظمها في جريدة النصر التي كانت تصدر في قسنطينة باللغة الفرنسية. تقلد بعد الاستقلال عدة مناصب ثقافية في وزارة الإعلام والثقافة، كمستشار ثقافي، كمدير مركزي للثقافة، ومدير مكلف بالدراسات والبحوث والإنتاج في مجال الآداب والفنون، وأهم الأعمال التي قام بها في هذا إطار: إشرافه على أول مؤتمر ثقافي وطني أيام 31 مايو/3 يونيو 1968، وأول مهرجان إفريقي في جويلية 1969، انتخب سنة 1974 أمينا عاما لاتحاد الكتاب الجزائريين، وفي عهده عقد بالجزائر مؤتمر اتحاد الكتاب العرب العاشر والمهرجان الشعري الحادي عشر، وذلك في أبريل 1975. توفي في 2 يونيو 1978 بالجزائر .

991 Malek Haddad "La dernière impression"Ed. Julliard, Paris 1958.Reé. Bohchène, Alger 1989.

992 Ibid,p141.

ولا يفوتنا هنا، من الناحية الدلالية والجمالية، ما لهذا الاختيار من علاقة بالميزة التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة، ألا وهي الجسور، حتى لقبت بسبب ذلك بمدينة الجسور، ومن هنا تتخذ عملية نسف الجسر في الرواية، على المستوى الرمزي دلالة قوية، لتعبر، من جهة، عن جو الحرب الذي أصبح يطبع حياة المدينة العريقة، و يؤثر على هدوئها، وعلى جمالها الطبيعي الأخاذ، وتعبر من جهة أخرى، عن القطيعة الكاملة والنهائية التي أحدثتها الثورة مع النظام الاستعماري، الذي برهن طوال تاريخه أن لا فائدة ترجى من إبقاء الجسور ممدودة معه.

1 ـ أجواء الحرب في مدينة الجسور.

وقد أضفى المؤلف على حادثة نسف الجسر طابعا دراميا مؤثرا، حين جعل الثوار يطلبون من سعيد، وهو المهندس الجزائري الشاب (بطل الرواية) الذي أشرف على إنجاز الجسر أن يساعدهم على نسفه، بإرشادهم ـ من الناحية التقنية ـ إلى نقاط الضعف في الجسر، وهو ما أوقع سعيد في حيرة شديدة من أمره، بل . وفي ارتباك لا مثيل له مع نفسه وضميره، لأن مهمته كمهندس كانت تقوم على بناء الجسور لا على هدمها، لكن ، في المقابل، كان واجبه الوطني كجزائري، يحتم عليه أن لا يبقى مكتوف اليدين أمام ما يحدث، وأن يسهم بدوره، وحسب استطاعته، في الكفاح الوطني الذي يخوضه أبناء جلدته ضد الاستعمار.

يضاف إلى هذا جانب درامي آخر في الموضوع، زاد من حدة الصراع في نفس سعيد، يتمثل في أن الجسر الذي سينسف، كان أول مشروع هندسي يسند إليه، ويشرف على تنفيذه، بعد تخرجه كمهندس، ولذلك فقد كان الجسر بالنسبة إليه بمثابة مولوده البكر، بل كان أكثر من ذلك، لأن اكتمال المولود - كما يذكر الراوي - يحتاج إلى تسعة أشهر، في حين أن إنجاز الجسر تطلب من سعيد أكثر من سنة كاملة [993].

وإلى جانب نسف الجسر، الذي يشكل الحدث الرئيسي في الرواية، يصور الكاتب، أحداثا أخرى متفرقة ومتفاوتة الأهمية، منها ما يتعلق بالحياة الشخصية للبطل نفسه، ومنها ما يتعلق ببعض أفراد أسرته، ومنها ما هو تعبير عن مواقف معينة، أو مشاعر إزاء الأحداث نفسها، أو إزاء بعض الأصدقاء، أو الأقارب، أو حتى مجرد وصف لمشاهد متفرقة أحيانا من الحياة اليومية التي تشير كلها، على أية حال، إلى جو الحرب الذي أصبح يطبع حياة المدينة، كرؤية دوريات الجنود وهي تجوب الشوارع مثلا [994]. أو قوافل الدبابات والعربات وهي تأتي وتروح في اتجاهات مختلفة[995]. أو سماع دوي الطائرات الحربية المطاردة وهي تعبر سماء المدينة، إلى غير ذلك من المظاهر.

وأبرز حادث، على المستوى الشخصي أصاب سعيد في الصميم هو حادث مقتل "لوسيا"، مدرِّسة الفلسفة بإحدى المؤسسات التعليمية بمدينة قسنطينة،

993 "La dernière impression" , p37.
994 Ibid, p51.
995 Ibid, p97.

التي كانت تربطها به علاقة حب. قتلت عن طريق رصاصة طائشة حصدت حياتها في طرفة عين، أثناء تبادل إطلاق النار ـ كما نشرت الصحف المحلية في اليوم التالي * ـ بين الجنود الفرنسيين وأفراد من الفدائيين في أحد الشوارع الرئيسية بمركز المدينة [996]. وكانت "لوسيا" تتهيأ عشية ذلك اليوم للسفر، لتعود في صبيحة اليوم التالي إلى مسقط رأسها في "إيكس أون بروفانس" بالجنوب الفرنسي، بعد أن صعب عليها العيش في ذلك الجو المشحون بالخوف والعنف، والاستمرار في تأدية مهمتها التربوية التي جاءت منذ ثلاث سنوات خلت إلى الجزائر من أجل الاضطلاع بها [997]

هز هذا الحادث كيان سعيد، وأحدث شرخا عميقا في نفسه، لا لأنه يحب "لوسيا" فحسب، ولكن، لأن مقتلها كشف له شيئا لم يكن واضحا أمام عينيه من قبل بما فيه الكفاية، ألا وهو عبثية الحرب التي كان المستوطنون وأنصارهم في فرنسا من أصحاب المصالح يصرون على خوضها، ويجندون لها كل مقدرات الأمة الفرنسية، حفاظا على بقائهم في الجزائر، وعلى مصالحهم وامتيازاتهم فيها، ويذهب ضحيتها الأبرياء من الطرفين، من أمثال لوسيا، بل وأمثال أخيها "جان فرانسوا " الذي جند في صفوف الجيش الفرنسي، وجيء

* يشير الكاتب مرتين في الرواية إلى الدور السيء الذي كانت تلعبه الصحف في إذكاء نار الحرب وزرع الحقد في النفوس، بما كانت تنشره من أكاذيب ، ومنها ادعاؤها بتحالف الوطنيين مع الشيوعيين، ويذكر بالاسم جريدة "لاديش" التي كانت تصدر في مدينة قسنطينة: راجع: "La dernière impression" , p42 et 62.

996Ibid, p19.

997 "La dernière impression",, p80.

به إلى الجزائر مرغما، ليقتل بدوره فيها[998]، ومثل بوزيد أخي سعيد أيضا. الذي استشهد في إحدى المعارك ضد الفرنسيين، وترك زوجة، وطفلة صغيرة تحتاج إلى رعايته وحنانه [999]. ولا يختلف بوزيد عن "جان فرانسوا" إلا في أنه حمل السلاح طواعية وعن إيمان بعدالة القضية التي يدافع عنها، إلا أنه من جهة أخرى، وأمثاله من الثوار لم يكن لهم من خيار أمام تعنت المستوطنين، وإصرارهم على استعباد الجزائريين، إلا حمل السلاح لإزالة هذا الحيف، وتغيير ذلك الواقع: ((لقد كانت الهوة عميقة (مع المستوطنين) وملؤها يبدو مستحيلا)) [1000]

أما على المستوى الأسري، فيمكن أن نذكر في هذا الصدد حادثة مداهمة الشرطة لمنزل السيد بلحسن، والد سعيد وبوزيد ، بحثا عن هذا الأخير الذي كان قد التحق بصفوف الثوار . فقد هاجموا البيت في ساعة مبكرة من الصباح، فتسلقوا سور الحديقة، واعتلوا سطح المنزل، قبل أن يقتحموه بطريقة عنيفة ومفاجئة، أفزعت أهله الذين كانوا نياما، وجعلتهم يعيشون لحظات صعبة. ولم تشفع لصاحب البيت عند المهاجمين خدمته السابقة للعلم الفرنسي، ولا فقدانه ذراعه في معركة "فردان" (*)، دفاعا عن حرية فرنسا، ولم يعفه ذلك

---

998 Ibid p43.
999 Ibid, p157.
1000 Ibid, p37.

* معركة " فيردان " هي أكبر معارك الحرب العالمية الأولى بين الفرنسيين والألمان، فيما عرف بحرب الخنادق، ودامت أحد عشر شهرا (من شهر فبراير إلى ديسمبر 1916) وقتل فيها خلق كثير من الجانبين.

من الاستجواب، ولا منع مستجوبيه من إظهار الشك في صدق أقواله، ولا حتى من السخرية منها [1001]

وواضح من عناية الكاتب بتصوير عملية المداهمة هذه، أنه أراد أن ينقل صورة حية عن الممارسات اليومية الفظة التي كانت تتعامل بها قوات الشرطة والجيش الفرنسيين مع الجزائريين، حيث كانت تنتهك حرمات بيوتهم في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار ، فتعتقل الرجال، وتروع الآمنين من الأطفال والنساء والشيوخ ، وقد تلحق الإهانة والأذى حتى بمن خدم الدولة والأمة الفرنسية ، وقدم تضحيات في سبيلها مثل السيد بلحسن .

ولا يفوت المؤلف أن يقدم لمحات عن أسرة بلحسن الصغيرة هذه ، التي خرج منها الإبنان الثائران، بوزيد وسعيد، وذلك من خلال مشاهد صغيرة من حياتها اليومية العادية، بحيث تبدو لنا أسرة متوسطة الحال، على قدر لا بأس به من الثقافة، يجمع أفرادها التعاون والمحبة والوئام، ولا شيء فيها يهيئها لأن تكون منبتا للحقد والشر، وإخراج العتاة من القتلة وقطاع الطرق، وهي الصورة التي دأبت الدعاية الاستعمارية على ترويجها عن الثوار الجزائريين، بل إن بوزيد كان على العكس من ذلك تماما، كان رجلا قوي الإحساس بالمسؤولية، يقدر الحياة الأسرية، ويحب زوجته وطفلته، ويعمل بكل ما أوتي من قوة على إسعادهما، ولكنه كان في الوقت نفسه يرتب

1001 “La dernière impression”, p64.

الأولويات، ويقدم حب الوطن والتضحية في سبيل حريته على حب الأسرة والتضحية من أجلها .

ومع هذا، فإن بوزيد لم يكن بالرجل الصارم الذي لا يرى من الحياة إلا وجهها الجاد، فقد كان يتحلى أيضا بروح الدعابة، ويمزح أحيانا، ولكن لم تكن دعابته لتنسيه الأمور الجادة، ولا كان مزاحه خلوا من أي هدف أو معنى، وهذا الجانب يؤكد فيه صفاته الإنسانية النبيلة التي ذكرناها له ولا ينفيها. وفي هذا السياق يورد المؤلف حكاية ديك الأسرة الذي كان يخطئ التوقيت، ويصيح قبل الفجر ، فيجد بوزيد في ذلك مادة للمزاح، ويطلب من أمه ذات يوم قائلا: "عليك أن تأخذي هذا الديك لمصلِّح الساعات " [1002].

غير أنه، وبعد اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954، أصبح بوزيد يرى في صياح الديك قبل الأوان معنى آخر، فكان يردد: ((إن هذا الديك ليس بليدا بهذا القدر، إنه ليس هو المتقدم ولكن نحن المتأخرون ..)) [1003].

ولهذه الخصال التي تجمعت في بوزيد نجد أخاه سعيد معجبا به، رغم اختلاف الطباع بينهما ، فقد كان سعيد مزيجا من الشاعر والعقلاني [1004]. في حين كان بوزيد على العكس من ذلك ميالا بطبعه إلى العمل الميداني، بعيدا عن التفلسف - كما تعكس شخصيته خصاله المذكورة - بل لعل إعجاب سعيد بأخيه يأتي من هذا الاختلاف الموجود بينهما، الذي يجعل الأخ الأصغر يحس

1002 Ibid, p60.
1003 "La dernière impression",,p60.
1004 Ibid, p18.

أنه يفتقر إلى مزايا وأخلاق أخيه، وأهمها ، بلا شك، قوة العزيمة، ووضوح الرؤية، وروح المبادرة. ولهذا كان يحلو لسعيد أن يردد دائما أن بوزيد هو "مثله الحي"، و"ضميره الموجه" [1005].

ويأتي وصف المعركة التي دارت في أحد الجبال، بين الثوار والقوات الفرنسية، واستشهد فيها الأخوان بوزيد وسعيد معا، لينهي بها المؤلف روايته، وتكون خاتمة قوية لكل الأحداث التي ذكرناها آنفا. وقد عمل المؤلف على نقل المشاعر والأحاسيس الإنسانية في ذلك الجو المتوتر أكثر مما عمل على وصف الأحداث في حد ذاتها، كما أنه لم يلجأ، وهو يتحدث عن التفوق الكبير للقوات الفرنسية في العدة والعدد، إلى أي نوع من التهويل أو المبالغة، واهتم، عوضا عن ذلك، بوصف مشاعر المتحاربين، وما يجول في خواطرهم من أفكار وقلق وتوتر، وأضفى حتى على آليات الدمار نفسها، التي يستعملها الجيش الفرنسي شيئا من قلق المتحاربين، واستعار لها بعضا من هواجسهم. يتجلى لنا ذلك في قوله: ((في الأسفل ، على الطريق، كانت الكلمة للدبابات، كانت تهذر كيفما اتفق، وتطلق نيرانها بلا هدف ولا اقتناع، ولم تكن الطائرة قد رأت شيئا بعد، ولا أخرجت الطريدة من مكمنها. لابد أن النظارات المقربة تبحث الآن، ولا بد أن مركز الاتصال بالراديو قد فقد صبره. وتطايرت أتربة مرتفع أرضي كان على اليمين. لقد أطارت القذيفة كل شيء فيه في السماء. ولحسن الحظ أنه لم يكن هناك أحد)) [1006].

1005 Ibid, p56.
1006 Ibid, p155.

2 ـ معركة غير متكافئة

وأمام هذا التفوق الساحق للقوات الفرنسية، بفضل ما تمتلكه من أسلحة ثقيلة، ومن وسائل تكنولوجية عالية القدرة والكفاءة، لم يكن بيد الثوار من سلاح حقيقي، بعد الصبر والإيمان، إلا ما توفره لهم أرض بلدهم من حماية طبيعية ، كالجبال، والغابات، والصخور، والكهوف. فتصبح الأرض في هذه الحال الأم الحنون، التي تضمهم إلى صدرها، وترد عنهم غائلة تلك الأسلحة الفتاكة. بل إنهم يجدون حتى في تقلبات الجو، وتعاقب النهار والليل ما يوفر مثل تلك الحماية. فقد تمنحهم ظلمة الليل مثلا غطاء يسمح لهم بالإفلات من قبضة العدو، ومن رصد الطائرات الاستطلاعية لتحركاتهم:

((لا بد من انتظار الليل، صديق الرجال الذين ليس لديهم دبابات ولا طائرات.. ولكن طائرة الاستطلاع الصغيرة في الأعلى تبدو فاقدة الصبر، إنها تدور وتدور. إنها تفقد أعصابها...))[1007]

كما تصبح الصخور صديقة للمقاتلين، لأنها تحميهم من نيران الدبابات، وتمنعها من أن تدوسهم:

((أيها الصخر، كن صديقا للرجال الذين لا يمتلكون دبابات ولا طائرات، و يا أيها الليل لا تتأخر..))[1008]

3 ـ انحياز المؤلف الى صف الثورة

لكن المؤلف، حتى وإن لم يكن ليخفي في هذا الموقف تعاطفه مع الثائرين، فإنه في المقابل لم يكن أقل تعاطفا مع أولئك الشبان الفرنسيين الذين

1007 "La dernière impression", p157.
1008 Ibid, p157

كانوا يجندون رغما عنهم، ويدفع بهم إلى الموت، مثل "جان فرانسوا" الذي أشرنا إليه آنفا، فهم أيضا رجال، لهم مشاعر وأحاسيس، ولهم آباء وأمهات، يعيشون يوميا حالة القلق عليهم، وينتظرون بفارغ الصبر نهاية الحرب، وقد لا يرجع بعضهم إلى ذويه إلا في صندوق مثل ما حدث لـ"جان فرانسوا":

((جثمان صغير، حار وحزين، إنه جثمان جان فرانسوا، أخو لوسيا. إنه مدعو لأداء الخدمة العسكرية. إنه مدعو ، وكان لابد من أن يدعى إلى ربه، ولا بد أن يذكّر الناس بهذا *..))[1009].

والمؤلف هنا إنما يؤكد من جديد على الرسالة التي سبق أن عبر عنها من قبل عند مقتل "لوسيا"، ومفادها أن مسؤولية الحرب لا تقع إلا على عاتق المستفيدين منها من المستوطنين المستغلين، ومن المتحالفين معهم في فرنسا من تجار السياسة والحروب. أما الشبان الذين يخوضون الحرب من الطرفين، إنما هم ضحايا هؤلاء وأولئك من المستغلين، ووقود حربهم.

* يستغل الكاتب المعنى المزدوج الذي تحمله لفظة: rappeler الفرنسية التي تعني: الاستدعاء كما تعني التذكير، ليستعملها مرة واحدة بالمعنيين معا، وهو ما لا يمكن فعله عند الترجمة .

1009 “La dernière impression” , p142.

رواية "صيف إفريقي" : مشاهد من الحرب في المدينة والأرياف.

من جهته، يتخذ محمد ديب ** في رواية "صيف إفريقي" [1010] من مدينة تلمسان، مسقط رأسه، والقرى المجاورة لها فضاء مكانيا له، ليروي لنا جملة من الوقائع والأحداث المتفرقة التي وقعت في هذه النواحي، في صيف إحدى السنوات الأولى لثورة التحرير، إلا أنه، وكما تقتضي قواعد الفن الروائي، الواقعي بالخصوص، فإن هذه الأحداث لا يقدمها المؤلف بمعزل عن الحيز الزماني والمكاني الذي وقعت فيه، ولا بمعزل عن الوسط الاجتماعي الذي يتجسد من خلال شخصيات روائية تصنع الحدث أو تتأثر به بشكل من الأشكال، ومن خلال شبكة العلاقات التي تربط تلك الشخصيات بوسطها الاجتماعي، وببعضها بعضا، ومن هنا تأتي الأحداث المتعلقة بالثورة متفرقة في الرواية، وضمن سياق الحياة اليومية العادية التي تتحرك فيها الشخصيات، بحيث لا تحتل تلك الأحداث في واقع الأمر- على أهميتها - إلا حيزا صغيرا من الانشغالات اليومية الخاصة للأبطال.

وعلى هذا النحو نرى أن الانشغال الرئيسي لأسرة "مختار راي"، التي يقدمها لنا المؤلف في بداية الرواية كنموذج لأسر الطبقة المتوسطة في المجتمع التلمساني في ذلك الحين، إنما كان منصبا على مستقبل "زكية"، الإبنة الوحيدة لـ"مختار راي"، التي حصلت على شهادة البكالوريا في تلك السنة،

** سبق التعريف بالكاتب في الفصل السابق.

1010 Mohammed Dib "Un été africain" Ed. Du Seuil. Paris 1959.

وأصبح أمرها يشغل كل أفراد الأسرة، وكانت زكية ترغب في أن تقتحم الحياة العملية وتصبح معلمة، حتى لا تضيع كل تلك السنوات التي قضتها في الدراسة وتحصيل العلم بلا طائل، وكان التعليم آنذاك - فيما يبدو - هو المهنة الوحيدة، بالنسبة للمرأة، التي يمكن أن يغض المجتمع المحافظ الطرف عنها، لكن والدها بدا مترددا في تحقيق رغبة ابنته، بعد أن كان قد واعدها بذلك، غير أن قوله لابنته، عندما طرحت عليه موضوع الوظيفة مجددا: ".. إن كل شيء قد تغير الآن "[1011] يفهم منه أنه كان يلمِّح إلى "أحداث" الثورة المسلحة في تلك الأيام، كما يمكن أن يكون السبب أيضا هو رفض الوسط الاجتماعي لمبدأ عمل البنت، مهما كان نوع العمل، حتى في مجال التعليم، وهو ما لا يستطيع مختار راي تجاهله، حتى وإن كان - وهو الرجل المتعلم - لا يقره، كما لا يستطيع، للسبب نفسه، أن يصارح به ابنته، وقد تولت أمه العجوز "غازية " مهمة التعبير عن التيار المعارض، وذلك حينما رفضت بشدة فكرة أن توظف حفيدتها في التعليم أو في غيره، محذرة ابنها من أن ذلك سيجعل من اسمه واسم ابنته مضغة في أفواه أهل المدينة كلها، ونصحته بقولها: ((ابحث لها عن زوج، فذلك أصلح لها..))[1012].

وفي هذا الجو الذي بدا فيه أن لا شيء يشغل أفراد أسرة مختار راي إلا مستقبل ابنتهم، يأتي "علال طالب" لزيارة بيت أخته، زوجة مختار راي، وهو صاحب معمل صغير لتحميص القهوة، وعندها فقط يخرج حديث الأسرة

1011 "Un été africain". p43

1012 "Un été africain", p8.

عن الدائرة الضيقة لهمومها الذاتية إلى ما كان يجري خارج البيت من أحداث.

يسأل علال صهره:

- ((... وهذه الأحداث ، يا مختار راي ، هل سنعرف قريبا ما ستسفر عنه ؟

- من يستطيع أن يعرف ذلك ؟

- أنتم الذين تعملون في إحدى مصالح الدولة ، فأنتم تعرفون دائما أشياء أكثر لا تريدون الإفصاح عنها. إن لدي من التجربة ما يكفي لفهم موقفك...))[1013].

غير أن الحديث عن الأمور ذات الطابع العام، سرعان ما ينقطع بشكل مفاجئ ، لينحو من جديد نحو الأمور الشخصية، وذلك عندما يحاول "علال طالب " أن يبدد أي نوع من سوء الفهم بينه وبين صهره، فيقول له: ((إنني حينما أقول لك إنكم تعلمون أكثر مما تفصحون عنه، فإنه عليك أن تعرف أن هذا لا يزعجني كثيرا. إنني أقول هذا من أجل شيء واحد لا غير.. إن لدي مخزونا من القهوة بما يكفي لتشغيل معملي بعض الوقت ، لأنه لا أحد يدري ما تأتي به الأيام...))[1014].

ويرين الصمت بين الرجلين لبعض الوقت قبل أن يقطعه مختار راي بتعليق على كلام صهره، بما يوحي أنه يعرف فعلا بعض الحقائق التي لا يريد أن يفصح عنها:

1013 "Ibid, p13.
1014 Ibid, p13.

ـ هذا تدبير جيد بالنسبة إليك..إن لي شبه فكرة هي أن ما يجري لن يتوقف عما قريب [1015].

1 ـ شخصيات حائرة بين الهموم الشخصية وهم الحرب

وعلى هذا النحو يمازج المؤلف بين الهموم الذاتية لأبطال روايته، وبين الهم المشترك الذي أصبح يشغل كل الناس في تلك الأيام، ويتكرر هذا المزج بين ما هو ذاتي وخاص، وما هو مشترك وعام مع بقية الشخصيات التي نتعرف عليها تباعا في ثنايا الرواية، بحيث تبدو الشخصيات في نهاية الأمر، كأنها ترغم إرغاما على التخلي لبعض الوقت عن همومها الذاتية، لتخوض فيما أصبح يشكل حقيقة يومية في حياة كل الناس.

ذلك هو حال جمال الذي استقال من وظيفته، لأسباب لا تبدو واضحة، سوى أن نفسه عافت العمل في إحدى المصالح الإدارية التي كان يشتغل بها [1016]، وأصبح همه الرئيسي هو البحث عن عمل يعيل به أسرته، لكنه، وأثناء بحثه عن العمل كان يقابل معارف وأصدقاء له، في مختلف الأماكن العامة، كالشوارع، والمقاهي، والدكاكين، فيتحدثون عن الهموم والمشاغل الشخصية، ولكن يتبادلون أيضا الأحاديث والأخبار حول ما يحدث *.

1015 Ibid, p13.

10161016 "Un été africain", p82.

* يقدم المؤلف لقطات عديدة من تلك الأحاديث التي كانت تدور بين الناس، التي غالبا ما تبدأ بالانشغالات الشخصية، وتنتهي بالحديث عن العمليات المسلحة، وفي هذه الحال، يكثر الهمس، ويبدو الحوار غامضا بعض الشيء، وقد يكون من طرف واحد فقط، وأبرز مثال على ذلك، تلك اللقطات التي قدمها المؤلف في مطعم حمزة، بين هذا الأخير وبين بعض زبائنه ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم: Cf. Cha. VIII. P, 67 à 77.

وذلك أيضا هو حال "مصطفى والي"، الذي ماتت زوجته وتركت له طفلة صغيرة تحتاج إلى رعايته، فكان يقضي كامل وقته، بعد ساعات العمل، منصرفا للعناية بطفلته، والسهر على تربيتها، إلا أن الأحداث كانت أقوى من أن تتركه في حال سبيله، ولم يقف الأمر بالنسبة إليه عند مجرد تعليق عابر على الأحداث، أو حوار ثنائي حذر بينه وبين شخص آخر يثق فيه، ولكنه وجد نفسه ذات يوم وقد جرفه التيار إلى صميم دوامة الأحداث، فقبض عليه بجريرة أخيه "أحمد والي"، الذي كان منخرطا في إحدى الخلايا الثورية، وفي طرفة عين انقلبت حياته رأسا على عقب، فحيل بينه وبين طفلته، وأرغم على تركها للمجهول: ((وأحس مصطفى في تلك اللحظات أن شيئا ما يتمزق في داخله)) [1017].

الفلاح "رحمون" وحده، من بين هذه الشخصيات، هو الذي يقدمه لنا المؤلف كشخص ملتزم كليا مع الثورة، حيث كان ـ بسبب طبيعة عمله كمزود للثوار بما يحتاجون إليه من مؤن [1018] ـ يشكل حلقة وصل بين المقاتلين في الجبال والخلايا الثورية التي كانت تنشط داخل المدينة، بالإضافة إلى مهمة أخرى أسندت إليه في وقت لاحق، وهي الفصل فيما ينشأ بين أهل القرية من نزاعات، أو خصومات، حتى لا يلجؤوا بسبب ذلك إلى العدالة الاستعمارية [1019].

1017 "Un été africain", p158.
1018 Ibid p 37.
1019 Ibid, p38.

ومع هذا فإن "مرحوم" نفسه لم يكن في أول أمره يختلف في شيء عن الشخصيات التي تعرفنا عليها من قبل، إذ لم يكن بدوره يشغله في حياته إلا أرضه، وعمله كفلاح، لكن تطورات الأحداث غيرت حياته رأسا على عقب، وشكلت وعيه على أساس جديد، فقد كانت تلك الأحداث من الأهمية والخطورة بما لا يسمح أبدا ببقاء الناس على الحياد، وكان لابد له أن يختار صفا يقف فيه، وكان من الطبيعي أن يختار الوقوف في صف الثورة، لا لأنه ينتمي إلى الأغلبية المضطهدة فحسب، ولكن، لأن الفرنسيين كانوا يدفعون الجزائريين، بسبب معاملتهم لهم، إلى اتخاذ مواقف معادية لفرنسا، إذ أنهم لم يكونوا يميزون بين من حمل السلاح ضدهم وبين من كان مسالما، فطائراتهم كانت تقصف القرى والأرياف بلا تمييز، وعملياتهم القمعية ضد الأهالي كانت لا تستثني أحدا، ومنذ اليوم الذي انخرط فيه في العمل الثوري تغيرت حياته تغيرا جذريا، فخرج من الدائرة الضيقة التي كان يعيش فيها منصرفا إلى أرضه وزراعته، إلى دائرة أرحب وأوسع، هي دائرة العمل الجماعي المنظم، الذي يشمل القرية، والمدينة، والمجتمع ككل، وأصبح عمله كفلاح مجرد غطاء يستعمله لإخفاء نشاطه، ويبرر به أسباب تنقله بين القرية والمدينة.

هذا هو نوع الشخصيات التي يقدمها المؤلف في رواية "صيف إفريقي"، وهي، كما نلاحظ شخصيات شعبية بسيطة، تتكون من موظفين، وتجار صغار، وبطالين، وفلاحين، نجدهم في غالبيتهم أناسا مسالمين، منصرفين في معظم الوقت إلى تحصيل رزقهم ورزق عيالهم، لكن آلة القمع الاستعماري تعامل

الجميع على حد سواء، وقد تدفع ببعضهم - ولا سيما الشباب منهم - نتيجة لتلك المعاملة، إلى الالتحاق بصفوف الثوار.

2 - قمع في المدن وقصف للقرى والارياف

ذلك ما حدث، على سبيل المثال، في قرية الفلاح مرحوم عقب عملية تمشيط واسعة قامت بها القوات الفرنسية، بعد أن بلغها أن بعض سكان القرية قد استقبلوا جماعة من الثوار في بيوتهم ، وآووهم وأطعموهم ، فكانت نتيجة العقاب الجماعي القاسي الذي تعرض له كل أهل القرية أن التحق معظم الشبان بصفوف الثورة [1020].

ولم يكن الأمر في المدينة مختلفا عن القرية إلا في أساليب القمع، وفي الدوافع التي تجعل الشبان يلتحقون بالثورة، وهذا ما حاول المؤلف أن يعبر عنه من خلال مواقف عديدة ومتفرقة في الرواية. فإلى جانب الأوضاع المعيشية المتردية وحالة الفقر والبطالة التي عبر عنها المؤلف من خلال عرضه للوضعية الصعبة التي كان يعيشها جمال، هناك حالة الحرب التي كانت المدينة تعيش على وقعها، وتتجسد من خلال العديد من المظاهر، كالدوريات العسكرية التي كانت تنتشر في كل مكان في المدينة[1021]، والأسلاك الشائكة التي تسد منافذها على الناس[1022]. ومداهمات البيوت الآمنة، والقبض على أناس أبرياء، مثل مصطفى والي الذي أشرنا إلى ما حدث له آنفا[1023]. والزج بهم في السجون لمجرد الاشتباه فيهم، وتعذيب بعضهم إلى درجة إلحاق عاهات جسمية ونفسية

1020 "Un été africain", p24.
1021"Un été africain", p20.
1022 Ibid, p21.
1023 Ibid, p158.

مستديمة بهم مثل ذلك القروي الذي دخل مطعم "حمزة"، وكشف لبعض الزبائن، في شيء من التردد وعدم الاطمئنان، بعض ما حدث له من تعذيب وحشي في المعتقل[1024].

وتبدو العمليات المسلحة التي يقوم بها الثوار، من خلال رواية "صيف إفريقي"، مجرد مناوشات، وإزعاج للسلطات، فقد كانوا يستهدفون، في الغالب، تخريب المنشآت الحيوية للدولة وإلحاق الضرر باقتصاد المستوطنين، كتفجير قضبان السكة الحديدية[1025]، أو قطع أشجار الكروم، أو حرق مزارع المستوطنين الواقعة على أطراف المدينة[1026]، ولم يرد فيها ما يشير إلى ارتكاب عمليات قتل، لكننا نجد رد الفعل في المقابل لدى القوات الاستعمارية بشكل لا يتفق أبدا وحجم تلك العمليات، من تفتيش، وتمشيط على نطاق واسع، وقنبلة للقرى والأرياف بالطائرات والمدفعية الثقيلة، وحرق لمزارع الفلاحين الجزائريين ، وهدم لبيوتهم[1027]. لكن الأسوأ من ذلك أن الجنود كانوا يقتلون الناس والحيوانات [1028]، ويتلفون المواد الغذائية التي يجدونها في البيوت[1029]؛ حتى يموت جوعا من ينجو من الفلاحين من القتل المباشر بالسلاح ووسائل الدمار، وهو ما كان يثير دهشة بعض الجنود الفرنسيين أنفسهم مما يفعله زملاؤهم، ومن الأوامر العليا التي كانت تصلهم ، وتشجعهم على ارتكاب مثل تلك الأعمال الإجرامية [1030].

1024 Ibid p70,71.
1025 Ibid, p19.
1026 Ibid, p39.
1027 Ibid, p169.
1028 Ibid, p170.
1029 Ibid, p172.
1030 Ibid, p169.

رواية "أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار

وتتبع آسيا جبار [1031]* في روايتها "أطفال العالم الجديد" [1032] خطوات حداد وديب، حين تتخذ من مسقط رأسها (مدينة شرشال) مسرحا لأحداث روايتها "أطفال العالم الجديد"، التي تدور أحداثها سنة 1956، أي أنها تتزامن، تقريبا، مع أحداث روايتي "الانطباع الأخير" و"صيف إفريقي" *،

---

* اسمها الحقيقي فاطمة إمالاين، ولكنها اشتهرت باسمها الأدبي "آسيا جبار"، ولدت بمدينة شرشال في 4 أغسطس 1936. زاولت دراستها الابتدائية والمتوسطة بمسقط رأسها، وواصلت تعليمها الثانوي بالقسم الداخلي لثانوية "موزاية" بالبليدة . عندما حصلت سنة 1953 على شهادة البكالوريا، والتحقت بمدرسة تخريج الأساتذة بـ "سافر Sèvres " (إحدى ضواحي باريس) سنة 1955، بعد أن نجحت في المسابقة التي أجرتها المدرسة المذكورة، وتخصصت في مادتي التاريخ والجغرافيا ، غير أنها توقفت عن الدراسة سنة 1956، دون أن تحصل على الشهادة، استجابة لنداء جبهة التحرير الوطنية، الذي وجهته في 19 مايو من السنة المذكورة للطلبة الجزائريين، لكي يتوقفوا عن الدراسة، ويلتحقوا بصفوف الثورة.، لكنها عادت بعد سنة من ذلك لتكمل الدراسة وتحصل على شهادة الليسانس في التاريخ. وفي سنة 1958 تزوجت، والتحقت بتونس، لتسهم في الأعمال الاجتماعية لجبهة التحرير، وأجرت مجموعة تحقيقات صحفية في مخيمات اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية الجزائرية. واغتنمت فرصة وجودها بتونس لتعد دبلوما عاليا في التاريخ بالجامعة التونسية، ومن تونس سافرت إلى المغرب، واشتغلت بالتدريس في جامعة الرباط إلى أن عادت إلى الجزائر غداة الاستقلال سنة 1962، حيث واصلت مهمة التدريس في قسم اللغة الفرنسية بجامعة الجزائر. وبعد زواجها الثاني سنة 1978 اختارت العودة إلى باريس، حيث تقيم منذ سنة 1980، وإلى حد اليوم. أصدرت أول رواية لها سنة 1957 بعنوان " العطش La soif "، أتبعتها برواية "القلقون Les impatients " (1958)، وتعالجان موضوعات اجتماعية، أما روايتها الثالثة "أطفال العالم الجديد" فتتعلق بثورة التحرير، وقد كتبتها أثناء وجودها بالمغرب، ونشرت في سنة 1962. ثم أصدرت أعمالا أخرى بعد الاستقلال روائية وسينمائية، وفكرية متنوعة ، أهمها: رواية "القبرات الساذجة Les alouettes naïves " (1967)، و"نساء مدينة الجزائر في بيوتهن" (1980) وفيلم "نوبة نساء جبل شنوة " الذي حصلت به على جائزة في مهرجان البندقية سنة 1979 ، وفيلم تلفزيوني بعنوان "الزردة وأغني النسيان" من إنتاج التلفزة الجزائرية سنة 1982. وقد اختيرت مؤخرا (حسب جريدة El-Watan بتاريخ 99/10/14) عضوا في الأكادمية الملكية البلجيكية للغة والأدب الفرنسي، التي تسند بعض المقاعد فيها إلى الكتاب الفرانكوفونيين الأجانب، وذلك لتحل محل الكاتب الأمريكي باللغة الفرنسية "جوليان قرين" الذي توفي هذا العام .

1031Assia Djebar « Les enfants du nouveau monde », Ed. Julliard, Col.10-18. Paris 1962.

* وردت إشارة مباشرة في الرواية إلى سنة 1956 عندما سألت "سليمة" السجان عن تاريخ اليوم، لتعرف كم مضى عليها في زنزانتها، فدس لها ورقة في اليوم التالي كتب عليها تاريخ ذلك اليوم وهو 24 مايو 1956، كما وردت إشارتان أخريان

وتشترك مع رواية محمد ديب هذه على الخصوص في كثرة أبطالها، بحيث تتخذ بذلك طابعا ملحميا، وتتوزع فيها البطولة على عدد كبير من النساء والرجال.

- إبراز دور المرأة في الثورة

وبدايتنا بذكر النساء هنا مقصودة، نظرا للعناية الخاصة التي أولتها الكاتبة لإبراز دور المرأة الجزائرية في الثورة، وقد بذلت جهدا معتبرا لتقديم نماذج عديدة منهن بلغت سبعا، كلهن في سن الشباب، حيث تتراوح أعمارهن ما بين السادسة عشر (حسيبة)، والتاسعة والعشرين (شريفة)، ولكنهن يختلفن اختلافا كبيرا من حيث المستوى الثقافي والاجتماعي، فمنهن المثقفة ثقافة عالية مثل ليلى وسليمة وسوزان (وهي فرنسية متزوجة من محام جزائري)، ومنهن المتوسطة الثقافة مثل حسيبة وتومة، ومنهن الأمية مثل شريفة وآمنة، أما من حيث المستوى الاجتماعي فيرجعن في معظمهن إلى الطبقة الوسطى الميسورة الحال، باستثناء سليمة التي كانت تعيل نفسها وأمها وأخواتها المطلقات، وكذا " تومة " التي دفعها الفقر والشعور بالحرمان إلى الانحراف الأخلاقي.

ونلاحظ، بهذه المناسبة، أن الكاتبة لم تكتف، في الواقع، بإبراز دور المرأة الجزائرية في الكفاح التحرري فحسب ولكنها تجاوزت ذلك إلى تصوير

إلى السنة بطريقة غير مباشرة، الأولى عندما قرر علي ترك الدراسة والالتحاق بالجبل، وقد مضى على بداية "الحرب" ثمانية عشر شهرا، وهو ما يتوافق وتاريخ نداء جبهة التحرير في 19 مايو 1956 للطلبة الجزائريين، التي دعتهم فيه إلى ترك الدراسة والالتحاق بالثورة، وكذا عندما تعرف "يوسف" على المحامي "خالد" الذي كان قد دافع عنه "منذ ما يزيد عن عشر سنوات" حينما قبض عليه في مظاهرات 8 مايو 1945: Cf :« Les enfants du nouveau monde » p98 , 99 et 189

المعوقات الاجتماعية التي كانت تعترض طريق المرأة، وكانت لها آثار سلبية على دورها في الكفاح، وأهم تلك المعوقات، الأحكام المسبقة الموجودة عند الرجل عن المرأة، التي تأتي على الخصوص من تصور الرجل أنها غير قادرة على القيام بما يستطيعه هو، ولا سيما إذا تعلق الأمر بقضايا كبيرة وخطيرة مثل الكفاح ضد المستعمر. كما نلاحظ ـ من خلال ما تستعرضه الكاتبة ـ أن مثل هذا التصور لا يقتصر على غير المتعلمين من الرجال فقط ، ولكنه يشمل أيضا من يتمتعون منهم بمستوى علمي وثقافي عال، وهذا ما يفسر، على سبيل المثال، موقف علي، طالب الطب، من زوجته ليلى، الذي كان يخفي عنها نشاطه الثوري، ولا يطلعها على أي شيء مما كان يقوم به، مع أنها كانت زميلة له في الجامعة، بالإضافة إلى كونها زوجته، وحين لمّحت له ذات يوم بأنها تعرف نوع النشاط الذي يقوم به أثناء غيابه عن البيت، وعرضت عليه أن تشاركه فيه قائلة:

((لقد قمنا بكل شيء معا، لم لا آتي معك، ما ذا تفعل؟ سأفعله معك)) [1033]

كان جوابه الصمت. وعندما قرر الصعود إلى الجبل كان قراره انفراديا، ولم يستشرها في الأمر، كما لم يخطر بباله أن يعرض عليها اصطحابها معه، ولم تتجرأ هي على طلب ذلك منه، أو لنقل إن كبرياءها منعها من ذلك، ولم تشأ أن تجابهه بحقيقة يعرفها جيدا، وهو أن هناك نساء كثيرات موجودات في الجبال، يشاركن في الكفاح إلى جانب أزواجهن.

1033 « Les enfants du nouveau monde », p73.

وبقطع النظر عما يمكن أن يقدمه علي من مبررات لموقفه هذا، الرافض لإطلاع زوجته على نوع النشاط الذي كان يقوم به، أو اصطحابها معه إلى الجبل، بما في ذلك المبررات العاطفية كحبه لها، الذي قد يكون من وراء ذلك، حماية لها من المخاطر المهلكة التي تكتنف نشاطه، غير أن هذا لا يلغي فكرة أن موقفه - وهو الطالب الجامعي - يتطابق والنظرة التقليدية للمرأة، التي تنفي عنها قدرتها على القيام بالمهمات الخطيرة نفسها التي يقوم بها الرجل، أو القدرة على كتمان السر، وهذا بالتقريب ما تتضمنه تساؤلات ليلى مع نفسها حين راحت تحاول أن تجد تفسيرا لتصرف زوجها إزاءها، لقد عاملها معاملة الرجل للمرأة، بالمعنى التقليدي الذي أشرنا إليه، باعتبارها حملا يثقل كاهله، ويحد من حريته في الحركة والانطلاق. تقول متسائلة مع نفسها: ((أيكون قد فكر في نفسه، دون أن يجرؤ على قول ذلك حتى لنفسه، أن يتخلص مني ؟ لعلني كنت حملا عليه ؟)) [1034].

وعلى أية حال، لن نعالج هذه المسألة هنا، لأنها ستخرجنا عن السياق الذي حددناه لأنفسنا في هذا المبحث، ألا وهو تحديد ملامح مضمون الخطاب الروائي في نصوص المدونة، ومن هنا نلاحظ أن اهتمام آسيا جبار في "أطفال العالم الجديد" لم ينصرف كثيرا إلى وصف مظاهر القوة العسكرية للجيش الفرنسي، وعملياته القمعية في المدن، ونشره للخراب والموت في القرى والأرياف - كما رأينا ذلك في روايتي "صيف إفريقي" و"الانطباع الأخير" - وإنما انصرف اهتمامها إلى التركيز على إحدى الممارسات الوحشية التي كانت

1034 Ibid p130.

مستعملة بكثرة في مراكز الشرطة وثكنات الجيش الاستعماري، ألا وهي عمليات التعذيب التي كان يتعرض لها المناضلون الجزائريون، كوسيلة لانتزاع المعلومات منهم. ومن خلال ثلاث حالات من هذا النوع، تكشف المؤلفة عن ممارسات همجية، يتجرد فيها الإنسان من إنسانيته، الجلاد والضحية على السواء، بحيث يتحول الأول إلى وحش كاسر، يتغذى على لحم أمثاله من البشر، ويتلذذ بآلامهم، ويتحول الثاني في يده إلى مجرد كائن ضعيف، مهان ومحتقر، فاقد لكرامته الإنسانية، وفاقد - في مرحلة معينة - للإحساس حتى بالألم من شدة التعذيب الذي يكون قد تعرض له. وفيما يلي نحاول أن نستعرض هذه الحالات، ونحلل بعض الجوانب فيها.

الحالة الأولى التي تعرضها الكاتبة بشكل إجمالي موجز هي حالة "سي عبد الرحمان"، صاحب الفرن، الذي اقتيد من فرنه بمئزر العمل، ليخضع للتعذيب لمدة ثلاثين ساعة متواصلة، حسب بعض الأخبار التي تسربت من وراء جدران محافظة الشرطة إلى الناس عنه، ثم يلقى به، بعد أن استنزف من كل قواه في بيته، ليظل طريح الفراش مدة شهر بأكمله[1035].

والحالة الثانية هي حالة "سعيدي"، التي تتوسع فيها المؤلفة بعض الشيء، لتروي بعض التفاصيل عن التعذيب الذي تعرض له هذا المناضل، ومن ثمة تستطرد لتتحدث عن ماضيه. وكان قد قبض على سعيدي بتهمة الاشتراك، مع مناضلين آخرين، في اجتماع سري بمحافظ سياسي نزل من الجبل. وكان

1035 « Les enfants du nouveau monde », p92.

على سعيدي أن يدلي للشرطة بكل المعلومات التي يعرفها عن موضوع الاجتماع، والهدف الذي عقد من أجله، واسم المحافظ السياسي الذي نزل من الجبل، وأسماء المناضلين الآخرين الذين اشتركوا في الاجتماع. كان هذا بالتقريب هو مضمون الأسئلة التي طرحها المفتش "حكيم " على سعيدي، قبل أن يسلمه، بسبب رفضه الإجابة، للجلادين اللذين بعث بهما "مارتيناز"، نائب مفتش الشرطة، وقد حضرا لسبب ظاهر هو مساعدة "حكيم" في استنطاق المتهم، لكونهما متخصصين في أساليب التعذيب وانتزاع المعلومات بوسائل القهر، أما السبب الخفي فلأن نائب المحافظ لا يثق في "حكيم"، لأنه عربي، ويخشى، لهذا السبب، أن يكون، كما فكر في نفسه: "سكينا ذا حدين"[1036]، أي أنه ربما يتظاهر بإخلاصه للنظام الاستعماري، ويتعاون في الخفاء مع أبناء جلدته. ويشير هذا الموقف الحذر إلى انعدام ثقة المستعمرين في الجزائريين، مهما كان إخلاصهم لهم وتفانيهم في خدمة النظام الاستعماري.

كان منظر وسائل التعذيب وحده كاف لأن يدخل الرعب في قلوب الضحايا، ولكن سعيد كان مصمما على الصمت مهما كلفه الأمر، حفاظا على سلامة رفاقه الآخرين: ((وألقى سعيد نظرة على المكان.. وراح يتأمل ببرود الخيوط، والجرادل، ومولد الكهرباء (الذي عرفه قبل غيره) وحوض ماء متنقل بجانب الجدار..))[1037].

1036 Ibid p156.
1037 , « Les enfants du nouveau monde »,, p159.

ولا تقف المؤلفة طويلا مع وصف وسائل التعذيب، ولا مع الكيفيات التي يمارس بها الجلادون مهمتهم القذرة مع ضحاياهم، فبعد أن ينزعوا عن سعيدي ثيابه، وسط عبارات السخرية والضحكات الهستيرية، ويعطي "حكيم" إشارة البدء بتعذيبه، تنتقل المؤلفة إلى الحديث عن ماضي سعيدي، لكن ليس ماضيه الذي جعل منه رجلا ثوريا - كما يتوقع القارئ - ولكنه ماض نكتشف فيه أن سعيدي كان رجلا مستهترا، أو " رأسا محروقة "، حسب تعبير المؤلفة " (كناية على عدم تردده في الإقدام عما يعن له في رأسه، دون تفكير في العواقب)، وقد أوردت هذا الوصف على لسان علي، الذي روي لليلى إحدى أشهر مغامرات سعيدي، التي جعلت منه "بطلا " في أعين الغوغاء في بلدته، وذلك حين دخل في مغامرة عاطفية مع زوجة أحد المستوطنين الأوروبيين، فأغواها، وزين لها فكرة الهرب معه، واختفى لمدة ثلاثة أيام معها، إلا أن العدالة الاستعمارية نظرت إلى المسألة على أنها عملية اختطاف للمرأة، واغتصاب لها، وحكمت عليه بعشر سنوات سجنا، قضى منها، بعد الطعن في الحكم، أربعا فحسب[1038].

وتبقى الأسباب التي جعلت سعيدي يتحول من رجل مستهتر إلى رجل ثوري مجهولة في ثنايا هذه المغامرة، التي أسهبت المؤلفة في روايتها، مع أننا لا نجد فيها، من الناحية الفنية ما يبرر كل تلك الصفحات الطوال التي خصصتها لها، ما عدا أنها أرادت بذلك أن تثبت عناد هذا الرجل وصلابة إرادته، التي

1038 Ibid, p170

جعلته يصمم على الصمت، ولا يبوح بأسماء زملائه المناضلين، إلى آخر نفس في حياته. حيث فاضت روحه بين يدي جلاديه دون أن يذكر اسما واحدا.

وتنهي المؤلفة هذا الفصل الذي خصصته لسعيدي بالعودة مرة أخرى إلى غرفة التعذيب، لتختم المشهد على النحو التالي: ((في الوقت الذي يروح فيه المساعدان يلبسان فيه الجثة ثيابها، يتجه "مارتينيز" إلى النافذة ليفتحها، لأنه لم تعد هناك حاجة لكتم الصراخ، ويكرر "حكيم" في صوت خافت قوله "لقد مات"، ثم يخرج من جيبه منديلا كبيرا ويمسح به جبينه))[1039].

والحالة الثالثة التي تستعرضها المؤلفة لعمليات التعذيب تخصصها لـ"سليمة "، وهي فتاة في الثلاثين من عمرها ، عصامية. ومكافحة في حياتها، تعمل معلمة في إحدى المدارس الرسمية التابعة للدولة، وتنشط ضمن شبكة التنظيم الثوري داخل المدينة، وقد أوكلت إليها مهمة سهلة تتفق وطبيعة عملها، ألا وهي مهمة الاتصال. حيث كان عملها كمعلمة يتطلب منها الخروج كل يوم من البيت، وهو ما يجعل تحركها عاديا. وغير ملفت للنظر. ومع ذلك، وبالرغم من حذرها الشديد، فقد تنبهت إليها عيون الشرطة الاستعمارية، في آخر مهمة كانت تقوم بها. حيث كانت قد قصدت بيت "محمود"، مسؤول التنظيم الفدائي داخل المدينة، مبعوثة من قبله لتطمئن زوجته، وتعلمها بصعوده إلى الجبل. بعد أن انكشف أمره للسلطات. ولم تكن تدري أن الشرطة

1039 « Les enfants du nouveau monde », 186.

كانت تراقب المنزل عن كثب، وترصد حركة كل من يدخل إليه أو يخرج منه[1040].

ويمكن اعتبار هذه الحالة الأخيرة نموذجية في الرواية، نظرا للعناية التي أولتها الكاتبة لها، والمساحة الأكبر التي خصصتها لها. ويبدو أن مرد هذه العناية من الكاتبة بحالة سليمة، يعود أولا إلى كونها امرأة، وقد سبق لنا أن ذكرنا من قبل أن الكاتبة كانت حريصة أشد الحرص في هذه الرواية على إبراز دور المرأة الجزائرية في الكفاح من أجل التحرر، لكن يوجد هناك سبب آخر - في نظرنا - مرده إلى ممارسة التعذيب في حد ذاته، باعتباره همجية لا يليق أن تمارس باسم دولة متحضرة، تدعي أنها بلد الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، ناهيك إذا كانت هذه الممارسة ضد النساء. علما أن الكاتبة لم تركز في هذه الحالة أيضا - تماما مثل ما فعلت في الحالتين السابقتين - على وصف عمليات التعذيب، ولكنها ركزت على وصف ظروف الاعتقال القاسية، من جهة، وعلى الحالة النفسية للشخصية، من جهة أخرى، بأساليب مختلفة، وبالأخص عن طريق المداولة بين الوصف المباشر حينا، واستعمال تيار الوعي لدى البطلة حينا آخر.

وقد تمكنت الروائية، عن طريق الأسلوب الأول أن تقدم صورة دقيقة عن ظروف الاعتقال القاسية التي كانت أحيانا أسوأ من عمليات التعذيب المباشر، كحبسها في زنزانة مظلمة لا تميز فيها بين الليل النهار، وباردة، لا فراش فيها

1040 Ibid, pp101, 102.

ولا غطاء [1041](2) ، ومثل "نسيانها" أحيانا مدة يوم بأكمله، بلا طعام ولا ماء [1042](3)، كما تمكنت، عن طريق الأسلوب الثاني، أن تتغلغل في نفسية الشخصية، وتعبر عن جملة من المشاعر الدقيقة في نفسيتها ، وتكشف عن كثير من التفاصيل الصغيرة في حياتها، حتى تلك التي تعود إلى زمن الطفولة. وباستعمالها لهذا الأسلوب الأخير (تيار الوعي) تكون الكاتبة قد عملت على تحقيق هدفين فنيين في آن واحد، أحدهما يتعلق بتعميق أبعاد الشخصية الروائية، برسم خلفية اجتماعية وثقافية ونفسية لها، تعزز جانبها الاحتمالي (الواقعي)، والآخر يتعلق بتوافق الحالة النفسية للبطلة مع مقتضى الحال، أي محاولتها التخلص من واقعها المؤلم، عن طريق الاستسلام للذكريات، والهروب إلى كل ما هو مريح ومطمئن في حياتها السابقة، وبالأخص مرحلة الطفولة، وهي المرحلة التي يرى علماء النفس أن الفرد يلجأ إليها حين يجد نفسه في حالة عجز كلي عن القيام بأي فعل، فيلجأ إلى ذلك كدفاع عن النفس، وكنوع من الهروب من مواجهة الواقع[1043] وقد كان هذا هو حال سليمة، التي كانت تجد راحة حقيقية في استعراض ذكرياتها القديمة، وقد يحدث لها أن تنسى بالفعل واقعها وآلامها المبرحة: ((على هذا النحو صنعت حولها عالما كانت تعلم أنه مصطنع، ولكنه كان يربطها بسنوات دراستها القديمة، وبالتعليم،

1041 , « Les enfants du nouveau monde »,, p95,96.
1042 Ibid, p97.

1043 راجع: سيجموند فرويد "معالم التحليل النفسي"، بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص131،130.

والقراءة، وبذل الجهد..))[1044] ...كانت ممددة على السرير * ، بلا غطاء، ومع ذلك لم تعد تشعر بالبرد. لقد كانت سليمة مستغرقة في هذه العذوبة المثيرة التي تمكنت من إختلاسها))[1045].

وكان جو الحبس الانفرادي الذي كانت فيه البطلة، وظلمة الزنزانة، والسكون الذي يلف المكان يساعد على إثارة الخيال، واستعادة الذكريات، بل يدفع إليها دفعا. ولم تقف تلك الذكريات عند حدود مرحلة الطفولة وحدها، فقد راحت سليمة تستعيد في ذاكرتها أيضا أدق التفاصيل عن ذلك اللقاء الذي كان قد جمعها بمحمود قبل القبض عليها، وكانت تحس نحو محمود إحساسا غامضا لا تتجرأ على أن تصارح نفسها به وتسميه حبا، لأنه كان متزوجا، ولكنه على أية حال، كان نوعا من الإعجاب به، بررته على نحو غامض أيضا بصلة القرابة التي كانت تربطها به، وذلك ما جعلها تثق به، وتطمئن إلى العمل معه. وقد قدمت للشرطة بالفعل رابط القرابة هذا كمبرر عن زيارتها لبيت محمود، وظلت مصرة على قولها[1046] وهكذا راحت سليمة تستعيد في ذاكرتها كل ما دار بينها وبين محمود من حوار في آخر لقاء بينهما، وتعيش من جديد مختلف المشاعر التي أحست بها أثناء ذلك اللقاء. وتنتقل بعد ذلك إلى باقة الزهور البيضاء التي اشترتها حينما ذهبت لزيارة زوجة محمود، والعطر الذي رشتها به ربة البيت حينما اعتذرت لها عن شرب القهوة بسبب ضيق الوقت.

1044 « Les enfants du nouveau monde », p103.

* أعطيت سريرا بعد أن انهي استنطاقها، وبعد مضي عشرة أيام من تاريخ القبض عليها.

1045 « Les enfants du nouveau monde », p104.

1046 , « Les enfants du nouveau monde »,, p109.

إلى أن تصل إلى حادثة القبض عليها مساء يوم تلك الزيارة، فتقطع شريط الذكريات لتعيده من الأول، وتستدرك في كل مرة تفاصيل نسيتها في المرة السابقة ، لتضيف إليها انطباعات ومشاعر أوحت بها التفاصيل الجديدة.

غير أن لجوء سليمة إلى مثل هذه الذكريات الجميلة والمريحة، والتلذذ بها في هدوء ودعة لم تكن لتستمر لفترات طويلة، فقد كان فتح باب الزنزانة عليها بشكل مباغت، وعلى غير موعد، من أجل جلسة استنطاق جديدة، يعيدها إلى واقعها الأليم، كما كان صراخ المعذبين يخترق الجدران أحيانا، ويتناهى إليها من الطابق العلوي، فيخرجها من أحلامها العذبة، حيث تصاب بنوع من التوتر، وتسد أذنيها لكي لا تسمع الصراخ، وتلجأ مرة أخرى إلى عهد الطفولة، لكن، لا لتستعيد الذكريات في هذه المرة، وإنما لتستعيد الآيات القرآنية التي حفظتها في تلك المرحلة من العمر، إذ تأبى هويتها وثقافتها الأصلية إلا أن تظهر هنا بشكل شبه غريزي، فتروح ترددها بشكل آلي، كنوع من حماية الذات ، ومحاولة لاسترجاع الثقة وهدوء النفس[1047].

لقد لعبت المؤلفة كثيرا على هذا الجانب النفسي في صمود البطلة، وقد نجحت فيه إلى حد بعيد، غير أنها غيَّبت في الوقت نفسه جوانب أخرى لا تقل أهمية، كالجانب السياسي والأيديولوجي مثلا، رغم الصور المثالية التي أسبغتها الكاتبة على معظم أبطالها. إن سليمة لم يكن في وسعها أن تتحمل كل ذلك العذاب لولا إيمانها القوي بعدالة القضية التي كانت تكافح من أجلها،

1047 Ibid p181.

ولولا اقتناعها العميق بأن صمتها وصمودها إنما هو تضحية في سبيل تلك القضية، وحماية لمناضلين آخرين سيواصلون الكفاح، بفضل سكوتها، من أجل انتصار قضيتهم المشتركة. لقد غيب هذا الجانب في الرواية تماما، لحساب الجانب النفساني للأبطال، حتى إن الكاتبة جعلتنا نستنتج من خلال السياق، أن سعيدي لفظ أنفاسه بين يدي جلاديه ـ كما مر معنا ـ بسبب طبعه العنيد، لا بدافع حماية رفاقه من أجل مواصلة الكفاح وانتصار الثورة.

ولا يفوتنا هنا، ونحن نتحدث عن العناية التي أولتها الكاتبة في روايتها لإبراز مسألة ممارسة التعذيب من قبل الشرطة الاستعمارية على المناضلين الجزائريين أثناء الثورة، أن نقف قليلا مع مسألة ملفتة للنظر، تتعلق بصورة الفرنسي "الأصيل"، والفرنسي الهجين، فقد جعلت المؤلفة الجلادين الذين يمارسون التعذيب من هذا النوع الأخير، أي من اختصاص "مارتينيز" نائب المحافظ، الذي يشير اسمه إلى أصله الإسباني، ويساعده في ذلك "حكيم"، الذي يحاول من خلال تعذيبه لأبناء جلدته من الجزائريين أن يقدم دليل الطاعة والولاء لرؤسائه، ومن خلال ولائه لهم دليل تفانيه في خدمة الوجود الاستعماري في الجزائر، وفي مقابل هذا نجد محافظ الشرطة، السيد "جان"، المنحدر من أصل فرنسي قح ، بعيدا عن هذه المهمة "القذرة "، بحيث نجد مهمته تتوقف عند حدود الاستجواب الشفوي لا غير، رغم أنه المسؤول الأول في المحافظة، وحتى في هذه المهمة يبدو السيد "جان" مثالا للذكاء والألمعية، ونموذجا للرجل المهذب والمتحضر، بحيث يحاول أن يحصل على المعلومات عن طريق محاصرة المتهم بالأسئلة، وإرباكه بالمناورة والمداورة، وإيقاعه في

التناقض، مع ما يلزم ذلك من تمثيل، وإظهـار للصـرامة، دون أن يفقـده ذلـك شيئا من اتزانه، أو يجعله يتخلى حتى عن استعمال ضمير الجمع في الخطاب، كما تقتضي قواعد السلوك المهذب لدى الفرنسيين، حتـى ولـو كـان المخاطـب متهما، أما أدوار الفظاظة والقسوة "التي من ضمنها نـزع الكلفـة في الحـديث"، فيتركها لمساعديه [1048] من الفرنسيين الهجناء.

وتتألق صورة هذا الفرنسي الأصيل، المهذب، والمتحضر، أكثـر فـأكثر إذا تعلق الأمر بامرأة، ففي حالة سليمة، نراه منـذ البدايـة غـير مرتـاح لاسـتعمال العنف معها من قبل مساعديه، كما بدا مسـتعجلا في الأخـير مـن أجـل إنهـاء التحقيق معها، لا سيما أن عشرة أيام من التعذيب لم تسفر معها عن أية نتيجة إيجابية، وهذا مـا يفسـر رفضـه القـاطع والحـازم لاقـتراح مسـاعديه بتجريـب أساليب جديدة في التعذيب ترغم المتهمـة علـى الاعـتراف. قـال، وكأنـه يثـور لشرفه: ((أنا آسف ، إنني لن أفعل هذا مع النساء، لا، لـيس في محـافظتي، ليس هنا)) [1049].

وتتأكد هذه الصورة المثالية للفرنسي الأصيل مع "سيزان"، صديقة ليلى، وزوجة عمر المحامي. فبالرغم من أنها لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرهـا، إلا أن هذه الفرنسية "الأصيلة" تبدو امرأة ناضجة جدا، وواثقة من نفسها ومـن تصرفاتها إلى أبعد الحدود، فهي لا تقدم على فعل أي شيء إلا إذا فكرت فيه، فإذا اقتنعت به لم تأبه بعد ذلك بما يمكن أن يفكر فيه الناس، وهذا مـا فعلتـه

1048 , « Les enfants du nouveau monde », p109.
1049 Ibid p110.

حين تزوجت من عمر، متحدية كل الأحكام المسبقة التي كانت تحكم العلاقة بين الجالية الأوروبية والجزائريين، وصامدة في وجه كل الضغوط التي مورست عليها من أهلها لمنع ذلك الزواج، ومتحملة مقاطعة والديها لها بعد الزواج [1050].

وقد عبرت لها صديقتها ليلى، بشكل مباشر وصريح، عن إعجابها بقوة شخصيتها، وعن أسفها في الوقت نفسه أن لا تكون هي قوية مثلها: ((إنك امرأة بحق، كما كنت أود أن أكون، فكلك جدية، وبرودة أعصاب. إن هذا هو النضج، أليس كذلك ؟ السيطرة على الذات، نعم إنني أغبطك على هذا)) [1051].

مع العلم أن ليلى وسوزان كانتا صديقتين منذ الصغر، وزميلتين في الدراسة [1052]، أي أن حظهما من التعليم والثقافة كان متساويا، ولكن التربية الأسرية - فيما يبدو - كان لها من التأثير في صنع شخصيتيهما ما هو أقوى بكثير من تأثير العلم الذي تلقياه معا - ونعتقد أن هذا ما أرادت الكاتبة أن تقوله من خلال المقارنة الضمنية التي أجرتها بين هاتين الشخصيتين - فكانتا على هذا النحو المختلف تماما. ولئن لم تقدم المؤلفة أية معلومات عن نشأة "سوزان"، فإنها في المقابل أعطت معلومات كثيرة عن نشأة ليلى. ومن خلال تلك المعلومات تبدو لنا ليلى طفلة مدللة، رغم فقدها لأمها وهي في سن مبكرة، فقد حظيت بعناية خاصة من والدها، الذي سهر على تربيتها، وشجعها على مواصلة تعليمها، ووفر لها كل أسباب النجاح، رغم معارضة الأهل له في ذلك.

1050 , « Les enfants du nouveau monde »,, p128.
1051 Ibid, p124.
1052 Ibid, p118.

وهذه النشأة جعلتها قليلة الخبرة بالحياة، تعتمد في كل شيء على والدها، واستمر ذلك الشعور معها بعد أن كبرت وتزوجت، فأصبح علي بالنسبة إليها صورة أخرى من والدها، تشعر معه بالحماية والأمان، ولذلك أصيبت بما يشبه الذعر حين أخبرها بأنه سيصعد إلى الجبل، وكان شعورها، أمام هذه الوضعية أشبه ما يكون بشعور الطفل إذا أحس بأنه مهدد بفقدان حماية والديه، ولذلك نراها تواجه الموقف بالصراخ والبكاء مرددة عبارة: "وأنا، وأنا ؟" وهو ما جعلها تبدو في عيني زوجها امرأة أنانية لا تفكر إلا في نفسها [1053].

وفي مقابل هذه الصورة نجد "سوزان" تواجه الموقف نفسه - وهو قرار زوجها بالرحيل إلى فرنسا - بكل هدوء، وتناقش معه قراره بالعقل والمنطق، وتحاول أن تثنيه عن قراره بإقناعه أن رحيله إلى فرنسا غير مناسب في ذلك الظرف، لأن مهمته النبيلة كمحام، تقتضي منه أن يبقى في الجزائر ليدافع عن المظلومين: ((إنك هنا ستدافع على الأقل عن الآخرين، وتكون مفيدا للضحايا، إن لم تكن مفيدا للمقاتلين..)) [1054].

لكن زوجها ظل مصرا على ضرورة الرحيل، وضرورة اصطحابها معه، وحينئذ وجدت نفسها مرغمة على اتخاذ موقف واضح وصريح، فأفهمته أن فكرة رحيله في ذلك الظرف يعد " نوعا من الهروب " [1055]، أما فيما يخصها

1053 Ibid, p129.

1054 « Les enfants du nouveau monde » p127.
1055 Ibid, p125

هي، فهي ترفض الرحيل معه. قالت له في حسم: ((سأبقى هنا.. حتى لو استمر هذا (حالة الحرب) عشر سنوات))[1056].

وحتى إلى آخر لحظة، قبل أن يغادر المنزل، ظل عمر يكرر عرضه عليها بالرحيل معه، وظلت تكرر رفضها لدعوته، دون أن تضعف لحظة واحدة. وبعد رحيل زوجها لم تستسلم "سوزان" لا للحزن، ولا للبكاء، ولا لمقاطعة الناس والانطواء على الذات كما فعلت ليلى، بل إنها، على العكس من ذلك راحت تكسر طوق العزلة عن نفسها، وتحاول أن تشغل نفسها، إلى جانب العناية بابنتها الرضيعة، بعمل مفيد ، وقد وجدته في المهمة النبيلة التي تخلى عنها زوجها، ألا وهي الدفاع عن المتهمين بالانتساب إلى الخلايا الثورية، حتى ولو كان ذلك بشكل غير مباشر، لأنها لم تكن محامية، وكان ذلك عن طريق لجوئها إلى محامين من أصدقاء زوجها ليقوموا بهذه المهمة، وكانت أولى قضاياها هي قضية "سليمة" التي جاءت أمها تبحث عن عمر ليقوم بمهمة الدفاع عنها، فقد تكفلت سوزان بالقضية، واتصلت بالمحامي "خالد" ليتولى الدفاع عنها، ويزورها في السجن، وتكفلت هي من جهتها بالاتصال بمديرة المدرسة التي كانت تعمل بها سليمة، وبمفتش التعليم بالمنطقة ليتدخلوا لدى السلطات لصالحها، ويساعدوا في التعجيل بإطلاق سراحها[1057].

1056 Ibid, p127.
1057 Ibid, p133.

لقد لعبت "سوزان" الفرنسية دورا كان يفترض أن تقوم به ليلى الجزائرية، والعكس صحيح ولكن الأدوار انعكست، فحاولت "سوزان" أن تمنع زوجها من الهروب إلى فرنسا لكي يضطلع بواجبه الوطني تجاه إخوانه وبلده، وبرهنت بذلك على أنها حين اختارت أن تكون جزائرية، فإنها اختارت ذلك عن اقتناع كامل، مع ما يلحق ذلك من تبعات، ومنها بالطبع واجبات المواطنة وحقوقها، في الوقت الذي لم تستطع فيه ليلى - رغم ثقافتها - أن ترتقي إلى هذا المستوى من الوعي أو من الفاعلية، وحاولت على عكس "سوزان" أن تمنع زوجها من القيام بواجبه الوطني.

وعلى أية حال، فإن المؤلفة، حتى في حالة ما إذا كانت قد قصدت أن تجري مقارنة ضمنية بين "سوزان" الفرنسية وليلى الجزائرية، مع الفرق الواضح بين النموذجين، فإننا لا نظن أنها قصدت إلى تقديم نموذج عام مطلق للمرأة الجزائرية، بدليل أنها قدمت في روايتها نماذج نسوية جزائرية أخرى عديدة في صورة مثالية عالية، وإذا قصدت المؤلفة أن توجه النقد لموقف ليلى من زوجها ومن الثورة، الذي لم يكن موقفا في مستوى ثقافتها، فإننا نظن أنها كانت تقصد نقد تلك الشريحة من بنات المجتمع البورجوازي الجزائري من أمثال ليلى، اللاتي ربما أرادت المؤلفة أن تقول بأنهن لم يكن في مستوى المسؤولية التاريخية في فترة الكفاح الوطني.

أما فيما يخص تلك الصورة الإيجابية التي رسمتها المؤلفة لمحافظ الشرطة، وللسيدة "سوزان" من جهة، والصورة السلبية لـ"مارتنيز" نائب

المحافظ، من جهة أخرى، فإنها تذكرنا بقوة بتلك الصورة المثالية لـ "الفرنسي الأصيل" التي طالما روجت لها روايات الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية في المرحلة الأولى 1925 - 1952 على الخصوص، التي كثيرا ما جاءت مجسدة في شخص "الأستاذ" *، بينما تأتي العنصرية دائما، والمواقف المعادية للجزائري من أوروبيين ينحدرون من أصول غير فرنسية **، إلا أن الغرض من هذه الصورة هنا مختلف فإذا كان الفرنسي "الأصيل" في الروايات السابقة يبدو عادلا في تعامله مع "الأهلي" وغير عنصري، فإنه في هذه الرواية يبدو صاحب ضمير حي، وأخلاق عالية، وغير مستعد للتخلي عن القيم الحضارية التي تشبع بها، حتى في ظروف الحرب (صورة المحافظ)، ومثالا للوفاء ونكران الذات، والشعور بالمسؤولية إزاء الآخرين، والعمل على مساعدتهم في محنهم (صورة سوزان).

وفي اعتقادنا أن هذه الصورة، ليست إلا خرافة لا أساس لها من الصحة ***، وهي أشبه ما تكون بخرافة "المتوحش الطيب" (Le bon primitif) التي روج لها الرومنتكيون في القرن التاسع عشر لأن المسألة ليست مسألة أعراق

---

* الأستاذ رودومسكي في رواية "مامون" لشكري خوجة، و"دورتان" في "بولنوار" لرابح زناتي، وآخرها الأستاذ "بواري" في رواية "نوم العادل" لمولود معمري"، بل والأستاذة "لوسي" في رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد، ولكن هناك شخصيات أخرى يتجسد فيها الفرنسي الأصيل المثالي، مثل مدير المنجم في رواية "زهراء زوجة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، والسيد "لورمون" مدير الصنع في رواية "ليلى فتاة جزائرية" لجميلة دباش.

** مثل المواقف العنصرية التي تعرض لها الملياني في رواية "زهراء زوجة المنجمي"، حين أدخل السجن بسبب شجاره مع "كريمتشي" الإيطالي ، وكذا البطل في رواية "مامون" عندما كان يبحث عن وظيفة في الإدارة الاستعمارية ولم يجد إلا وظيفة بواب، راجع ذلك في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث.

*** هذه المسألة تحتاج إلى دراسة مستفيضة، ليس هنا مكانها، تدخل في نطاق الدراسات الأدبية المقارنة التي تهتم بدراسة الصور والخرافات التي تكونها الشعوب والأمم عن بعضها البعض.

بطبيعتها "أصيلة" ونبيلة وأخرى هجينة ووضيعة، والفكرة في أساسها فكرة خاطئة وعنصرية ، ولكنها ببساطة - وكما سبق أن بينا في الفصل الأول من هذا البحث - مسألة تتعلق بالنظام الاستعماري في حد ذاته كنظام استغلالي، يقوم في الأساس على استعباد الشعوب، وتجريدها من أبسط حقوقها الإنسانية، واستغلال سواعد أبنائها، ونهب ثرواتها، يتساوى في هذا الاستعمار الفرنسي أو الإنكليزي أو البرتغالي أو الإسباني أو الإيطالي أو غيره، حتى وإن اختلفت الأساليب من بلد إلى آخر، والتاريخ يشهد على صدق هذا القول. ولو كان الأمر متعلقا حقا بالعرق "الأصيل" و"النبيل" للفرنسيين، وتمسكهم بقيم الثورة الفرنسية النبيلة ، لما كان هناك استعمار فرنسي للجزائر أو لغيرها من الشعوب الأخرى، أو على الأقل - وقد حصل هذا الاستعمار بالفعل، وهيمن عليه أقوام آخرون دخلاء، وأصبحوا هم المستعمرين الحقيقيين، كما يحاول هؤلاء الروائيون أن يوهمونا - لكان كل مؤيدي ثورة التحرير ومناصريها من الفرنسيين "الأصلاء"، في حين أننا نعرف يقينا أن الذين أيدوا الثورة الجزائرية، وساعدوا الجزائريين على استعادة حريتهم واستقلالهم كانوا من مختلف الأعراق والأديان، وممن لا دين لهم، سواء في الجزائر نفسها، أو في فرنسا، أو في غيرها من بلدان العالم.

- الانتماء القومي والموقف من الثورة

جدير بنا أن نذكّر هنا أولا بأن الكاتب الاستيطاني "ألبير كامو" كان أول من بادر باتخاذ الانتماء القومي كعامل حاسم بالنسبة للموقف من الثورة

الجزائرية، حيث رجح هو شخصيا عامل الانتماء القومي على الوقوف إلى جانب الحق *، وإلى هذا يشير مالك حداد في رواية "الانطباع الأخير" حين يقول: ((وخطر ببال سعيد مقالا لـ" كامو" كان قد قرأه مؤخرا، جاء فيه: إن الوقت قد حان لكي يلتحق كل واحد بقومه))[1058].

وهي إشارة تعبر، من خلال السياق الذي وردت فيه، عن خيبة أمل المثقفين الجزائريين في مثقف وكاتب كبير مثل "كامو"، كانوا ينتظرون منه أن يكون نصيرا قويا للثورة الجزائرية، ومدافعا عن حرية الجزائر، بلده بالمولد والنشأة، مثل ما كان مدافعا عنيدا عن حرية فرنسا، بلده بالانتماء، أثناء الاحتلال الألماني لها، انطلاقا من مبدإ أن الحرية حق لجميع البشر بلا استثناء، وأن الدفاع عن هذا الحق لا يقبل التجزئة. إلا أن "كامو"، مع ذلك، يكون بموقفه هذا قد قدم حجة - دون قصد منه - للكتاب الجزائريين كانوا في أمس الحاجة إليها، مفادها أنه: إذا كان "كامو" قد انحاز بحجة الانتماء القومي إلى صف الظلم، المتمثل في الاستعمار، فكيف لا ينحازون هم إلى قضية قومهم العادلة، الذين ثاروا من أجل استرجاع حريتهم المغتصبة ؟.

وبالفعل، فإننا حين نتفحص نصوص هذه المرحلة نجد أن الانتماء القومي كان حقا عاملا مهما في الانحياز إلى الثورة، سواء بالنسبة للكتّاب، أو بالنسبة للأبطال، الذين كانوا يعكسون إلى حد كبير موقف الكتّاب أنفسهم،

---

* (*) راجع موقف "ألبير كامو" من الثورة الجزائرية في الفصل3 من الباب 1 من هذا البحث، بعنوان"إشكالية الهوية والانتماء" ص11.

1058 "La dernière impression", p55.

غير أن ما يلفت النظر أن التعبير عن هذا الموقف لم يكن يتم في أغلب الحالات من منطلق أيديولوجي محدد، ولكن من واقع معيش، ومن وضعية مفروضة، باعتبارهم ـ أي الكتاب أو الأبطال على السواء ـ أفرادا ينتمون عرقيا وثقافيا إلى المجموعة السكانية الكبيرة المسلمة في البلد، المضطهدة سياسيا، والمهضومة الحقوق اجتماعيا وثقافيا، والمستغلة اقتصاديا من قبل الأقلية الأوروبية. ومن هنا يتخذ الموقف في الرواية نوعا من الحتمية بالنسبة للبطل، ويبدو البطل كأنه لا خيار له في الانحياز إلى بني قومه، لأنه لا يستطيع التخلص من جلده، ولأن الأقلية الاستيطانية لا تقبل بانتمائه إليها، مهما كانت ثقافته، أو شهادته العالية، أو مكانته المرموقة في المجتمع، ومهما أظهر من الإخلاص وحسن النوايا نحوها لأنها ببساطة لم تكن لتقبل أبدا أن يشاركها "الأهالي" في الامتيازات التي كانت تتمتع بها.

لقد عبر مالك حداد عن هذين المعنيين معا في موقف لبطل روايته "الانطباع الأخير" وذلك حينما طرح عليه محدثه، الدكتور "لوجوندر"، سؤالا عن انتمائه السياسي، بعد ما فهم من لهجته التي كان يتحدث بها أنه من الوطنيين ، فأجابه :

((لا أدري إن كنت وطنيا، ولكن ما أدريه جيدا، هو أنني جزائري)) [1059]

ويعلق المؤلف بعد ذلك، بأن جلسة العشاء الحميمية مع "لوسي"، وطيبة الدكتور "لوجوندر"، منعته من أن يضيف عبارة أخرى قد تجرح مشاعر

1059 "La dernière impression",, p29.

جليسيه. يقول: ((ولم يتجرأ سعيد على التصريح بأنه يخشى أن يتحول إلى مناهض للفرنسيين، وإن له من أسباب ذلك ما لا يحصى))[1060].

وفي موضع آخر يرد سعيد على من قال له "إنك لست مثل الآخرين" (أي الجزائريين الآخرين)، لأنه يستطيع أن يتحدث إليه عن "روني شار" و"بيتهوفن" *فيقول له: ((إنك مخطئ، فأنا مثل الآخرين، وشهاداتي الدراسية لا تضيف لي شيئا، ولا تنقص شيئا.... إنني مثل الآخرين، إنني مع الآخرين.... كل شيء يربطني بهم، وكل شيء يجعلني أعرف بهم، ولا وجود لي إلا معهم. لقد اختارت الشجرة غابتها، والنوتة سمفونيتها. إنهم وحدهم الذين يفهمونني، وحدهم الذين أستطيع أن أفهمهم حقا، إنهم أهلي »[1061].

وهكذا نجد العديد من أبطال روايات هذه الفترة ينحازون إلى صف الثورة، لا عن اقتناع بمبادئ الثورة، ولكن، لأنه لا خيار لهم إلا الانحياز لصفها، بحكم الانتماء، أو بدافع من سياسة المستعمرين العنصرية إزاء الجزائريين، تماما مثل سعيد الذي أشرنا إليه منذ قليل، فقد كان منصرفا إلى مهنته كمهندس، فخورا بإنجازه لأول جسر يشرف عليه بنفسه بعد تخرجه، ولم يفكر أبدا في الاتصال بالثورة، ولا في الإسهام بأي شكل من الأشكال في

1060 "La dernière impression", p29.

* روني شار من شعراء المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا ، وكان سريالي المذهب ، أما "بيتهوفن" فهو الموسيقي الألماني الشهير الذي عاش في القرن التاسع عشر .

1061 "La dernière impression", p110.

الكفاح التحرري الذي كان على أشده آنذاك، ولكن الثوار هم الذين اتصلوا به، وطلبوا منه أن يزودهم بالمعلومات التقنية لنسف الجسر الذي كان قد بناه[1062]

وقد احتاج بطلنا إلى بعض الوقت لكي يستوعب حقيقة ما طلب منه، وبعض الوقت لكي يتغلب على الصراع النفسي الذي راح يعتمل في داخله، نظرا لما كانت تنطوي عليه فكرة نسف الجسر من عبثية في نظره أول الأمر، ولكنه في النهاية بدا مقتنعا بالحجة التي قدمها له الثوار، وهي منع القوات الفرنسية من استخدام الجسر لعبور الدبابات والآليات الحربية، لكي تزرع الدمار والموت في القرى والأرياف المجاورة[1063] وبقطع النظر عما إذا كان سعيد قد اقتنع حقا بالحجة التي قدمت له أو لم يقتنع بها، وبقطع النظر أيضا عن مدى صدق مشاعر الانتماء والوطنية التي غمرته فجأة، وحولت عملية نسف الجسر في نظره من العبثية إلى نوع من التضحية بالمجد الشخصي في سبيل أبناء وطنه، فإن هامش الخيار عنده كان محدودا، إن لم يكن منعدما، بل يمكن القول أنه وجد نفسه "مورَّطا"، بشكل أو بآخر، في العمل الثوري.

والفلاح مرحوم في رواية "صيف إفريقي" كان أيضا منصرفا إلى أعمال الزراعة، لا يشغله شيء آخر عنها، ولا يحسن شيئا آخر غيرها، إلى أن اتصل به الثوار وطلبوا منه التكفل بتزويدهم بما يحتاجون إليه من المؤونة، ثم أضافوا له في وقت لاحق مهمة فض النزاعات بين الناس، لكي لا يلجؤوا

1062 Ibid, p37.
1063 Ibid, p141.

إلى القضاء الاستعماري[1064]، مع أنها كانت مهمة تتجاوز استعداده وقدراته، ولكنه حتى في هذه الحالة لم يكن له خيار.

ويجد "خالد بن طوبال"، بطل رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" لمالك حداد نفسه في وضع لا يختلف كثيرا عن وضع سعيد ومرحوم، مع أنه كان يعيش في فرنسا، فشعوره الحاد بالانتماء إلى الجزائر جعله يعاني من الناحية النفسية آثار الحرب التي كانت تجري في الجزائر، كما لو كان يعيش في الجزائر. وقد عبر المؤلف عن حال خالد بن طوبال هذه أحسن تعبير، وبشكل دقيق، حين قال:

((إن الوطني لا يصنع الوطن، لكن الوطن يمكنه أن يصنع الوطنيين، أما الباقي فليس إلا ادعاء))[1065].

وهذا المعنى ينطبق ـ كما هو واضح ـ على حال سعيد ، كما ينطبق على حال رحمون أيضا، ويعني أن نموذج خالد أو سعيد أو رحمون هو نموذج شائع ومتكرر ، كما يعني، من جهة أخرى، أن الفرد بهذا المفهوم ليس هو في نهاية الأمر إلا محصلة تضافر مجموعة من العوامل والظروف الحتمية، أحدها عامل الانتماء، هي التي تحكمه، وهي التي تكيفه وتوجهه نحو هذه الوجهة أو تلك . ومن هنا نستنتج أن الخطاب في هذه النصوص الروائية يأخذ طابعا تبريريا، فالبطل مجبر على الانحياز إلى الثورة، إما تحت ضغط الواجب الذي يفرضه

1064 "Un été africain", p 37,38.
1065 « Le Quai aux fleurs ne répond plus », p26.

الانتماء، وإما نتيجة للسياسة الاستعمارية التي تدفع به إلى أن يكون ضدها، وفي كلا الحالين هو مجبر.

لكن، هل يفسر هذا خلو الخطاب الروائي في مدونتنا من أية مضامين تستلهم بشكل ما أيديولوجية الثورة الجزائرية ؟ الواقع أن هذا يمكن أن يكون تفسيرا منطقيا ومعقولا لو تعلق الأمر بالخطابات التي تأتي على لسان هؤلاء الأبطال الذين وجدوا أنفسهم فجأة " ثوارا بالرغم منهم" - إن صح التعبير - ولكنه ينطبق على خطابات كل الأبطال في روايات المدونة بلا استثناء، ومنهم بالطبع أبطال "أطفال العالم الجديد" الذين أغفلنا الإشارة إليهم هنا عن قصد، لأنهم يختلفون بعض الشيء عن أبطال روايات مالك حداد ومحمد ديب، إذ يتميزون بنوع من الحماس الثوري الذي لا نجده في أبطال الروايات الأخرى، حيث يبدون أكثر اقتناعا بالعمل الثوري، وأكثر حماسا وتصميما على تجسيد إرادتهم في النضال من أجل الحرية والاستقلال، ويتجلى هذا بشكل خاص في حماس أصغر الأبطال سنا، وتصميمهم على الانضمام لصفوف الثورة مهما كانت الصعوبات، ومهما كلفهم الأمر، مثل حسيبة، وبشير، وتوفيق، فقد حاول كل واحد منهم أن يبرهن بطريقته الخاصة على أنه غير قاصر على القيام بالمهمات نفسها التي يقوم بها الراشدون. تقول حسيبة، ابنة الأربعة عشر ربيعا، لمن بلغها عدم استجابة القيادة لطلبها الالتحاق بالثورة لصغر سنها: ((الثورة للجميع، الكبار مثل الصغار، وأنا أريد أن أعطي دمي للثورة))[1066].

1066 « Les enfants du nouveau monde », p235.

وظلت طوال عامين بعد ذلك تعد الأيام، وتنتظر في صبر بلوغ السن التي يسمح لها فيها بالالتحاق بالجبل، وأثناء ذلك راحت تتعلم مهنة التمريض، حتى تكون جاهزة للمهمة حينما تأتي الفرصة. وإلى آخر لحظة كانت إرادتها محل اختبار، حيث حذرها المسؤول من قسوة الحياة في الجبل، والتنقل باستمرار ليلا وعلى الأقدام، فأجابته في تصميم: ((أستطيع أن أمشي ولو حافية القدمين إذا لزم الأمر.. وأريد أن أصحب المقاتلين.. أريد أن أعاني معهم ليلا ونهارا..))[1067].

وفي طريقها إلى الجبل كانت حريصة على أن لا تمشي في آخر القافلة، حتى لا يظن بها التعب، كما كانت تبذل جهدا كبيرا لإخفاء الانزعاج الذي كانت تحس به بسبب الحذاء المطاطي الذي أعطي لها لتلبسه بدل حذاء الكعب العالي. وكانت سعيدة بكل ما تلقاه، فالمهم بالنسبة إليها أنها حققت مثلها الأعلى في أن تلتحق بالجبل، وأن تصبح في عداد المجاهدات في سبيل تحرير الوطن.

ويتكرر مثل هذا الحماس مع الطالب الثانوي بشير، ابن السابعة عشر، الذي تحمس بدوره للالتحاق بالعمل الفدائي، مضحيا بمستقبله الزاهر الذي كان والده يعده له، نظرا لتفوقه في الدراسة على كل أقرانه. إن كل ذلك مهم، كما أوضح لرفيقه الذي جاء يختبر مدى جديته في الالتحاق بالعمل الفدائي، لكنه ليس أهم من تحرير الوطن:

1067 Ibid p235.

((ماذا تعني الدروس وما يتبعها بالنسبة إليه ؟ لاشيء.. إنني أريد أن أفعل كالآخرين ، كالإخوة ". وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها كلام المناضلين، فعلت وجهه بعض الحمرة ، آملا أن لا يكون الآخر قد تنبه إليه))[1068].

ولم تكن مغامرة الشاب توفيق في هذا الصدد تختلف في شيء عن مغامرة حسيبة وبشير في حماسهما، وفي نظرتهما الرومنتيكية إلى العمل الثوري، لولا أن الدراما الرومنتكية التي كان هو بطلها قد انحرفت عن مسارها الذي كان يفترض أن تسير فيه، وتحولت إلى مأساة أسرية دامية فقد فكر توفيق أن سبب رفض طلبه للالتحاق بصفوف الثورة لا يعود إلى صغر سنه كما قيل له، ولكنه يعود إلى السلوك الأخلاقي السيء لأخته "تومة"، وتعاونها مع الشرطة الاستعمارية ، وهذا ما جعل شعوره بالإحباط يتحول إلى غضب وحقد على أخته ، فيهددها بالقتل، إن لم تغير سلوكها، وتقطع علاقتها بالشرطة، ولأن أخته لم تأخذ تهديده لها مأخذ الجد، فقد أقدم على قتلها بالفعل[1069].

وعلى العموم، يبدو أبطال وبطلات رواية آسيا جبار أكثر اقتناعا بالنضال الثوري ضد الاستعمار، وأكثر حماسا واستعدادا للقيام به، ومع ذلك فإن الخطاب الذي يدور على ألسنتهم أبعد ما يكون عن الخطاب الأيديولوجي، حتى بالنسبة لمن لهم أقدمية في النضال الوطني، وارتبطوا بالحركة الوطنية، وبالتنظيمات الحزبية والطلابية التي سبقت الثورة، مثل يوسف، المسؤول

1068 « Les enfants du nouveau monde »,, p201.
1069 Ibid p241

السياسي للعمل الثوري داخل المدينة، الذي كان قد حكم عليه من قبل بالسجن لمدة عشرين عاما لمشاركته في مظاهرات مايو 1945، واستفاد بعد سنة من سجنه بصدور عفو عام عن المساجين السياسيين[1070]، وكذلك الأمر بالنسبة لعلي، طالب كلية الطب، الذي كان يقود الحركة الطلابية في الجامعة، قبل أن يلتحق بالمقاتلين في الجبل، بعد صدور نداء جبهة التحرير في 19 مايو 1956.

ونعود من جديد لنطرح السؤال: إلى أي سبب نرى الكتاب يلحون على تصوير انحياز أبطالهم إلى الثورة على أساس الانتماء، ويتجنبون طرح المسألة على أساس أيديولوجي نضالي، نابع من القناعة بمبادئ الثورة، كما نصت عليها مواثيقها الأساسية على الأقل، كبيان أول نوفمبر، أو مؤتمر الصومام أو ميثاق طرابلس على سبيل المثال؟ والمقصود هنا، بالطبع، روح تلك المواثيق لا نصوصها الحرفية، لأن الفن، أي فن، لا يقبل بطبيعته أن يتحول إلى مناشير سياسية.

والظاهر أن تفسير هذا الفراغ الأيديولوجي - إن صح التعبير - لا يعود إلى علة فنية تستوجبها النصوص الروائية ولكن يعود إلى عوامل خارجة عن النصوص في حد ذاتها، اقتضتها الظروف المتعلقة باستراتيجية الخطاب، وأهمها - حسب رأينا - أن الكتّاب الجزائريين كانوا في هذه الفترة يتوجهون بأعمالهم الإبداعية إلى القارئ الفرنسي في المقام الأول، أو - بتعبير آخر - إلى الرأي العام الفرنسي، وبعد ذلك إلى الرأي العام الدولي، ومن ثمة، كان هؤلاء

1070 Ibid, p190.

الكتاب يراعون ـ فيما يبدو ـ مشاعر ذلك القارئ، ويكيفون خطابهم حسب مقتضى الحال، كما تقول القاعدة البلاغية الشهيرة، وبناء على ذلك، وحرصا منهم على كسب ذلك الرأي العام إلى صفهم، كانوا يتفادون الظهور بمظهر المؤيد للثورة بشكل سافر، وعلى أساس أيديولوجي، ويحاولون، عوضا عن ذلك، أن يعزفوا على نغم القيم الإنسانية، ويقدموا مبررات "موضوعية" لأسباب الثورة، ويحمِّلوا السياسة الاستعمارية القمعية مسؤولية ما يحدث.

* * *

ـ حوصلة عامة

خلاصة القول أن المتأمل في نصوص المدونة يلاحظ أن الخطاب الروائي كان يحاول أن يظهر في الغالب بمظهر محايد، فيصور بدقة ما كان يجري على أرض الواقع من جو الرعب الذي كان يسود الحياة اليومية في الجزائر، وكان يركز على وصف العمليات الواسعة التي كانت تقوم بها قوات الشرطة والجيش الفرنسي ضد المدنيين الجزائريين العزل، من تفتيش، واعتقال، ومداهمات للبيوت ليلا ونهارا، وفرض حظر التجول، وإقامة المحتشدات، وممارسة التعذيب لانتزاع الاعتراف من المتهمين، وما إلى ذلك من أنواع القمع والترهيب . هذا بالنسبة لما كان يحدث في المدن، أما في القرى والأرياف، فقد كان جو الرعب فيها يتخذ مظهرا آخر حيث تقوم القوات الفرنسية بقنبلة القرى بالطائرات والمدفعية الثقيلة، وتهدم البيوت على رؤوس ساكنيها، وتتلف الزرع، وتقتل الضرع والدواب التي يعتمد عليها الفلاحون في حياتهم اليومية، وبالطبع

لا يسلم البشر أنفسهم من القتل إذا تمكنت تلك القوات من القبض عليهم، وهذا ما حاول الروائيون نقله للرأي العام بكل عناية.

والواقع أن هذا الوصف الذي يبدو محايدا في الظاهر، هو في حقيقته غير محايد أبدا ، فالتركيز على وصف عمليات القمع التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية ضد المدنيين العزل، يحمل في ثناياه إدانة ضمنية لتلك الممارسات، ويشير بإصبع الاتهام إلى المتسبب الحقيقي في جو الرعب الذي كان يسود الجزائر في تلك الحقبة ، فإذا تعلق الأمر بالهجمات المسلحة التي كان يقوم بها الثوار، فإن الخطاب يحاول أن يقلل من أهميتها، ويقدمها غالبا في شكل أعمال تخريبية، وحرق لبعض ممتلكات المستوطنين، ولا يصفها تلك الهجمات بأية أوصاف مادحة أو قادحة ، وتبعا لذلك لم يكن يدخل أيا من تلك الشعارات التي كانت ترفعها الثورة، وتستند إليها في إضفاء المشروعية على الكفاح المسلح، كحق الشعوب المستضعفة في تقرير مصيرها مثلا ، أو حقها في الحرية والاستقلال، وحقها في السيادة على أرضها ، إلى غير ذلك.

ومن هنا نرى أن الخطاب الروائي كان يحاول أن يقوم بدور إعلامي يهدف إلى تعريف القارئ بحقيقة ما يجري في الجزائر، ويحسِّسه بفداحة المشكلة ، ويدفع به إلى اتخاذ موقف فاعل ومؤثر على مجريات الأحداث من أجل إيقاف دوامة العنف، وإيجاد تسوية سلمية للأزمة ، تحقن الدماء، وتحفظ على الناس حياتهم وممتلكاتهم.

ولأن القارئ الذي يتوجه إليه الكتّاب بخطابهم هو أساسا القارئ الفرنسي، فإن ذلك كان يدفع بهم إلى مراعاة مشاعره، وهذا ما جعلهم - في نظرنا - يقتصرون على مخاطبة المشاعر الإنسانية فيه، بعيدا عن أية شعارات أخرى أيديولوجية ثورية، خشية أن تأتي بنتيجة عكسية، لا سيما بالنسبة للقارئ العادي الذي قد تثير فيه مشاعر العداء للثورة، والتضامن القومي مع أبناء جلدته من المستوطنين. وقد ظل هذا هو الخطاب السائد الأعمال الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية طيلة فترة الثورة المسلحة، ولم تخرج عن هذا الإطار لتعبر عن قيم الثورة وشعاراتها التي أشرنا إليها أعلاه، إلا نادرا، وبشكل خجول*.

(انتهى)

---

* ربما تمثل أعمال مالك حداد مثل هذا الاستثناء، وهذا ما يفسر إقدام السلطات العسكرية على منع روايته "الانطباع الأخير" من التداول في الجزائر عند صدورها سنة 1958. وقد عرفت الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر تحولا جذريا في خطابها بعد الاستقلال، فانصرف كتابها، من مخضرمين وجدد. تحت تأثير الواقع السياسي الجديد. في اتجاهين رئيسيين: اتجاه يمجد بطولات الثوار وينساق إلى نوع من المبالغات والتهويل في تصوير تلك البطولات، وهذا ينطبق على معظم ما كان ينشر في الجزائر، وهو الشيء الذي كان يرضي السلطة آنذاك ويلتقي مع توجهها العام، واتجاه تبنّى أفكار المعارضة وراح يترصد أخطاء السلطة وينتقد سياستها، ويتهمها باستغلال إرث الثورة لتدعيم نظامها، وبخيانة تضحيات الشعب، وينطبق هذا على ما كان ينشر في الخارج بصفة عامة، وكانت لكلا الاتجاهين دوافع غير موضوعية، مرة بغرض تملق السلطة والتقرب إليها، ومرة لانتقادها وكشف عيوبها، ولهذا. وتوخيا منا للموضوعية. رأينا أن نفصل بين ما كتب عن الثورة أثناء الثورة، وبين ما كتب بعد الاستقلال.



الخاتمة

من جملة الأسئلة التي طرحناها في أول هذا البحث عن موضوع هوية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ نشأته إلى يومنا هذا، ومن خلال استعراضنا لظروف تلك النشأة، والمواضيع التي عالجها، ومناقشتنا لمختلف الإشكالات التي طرحها هو في ذاته، أو تطرح بشأنه، ولاسيما ما تعلق منها بلغته، ومن ثمة بهويته الثقافية والحضارية، وبعد وقوفنا على الكثير من آثاره، وتحليلنا للعديد من نصوصه الروائية، في مختلف مراحله، توصلنا إلى النتائج التالية:

أولا:

لقد جاء ميلاد هذا الأدب بعد تسعين عاما من حرب شاملة شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري أرضا، ووجودا، ومقومات روحية ومادية، وانطلاقا من هذه الحقيقة التاريخية فإن هذا الأدب قد حملته أمه كرها، ووضعته كرها، ولم يأت نتيجة احتكاك حضاري مؤثر، ولا نتيجة تبادل ثقافي مثمر. ومن هنا فقد جاء منذ اللحظة التي ولد فيها يحمل سؤال وجوده، ويطرح إشكالية هويته.

ثانيا:

وكما كان حمله كرها، وولادته عسيرة، فقد كانت حياته في مختلف مراحلها صعبة، تعكس أزمة هوية حادة، عبرت عنها موضوعاته الكبرى،

ممثلة في موضوع الآفات الاجتماعية، ولاسيما آفة الخمر، التي عالجها في عقد العشرينيات، باعتبار الخمر رمزا للقيم الدخيلة التي أتى بها المستعمر معه وقلبت المفاهيم والموازين في أعين الجزائريين، بحيث جعلت المحرم شرعا مباحا قانونا، وممثلة في مسألة الاندماج المستحيل، في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات، الذي كان مرفوضا من الطرفين: المستعمَر والمستعمِر على السواء، لعمق الخلاف والاختلاف بينهما، ولتضارب مصالحهما وتناقضها، وممثلة أخيرا في مواضيع مخلفات الحرب العالمية الثانية وآثارها الاجتماعية المدمرة على مختلف فئات الشعب الجزائري، في الريف وفي المدينة، وممثلة أخيرا في مواضيع حرب التحرير، وهي المواضيع التي بددت الأوهام، وكشفت كل أنواع الزيف الذي كان يمنع النظر من رؤية الحقائق واضحة، بحيث أظهرت أن لا مفر من تصحيح الأوضاع بشكل جذري ونهائي.

ثالثا:

مع بداية الاستقلال طرحت تساؤلات أساسية عن هوية هذا الأدب، وعن مستقبله في الجزائر، وهل يمكن له أن يضطلع بدور ثقافي اجتماعي مفيد بعد أن استعادت البلاد حريتها وسيادتها؟ وتدخلت أطراف عديدة في النقاش، ووقع خلاف حاد، على المستوى النظري بين المؤيدين والمعارضين لقيام وجدوى مثل هذا الدور، وترجم الخلاف على المستوى العملي إلى صمت طويل بالنسبة لمعظم الكتاب المخضرمين، فلم يكتبوا شيئا على مدى سنين طويلة، وهو الصمت الذي عبر عن وجود أزمة فكرية ونفسية عميقة لدى هؤلاء الكتاب.

رابعا:

ظهر جيل جديد من الكتّاب بعد الاستقلال لم يتساءل كثيرا عن جدوى الاستمرار في الكتابة باللغة الفرنسية، معتبرا الفرنسية"غنيمة حرب" أكثر من اعتبارها موروثا استعماريا فرض نفسه ذات يوم بالقوة على حساب لغة أهل البلد وثقافتهم. وقد تكرس الإنتاج الأدبي لهؤلاء الكتاب على الساحة الثقافية الجزائرية، كواقع لا يمكن نكرانه، سواء من حيث الكم، أو من حيث مستواه الرفيع في بعض الأحيان، كما تكرست تسميته"الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية" أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي" عن طريق الاستعمال اليومي لهذه التسمية في وسائل الإعلام.

إلا أنه، ومهما يكن من أمر، فإن تكريس التسمية كواقع يومي، أو استمرار كتّاب جزائريين في الكتابة بالفرنسية، لا ينفي الإشكالات التي يطرحها هذا الأدب، ولا يلغي وجود أزمة حقيقية تتعلق بهويته وتطرح التساؤلات العديدة عن مستقبله، وهذا ما حاولنا أن نبحث فيه، وأن نجيب عن بعض التساؤلات التي يطرحها. في الوقت نفسه، نعد ما بحثنا فيه، وما توصلنا إليه في هذا الموضوع، مجرد بداية لنقاش أعمق، ولبحث أشمل، ولنتائج أكثر أهمية.

* * *

أهم مراجع البحث

- أبو القاسم سعد الله "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية.ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1983.

- "تجارب في الأدب والرحلة"المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1983.

- أحمد بن نعمان"السمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنتروبولوجيا النفسية"،

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.

- أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" نشر دار الكتاب، البليدة (الجزائر)، 1963.

- "الأدب المقارن عند العرب ، المصطلح والمنهج"، أعمال الملتقى الأول للمقارنين العرب الذي نظمه معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة 12/8 جويلية 1984، نشر ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1991 .

- جمال قنان "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر"المؤسسة الجزائرية للطباعة 1987.

- حمدان بن عثمان خوجة "المرآة"، تعريب وتحقيق وتقديم د. العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975.

- خديجة بقطاش"الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 ـ 1871".مطبوعات دحلب. الجزائر 1992.

- رينيه ويليك "مفاهيم نقدية"، "عالم المعرفة" الكويت، ترجمة د.محمد عصفور1987.

- ساطع الحصري "حول الوحدة الثقافية العربية".مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة "التراث القومي"، ط2، بيروت 1985.

- سعاد محمد خضر"الأدب الجزائري المعاصر" المكتبة العصرية، صيدا/بيروت 1967.

- صالح عباد "المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر (1870 ـ 1900)". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.

- الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال"."موفم" للنشر1993.

- عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري 1925ـ1967" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

- عبد القادر جغلول"تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية". ترجمة فيصل عباس. دار الحداثة. ط2، بيروت 1982.

- عبد الله ركيبي"القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1969.

- عبد الله ركيبي"الفرانكوفونية مشرقا ومغربا"، دار الرواد للنشر والتوزيع. بيروت 1992. ط.2. دار الأمة. الجزائر 1993.

- عمار بوحوش"العمال الجزائريون في فرنسا". الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1975 .

- محمد غنيمي هلال"الأدب المقارن" دار العودة. بيروت 1983.

- محمد الميلي"فرانتز فانون والثورة الجزائرية ". الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر 1973.

- مصطفى الأشرف"الجزائر الأمة والمجتمع". ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

- مولود قاسم نايت بلقاسم" أصالية أم انفصالية". المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991.

- نور سلمان "الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر". دار العلم للملايين. بيروت 1981.

- يحي بوعزيز "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين"، منشورات"المتحف

الوطني للمجاهد" ط2، الجزائر 1996.

روايات مترجمة:

- مالك حداد "التلميذ والدرس" ترجمة سامي الجندي، دار الطليعة. بيروت 1962.

- مالك حداد "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" ترجمة حنفي بن عيسى، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر 1965.

- محمد ديب "الدار الكبيرة، الحريق، النول"، ترجمته د. سامي الدروبي، دار الطليعة بيروت 1968.

- ياسين كاتب"نجمة" ترجمة محمد قوبعة . ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987.

مسرحيات مترجمة:

- ياسين كاتب ،"الجثة المطوقة" و"الأجداد يزدادون ضراوة" ترجمة ملك أبيض العيسى، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشرط2، بيروت 1979.

القواميس والموسوعات:

- "الموسوعة الفلسفية"، بإشراف م.روزنتال، و ب.يادين. ترجمة سمير كرم، دار الطليعة. ط4 بيروت 1981.

الدوريات:

- "التراث" تصدرها جمعية التاريخ والتراث الأثري،ع 5، 1992 باتنة، الجزائر.

- "الثقافة" العدد 102، 1989 الجزائر.

- "قضايا عربية" تصدرها المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ع2 (خاص بالوحدة العربية) ، حزيران - يونيو 1979، بيروت/لبنان.

- "الكلمة" تصدرها "جمعية الدفاع عن اللغة العربية".ع 4،يناير 1993، الجزائر.

رسائل جامعية:

- أحمد منور"مسرح أحمد رضا حوحو"، رسالة ماجستير، نوقشت بمعهد الآداب، جامعة الجزائر 1990.

- محمد أمين الزاوي "الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية" رسالة ماجستير نوقشت بكلية الآداب، جامعة دمشق 1984.

* * *

Bibliographie

أهم المراجع بالفرنسية :

- Abdelghani Megherbi « La Paysannerie algérienne face à la colonisation » E.N.A.P. Alger 1973.

- Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". Ed. F. Maspéro. Paris 1968.

-Ahmed Lansari « Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente », O.P.U Alger 1986, pp42-43.

- Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien » in « De la décolonisation à la révolution culturelle » S.N.ED Alger 1973 .

- L'Amicale des anciens instituteurs et instructeurs d'Algérie et Le Cercle algerianiste « Les enseignants d'Algérie se souviennent.. » Ed. Privat 1981.

- Albert Memmi « Portrait du colonisé » , Ed. Jean Jacques Pauvert Utrecht, 1966 .

- Amar Belkhodja « Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien » , Ed. Dahlab. Alger 1991.

- Arlette Roth "Le théâtre algérien". Ed/ François Maspéro. Paris 1967.

- Bouba Mohammedi - Tabti « La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature , lecture de quelques romans » O.P.U , Alger 1986.

Charles Robert Ageron "Histoire de l'Algérie contemporaine. Coll Que-sais-je, n°400. P.U.F 1964.

- Christiane Achour , "Abécédaires en devenir, idéologie coloniale et langue française en Algérie". Ed. Enap. Alger 1985.

- Claude Pichois et A.M. Rousseau « La littérature comparée » Armand Colin. Coll. U2 Paris 1971.

- Daniel Reig « Homo Orientaliste, la langue arabe en France depuis le 19è siecle » , Ed.Maisonneuve et la Rose, ColL. Islam et Occident, Paris 1988.

- FadhilaYahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. » Ed. ENAL-Gam Alger-Bruxelles. 1985.

- Ferhat Abbas " De la Colonie vers la Provence : Le jeun algérien" , Ed. Garnier Frères , Paris 1981 .

- Francis et Colette Jeanson "L'Agérie hors la loi" E.NAG. Alger1993.

- Frantz Fanon « Les damnés de la terre » E.N.AG , Alger 1987

- Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française". Ed. Oswald. Paris 1976.

- Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine » Coll. Que-sais-je , P.U.F Paris 1975.

- Jean Déjeux «Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945- 1977 » S.N.E.D Alger 1979.

- Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française » O.P.U Alger 1982 .

- Mahfoud Kaddache "L'Algérie durant la période Ottomane". O.P.U , Alger 1992 .

- Marius-François Guyard « La littérature comparée » Coll. Que-sais-je, P.U.F Paris 1978.

- Mohamed Cherif Sahli « Décoloniser l'histoire: Introduction à l'histoire du Maghreb » Ed. F.Maspéro, Paris 1965.

- Mohamed Ismaïl Abdoun « Kateb Yacine »,Coll.Classiques du monde , S.N.E.D, Nathan Alger-Paris1983.

- Rabah Belamri« L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» O.P.U. Alger 1980.

- Saad Eddine Benchneb , préface des « Memoires » de M. Bachetarzi, , S.N.E.D Alger 1968.

- Seddik Taouti « Les déportés algériens en Nouvelles Calédonie » Dar El-Oumma , 2è édition ,Alger 1997.

- Yvonne Turin, « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale écoles, médecines, religion, 1830-1880 » E.N.A.L., Alger 1983.

ANTHOLOGIES المختارات

- Albert Memmi (Sous la direction de) « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963.

- Albert Mémmi, (Sous la direction de) « Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française », Ed. Présence Africaine, 2ème édition. Paris 1965.

- Albert Memmi (sous la direction de) « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963.

- Christiane Achour « Anthologie de la littérature algérienne de langue française »E.N.A.P , Alger,Bordas Paris 1990.

Essais :المقالات

- Malek Haddad « Les zéros tournent en rond » (essais) Ed. F. Maspéro, Paris 1961 .

- Malek Haddad «La libérté et le drame de l'expression chez les écrivains algériens » Ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas , Juin 1961.

- Mouloud Mammeri «Culture savante, culture vécue» Ed. Tala, Alger 1991.

Romans   الروايات

- Albert Camus « L'étranger » Ed. Gallimard , Coll. (Le livre de Poche) , Paris 1957 .

- Assia Djebar « Les enfants du nouveau monde », Ed. Julliard , Paris 1962. Réédité. Coll. 10-18.

- Chukri Khodja « Mamoun , l'ébauche d'un idéal »Ed. Radot , Paris 1928, Réédité par l'O.P.U. Coll. Textes anciens. Alger 1992 .

- Chukri Khodja , « El-Euldj, captif des barbarèsque »Ed.I.N.S.A.P, Réédité par l'O.P.U. Coll. Textes anciens. Alger 1992.

- Hadj Hamou Abdelkader « Zohra , la femme du mineur » , Ed. du Monde Moderne. (Aux Editeurs Associers). Paris 1925.

- Kateb Yacine « Nedjma » ,Ed. du Seuil , Paris 1956 .

- Kateb Yacine «Le polygone étoilé » Ed. du Seuil, Paris 1966.

- Malek Ben Nabi « Lebbeik » , Ed . Enahdha Alger 1948 .

- Malek Haddad « La dernière impression » , Ed. Julliard, Paris 1958, reédité aux editions Bouchene, Alger 1989 .

- Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus » Ed. Julliard , Paris 1961 . Réédité : Coll. 10-18.

- Malek Haddad « L'élève et la leçon » , Ed. Julliard , Paris 1960 . Réédité : Coll. 10-18.

- Mohamed Dib « La grande maison », Seuil, Paris 1952 .

- Mohamed Dib « L'incedie », Seuil, Paris 1954 .

- Mohamed Dib « Le métier à tisser », Seuil, Paris 1957 .

- Mohamed Dib « Un été africain » , Seuil , Paris 1959 .

- Mohamed Dib « Qui se souvient de la mer » , Seuil , Paris 1962 .

- Mohamed Dib « Le sommeil d'Eve » , Ed. Sindbad , Paris 1989 .

- Mohammed Ould Cheikh « Myriem dans les palmes »,

- M.K. Bougurra « La première mort de Hussein - Dey » Ed. E.N.A.P. Alger 1990 .

- Mouloud Mammeri « Le sommeil du juste » , Plon . Paris 1955 .

- Mouloud Mammeri « L'opium et le bâton », Plon, Paris 1965. Réédité: Coll. 10-18 . Paris 1965 .

- Rachid Mimouni « Le fleuve détourné »Ed. P. Laffon Paris.1982 .

- Rachid Mimouni « Tombéza » P. Laffont , Paris 1984 .

- Rachid Mimouni « L'honneur de la tribu » Ed.P. Laffont, Paris 1989 . Réédité aux éditions Laphomic, Alger 1990.

- Tahar Djaout. « L'invention du désert ». Ed. du seuil. Paris 1987.

Recueils de nouvelles مجموعات قصص

- Kaddour M'hamsadji «Fleurs de Novembre »S.N.E.D Alger1969.
- Mohamed Dib « Au Café », Gallimard , Paris 1956 .
- Mohamed Dib « Le Talisman » Ed. du Seuil, Paris 1966 .
- Mouloud Achour « Héloitropes » S.N.E.D Alger 1973 .
- Mouloud Achour «Les dernières vendanges» S.N.E.D Alger1975.
- Rachid Mimouni «La ceinture de l'Ogress» Ed. Seghers,Paris 1990 Laphomic. Alger 1990 .

* * *

Théâtre مسرح

- Assia Djebar et Walid Garn «Rouge l'aube» S.N.E.D Alger1969.
- Hocine Bouzaher "Voix dans la Casbah" , Maspéro 1960.
- Kateb Yacine « Le cercle des représailles », Seuil, Paris 1959 .
- Kateb Yacine «L'homme aux sandales de caoutchouc» Seuil, Paris 1970.
- Mohamed Boudia « Naissance » suivie de «L'olivier» Ed. La Cité, Lausanne1962 .

Poésie   شعر

- Malek Haddad «Le malheur en danger» La Nef de Paris, 1956 .

- Malek Haddad « Ecoute et je t'appelle » Ed. Maspéro, Paris 1961

* * *

Entretiens   أحاويث

- Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », (Entretien) Coll. Voix Multiples. Laphomic. Alger 1986.

- Entretiens avec Mohamed Dib: Radio France Culture, diffusés en Mois de Mai 1977.

* * *

Dictionnaires et Encyclopédies   القواميس والموسوعات:

- « Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », Jean Déjeux. Ed. Karthala,Paris1979.

- « Encyclopédia Universalis » , France 1975 .

- « Mémoire algérienne: dictionnaire biographique » de Achour Chorfi , Ed. Dahlab . Alger 1996, p135 .

- « Petit Larousse en couleur » . Edition 1984 .

- « Petit Robert 1». Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française . Ed. 1984 .

* * *

Piodiqueser الدوريات بالفرنسية

« Révolution Africaine », (Hébdomadaire) N°s:45,46,47,48,49,50 et 57 du 7-14-21-28 Décembre1963 et du 4-11-29/64, Algérie .

- « Les Temps modernes », (Monsuelle) N°209, Octobre 1963 , France .

- « El-Moudjahid » (Quotidien) n°s 157 du 7/12/63 - 160 du 28/01/64. Algérie .

- «Les Nouvelles littéraires » (France) du 13 Octobre 1960.

***



فهرس المحتوى

• الفصل الرابع

الخمرة طريق لضياع الدنيا والدين

*الفصل الخامس

الهوية الهجينة والاندماج المستحيل

*الفصل السادس

من وعي الذات إلى التمرد

ثلاثية محمد ديب: الدار الكبيرة ، الحريق ، النول

*الفصل السابع

من التمرد إلى الثورة

المؤلف في سطور

د. أحمد منور

- كاتب قصة ومسرح ومترجم
- أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر
- مختص في الأدب الجزائري المكتوب باللغتين العربية والفرنسية.

• من أعماله المنشورة :

• في الدراسات :

- الأدب الجزائري باللسان الفرنسي.
- ملامح أدبية.. دراسات في الرواية الجزائرية.
- مسرح الفرجة والنضال في الجزائر.
- ثقافة الأزمة.. مقالات في الراهن الجزائري.

• في القصة :

- الصداع.
- لحن إفريقي.
- زمن الحب، زمن الموت.

• في الترجمة إلى العربية :

- شروق المسرح الجزائري، للمسرحي الجزائري علالو.
- الأغنية الحزينة " شعر آيت جعفر".
- الشاب الجزائري، مقالات سياسية لفرحات عباس.

- مأساة الملك كريستوف، مسرحية للشاعر إيمي سيزير.

- ليل الأصول، رواية لنورالدين سعدي.

- **في الترجمة إلى الفرنسية :**

L'honorable Conseiller.

- **في الكتابة للفتيان والأطفال :**

- السباق الكبير (مسرحية) 1994.

- البحيرة العظمى (رواية للفتيان) 1998

- بركات لالة ستي، (رواية تاريخية) للفتيان 2010

- بائعة الخبز (رواية للفتيان) تحت الطبع.

- سارق الشمس (مسرحية).

- له أبحاث ودراسات منشورة في الدوريات الجزائرية والعربية ومشاركات في مؤتمرات وطنية وعربية.











هذا الكتاب



من هذه الاعتبارات الذاتية والموضوعية اخترت بحثي هذا، الذي أعطيته عنوان"أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية"، هذا العنوان الذي يطرح في حد ذاته إشكالية لم ينتهِ النقاش فيها بعد إلى شيءٍ، ولاسيما في جزئه الأخير، إذ هناك من ينكر على هذا الأدب جزائريّته ويعده بسبب لغته أدبًا فرنسيا، وهناك في المقابل من يعده، بسبب"الرُوح" التي كتب بها أدبًا جزائريًا خالصًا لا مجال للطعن فيه، ولكل فريق حُججه وأسانِيده التي سنتعرض إليها في ثنايا البحث.

والواقع أنني لم أهتم كثيرا، وأنا أعدّ هذا البحث، أن أثبت أو أنفي عنه هذه الصفة أو تلك، وإنما كان همّي تَتبّع تاريخه، والإحاطة بمختلف مراحله، والتعمق في مضامينه، ومساءلة نصوصه بشكل مباشر، دون وسيط، ولا شارح، ولا مؤول. إلا أن هذا لا يعني أنني استغنيت عن جهود الباحثين فيه، أو أهملت آراء الدارسين له، مهما كانت متواضعة، ويكفي إلقاء نظرة على هوامش البحث، ثم على قائمة المراجع الكثيرة التي أثبت أهمها في الأخير، للتأكد من ذلك، وإنما يعني أنني أعطيت الأولوية للنصوص الأصلية، أقرأها وأعيدُ قراءتها المرة بعد المرة، وأجتهد في فهمها، وفي استخلاص النتائج منها. وربما يجدني القارئ، بسبب ذلك، مبالغًا أحيانًا في حرصي على نقل فكر أصحاب تلك النصوص، وفي الاستشهاد بها.

المؤلف - من المقدمة

العنوان : التعاونية العقارية 17 أكتوبر 61 عيسات مصطفى - الرغاية - الجزائر
الهاتف : 0661563108
TEL . FAX 021859366
Email: editionsahel@hotmail.fr

Dépôt légal: 2020-2013

9789947973257



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة بمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال